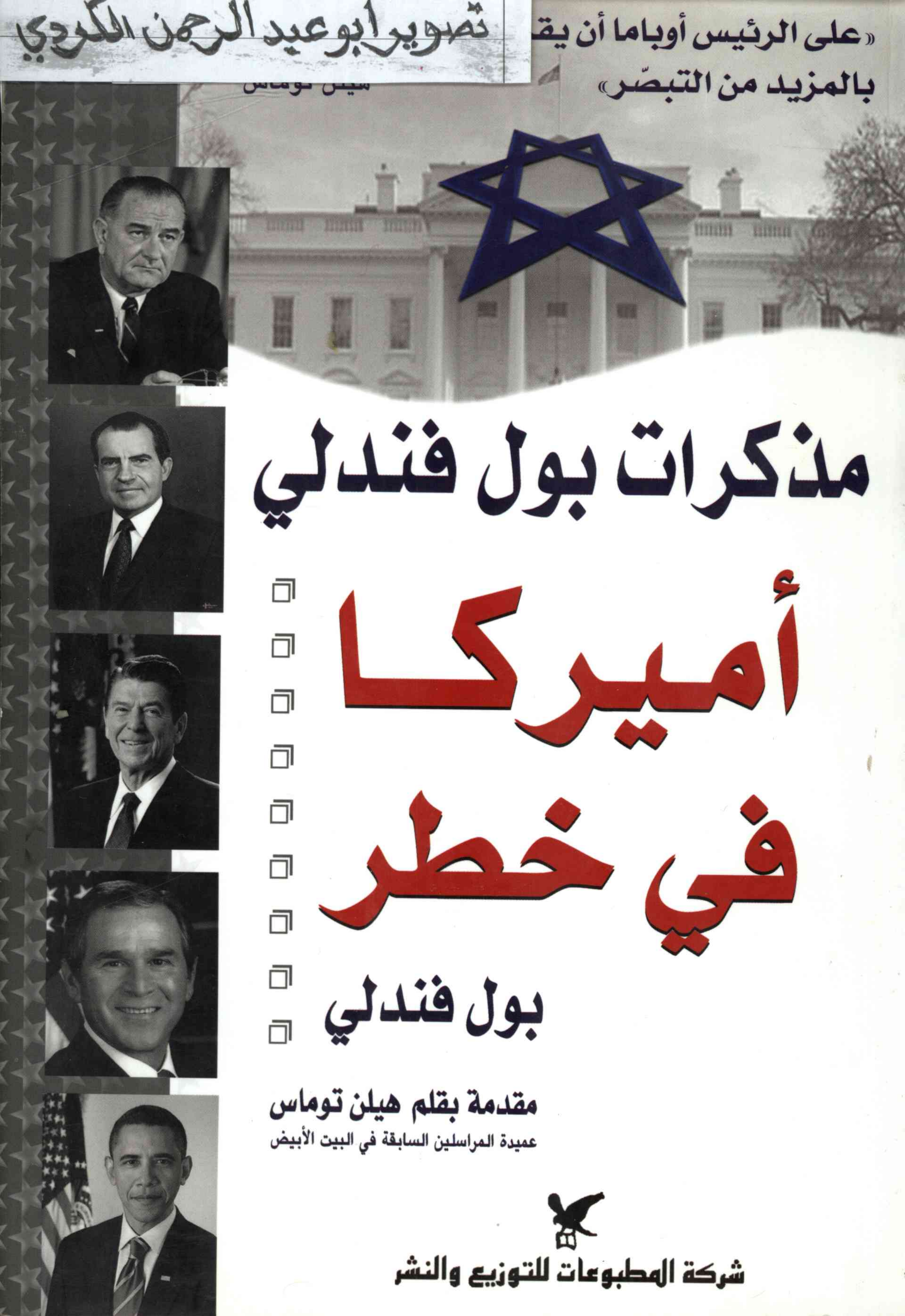


مذكرات بول فندلي

أميركا في خطر

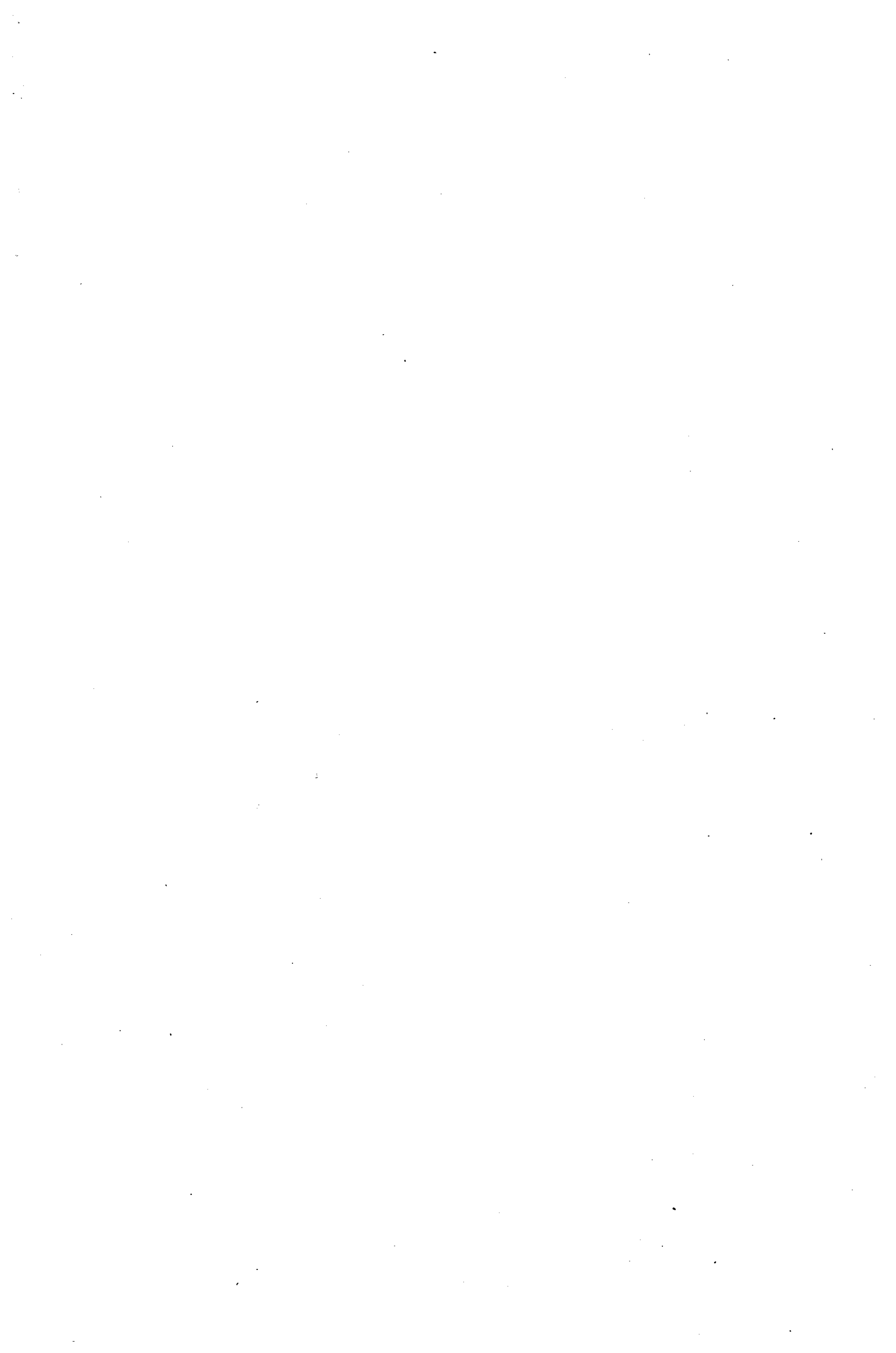
بول فندلي

مقدمة بقلم هيلن توماس
عميدة المراسلين السابقة في البيت الأبيض

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

أميـركا في خطـر

مذكرات بول فندلي



بول فندلي

أميركا في خطر

مذكرات بول فندلي

مؤلف:

من يجرؤ على الكلام

الخداع

لا سكوت بعد اليوم



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

شارع جان دارك ـ بناية الوهاد
ص. ب.: ٨٣٧٥ ـ بيروت لبنان
تلفون: ٣٥٠٧٢٢ ـ ٧٥٠٨٧٢ ـ ٣٤٤٢٣٦ ١ ٩٦١+
تلفون + فاكس: ٣٤١٩٠٧ ـ ٣٤٢٠٠٥ ـ ٣٥٣٠٠٠ ١ ٩٦١+
email: tradebooks@all-prints.com
website: www.all-prints.com

الطبعة الأولى ٢٠١١
ISBN: 978-9953-88-502-5
Originally Publisherd as: **Speaking Out.**
© Paul Findley.

ترجمة: أنطوان باسيل
تدقيق لغوي: حبيب يونس
تصميم الغلاف: ريتا كلزي
الإخراج الفني: فدوى قطيش

المحتويات

المقدّمة

بقلم هيلن توماس، عميدة المراسلين السابقة في البيت الأبيض

هذا الكتاب، الذي وضعه النائب السابق بول فندلي، الجمهوري عن إيلينويز، كناية عن سيرة ذاتية، كاشفة وفاتنة، لسياسي مخضرم أمضى **٢٢** سنة في تلّة الكابيتول يصف فيها الأمور كما يراها - صورة من صور الشجاعة الحقّ.

تميّز فندلي بأنه واحد من أعضاء قليلين في الكونغرس ممن توافرت لهم الشجاعة في لقاء الزعيم الفلسطيني الراحل ياسر عرفات مراتٍ عدة، والإعراب عن تعاطفه مع محنة الفلسطينيين وعن انزعاجه من المساعدة التي تقدّمها الولايات المتحدة إلى «إسرائيل التي تنتهك القانون لتدمير قومية بأكملها».

وفي «من يجرؤ على الكلام»(*)، يختلف المؤلف بقوة مع الحكومة الأميركية التي تحاول أداء دور شرطي العالم، ويحث على إيجاد اتحاد متعدد الجنسية يتمتّع «بما يكفي من القوة لتطبيق القانون الدولي». ويذكّر الرئيس أوباما بتحذير الرئيس أيزنهاور من «خطر المجمّع الصناعي العسكري»، ويوصي بخفض حاد في موازنة الدفاع. ويكتب أنه، منذ تولّي أوباما السلطة، «ثمة إشارات مقلقة إلى أنه محاط بالجنرالات [و] إلى انه ضُلّل للتوهّم أن هزيمة المتمردين العنيفين ممكنة بالقنابل والصواريخ. وهو، بدلًا من وقف العمليات القتالية الأميركية، يلوّح بسيوف جديدة ويدعو إلى النصر في أفغانستان».

(*) «من يجرؤ على الكلام»، بول فندلي، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر.

ويتوقّع فندلي أن «ينخفض عنف التمرّد سريعًا إذا أوقف قادتنا العمليات القتالية الأميركية... وأنهوا تواطؤنا في الظلم الذي تمارسه إسرائيل على العرب». ويلاحظ أن «التاريخ يبرهن أن التفجيرات الانتحارية تحصل في شكل شبه كامل في بلدان مثل العراق وأفغانستان حيث للقوات الأجنبية اليد الطولى».

إنه الكتاب الثاني الذي يوجه فندلي من خلاله ضربة عنيفة إلى سلطة اللوبي الإسرائيلي في مركز السياسة الخارجية الأميركية - في البيت الأبيض والكونغرس. وهو يلي أطروحته التي شكّلت فتحًا في هذا المجال: يجرؤون على الجهر بالكلام: أناس ومؤسسات يتحدّون اللوبي الإسرائيلي.

وهو يكشف عن المدى الذي أصبحت فيه إسرائيل لا تُمس، حتى بعد محاولتها تدمير سفينة التجسس الأميركية ليبرتي، وطاقمها خلال حرب الأيام الستة في ١٩٦٧ بين إسرائيل والعرب. ويضيف أن الرئيس ليندون ب. جونسون، بإصداره أوامر بوقف عملية الإغاثة التي تقوم بها البحرية وبفرض عملية تغطية على ذنب إسرائيل، «تجاهل القتل، وسوّغ الغدر والارتكاب والخداع». ويشدّد على أن إسرائيل تنتهك تكرارًا قانون مراقبة تصدير الأسلحة الذي يحظر استخدام الأسلحة ذات المصدر الأميركي في غير الدفاع عن النفس.

وأقنعته سلسلة من الأحداث بأن «في خلال نصف قرن من تاريخ الدولة اليهودية، لم توجد قط نية طيبة لدى الرسميين الإسرائيليين حيال الحقوق الإنسانية الفلسطينية ... ولم يريدوا مفاوضات حسنة النية». وكتب أن كل ما أراده الإسرائيليون، بدلًا من ذلك، هو إطالة المفاوضات إلى ما لا نهاية فيما يوسعون مستوطناتهم لاجتياح فلسطين المحتلّة وإلغائها. ولمّا حث فندلي الرئيس رونالد ريغان، في حوار في البيت الابيض، على دعم إنشاء وطن للفلسطينيين، ردّ الرئيس في ذهول: «ولكن إلى أين سيذهبون؟» إذ ليس في الإمكان إيجاد من هو أشد تأييدًا لإسرائيل من ريغان.

ولا يرى فندلي، في ضوء «خنوع» أميركا لإسرائيل، الكثير من الأمل في أن تجبر أميركا إسرائيل في وقت قريب على الموافقة على قيام فلسطين مستقلة قابلة للحياة. وهو يعتقد، من دون أن يحبس أنفاسه، أن الأمل الوحيد في سلام قريب في الأراضي المقدسة يكمن لدى قيادة عازمة مؤلفة من مواطنين حكماء في داخل إسرائيل وفلسطين، تستمد وحيها من القضاء أخيرًا على نظام الفصل العنصري في جنوب افريقيا. «إذا أمكن جمع الأفارقة البيض والزولو السود في مكانة سياسية متساوية، يمكن للإسرائيليين الساميين والعرب الساميين التوصل إلى اتفاق مشابه ودائم. وعلى الطرفين، للقيام بذلك، السيطرة على السياسة العامة وتنظيم برنامج من الاعتراف المتبادل والمسامحة والمصالحة».

بدأ فندلي حياته السياسية في ١٩٦١ عضوًا في الكونغرس، مركّزًا على المشكلات الزراعية في دائرته الانتخابية في ريف إيلينويز. غير أن موقعه كعضو جمهوري رفيع المرتبة في اللجنة الفرعية المختصّة بالشرق الأوسط في لجنة الشؤون الخارجية، فتح عينيه على الصورة الشاملة وعلى التورّط الأميركي. وسرعان ما تعلّم كم سيكلّفه تكوين وجهة نظر مستقلّة والسير في الطريق التي لا يسلكها سوى القلّة ليطّلع بنفسه على الأمور، على رغم الهجوم الدعائي على مفكّر حرّ في تلّة الكابيتول يتنكّر للخط الحزبي. وأصبح فندلي هدفًا رئيسًا للصهاينة الأميركيين الذين نجحوا في هزيمته في ١٩٨٢.

وكتب أن «الوقت حان للكلام الصريح وللعمل الواضح التوجّه. فمجتمعنا يدفع ثمنًا باهظًا للسياسات التي تضاعف الانحرافات الدينية وأعمال الحرب. علينا أن نحرّر أنفسنا من الخوف من إسرائيل ومؤيديها، ونجّد خطواتنا في اتجاه المراتب الاخلاقية الرفيعة التي تنتمي إليها أميركا».

موقف فندلي الشجاع، والذي يكاد، لسوء الحظ، يكون فريدًا من نوعه لسياسي أميركي - على رغم ما تحَمّله «من حجارة وسهام»، بل وحتى تهديدات بالموت - كان يستحق هذا العناء وهو ينعم في التفكير في جهوده التي ألقى من خلالها بوزنه في تلّة الكابيتول في سبيل قضايا نبيلة.

اختير لنيل جائزة لينكولن وعاش على مستوى هذا التكريم العظيم بصفة كونه مدافعًا قويًا عن تشريع الحقوق المدنية. ووقف أيضًا في الجانب الصحيح في معارضته حرب فيتنام وتحدّث معارضًا عندما لوّح الرئيس جونسون بقرار خليج تونكين ليبرر إرسال قوّات برّية لا حدود لها إلى فيتنام.

وعلى الرئيس أوباما ان يقرأ هذا الكتاب ليحظى بالمزيد من التبصّر بالضغوط التي يخضع لها على حساب المصالح الأميركية، والحياة، والثروة. ولم يفت الأوان بعد على التعلّم من النائب فندلي، الرجل صاحب الضمير الحي الذي يجرؤ على قول الحقيقة.

شكر وملاحظات عائلية

هذا الكتاب نتاج حياة طويلة من المساعي المتنوعة، قاد خطواتي فيها كُثُرٌ من الناس. طبعتُ كل حرف من أحرف هذا الكتاب، إلا أنني سأبقى أدين بالشكر، في ذهني، لمن ساعدوني في إيجاد الكلمات وترتيبها، وفي طليعتهم لوسيل، زوجتي المخلصة وخير ناصحة لي، وقد راجعت كل المسودات وهي تتساءل أحياناً هل أخرج يوماً بالنسخة الأخيرة منها.

أتوجه بشكري الخاص إلى سينثيا شيري الصديقة القديمة، وهي اليوم ناشرة «شيكاغو ريفيو برس» مالكة دمغة النشر «لورانس هيل بوكس». وقد جهزت، في جدارة، المخطوطة للنشر، مع محررة النصوص ميشال شوب. واستفادت مخطوطتي، قبل هذه الخطوة، من توصيات جانيت ماكماهون مديرة تحرير «واشنطن ريبورت»، والصحافي جورج بيريس من أوريغون، وشيرلي كلويز محررة كتابي الذي لاقى رواجاً كبيراً: «من يجرؤ على الكلام». وتولى صديقي منذ سنين طويلة تحسين خياط، مالك شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، نشر هذا الكتاب وثلاثة من مؤلفاتي السابقة باللغة العربية. وفي كل مرة توقف فيها حاسوبي الـ«ديل» عن العمل كان الإطفائي المحترف براين ماكجي يعيده، بين نارين، إلى الحياة.

ومن بين الذين ألهموني عبر السنين: الرئيس جيمي كارتر؛ السيناتور جايمس أبو رزق؛ رئيس موظفي تلة الكابيتول ومستشاري الحكيم مدى الحياة ستيفن جونز؛ مؤسسا «واشنطن ريبورت» أندرو كيلغور وريتشارد ت. كورتيس؛ رئيس «مجلس المصلحة الوطنية» (CNI) جين بيرد؛ عميدة مراسلي البيت الأبيض هيلين توماس؛ الناشط في مجال حقوق المستهلك رالف نادر؛ مؤسس

«لو يعرف الأميركيون» *If Americans Knew* أليسون واير؛ دنيس كوتشينيتش، رون بول، وبول «بيت» ماكلوسكي؛ المدير الوطني لمجلس العلاقات الإسلامية - الأميركية نهاد عوض؛ مدير مجلس الشؤون العامة الإسلامية سلام المراياتي؛ مؤسس التحالف الإسلامي - الأميركي آغا سعيد؛ والناجون من السفينة الأميركية «ليبرتي». ويمكن للائحة أن تطول ثلاثة أضعاف، وتبقى مع ذلك ناقصة. فهؤلاء الناس يشكلون كورساً قوياً من النيات الحسنة التي تتداخل فيها الطوائف والأعراق. وربما ازدادت مع الوقت عدداً وحجماً إلى أن تنتصر في أروقة السلطة. فقد شكلت دراسة أعمالهم تجربة تعليمية لا تقدَّر بثمن.

سمح لي تعرّفي على أناس من مختلف الأعراق والديانات بأن أُسقط، كليّاً على ما آمل، أي أثر من من آثار ادعاء الصلاح للنفس. عرّفني الطبيب ميزين كوازاكي، عبر الإنترنت، إلى البوذية، والعالم وزميلي في كرة المضرب فيتال أياغاري إلى الهندوسية، ويوري أفنيري على الروح الحق لليهودية، وعدد كبير من المسلمين في الديار والخارج على جمالية الإسلام.

وبفضل سخاء رجل الأعمال ابن دبي خلف الحبتور، ستُحفظ ملفاتي وقطعي الأثرية في «مركز القيادة» في حرم معهد إيلينويز، حيث سيتم أيضاً الاحتفاء بذكرى المتخرجين الـ١٧ الذين خدموا في الكونغرس. وعندما التقيت الحبتور للمرة الأولى منذ عشرين عاماً، شرعتُ أيضاً في صداقة طويلة مع ثلاثة قادة إماراتيين آخرين. أحدهم هو عيسى القرق رجل الأعمال من دبي الذي خدم سنواتٍ سفيراً للإمارات في لندن. والآخران هما حاكم الشارقة الشيخ سلطان بن محمد القاسمي الذي أنشأ الجامعة الأميركية الجديدة الجميلة في الشارقة، وأحمد خليفة السويدي، المتقاعد الآن، الذي قاد المفاوضات الآيلة إلى إنشاء دولة الإمارات واستمر من ثم ولسنوات في منصب وزير الخارجية بالوكالة.

لطالما كان ولدانا مصدراً كبيراً للفخر. سار كريغ على خطاي أولاً في الصحافة الريفية ومن ثم في السياسة. وهو الآن أحد الأمناء في معهد أهلي كبير وعضو في مجلس مراجعة أوضاع السجناء في إيلينويز. ورزق وزوجته

كاريل، ليز، وهي طالبة جامعية؛ وأندي الذي هو وزوجته غرايس والدان لدومينيك، والذي بوصوله إلى الدنيا جعل مني ومن لوسيل جدَّين كبيرين.

أما ديان فالتحقت بعد الثانوية بإحدى جامعات فورت كولينز في كولورادو لدراسة الفنون الجميلة. وكان ذلك بمثابة انتقال دائم لم يقطعه سوى فصل دراسي كامل في منطقة فلورنسا في إيطاليا. وهي اليوم واحدة من الفنانين الطليعيين في فورت كولينز وتشارك في النشاطات الأهلية. ورُزقت هي وزوجها توماس ماكلوفلن بولدين هما الأستاذة الثانوية كاميرون والطالب الجامعي هنري.

كم كانت أمي لتفرح بمعرفتها أن أحفادنا الأربعة جميعهم في مجال التعليم أو يسيرون في هذا الاتجاه. فأربعة من أولادها الخمسة أصبحوا معلمين، وأنا الوحيد الذي خرجت عن الخط باختياري الصحافة والسياسة.

بول فندلي



توطئة: استثارة في القرية

أخذت الاستثارة تتصاعد في عاصمة إحدى المقاطعات الصغيرة في الغرب الأوسط ليلة انتخابات السابع من تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٦٠. وتركّزت في مقرّي لحملة «فندلي إلى الكونغرس» في واجهة أحد المتاجر في الجهة الجنوبية للساحة العامة لبيتسفيلد، وعدد سكانها أربعة آلاف، حيث يجتمع المناضلون المؤيدون لي من قدامى المحاربين والمحازبين. وثمة مكان عند الرصيف، غرب المقر تمامًا، يضفي على الحي لمسة تاريخية. فهناك، وبعد عقد من تولّي منصب لولاية واحدة في الكونغرس، خطب أبراهام لينكولن في الحشود، ثم وقف لتؤخذ له صورة في ما أصبح يُعرف ببيتسفيلد لينكولن The Pittsfield Lincoln. وقد اشتملت المحافظة التي آمل في خدمتها، على عددٍ من المقاطعات التي مثّلها في الكونغرس.

يتركّز الانتباه المحلّي عادة، أواخر الخريف، على كرة السلّة وكرة القدم في المدارس الثانوية لا على السياسة. غير أن الأمر اختلف هنا، وبدلًا من ساعة أو ما شابهها من الصراع بين فريقين كل منهما مؤلف من خمسة لاعبين أو أحد عشر لاعبًا، استغرق الأمر سنة واشترك فيه المئات من المتطوعين والآلاف من الناخبين في ١٤ مقاطعة.

عندما أعلنت، قبل ذلك بسنة، سعيي إلى الفوز بتسمية الحزب الجمهوري لي للكونغرس، ربما كنت الوحيد في إيلينويز الذي اعتقد أنني امتلك حظًا في الحصول على تسميتي، ناهيك بانتخابي. فمنذ البداية والاحتمالات تعاكسني. إذ أن منافسي الديمقراطي، مونتغومري كاروت، رجل الأعمال الذي يتمتع بالشعبية، يقيم في كوينسي التي يفوق عدد سكانها الـ٤٠ ألفًا. وهي أكبر بعشر

مرّات من بيتسفيلد، المدينة التي أطلقت عليها عائلتنا الصغيرة اسم الديار على مدى ١٣ عامًا. وانا لم أمتلك خبرة في العمل الانتخابي أو التعييني، ولم أكن قائداً لأي نشاط حزبي. ولم يعلن أي رئيس مقاطعة جمهوري دعمه لي قبل الانتخابات التمهيدية. كانت مواردنا متواضعة - منزل صغير مرهون وجريدة أسبوعية هي ذي بايك كاونتي ريبابليكان The Pike County Republican التي أعلنتُها مستقلّة، على رغم اسمها. وأنا، وإن وُلدت وترعرعت في جاكسونفيل المجاورة، وهي مدينة يسكنها ١٨ ألف نسمة، لم أقم هناك منذ ١٧ عامًا.

أمضيت الساعات الأولى من ليلة الانتخابات في المقر العام أشكر للأفراد المؤيدين دعمهم الحملة. فهم، على غرار كثيرين غيرهم في مقاطعات أخرى، أصبحوا أصدقائي، وسيبقون كذلك، على ما أعتقد، بغض النظر عن نتائج الاقتراع. وجميعهم من المتطوعين، ولم يتلق أي منهم مصروفًا ماليًا ، ولا حتى معاشًا، في مقابل مجهوداتهم. والموظفة الوحيدة التي تقاضت راتبًا في خلال السنة كلها، هي طابعة عملت ليالي طويلة على مدى شهر في وقت مبكر من السنة. فقد حضّرت رسائل انتخابية ذات طابع شخصي أُرسلت بالبريد قبل أيام فقط على نجاحي المفاجئ في سباق الانتخابات التمهيدية الرباعية في آذار/ مارس.

ضجت الغرفة بالأحاديث والضحك. ومن بين المشاركين في ذلك كانت زوجتي، لوسيل، وولدانا، كريغ (١٢ عامًا) وديان (٦ أعوام)، ووالدتي، فلورانس نيكولز فندلي (٧٨ عاماً). أنهت الأمسية سباقًا طويلًا تميّز بالتحدّي لتقرير من سيفوز بعضوية في مجلس النواب الأميركي مدتها سنتان. ومع انقضاء الساعة العاشرة اكتظت الغرفة بالناس، ومعظمهم من المتطوعين. واستمرّ الجميع في استراق النظر إلى جهاز تلفاز كبير حيث تتولّى محطّة في كوينسي في شكل دوري إذاعة آخر أخبار الانتخابات. وهناك اهتمام متعطّش بسباقات أخرى أيضًا، وبخاصة السباق الرئاسي حيث يواجه نائب الرئيس الجمهوري ريتشارد م. نيكسون تحدّيًا من السيناتور جون ف. كنيدي. وبدا الديمقراطي أوتو كيرنر متقدّمًا في شكل مريح في سعيه إلى أن يصبح حاكمًا لإيلينويز. ووصل أعضاء

اللجان الجمهوريين الواحد تلو الآخر، وكل منهم يحمل نتائج دائرته الانتخابية. وسرعان ما اختفت الساندويشات والدونات، المقدّمة على سبيل المجاملة من محل بقالة «أم أند دي» M and D Grocery. لقد أقفلت صناديق الاقتراع منذ أربع ساعات، وفكّرتُ أن في ذلك ما يكفي من الوقت ليفرز المسؤولون الأصوات كلها ويفيدوا عنها.

وفجأة فرضت الكلمات الأولى من الحديث التلفزيوني الصمت: «لدينا الآن أصوات المحافظة الرقم عشرين لإيلينويز كاملة، وهي مجموع أصوات المقاطعات الأربع عشرة كلها. وبول فندلي هو الفائز. فندلي هو عضو الكونغرس المنتخب». علا الصراخ، وتبعه التصفيق الحاد المتواصل. تلك أخبار تُقْت إلى سماعها، غير أنني واجهت مشكلة في استيعاب فكرة أنني فزت. أيعني هذا أن على عائلتي أن توضب في وقت قريب حاجاتها وتتوجه إلى واشنطن العاصمة؟ هل أنا في حلم؟

تفرّقت الجموع، وقد ابتهجت بانتهاء السباق بالفوز، وذهب كل إلى سريره. أعربتُ للوسيل عن دهشتي قبل أن أخلد إلى النوم. ولم استوعب الحقيقة إلا في الصباح التالي عندما أعلن العنوان العريض في أعلى الصفحة الأولى من صحيفتي أن «كنيدي وكيرنر انتُخبا، وفندلي فاز». وبعد ذلك بأسابيع سلّمني جاري الفنان أولي نول لوحة زيتية جميلة تصوّر تلك الصفحة الأولى مع عنوانها المؤكّد الفوز.

لم أمتلك أدنى مؤشّر، ونحن نستعد للانتقال إلى واشنطن، إلى أن ليلة الانتخابات أطلقتني في مهنة ستستمر نصف قرن، في داخل السلطة وفي خارجها، وقذفتني إلى قلب عواصف سياسية عاتية ذات وقع وطني وأحيانًا عالمي. لم أفكر في أن أصبح مراقبًا عن كثب، وأحيانًا في وسط قوى وأحداث مصيرية، بل وحتى في الغدر الذي يرتكبه حليف وثيق على أعلى المستويات، وقتله مع إصرار وتصميم مسبقين لمواطنين أميركيين. لم أمتلك أي تلميح إلى أن الانحياز المرتكز إلى الدين في السياسة الخارجية سيصبح على درجة كبيرة من الحدّة بحيث يؤدي إلى هجوم انتحاري دامٍ على أميركا فيستدرج

حكومة الولايات المتحدة إلى الشروع في حربين مكلفتين وإلى تقييد خطير لحرّيات المواطنين الأميركيين المدنية.

قضت البنود الرئيسة في برنامج حملتي الانتخابية بحماية المزارعين من الوصايات الحكومية وبإنشاء مؤسسة دولية تتمتع بما يكفي من القوة لوقف الحروب. وشكّل كتاب قرأته أيام الجامعة حافزي الأكبر للسعي إلى الانتخابات. وهو تحت عنوان الوحدة الآن Union Now، ويقترح اتحادًا فديراليًّا من الديمقراطيات التي تتمتع بدرجة كافية من القوة لفرض القانون الدولي ومنع الحرب. وأملت في أن أطرح على الكونغرس النظر في هذا الاقتراح، وقد عَدَدْتُ الحرب حماقة مروعة يجب وضع حد لها.

لم أكن أعرف شيئًا عن السياسة الخارجية الأميركية المرتكزة على إسرائيل، وعن الإسلام، وعن الشرق الأوسط، أو عن الخداع الرئاسي والتستّر، وهي قضايا سرعان ما ستهيمن على حياتي. ولم امتلك أي إشارة إلى أنني سأجد نفسي، في خلال سنوات الكونغرس، منغمسًا في تغييرات سريعة على المستوى الرئاسي، وفي الاحتجاج على الحرب، وفي تحرير أحد الناخبين من السجن في اليمن الجنوبي البعيد، وفي التعاملات المطردة مع زعيم فلسطيني نُدِّد به على نطاق واسع على أنه إرهابي. ولا إلى أنني سأجد اسمي في موقع بارز في تشريع يدفع قدمًا التطبيع في العلاقات مع الصين الشيوعية، وفي حقوق كبار السن في التوظيف، وفي قوانين أخرى لتفادي المجاعة وكبح الحروب الرئاسية. لم أمتلك أي تلميح إلى أنني سأجد نفسي، في سنوات ما بعد الكونغرس، وأنا أواجه التعصّب الديني على نطاق واسع، ووقع الخوف الذي لا مبرّر له في صياغة السياسات الخارجية الأميركية.

وسأعرض، قبل أن أتتبع الخطوات التي أدت بي إلى تحريك الأحداث في الحياة العامة، للمحات عن المجريات والقوى التي صاغت سنواتي الأولى.

القسم الأول: نشأتي



الفصل الأول: متعة في إدجهيل رود

جئت، بشهادة شاهد حق - هو أمي - إلى الدنيا في هدوء في ٢٣ حزيران/يونيو ١٩٢١، ولم أتسبب لها بالكثير من الانزعاج على رغم وزني البالغ تسعة أرطال ونصف الرطل (٤,٣١ كلغ). ولا يزال البيت الريفي الذي وُلدت فيه قائمًا في الرقم ٩٢٣ إدجهيل رود، جاكسونفيل، إيلينويز، على بعد حيين بالضبط من المكان الذي نسكن فيه الآن أنا ولوسيل.

أصيبت شقيقتي الكبرى ميريام بالكرب لأن ساقيّ كانتا متقوّستين جدًّا عند الولادة. وحاولت مع أمي، من دون جدوى، تقويمهما بلفّهما بجبّيرتين من الخشب. وبقيتا متقوستين إلى أن بلغت الثمانين عندما استقامت اليمنى بفضل مهارة الجراح الذي زرع لي ركبة بديلة. ولم تعد لدي الآن سوى رجل واحدة متقوّسة. وهكذا فإنني نصف مستقيم - وأعني بذلك ساقي.

عاشت عائلتي على الهامش ماليًا، إلا أننا لم نعدّ أنفسنا فقراء. بل رأينا في المتسكعين الذين يأتون بين الحين والآخر لاستعطاء الطعام عند بابنا الخلفي - ويحصلون دومًا على سندويش على الأقل - الفقراء الحقيقيين. كان الكساد الاقتصادي الكبير لا يزال جاريًا، ومعظم الناس في مدينتنا الصغيرة يعيشون على موازنات ضيقة. وشعر أولاد فندلي بإحساسٍ من مجتمع نابض بالحياة وطفولة رائعة على رغم الشح في النقود. وعلى مدى سنوات عدّة شكّل مجمّع الابنية الرقم ٩٠٠ في إدجهيل رود حدود عالمي.

تزوّج والداي في حزيران/يونيو ١٩١١ وكان والدي يعمل حينذاك في جمعية الشبان المسيحية في لوغانسبورت، إنديانا. التحق أبي سنة بجامعة بوردو. وفي خزانة التحف الخاصة بي كأس خشب محفورة في شكل رائع هي

ذكرى لمهارته على المخرطة خلال سنته الدراسية. وعثرت، بعد سنوات كثيرة، على مدوّنات في مذكرات والدي تقدّم لمحات عن مغازلته لأمي. وُلد أولاد أمي الأربعة الأُول في المنزل - الاثنان الأولان، وليام وميريام، في مانكاتو، مينيسوتا حيث كان والدي أمينًا عامًا لجمعية الشبان المسيحية. وانتقلوا بعد وقت قصير على الحرب العالمية الأولى إلى جاكسونفيل حيث أغوت إدارة جمعية الشبان المسيحية المحلّية والدي بالإقامة. ووُلدت روث في المنزل في إدجهيل رود قبل سنتين تمامًا على مجيئي إلى هذا العالم. وحدها باربرا، وهي الاصغر سنًّا بين الأولاد الخمسة، حققت دخولها العظيم إلى الحياة على سرير أحد المستشفيات.

وصل آل فندلي الأربعة الأُوَل - أبي، أمّي، وليام وميريام - إلى جاكسونفيل على أنهم من الميثوديين، لكنهم سرعان ما أصبحوا من المشيخيين. وأقنعت لجنة من كنيسة ستايت ستريت المشيخية أبي بالخدمة كقسّيس موقَّت. وعندما استُخدم قسيس دائم بعد ذلك بأشهر، كان آل فندلي تعودوا على كنيسة ستايت ستريت فبقوا مشيخيين.

وبحلول زمن ولادتي، في ١٩٢١، كان عمل والدي في جمعية الشبان المسيحية انتهى. إذ باع مجلس المديرين المحلّي ملكيته المتقادمة لنادي الإلكس وهو ينوي استخدام العائدات لتمويل مقر جديد للجمعية. وواجه المجلس، لدى وصول والدي، أوقاتًا عصيبة بسبب الكساد الاقتصادي الذي أعقب الحرب العالمية الأولى. وأنفق المجلس مال المبنى على النفقات الجارية، بعكس توصية والدي، فاستقال.

وليست تلك الانتكاسة الوحيدة في حياته المهنية. فكانت له، إثر مغادرته جمعية الشبان المسيحية في جاكسونفيل، تجربة قصيرة وسيئة في إدارة مزرعة يملكها جدّاي لأمي، أوغوستوس وإلسي نيكولز اللذان يقيمان في برينستون، إيلينويز، على مقربة من المزرعة. وهناك، وفي عمر الثالثة، كان عالمي محدودًا بطريق غير معبّدة تقسم المزرعة وتصبح غير سالكة بعد سقوط الأمطار. ولدي من ذلك الوقت ذكريات حيّة. فقد تسببتُ في أحد الأيام بكارثة صغيرة في

مطبخ المزرعة بعدما سحبت طاولة صغيرة بعيدًا عن أحد الجدران وتسببت بدلق محتويات كيس طحين مفتوح على الأرض. وأذكر، لاحقًا، ركوبي مع أبي على طريق ريفية في سيارة ليس فيها ستائر جانبية. كانت ليلة مكفهرّة، ماطرة، مناسبة لمهمّة والدي. فقد شكّلت خبرته في أعمال المزرعة فشلًا ماليًّا تسبب بتوتّرات في داخل العائلة. وهو كان في تلك الليلة يلصق إشارات تعلن مزادًا عامًّا تُباع فيه معدات مزرعته وحيواناتها.

أعاد أبي عائلته إلى جاكسونفيل حيث أصبح بائعًا لبوالص التأمين على الحياة لحساب شركة ميتروبوليتان لايف إنشورنس كومباني. وأخذ على مدى ستة أيام في الأسبوع، وفي معظم الأمسيات، يدور من منزل إلى منزل حاملًا كتابًا كبيرًا مجلّدًا يُعرف بدفتر الديون. لم يشترِ أبدًا سيارة جديدة، وكانت المستعملة منها مريحة لكنها كثيرًا ما تكون في مرأب التصليح. وكنا نتيقّن، ونحن نمضي في سفرة الثمانين ميلًا السنوية لزيارة أهل والدتي وغيرهم من الأقارب في برينستون، بأن الرحلة ستتضمن توقّفًا واحدًا على الأقل لتصليح إطار مثقوب أو مشكلة ميكانيكية. ولم نشاهد والدي كثيرًا في المنزل إلا في عطلات نهاية الأسبوع. وكان أحد الكراسي الهزّازة الكبيرة، ذو المقعد المنجّد، والموجود الآن في مكتبي، هو الكرسي المخصص لوالدي. وأخذ ينكبّ ووالدتي، مساء كل أحد، على منضدة ذات غطاء يفتح إلى الخلف في الزدهة، حيث يسجّلان معاملات الأسبوع النقدية. فقد كان يصعب جني مدخول العائلة.

شكّلت مدرسة الأحد وممارسات العبادات الدينية الحدث الرئيس للعائلة. فيقصد آل فندلي كنيسة ستايت ستريت كل أحد من التاسعة وحتى الظهر. وكثيرًا ما تضمنت التمارين الافتتاحية في مدرسة الأحد التلاوات. إذ يُفترض بالتلاميذ أن يحفظوا عن ظهر قلب قانون الإيمان وأسماء أسفار الكتاب المقدس. ويمكن أن يُطلب من الشخص، في أي لحظة، الوقوف لاستظهار ما حفظ. وتُوزّع في عيدي الميلاد والفصح علب صغيرة من الحلوى والبرتقال. وتنتهي مدرسة الأحد قبل دقائق قليلة على بدء القداس في المعبد، وهو كناية عن قاعة كبيرة وجميلة

دخلت حقبة الرثاثة قبل ذلك بسنوات. وفي أحد الآحاد، حضرت والدة دوان أرتز، وهو صديق دراسة يتاجر والده بالمشروبات الغازية، في ظهور نادر في يوم العبادة. وقد أدخلتْ في نفسي الروعة عندما وضعتْ ورقة من فئة الخمسة دولارات في صينية التبرّع.

ينتمي المرء إلى الكنيسة المشيخية في شكل روتيني أشبه بالشروع في الحلاقة أو التخرّج من المدرسة الإعدادية. فما من نقاش للمذاهب الأخرى أو الأديان. فأمي وأبي مشيخيان، وأصبحت أنا مشيخيًّا. وعرفت لاحقًا أنّ تبني المرء دين أهله عادة متأصلة في مختلف أنحاء العالم، وهو واقع عليه أن يصرف المرء عن موقف يدّعي فيه الصلاح لنفسه.

كانت العائلة تتكوّم في السيارة بعد غداء الأحد، وفي العادة من دون وليام الذي يمتلك برنامجًا خاصًّا به. وتنتهي الرحلة -وهي تشكّل دومًا وقتًا سعيدًا- بتوقّف عند ميريغانز، وهو متجر محلّي للحلوى، حيث ننتظر في السيارة فيما يشتري والدي قرون البوظة لكل منّا.

شكّلت الغرفة الخلفية المقسومة بحجاب كبير أمكنة النوم، شتاء وصيفًا، لي ولشقيقاتي. واحتل وليام واحدة من غرفتي نوم المنزل، وأبي وأمي الأخرى. وسرعان ما انضمت إلينا باربرا في الغرفة الخلفية، بعد مجيئها إلى الدنيا، حيث وفّرت ستائر الكتّان المنسدلة الخصوصية وبعض الفرجة من الطقس السيئ. وكانت أمي، في الليالي الباردة، تخفف من صدمة الصعود وسط الشراشف الباردة فتضع في داخلها حجارة تكون قد سخنتها في فرن المطبخ.

احتوت الحديقة الخلفية أشجارًا مثمرة وخمًّا للدجاج. وتولّينا، أنا وروث، تزيين واحدة من الأشجار ببيت صغير للعب مؤلف من طبقتين، وليس من مجرّد مصطبة وحيدة. ووفر خم الدجاج الطبق الرئيس لغداء الأحد. ومن اللحظات التي أذكرها أنني توليت في يوم من الأيام مهمة قطع رأس أحد الفراريج باستخدام فأس صغيرة وجذع شجرة. ورفضت تناول الفروج الذي قدّم في الوجبة التالية. وبدأ منذ ذلك اليوم نفوري من حكم الإعدام.

وضعت أمي، على رف التخزين، مرطبانات ميسون بسعة ربع غالون، وميّزت كل واحد منها باسم أحد أولادها. وعبأتها بكمية متساوية من السكّر الأسمر، لتعاود دوريًّا تعبئة المرطبانات، واضعة كمية متساوية في كل منها. وقد التزمنا ميثاق الشرف، ولم يتم، على حد علمي، انتهاك حقوق السكّر قط.

كان في الجهة المقابلة من الشارع مسكنان، يتألف كل منهما من قبو مسقوف استخدم غرفًا موقتة للمنامة. وكان اسم إحدى العائلتين فانيير، والأخرى ليبسماير. وشيّدتا الطبقات العليا، بعد مضي سنوات عدّة، عندما سمحت لهما أحوالهما المادية بذلك. واهتززت، في إحدى الأمسيات، لزيارة قبو آل فانيير للاستماع إلى جهاز بكشّاف بلّوري هو رائد الراديو. أدى أحد أوعية الطبخ دور مكبّر الصوت. واستمعت، من خلال التشويش الدائم، إلى بضع كلمات من محطة بعيدة في شيكاغو، وكلمات أكثر وضوحًا من أخرى في سانت لويس. شكل الجهاز، بالنسبة إلي، معجزة التقدّم العلمي.

وكانت إحدى المحطات البارزة في حياتي أن يرحّب بي تي - هي، وهو كلب زغاري أبيض وأسود، ينتظر في إخلاص، على الشرفة الأمامية لمنزلنا الريفي، عودتي من المدرسة.

فاجأني أبي مرتين، في خلال أيامنا الأولى في إدجهيل رود، عندما منحني عناية خاصة. جاءني مرّة ببزة من قطعتين مؤلفة من سترة من التويد وسروال متلائم معها يصل إلى الركبتين. ناسبتني تمامًا وجعلتني أشعر الروعة. وأخذني، في يوم آخر، إلى المتجر لشراء سراويل طويلة، إضافة إلى أمر جديد على خبرتي وهو رداء وقاية يُستخدم في النشاطات الرياضية.

بدأ إدماني الرياضة في إدجهيل رود وأصابني ذلك، حرفيًّا، في رأسي في إحدى الأمسيات. كنت ألعب لعبة الإمساك بالكرة على الحديقة العشب الأمامية مع صديق لي من الحي. وفقدت أثَرَ رمية سريعة في ضوء المغيب. فاصطدمت الطابة مباشرة بجبهتي وأفقدتني الوعي. فركت شقيقتي الكبرى مريام جبهتي

بلطف إلى أن استعدت الوعي. ووطئت، في يوم آخر، وأنا حافٍ على إبرة كبيرة صدئة اخترقت كعبي الأيمن بعمق نحو إنش. سحبت أمي الإبرة ومسحت الكعب باليود. وقد وفّرت والدتي العناية الطبية في معظم الحوادث المؤسفة. ونادرًا ما طلبت المساعدة من الطبيب الذي نزوره واسمه كانانتسي. وهو كثيرًا ما زوّدنا بالدواء من خزانة في عيادته. وأنا لا أتذكّر مناسبة اشترت فيها عائلتنا وصفة من الصيدلية.

أما متعة الأمسيات الكبرى فهي عندما تقرأ أمي قصّة بصوت مرتفع وأولادها متجمّعون عند قدميها. ولا تهم نوعية الرواية. وكثيرًا ما كانت تغفو وهي تقرأ فنوقظها سريعًا ونقول لها ملتمسين «إقرأي ماما، إقرأي».

والتصقت بغرب منزلنا قطعة أرض كبيرة شاغرة استأجرتها أمي وحوّلتها سريعًا حديقة نباتية هائلة. وغلّت كميات كبيرة من البطاطا والذرة الحلوة والبازلاء والفاصوليا الخضراء والخس، فاستهلكت العائلة بعضها سريعًا، وتم تعليب ما تبقى لأشهر الشتاء. أحببتُ تناول البازلاء الخضراء من القرن مباشرة، غير أنني لم أجد متعة في التنقيب عن البطاطا أو في قطف الخضر. وأخذت والدتي توزّع مهام الحديقة علينا، كل ربيع. واقسمتُ بأنني ما إن أغادر المنزل حتى أبتعد عن أعمال البستنة الشاقة.

رعى الحي، بعد ظهر أحد أيام صيف ١٩٢٨، سيرك إدجهيل. والفكرة من وضع شقيقتي روث، المولودة قائدة، وتنظيمها وإدارتها. كانت في التاسعة وأنا في السابعة. وسيطرت على المشهد الملابس الهندية والخيم، إلى جانب القراصنة والراقصين الهاوايين. ارتدى بورت برادني، ابن الخامسة، لباس المهرّج. واستذكرته أمي من أيام طفولته حيث استمر الحفاض، وهو لباسه الصيفي الوحيد، في الانزلاق نزولًا. وهو قد أصبح الآن العميد المحترم لجمعية جاكسونفيل القانونية. وكان فتى صغير اسمه جو ماركس يشاهد السيرك من أحد الجوانب، وقد جاء تحت إشراف الدكتور دانيال كلاود، المدير المخضرم لمدرسة إيلينويز للصم في جاكسونفيل، وحاز لاحقًا شهادة الدكتوراه وأصبح من كبار معلمّي الصمّ في كاليفورنيا.

أعطتني أمي في أحد الأيام ٥٠ سنتًا لشراء بعض الحاجات من متجر البقالة في الحي عند نهاية إدجهيل رود. اشتريت الحاجات وسلمتها لأمي مع الـ١٤ سنتًا المتبقّية. فقالت «كان يمكنك ان تشتري بعض الحلوى لنفسك بالمبلغ المتبقي». وهي المرّة الأولى أسمع بمثل ذلك الخيار، لكنها أجابت بالنفي عندما طلبت الإذن باستعادة تلك السنتات لأشتري الحلوى. وأنا، حتى هذا اليوم، غير متيقن من السبب على رغم أنها تتمتع في الغالب بالكرم. ربما التهت بمطالب أكثر إلحاحًا. ففي ذلك الوقت أيضًا، كان للخمسة سنتات قيمة تضاهي ربع الدولار اليوم.

حوّل تشارلز أ. ليندبرغ الصفّ الأول الابتدائي سنة مميزة. فقد احتفل صفّنا، في فرح، برحلته الأولى وحيدًا من نيويورك إلى باريس. كان بطل طفولتي البارز. ولا يزال رقم تسجيل طائرته، «سبيريت أوف سانت لويس»، محفورًا في ذهني. أنه NX211. وقد وضعت في دفتر للقصاصات صنعته أمي تذكارات، بينها ملصقات تذكارية لتلك الرحلة الجوية.

انتقلنا، وقد أصبحت في التاسعة، إلى الرقم ٢٣٦ في بارك ستريت حيث حصلت على أول صوار (Trombone)، وهو كناية عن آلة مستعملة مبعوجة. كانت مُستعارة، لكنني عددتها ملكي. وكثيرًا ما كنت، بعد المدرسة، ألعب كرة القدم من دون إشراف، كتوقيف الخصم، من دون لمس. وأدت اللعبة في إحدى الأمسيات إلى أمر نادر جدًا، إلى توبيخ شديد من أمي. فقد طلبت مني في ذلك اليوم العودة مباشرة من المدرسة إلى المنزل للاستعداد في تلك الأمسية للعزف على الصوار في حفلة موسيقية تحييها فرقة المدرسة. غير أنني انخرطت بعد المدرسة في لعب كرة القدم ونسيت تعليماتها. ولما بلغت المنزل قالت أمي «يجب أن أبقيك في البيت وأحرمك الحفلة الموسيقية قصاصًا، غير أنني أعلم أن ذلك سيصيب السيد فون بوديغرافن [المدير] بالخيبة. انتبه جيدًا في المستقبل لما أقوله لك». وهي المرة الوحيدة التي أذكر أنني تعرّضت منها للتوبيخ. فهي كانت تقودنا من خلال المثال الصالح. وعرفنا جميعنا كيف يُتوقّع منّا أن نتصرّف.

تميّز أهلنا تقليديّا بالهدوء. وكانت أقوى كلمة بذيئة أسمع والدي

يستخدمها، مهما حصل، هي «آه، لا». ولم أسمع والدتي تقول «تبًّا» إلا مرة واحدة فقط. فقد عُدَّ التجديف أمرًا عديم الذوق ومن المرادفات غير الكافية. وأمتعتنا أمي، بعد ظهر أحد أيام الأحد، ببعض الأخبار المسلّية التي التقطتها في صفها في مدرسة الأحد. وأبلغتنا، وهي تقهقه، أن إحدى السيدات بلغت حد التطرّف في حماية زوجها من التأثيرات المفسدة. وكانت، قبل ان تسلّمه الجريدة أو المجلة ليتصفّحها، تقص منها كل صور النساء غير المحتشمات.

فتح الانتقال إلى بارك ستريت أمامي عالم كرة المضرب. فقد اكتشفت، في ما وراء الأكمة في الجهة المقابلة من الشارع، ملعبًا ذا سطح من الطين يتطلّب جرعات دورية من الكلس لإبقاء الخطوط مرئية. ولم نترك، أنا ورفاقي، بعضًا من المطر أو الطين الزلق يوقف مبارياتنا. وكنّا نستهلك الكرات حتى النهاية واشترينا مضارب رخيصة ذات أوتار فولاذ، أطلقنا عليها اسم مضارب الأيام العجاف. وأصبحت الرياضة ولعًا. وأخذتُ أحلم في الحصول على ملعب لكرة المضرب في حديقتنا الخلفية. وحققت هذا الحلم وأنا في السابعة والستين، وأصبحت كرة المضرب روتينًا شبه يومي استمر حتى عيد ميلادي الثمانين. ففي ذلك اليوم انهارت ركبتي في خلال مباراة مع الطبيب الصديق شاندوباتلا براهاكار. وكثيرًا ما تساءلت هل كانت ركبتي تبقى سليمة لو أنني تمكنت، بطريقة من الطرق، من تخطي عيد ميلادي الثمانين.

في أحد الأيام، أُفعمت الحياة في بارك ستريت بالحيوية عندما احترقت مدرسة واشنطن، التي أتابع فيها الابتدائي الرابع، عن آخرها. وهي واحدة من أربعة مبان مدرسية ابتدائية قديمة في جاكسونفيل. رنّ جرس الإنذار خلال صفوف بعد الظهر بعدما اكتُشف حريق في العلّية. غادر صفّنا المبنى في هدوء بعد نزولنا سلسلتين من الأدراج إلى الطبقة الأرضية. وأخذت أتفرّج من مسافة آمنة إلى أن جاء أبي بعد دقائق من ذلك. أمسك بيدي ورافقني، في انتهاك حاذق للمنطق السليم، عائدًا إلى المبنى المحترق. صعدنا الدرج إلى غرفة صفي حيث ساعدني أبي على جمع كتبي وغير ذلك من الأغراض من طاولتي قبل الانضمام من جديد إلى الحشد في الخارج.

كانت باربرا هارت تعلّم الصفين الخامس والسادس في مدرسة لافاييت التي نُقل إليها التلامذة بعد احتراق مدرسة واشنطن. فازت الآنسة هارت بقلوب التلامذة إذ شرعت كلّ بعد ظهر في القراءة بصوت مرتفع في فصل من سلسلة الكتب التي يقوم فيها طرزان، الذي تبنّته القردة، بالكثير من المغامرات المثيرة في الأدغال.

وفي المنزل، اشترى والدي راديو من طراز إميرسون، على شكل طاولة، جلب لنا جميعًا الكثير من المتعة. وتعوّدنا على شخصيات ساحرة من خلال الدراما الإذاعية التي تُبث أسبوعيًّا. وكانت الأكثر شعبية بالنسبة إليّ «الجوّال الوحيد» وحصانه سيلفر، والزوج الكوميدي فيبّر ماكجي وموللي، والشخصين الأفريقيين - الأميركيين المرحين واسمهما آموس وأندي.



الفصل الثاني: الانتهاء من الأزمنة الصعبة

في وقت متقدم من بعد ظهر أحد أيام ١٩٣٤، ظهرت لدى والدي أولى عوارض مرض الباركنسون. أظهر لي أصابعه بعد يوم طويل كامل من القيادة حول المدينة مع دفتر ديونه. ورأيتها ملتوية في شكل متصلّب وقد أخذت شكل إطار مقود السيّارة. كان في الثامنة والاربعين وأصبح معوّقا قبل نهاية السنة. لم يتوافر في ذلك الزمن أي دواء للباركنسون. وأهّل مرضه العائلة لمعاش من شركة التأمين عاد عليها بخمسين دولارًا في الشهر وشكّل الجزء الكبير من موازنة المنزل.

أمكن والدي، ولمدة قصيرة من الزمن، أن يغسل الأطباق ويسير مسافات قصيرة وحده. وسرعان ما عجز عن القيام بأي شيء لنفسه أو بنفسه. وأخذت كل سنة تمرّ تضاعف من إعاقته. ومات بعد ذلك بواحد وعشرين عامًا. ونادرًا ما توقّفت للحديث مع والدي بعدما أصبح مقعدًا، وهو تقصير أسفت له لاحقًا أشد الأسف.

كانت والدتي بمثابة ملاك لنا جميعًا، وباتت ربة منزل عائلة من سبعة أشخاص، والروح المحركة لأولادها الخمسة ومصدر الإلهام لهم والقيّمة الوحيدة على زوج مقعد والمعيلة الرئيسة للعائلة. لم اسمعها تشتكي ولو مرّة واحدة. وأدارت على مدى سنوات عدة كافيتيريا المدرسة، وبدأت بـ١٥ دولارا في الأسبوع ارتفعت لاحقًا إلى ٢٥. كانت، على رغم ابتلائها بوجع في القدمين، تسير يوميًا مسافة عشرة مجمّعات بناء من المنزل إلى المدرسة وبالعكس. أما أنا، فقد كسبت، على مدى سنوات عدّة، غدائي بالعمل على الصندوق. وتبلغ كلفة الوجبة العادية ٢٠ سنتًا. وأخذت أمي تقوم، من وقت

إلى آخر، بالأعمال المنزلية وبغسل الثياب لطبيب يعيش في الجوار. وشرعت، في عطلة الصيف، تدير متجر بريري فارمز للبوظة الموجود جنوب المكتبة العامة.

وجد جميع أولاد فندلي طرقًا لجني المال. ولم نحصل على أي مصروف من أهلنا، ولم نتوقّع الحصول على مصروف. أخذتُ، منذ الصف السادس، أعمل في جزّ العشب. وأحصل من مساحة العشب الكبيرة على ٧٥ سنتًا، ومن الأصغر على ٣٥ إلى ٥٠ سنتًا. كانت الجزازات التي تعمل بالطاقة لا تزال ضربا من المستقبل، وشكّل الابقاء على شفرات دولاب جزازتي التي أدفعها بيدي حادة تحدّيًا لا ينتهي. وفي إحدى الصيفيات ساعدت غلن هيكل، الاستاذ الثانوي، في تفكيك أحد المنازل بأجر بلغ ١٥ سنتًا في الساعة. وطلبت مني صباح أحد الأيام سيدة عزباء نعرفها باسم الآنسة برانس الحضور إلى منزلها في غروف ستريت. وقد عدّها البعض ارستقراطية، والبعض الآخر غريبة الأطوار، وهي لم تكن تثق بالخدمة البريدية. طلبت مني أن أسلّم رسالة في الجانب الآخر من المدينة. فأوصلت الرسالة وحصلت على خمسة سنتات في مقابل ذلك.

كانت المدارس العامة في جاكسونفيل أوائل سنوات ١٩٣٠ مختلطة عرقيّاً وهادئة، على عكس باقي المجتمع. وقد أزعجني التمييز العنصري في دور السينما والمساكن والفنادق والموتيلات ومحال الحلاقة والمطاعم.

بلغت في ١٩٣٤، وأنا في الصف الثامن ثانوي، طولي الاقصى وهو خمسة أقدام وثمانية إنشات (حوالى ١٧٣ سم). والمفاجئ في الأمر أن ذلك ساعدني في أن أصبح لاعب الارتكاز لفريق المدرسة في كرة السلّة. وقد بنيت صداقات طويلة مع رفاق كثر في الفريق، وبينهم أفريقي - أميركي اسمه جيمس هولت. لم نتوقّف عند لون بشرته. وكان إرنست «برك» تشاملي من العناصر الدائمين في الفريق المُرتجل لكرة السلّة والذي سيمناه «فلايمينغ آرّوز» (السهام المشتعلة). ولإضفاء روح الفريق، صبغت والدته قمصانًا داخلية بالأسود ورسمت على صدورها سهامًا حمرًا مشتعلة. وحكّم إرنست سي. بون، أمين السجل في معهد إيلينويز الذي سجلني قبل سنوات قليلة طالباً فيه، مبارياتنا المرتجلة. وقد أصبح

بعد وقت طويل لاحق طبيبنا ورئيس القسم المالي في تنظيم مقاطعة مورغان لحملتي الانتخابية. وأخذنا معًا نلتقي في تلك الأيام في الكنيسة وفي اجتماعات الجمعية الأدبية.

وهُزم «السهام المحترقة» في إحدى الأمسيات أمام فريق مدرسة إيلينويز المحلية للضرير. وقد تألف من طلاّب لا يمتلكون سوى رؤية هامشية لكنهم يستخدمونها بمهارة كبيرة. ونحن، في تباهي فريق السهام المحترقة بانجازاته، كنّا نغفل خسارتنا أمام فريق من مدرسة الضرير. وقد رحل الأعضاء الدائمون الآخرون في فريق السهام، إلا إنني لا أزال ألتقي برك إلى طاولات المقاهي. وهو أمضى معظم الحرب العالمية الثانية في معسكر الماني لسجناء الحرب.

وفي خطوة للحد من النفقات انتقلت عائلتي في ١٩٣٤ إلى منزل أقل كلفة في الرقم ٨٠٦ في جادة وست كولدج. وقد استوعب الشارع كل حركة السير عبر البلاد للطريق الأميركي السريع ٣٦ وكان يومذاك الشريان الرئيس لعمليات النقل من الشرق إلى الغرب في البلاد. وما لبثتُ أن تعوّدت هدير شاحنات على النقل وهي تندفع مسرعة صعودًا ونزولًا في الشارع. وكان في جوارنا مسكن موظف في إيليوت ستايت بنك، هو ج. واير إيليوت جونيور. صافحني في أحد الأيام عند حديقته الأمامية في حركة دسّت في يدي ورقة جعدة من فئة الدولار. وبالكاد أمكنني تصديق عيني. واستخدمني لاحقًا لإشعال نار في قبوه، في وقت مبكر من كل صباح، لتوفير الماء الساخن للحلاقة. وعنى ذلك إشعال النار في السادسة صباحًا. إلا أن الوظيفة انتهت فجأة بعد بضعة أسابيع. وربما كانت لوقف العمل علاقة بواقع أن النار التي أشعلتها في إحدى الصباحيات انطفأت قبل أن تسخن الماء.

انضم إليّ، ونحن في الإعدادية، تشام بايارد أوكستوبي وهو أبن أحد الاساتذة في معهد إيلينويز، في التخطيط لبعثة إلى أميركا اللاتينية. فقد افتتننا الأخبار عن السكان الاصليين جامعي الرؤوس في الأكوادور وكولومبيا، وأردنا زيارة البلدين كليهما. امتلك بايارد مطبعة صغيرة يتم فيها تنضيد الحروف باليد. وقد استخدمنا معداته لطباعة ترويسات أوراق الرسائل والمغلفات، وآلة الطباعة

البالية خاصتي للكتابة للسفارتين طلبًا للمعلومات. ولم تذهب البعثة إلى ما هو أبعد من مخيلتنا. وأنا على يقين بأن أمي عرفت بمشروعنا لكنها لم تأت على ذكره قط.

حصلت وأنا في الصف الثامن على آلة طباعة وآلة استنساخ من إيرل أ. ديفيس، مالك مؤسسة لتجهيز المكاتب. وكانت الآلتان مُستَعمَلتين وكلفتني كل منهما، على ما أذكر، خمسة دولارات. ووضعني امتلاكهما على طريق عمل الطباعة. فاشتريت، بمبلغ زهيد، كرّاسات كنسية، وبرامج الحفلات الموسيقية الفردية، وفي إحدى المرات رسالة لنيل شهادة الماسترز من أحد المربين المحليين. وقد حظيت من وقت إلى آخر بالمساعدة من شقيقتي باربرا.

سمحت لي المعدات بأن أصبح مؤلفًا وناشرًا للكراريس. استوحيت قصص الكفاحيّ توم باين ومن شهرة الحرب الثورية الأميركية، وقد أصبحت جمهوريًّا مُعلنًا بالفعل وأنا في الرابعة عشرة، واستغللت الفرص لانتقد الرئيس فرانكلين د. روزفلت الذي تولى السلطة للمرة الأولى وأنا في الثانية عشرة. وأصبح الحاكم ألف لاندون، من كانساس، بطلي بعدما سُمّي لمواجهة إعادة انتخاب روزفلت في ١٩٣٦. وقام أشخاص كثر بيننا بمسيرات مسائية ونحن ننفخ في آلات فرقنا الموسيقية عبر كوليدج آفنيو وغروف ستريت دعمًا لترشيح لاندون. ولكن، وعلى رغم جهودنا، حصل روزفلت على جاكسونفيل وحقق إعادة انتخابه بفوز ساحق.

انهمكت في إحدى الليالي في طباعة انتقاد للرئيس روزفلت فيما يحاول والدي الاستماع إلى الرئيس وهو يوجّه كلمة غير رسمية إلى الأمة. أخذ، عند ذلك الوقت، يصعب على والدي التعبير بالكلمات، غير أنه تمكن من إسداء النصح: «لماذا لا تترك روزفلت ينهي كلامه قبل ان تنتقده؟» فتوقفت عن الطباعة إلى أنهى الرئيس كلامه. وأنا استنسخ في العادة ٢٠ نسخة من كل تعليق أوزعها على أي يد ممدودة. وكان بعض وجهات نظري شائنًا. ووضعت لإحداها، وقد دفعني إليها بناء معمل لتوليد الكهرباء تملكه المدينة في جاكسونفيل، عنوان: «دليل إلى الشيوعية في جاكسونفيل». وندبتُ في واحدة

أكثر اعتدالًا الجهد الذي يبذله روزفلت للإتيان بمحكمة عليا مؤيدة له. وعنونته: «من الديمقراطية إلى الديكتاتورية». وربما أضحكت هذه التجارب في التعبير عن الذات من تلقوها، لكن أهلي لم ينتقدوها قط، ربما لأنهم تعلّموا ألاّ يقرأوها.

التقيت، في إحدى أمسيات الشتاء، وكنا لا نزال نعيش في الرقم ٨٠٦ في وست كوليدج، أبي وهو يسير بخطوات صغيرة مترددة على الرصيف. وقلت له إن مدير الفرقة الموسيقية شجع الأعضاء على شراء آلات جديدة. وأنا أمتلك صوارًا مستعارًا مطعوجًا في شكل سيّئ، وقلت لأبي إن في إمكاني أن أشتري واحدًا جديدًا بثلاثة دولارات في الشهر فقط. فأجاب في بساطة: «لا يمكننا تحمّل ذلك». عرفت أن ما من حاجة إلى النقاش، وشعرت بالذنب لطرحي سؤالًا من المؤكد أنه لا يلقى ترحيبًا.

تقاسمت غرفتي، في ذلك الشتاء، مع بيللي كوكس وهو من بلدة بيزغاه الريفية. وقد ساعد هذا موازنة عائلتنا ووفر على أهله الرحلات كل يوم دراسي إلى جاكسونفيل. تفاهمنا أنا وبيلي جيدًا وبقينا بعد ذلك صديقين طيبين ما يقارب القرن من الزمن. وقد احتوت حظيرة الحديقة الخلفية بقايا سيارتي فورد من طراز تي. وهما مصدر فخر واعتزاز لشقيقي وليام الذي نجح في النهاية في تشغيل إحداهما. وفي أحد الأيام جلست فتاة بقربه وهو يقود سيارته من طراز تي إلى الشارع في أول دليل إلى اهتمام وليام بالجنس الجميل. ولطالما كان وليام تلميذًا جيّدًا وعاملًا مجتهدًا.

أشركني شقيقي في إحدى الصيفيات في عمل رئيس لاستبدال أحد السقوف. وتضمن العمل إزالة الالواح الخشب من مبنى أكاديمية ويبل في حرم معهد إيلينويز واستبدال أخرى بها ذات تركيبة حديثة. وتترك قاعدة الألواح الخشب فسحات مفتوحة للتهوئة والتجفيف. وتطلّبت الألواح الجديدة قاعدة متينة، فأزال وليام الألواح الخشب، ووضع ألواحًا على قياس المساحات الفارغة، ثم ثبّت الألواح الجديدة في مكانها بالمسامير. وتطلّب بلوغ مستوى السطح سلّمًا من أربعين قدمًا. وقد انتزع وليام الألواح الخشب ووضع ألواح

تعبئة مكانها فيما أخذتُ أنظف الركام الذي يبعث به إلى الأرض. وكنت، عندما يصبح مستعدًا لتثبيت الألواح الجديدة بالمسامير، أرفعها إليه على السلّم وأسلمه إياها. وسار الأمر في شكل بطيء. فالألواح ثقيلة، ولا يمكنني في كل رحلة إلا نقل بضعة منها مكومة فوق كتفي. وأذكر رفعي الحمل تلو الآخر على مدى يوم طويل، ثم لم أعد أفعل. لا بد من أن أمي قررت أن العمل خطير جدًّا بالنسبة إليّ وأصرّت على وليام أن يستخدم شخصًا آخر. أو ربما إنني بلغت هذا الاستنتاج بنفسي.

امتلك وليام وباربرا صوتين غنائيين جميلين، إلا أن مسيرتي كطالب في الغناء بدأت فجأة وانتهت بالطريقة نفسها. علمت في ١٩٣٧، وانا المعجب الدائم بجيش الخلاص، أن واحدًا من أحدث المتطوعين في مركز جاكسونفيل يزعم أنه صديق سابق للتينور العظيم إنريكو كاروسو. وقد أبلغني المتطوع، عندما التقيته، أنه تعرّف إلى كاروسو عندما زار النجم حانات نيويورك بعدما أدى وصلته في دار ميتروبوليتان للأوبرا. وعرض إعطائي دروسًا غنائية مجانية. فوافقت على الفور. وبعد ذلك ببضع جلسات، قاطعت رفاقي الطلبة في قاعة الدرس في المدرسة الثانوية بعرض غنائي. وقد أصيبوا ربما بالقدر نفسه من الدهشة الذي أصابني. وقع اختياري على «الوتر الضائع» The Lost Chord، التي أديتها بتوق شديد وصديق كاروسو ينقر على البيانو. وتضمن عزفه المرافق ضعفي عدد النوطات الموجودة على ورقة الموسيقى أمامه. وشرح لي لاحقًا أنه أضاف إليها الخلفية الأوركسترالية. وأعلن لي، بعد أيام على ذلك، أنني سأغني الوصلة نفسها في ساحة جاكسونفيل العامة ليل السبت المقبل. أجبت، وقد أخذني على حين غرّة: «لا أعتقد أن أهلي سيحبون ذلك». وكنت أنا، في الواقع، من وجد المهمّة غير جذّابة. أقفل غطاء المفاتيح بقوة، وأعلن، قبل أن ينسحب سريعًا: «لقد انتهت دروس الغناء».

كان وليام متحفّظًا ولكن كريم. ففي خلال صيف ١٩٣٧، وكان عمره ٢١ عامًا، قاد السيارة بي وبشقيقتيّ ميريام وروث إلى الروكي ماونتينز في كولورادو حيث استمتعنا بما يقارب الأسبوع من المتعة المحض. وعُدَّت شقيقتي الطفلة

باربرا، وكانت في التاسعة وحسب، أصغر من أن تقوم بمثل هذه الرحلة. فلازمت المنزل بعدما احتجّت بصوت مرتفع. واستأجر وليام كوخًا ريفيًّا في كولورادو ودفع كل المصاريف من جيبه الخاص. وفي رحلة جانبية إلى كولورادو سبرينغز، حيث تقيم شقيقتا أبي المعلّمتان غير المتزوجتين، غريس وبيس، ألحَقْتُ الضرر بسيارة غريس الجديدة بعدما صدمتها بحاجز مرتفع. وقد فاجأني أنها لم توبخني.

امتلكت وأنا في المدرسة الثانوية مصادر عدة للدخل. وأخذت، بموافقة من رئيس المدرسة، أبيع في الاكشاك، خلال مباريات كرة القدم وكرة السلة، برامج استنسختها وتضمنت إعلانات بعتها للتجار. ودوّنت على دفتر ملاحظات ربحًا بلغ ٢٥ دولارًا في ذلك الموسم. وحصلت على إذن ببيع العلكة للطلاب في استراحات ما بين الصفوف. وحققتُ في ذلك المشروع ربحًا صافيًا بلغ ٤٠ دولارًا. وأخذت، في الأمسيات، أبيع الساندويشات والحلوى في منامات الطالبات في معهد إيلينويز. كانت أمي تعد ساندويشات الجانبون والبيض، فأبيع الواحد منها بـ١٥ سنتًا. وكان يتبقى لي نحو دولار في كل مساء بعد أن أسدد لأمي ثمن البضاعة.

عندما أعلنت مجلة ريدرز دايجست عن نسختها الاسبانية، وهي الأولى لها بلغة أجنبية، دُعي القرّاء إلى رعاية اشتراكات تُهدى إلى أناس في أميركا اللاتينية. وبعث دولاراي الاثنان بالدايجست إلى أولاليا كامينو برنت في ليما، البيرو، وهي سيّدة يلتصق اسمها، لسبب من الاسباب، بذاكرتي. وشكّل ذلك أول رحلة بريدية لي إلى ما وراء حدود الولايات المتحدة. واستمتعت على مدى أشهر عدة بمراسلة نشطة خالية من أي اهتمام رومانسي كونها تكبرني بعشرين عامًا على الأقل. إلا ان إيرل ديفيس كان واحدًا من أبرز العازبين في جاكسونفيل، وهو ربما من عمر أولاليا نفسه. ولمّا أخبرته عن صديقتي في البيرو تولّى، في شوق دوري كصديق مُراسل لها. وانتهى اهتمامه عندما أعلنت زيارة مقبلة لها لقلب أميركا وأنها تأمل في خلالها في أن تزور جاكسونفيل. فشعر ديفيس التخاذل أو ربما، لأكون أكثر دقة، برودة في القلب وتوقف عن

الردّ على رسائلها. وتزوّج في سنّ متقدمة. وقد عاد وخطر في فكري عندما اشترى حفيدنا أندي وزوجته غرايس، بُعيد زواجهما في أيلول/سبتمبر ٢٠٠٧، منزل ديفيس في الرقم ١٣٢٥ وست كوليدج من عقار أرملة ديفيس، روث وليس أولاليا.

كان صيف ١٩٣٨ مملوءًا بالإثارة. ففي حزيران/يونيو، استوقفتُ السيارات لتقلّني بالمجان إلى واشنطن العاصمة، في زيارتي الأولى لها، وأقمت عند عائلة فانيير التي أقامت في السابق في الجهة المقابلة لآل فندلي. وتضمّنت جولتي تلّة الكابيتول حيث حصلت على تصريح للأمكنة المخصصة للزوّار من عضو الكونغرس الذي يمثلني، الجمهوري سكوت لوكاس من هافانا، وقد أصبح لاحقًا زعيم الغالبية في مجلس الشيوخ. ولا أزال أملك ذكرى حيّة عن رؤيتي من الصالة السيناتور روبرت فوليت جونيور، من ويسكونسين، وهو يرتدي ربطة عنق بارزة معقودة على شاكلة فراشة.

أظهر وليام مرّة أخرى سخاءه، وهذه المرة في تموز/يوليو عندما دفع رسوم معسكر موسيقي من ثلاثة أسابيع مخصص للطلاب الثانويين في حرم جامعة ميتشيغان. وحضر ثمانية موسيقيين شبان، معظمهم من ميتشيغان. وكان وليام أنهى سنته الأخيرة في ميتشيغان على أن ينتقل في وقت قريب إلى قسم الدراسات العليا. وأقام في آن آربور في علية غير مدفأة فوق إحدى الصيدليات. فركبت بالمجان إلى آن آربور. واهتززت فرحًا، على رغم أنني لم أكن قط ماهرًا في الآلات الموسيقية، لعزفي تحت إدارة وليام د. ريفللي، الذي اشتهر لاحقًا بصفة كونه أعظم قائد لفرقة موسيقية منذ جون فيليب سوسا. وقمت بالأعمال المنزلية لدفع إيجار غرفة في منزل خاص. وبدا أن الأرملة التي تمتلك المنزل أحبت وجودي في الجوار فأعطتني لدى مغادرتي كتبًا عدة تحكي عن الفن القوي لغوستاف دور. واستحققت وجبات الطعام من خلال عملي خادمًا في مطعم يملكه ويديره يوناني أحبّ أن يلعب المقالب عليّ. وقد اقنعني في أحد الأيام بتناول ملعقة كاملة من الفجل الحار دفعة واحدة. وكانت تلك المرة الأولى والأخيرة أتذوّق هذه المادة القوية.

لم تقلل تجربة أبي الوجيزة كسكرتير في جمعية الشبان المسيحية من اهتمامي بنشاطات هذه الجمعية. وقد استخدمت آلتي الاستنساخية لإصدار نشرة إخبارية دورية صغيرة اسمها «هاي-واي ريكورد». ولم يكن مقر الجمعية في جاكسونفيل إلا كناية عن منزل مديني صغير في شارع وست ستايت، إلا أن الجمعية رعت الرياضة وغيرها من المناسبات في كل المدارس الابتدائية إضافة إلى التكميلية والثانوية. وقد شاركتُ في معظم النشاطات. وشاهدني أبي مرّة وأنا ألعب السوفتبول (لعبة تشبه كرة القاعدة وتلعب في مكان أضيق وبكرة ليّنة -المترجم) في مدرسة لافاييت الابتدائية. وعلى رغم أنني أملت في أن أثير إعجابه بتحقيق إصابة واحدة على الأقل، حققت ثلاث إصابات.

وتضمّنت المناسبات حضور اثنين من المؤتمرات المخصصة للشبان الأكبر سنًّا التي ترعاها جمعية الشبان المسيحية على مستوى الولايات، حضر كل منهما نحو ألف شاب ثانوي. وفي مؤتمر عقد في إلجين في كانون الأول/ ديسمبر ١٩٣٧، فوجئت لمّا طُلب مني إدارة تلاوة مع ترداد من الجوقة في خلال إحدى الجلسات العامة. وانتخبني المندوبون، قبل رفع الجلسة، لرئاسة المؤتمر التالي الذي سيعقد في بيوريا. أصابني الذهول. شكّل ذلك الانتخاب الأمر الأكثر سهولة في حياتي كلّها. ولم أعرف أنني مُرشّح إلى أن بدأ التصويت. وكانت أمي سافرة الوجه لدى مغادرتي المنزل إلى بيوريا. ولعلّ دوري كرئيس مدّها بالغبطة أكثر من انتخابي للكونغرس بعد ذلك بسنوات.

منزلنا ما قبل الأخير في جاكسونفيل كان في الرقم ١٣٣٠ وست لافاييت، وقد هُدم لاحقًا. وكانت إقامتنا الوجيزة هناك متميّزة بالنسبة إليّ بسبب لمحة غير متوقعة إلى عملية تبادل الغرام. بدأ الأمر عندما أيقظني في منتصف الليل بريق من الأضواء من الغرفة العلوية في المسكن المجاور. كانت النوافذ مرتفعة ولا تغطيها ستارة أو سجاف. أنار ضوء من السقف الغرفة كأنها مسرح. وقف الرجل والمرأة عاريين على مقربة من السرير. أخذ الرجل يداعب المرأة في شكل حثيث بينما كانت تمرّر المنشفة على هذا الجزء أو ذاك من جسمها. شكّلت تلك لمحتي الأولى إلى امرأة بالغة عارية. وبدا الزوجان غير مهتمين

باحتمال أن يراقبهما أحد من مكان مجاور، إلا انني قررت سريعًا أنني شاهدت ما يكفي وابتعدت عن النافذة. وعدت واندسست في السرير وتلوت صلاة أطلب فيها المغفرة لانتهاكي خصوصية الجيران. وربما رأى الجيل التالي في ذلك أمرًا غير قابل للتصديق، لكنني، حتى بعدما انتهى العرض تلك الليلة وأُطفئت الاضواء، لا أزال غير متأكد مما حدث. كنت تلميذاً في بداية المرحلة الثانوية وعمري ١٦.

صيف ١٩٣٩، انضم إلي جيمي جونستون، الذي أصبح لاحقًا ناشر بانتاغراف في بلومينغتون، محاولًا جني بضعة دولارات من خلال استنساخ برامج وبيعها في أكشاك مباريات الفروسية في خلال معرضين أقامتهما المقاطعة في جنوب إيلينويز. وانتهى المشروع في خلال المعرض الثاني عندما خسر جيمي كل قرش من أرباحنا بعدما استدرجه مقامر محترف إلى لعبة الكشتبان. جاء جيمي، تلك الليلة، إلى غرفتنا المستأجرة وهو يبكي. ومن حسن الحظ أننا دفعنا إيجار الشقة مسبقًا. وعدنا إلى جاكسونفيل باحترام جديد للمقامرين المحترفين.

تم آخر انتقال لعائلتنا في جاكسونفيل في ١٩٤٠ إلى منزل في الرقم ٣١٣ إيست بيتشر تمكّنت والدتي بطريقة من الطرق من شرائه من مدخراتها ومن جمعية الإقراض. كان الكساد الكبير لا يزال في أوجه، وأسعار العقارات متدنية. وكذلك كان الدخل الفردي. وكسبتُ، في خلال سنتي الأخيرة في الثانوية، بعضًا من مدخولي بالعمل كمراسل لجريدة جاكسونفيل جورنال-كوريير مغطّيًا الأحداث المدرسية والرياضة. وشكلت المناسبات السياسية مهماتي المفضلة. وبلغ أجري خمسة سنتات عن كل إنش/عمود من النص المنشور، وهو تدبير قد يكون مسؤولًا عن ميلي طوال حياتي إلى الاكثار من الكلام.

بدأت، في سعيي إلى الحصول على منحة جامعية، من القمة فكتبت إلى كل من جامعة أوكسفورد في أنكلترا وإلى هارفارد، إذ إن كلًا منهما أثارت إعجابي بصفة كونها مكانًا بارعًا للدراسة. وتلقّيت رفضًا مهذّبًا من الجامعتين، إضافة إلى جامعات أخرى عدة في رابطة آيفي. إلا أن ندائي إلى جامعة ديباو

DePauw في غرينكاسل، إنديانا، ومعهد إيلينويز في جاكسونفيل جاءني بردود طيبة. وعرضت ديباو منحة من أربع سنوات تتضمن الأقساط الدراسية فحسب، مما دفعني إلى الانتقال إلى غرينكاسل بالمجان وتدبير غرفة لبداية أيلول/ سبتمبر. غير أنني، بعودتي إلى جاكسونفيل، غيّرت رأيي لمصلحة معهد إيلينويز. فمن الاسهل والأقل كلفة العيش في الديار، ولو لمدة، إذ انتقل أهلي إلى ديار طفولة أمي في برينستون في خلال سنتي الجامعية الثانية.

من حسن حظي أنني التقيت، وأنا أرتدي القلنسوة الخضراء التي تميّزني كطالب جامعي جديد، بالطالب تشارلز مينيس من فيرجينيا، إيلينويز. وهو قد أصيب بإصابة بالغة من جراء حادث سيارة وقع قبل ذلك بسنوات، وهو يعرج في شكل قوي ويحتاج إلى مسكنات قوية للألم لما تبقى من حياته. وأصبح، في سنوات لاحقة، ناقدًا موسيقيًا للبوست-ديسباتش في سانت لويس واكتسب شهرة إذاعية بصفة كونه «الدكتور جاز» على موجة كي.أم.أو. إكس الإذاعية المجانية. وفي معهد إيلينويز، أخذني مينيس تحت جناحه وأقنعني بالانضمام إلى جمعيةٍ في ألفا الأدبية، ورحب بمقالاتي الافتتاحية عندما أصبح محرر الصحيفة الطالبية الأسبوعية «ذي رامبلر».

وفي خلال صف التاريخ في سنتي الجامعية الثانية، قال البروفسور جو باترسون سميث أن على الولايات المتحدة ان تعلن الحرب فورًا على ألمانيا. وخالفته الرأي. وفي مقالة نُشرت في الرامبلر اشتكيت من ان أميركا تقوم مرة أخرى «بإنقاذ بريطانيا من موقف حرج». غير أنني، بعد مدة وجيزة على ذلك التعليق الأشبه بالموقف الإنعزالي، اتخذت خطًا سياسيًا مغايرًا وأوصيت بمواطنية مشتركة فورية مع بريطانيا وعدد قليل آخر من الديمقراطيات.

وعلى رغم أن سميث كان أعمى، لم يمتلك مراقبين أو يحتج إليهم. بدا وهو يحاضر كأنه يعرف مكان جلوس كل واحد منا وبماذا يفكّر. وكان مينيس واحدًا من الذين يقعون تحت رعايته الخاصة. أما أنا فلا. ربما أعتقد أن تعليقاتي في الرامبلر - وكان هو مستشارها المكلف من هيئة التدريس- كانت

صبيانية أو أسوأ. وقال لي في أحد الأيام وهو جالس في مكتبه الذي تتناثر فيه الأوراق، «فندلي، ان نيرك يصرّ، ويحتاج إلى تزييت. عليك أن تحرّر ذهنك».

زارت عائلتنا، صيف ١٩٤١، تشيفي تشايز، في ميريلاند، وهي ضاحية من ضواحي واشنطن، لحضور زفاف شقيقي وليام من روث وولسي وهي ابنة السيد والسيدة لستر وولسي. وكان والدها مثيرًا للاهتمام لأنه تولّى منصب المستشار القانوني لروبرت لانسينغ آخر وزير للخارجية في عهد الرئيس وودرو ويلسون. وقد التقى وليام روث وهو يدرس لنيل شهادة الماسترز في جامعة كورنيل.

إنطوت الحياة في الحرم الجامعي على متعة. وعلى رغم الركود الإقتصادي، كانت حفلات التخريج باللباس الرسمي منتشرة إلى حدّ أنني اشتريت بزّة توكسيدو بـ١٦ دولاراً. واستمتع أعضاء في ألفا في عزف موسيقى المناجاة لعنابر النوم في معهد ماكموراي، وكان يومذاك مدرسة للفتيات. وكان ويلبور مور، الذي استأجر غرفة بجانب غرفتي في منزل خاص، ينضم إلي من وقت إلى آخر في تسلية فتاة أو اثنتين من معهد ماكموراي بعزف ثنائي عبر الهاتف - ويلبور يعزف على السكسوفون وأنا على الصوار.

حصلت، بفضل برنامج الشبان الفديرالي، على ١٢٠ دولارًا لقيادة فرقة معهد إيلينويز الموسيقية خلال سنتي الإعدادية. وأوحى ذلك باليأس في قسم الموسيقى في المعهد، لأن معرفتي الوحيدة بالموسيقى تأتي من تأديتي العادية للصوار من بين الآلات النحاسية، وانخراطي كطالب في مجال قيادة الفرق الموسيقية لسنة واحدة خلال المرحلة الثانوية. وهيّأت فرقة المعهد، بقيادتي، برنامجًا كنسيًّا لمدة أسبوع، وقدّمتْ قبل البدء به تمامًا حفلة موسيقية خارجية - تميَّز كلاهما بطوله وحسب.

ادخرت، صيف ١٩٤١، ٢٣٠ دولارًا من عملي خادمًا في فندق منتجع في ويكيتونسينغ، ميتشيغان. وفّر لي الوظيفة رئيس الخدم روبرت، شقيق تشارلز مينيس. تضمنت واجباتي تقديم وجبات الفطور في الغرف الخاصة ومساعدة النساء الضعيفات في شد مسكات ماكينات النقود المخفية في الغرفة الخلفية

وغسل سيارات الليموزين وانتظار القطار اليومي الآتي من ناشفيل موطن معظم نزلاء الفندق.

شكل يوم السابع من كانون الأول/ديسمبر من تلك السنة صحوة. كنت أنزل الدرج من غرفتي المستأجرة في جاكسونفيل، وأنا أتوقّع الخروج خلسة للتوجه إلى الكنيسة. ووقفت بدلًا من ذلك وقد ذُهلت عند الطبقة الأولى وأنا أستمع إلى الرئيس روزفلت يعلن أن الولايات المتحدة تشارك في الحرب. تلاشت الأفكار الانعزالية وعرفتُ ان الخدمة العسكرية على الأبواب.

انضممت في وقت مبكر من ١٩٤٢ إلى اثنين آخرين من أعضاء في ألفا في توقيع الانضمام إلى تدريبات الطيران في البحرية. ووقعت أيضًا متابعة الدراسة صيفًا في كلّية الحقوق في جامعة شيكاغو، وقد ساعدتني في ذلك ملاحظة حارة بعث بها البروفسور سميث إلى العميد. وأملت في الحصول على شهادتي قبل ارتداء البزّة العسكرية. ومن شأن نقل الCredits من الفصل الدراسي الصيفي في كلية الحقوق في جامعة شيكاغو أن يؤهلني لنيل درجة البكالوريوس من معهد إيلينويز بحلول كانون الثاني/يناير ١٩٤٣. ومكنني اكتتابي في برنامج التدريب من أن أبقى مدنيًّا حتى شباط/فبراير. وقد يساعدني صيف الدراسة في شيكاغو في أن أقرر هل أريد حقيقة أن أصبح محاميًا.

أجريتْ حفلتا تخرّج في معهد إيلينويز في تلك السنة. ومن حسن حظي أن علاماتي في كلّية الحقوق - أثنتان «جيّد» وواحدة «حسن» - بلغت معهد إيلينويز بعد قبول عضويتي في بيتا كابا. فعلاماتي في معهد إيلينويز كانت كلّها «ممتاز».

كنت حافظًا متأصلًا للسجلات في أيام المدرسة والمعهد. ويكشف دفتر القُصاصات خاصتي كل قيد للدخل أو المصروف تقريبًا. فقد بقيتْ أمي تغسل ثيابي، التي أرسلها إليها عبر شركة الطرود البريدية، إلى أن التحقتُ بالبحرية. وقد احتفظنا على الدوام بعلبة كرتون متينة قيد التداول. وكان شحنها من

شيكاغو إلى برينستون يكلّف ٥٠ سنتًا. وتكلّف قصة الشعر في شيكاغو ٥٠ سنتًا، والعشاء الكامل ٧٠ سنتًا، والسينما ٢٥ سنتًا وما فوق.

وقمت في شيكاغو، في مقابل الغرفة والفطور، ببعض الأعمال المنزلية في منزل أحد الاساتذة وزوجته. شاركتُ الاستاذ الفطور، وكان دوما رفيقًا ممتعًا. ونزلت في إحدى الليالي في فندق تابع لجمعية الشبان المسيحية في مقابل ١,٢٥ دولارا. وعندما احتجت إلى غرفة في ليلة أخرى، رُفض طلبي لعدم وجود غرفة شاغرة في الفندق. وعرف أحد الرجال بذلك فعرض أن يشاركني غرفته. ووافقت من دون تردّد على رغم إبلاغي أنني سأنام على الأرض. وقبل أن أغط في النوم سألني هل سروالي الداخلي يضايقني. أجبته بالنفي، لكنني وجدت السؤال غريبًا. لم يحاول الرجل التقرّب مني، لكنني عندما أفقت كنت وحدي في الغرفة واحتوت محفظتي دولارين أقل مما امتلكت قبل أن أغفو. بقي معي ما يكفي لأركب القطار إلى برينستون.

سمح لي ما كسبته من صيفيتين سابقتين، إضافة إلى المنح الدراسية، بالخروج من المعهد متحررًا من الديون. وكان معظم الدخل من ذي جورنال-كاريير حيث غطيت في صفة رئيسة الأحداث الرياضية وقمت ظرفيًّا بمراجعة مسوّدات لوحة الطباعة. وبدلا من تقاضي خمسة سنتات للإنش الواحد أصبحت أتقاضى ٤٠ سنتًا في الساعة زيدت إلى ٥٠ سنتًا عندما أصبحت طالبًا في الصف ما قبل الأخير.

حملني الحظ الطيّب إلى معهد إيلينويز حيث اكتسبت صداقات دائمة وخبرة قيّمة وبخاصة من خلال عضويتي في الجمعية الأدبية في ألفا. أصبح المعهد هوى رافقني مدى الحياة وقد بدا أنه يمسك بي بقوة أكبر مع كل سنة تمر. فقد خدمت على مدى ٢٥ عامًا في مجلس أمنائه، ولا أزال، وأنا في الثامنة والثمانين، أؤدي دور «الأم الحاضنة» للطلاب الأعضاء في في ألفا.

توجهت، في شباط/فبراير ١٩٤٣، إلى مونماوث، إيلينويز، بصفة كوني طيارًا متدربًا في البحرية. لم أكن أحسن السباحة، ولم يسبق لي أن ركبت

طائرة أو رأيت المحيط. إلا إن ذلك لم يشكّل أمرًا غريبًا، إذ إن البحرية اكتظت بالفعل بالشبان «الذين يتم إعدادهم في تسعين يومًا» والذين لم يروا الكثير غير حقول الذرة قبل أن يصبحوا بحّارة. وكانت البحرية تحتاج، عندما اكتتبتُ، إلى ألفي متدرّب جوّي إضافي. وكان مجندو معهد إيلينويز بين الملتحقين الستمئة الأول بالبحرية.

الفصل الثالث: حرب ورومانسية في غوام

استمرت خدمتي في الحرب العالمية الثانية ما يقارب ثلاث سنوات، أمضيت الأشهر العشرة الأولى منها في قواعد التدريب في الولايات المتحدة، وما تبقى في عمق المحيط الهادئ حيث خدمت ضابطًا لإمدادات البناء في خلال عملية تحرير غوام، ولمدة وجيزة إبان احتلال اليابان. وفيما أنا في غوام، أدت برقية من وزارة البحرية إلى ترقيتي وترقية المئات غيري من الملازمين الثانين إلى رتبة ملازم صغير. وكانت الملازمة، لوسيل جيمي، وهي ممرضة جوية جميلة من منطقة بوسطن غيّرت اسمها لاحقًا طوعًا إلى فندلي، قد حازت على ترقية نصف الشريطة الإضافية قبل مني بشهرين. كذلك حازت، مع نهاية الحرب، نجمتي حرب واحدة عن إيوا جيما والأخرى عن أوكيناوا، وقد تأخرتُ عنها إذ نلت واحدة فقط عن غوام.

ولا أعتقد ان نيرانًا عدوّة أطلقت أبدًا عليّ أثناء خدمتي في الحرب. غير أن نارًا صديقة اخترقت في إحدى الليالي خيمتي وسقطت على لوحة أرضية على بعد إنشات قليلة فقط من السرير الذي كنت نائمًا فيه. وقد أطلقها ضابط بناء يساعد رفاقه في احتفال متهوّر برأس سنة ١٩٤٥ أطلقوا فيه نيران البنادق والمسدسات عرضًا في الهواء. ربما توجّب علي انتزاع الرصاصة من اللوحة الأرضية كبرهان لاحق لأحفادي على أنني كدت في إحدى المرات أصاب بالرصاص.

شكلت الحرب واحدة من أعمق التجارب في حياتي. قادتني الصدفة المحض، وأنا في غوام، إلى لوسيل التي أصبحت في كانون الثاني/يناير زوجتي الحبيبة ورفيقتي وبعد ذلك أم ولدينا كريغ ودايان. وكان لاستمالة لوسيل مغزى، بالنسبة إلي، أهم من تحرير غوام سوى أن الحملتين تشابكتا.

شكّلت الخدمة في البحرية أول نمط حياة منضبط لي. وقد استلزمت أيضًا لمسة قيادية ظرفية. تمتّعت، منذ يومي الأول كتلميذ في المدرسة الحربية، بالانضباط: جدول مواعيد شخصي منتظم ليلًا ونهارًا، تمارين النظام المرصوص، بل وحتى طلب اعتماد التشكيلات المربعة ونحن نسير إلى صفوف المدرسة الإعدادية.

توليت، عندما أصبحت ملازمًا ثانيًا، المسؤولية عن مسلك الآخرين، غير أنني نادرًا ما احتجت إلى ممارستها. وكنت مسؤولًا في غوام عن نحو **٣٠٠** ألف دولار من المال النقدي. وأحصل على إيداعات من مخازن السفن وأتولى عمليات الدفع اليومية، فيما أشاهد أوراق العملة الممزقة والمُلصقة نفسها تدور عبر الاقتصاد الصغير للكتيبة. وتساءلت، منذ جمعت المال النقدي، في كانون الأول/ ديسمبر ١٩٤٥، ونقلته إلى ضابط آخر، هل دقق أحدٌ في سلسلة رتب البحرية الطويلة في رصيد حساباتي.

شعرت، منذ البداية، برضىً ذاتيٍّ عن الدور الذي أدّيتهُ - ولو صغيرًا - في هزيمة قوات دول المحور. ولو أنني لم أتمكن من ارتداء اللباس العسكري والخدمة في منطقة قتال لشعرت بالحرمان. وكان شقيقي وليام، وهو عالم في كلية الهندسة في جامعة إيلينويز، خبيرًا مُعترفًا به في اختبار المواد البلاستيكية المهمة في المجهود الحربي. وقد أعفي من التجنيد العسكري وبقي في الحياة المدنية طوال سنوات الحرب. وربما أنه لم يشعر الأسى على نفسه في هذا الشأن، لكنه فوّت عليه تجربة مهمّة.

شكّلت مونماوث أول محطة لي في الخدمة، وهي بلدة صغيرة من حوالى ثمانية آلاف نسمة على مسافة بضع ساعات فقط بالسيارة من منزل أهلي في برينستون ومن موقع معهدي في جاكسونفيل. وأنشأت البحرية في حرم معهد مونماوث برنامج طيران إعداديًا مدته ثلاثة أشهر صُمم لإبقاء المتدربين منشغلين إلى ان يشغر مكان لهم في مدرستي الطيران الرئيستين في كوربوس كريستي في تكساس، وبنساكولا في فلوريدا.

لم تكن الدورة التدريبية شاقة. وقد احتفظتُ بحبر الطابعة في دمي وبما يكفي من وقت الفراغ لإطلاق جريدة للمتدربين اسمها وينغ تيبس. وكتبت افتتاحية في الأعداد الأولى، وعملت محررًا للأخيرة قبل تخرجي. ويظهر دفتر قصاصاتي أن في وسعي القيام بـ٢٣ تمرين سواعد (pushups) من دون توقّف، وهو إنجاز أُخبر عنه بمزيج من عدم التصديق والحنين. وأعلن الضابط القائد، قبل انتهاء الدورة التدريبية، خطوة إضافية لتلامذة المدرسة الحربية قبل بدء التدريبات النهائية على الطيران. وهي كناية عن مدة تدريبية من ثلاثة أشهر مع بعض التدريبات الجوية في معهد سانت أمبروز في دافنبورت المجاورة، في أيوا. [حفيدتي ليز طالبة الآن هناك.] وفي دافنبورت مطار صغير أجرينا فيه تدريبات يومية على الطيران في طائرات متينة ذات محرك واحد عالية الجناحين تُسمى إيرونكاس. وسرعان ما أصبحنا نقوم بانقلابات على الجناح وبصعودات شمعدانية وبانقضاضات وبحركات تحلّق وبهبوطات تدويميّة وقد استمتعت بمعظمها حتى في خلال ساعات الطيران المنفرد. وعلمت، بعد قليل على وصولنا، أن خطوة إضافية مباشرة ستؤدي قريبًا إلى إطالة أمد العمل الاعدادي بعد دافنبورت. وقد تجدون صعوبة في تصديق الأمر، لكن القلق اعتراني لأنني لن اتمركز في منطقة قتال قبل نهاية الحرب. أردت الذهاب إلى ما وراء البحار. وطلبت في تموز/يوليو نقلي إلى مركز التدريب البحري في البحيرات الكبرى شمال شيكاغو حيث تلقيت، بعد ذلك بأسابيع، شهادة ضابط في سلاح التموين، إلى جانب أوامر بالتدريب في كلّية الاعمال في هارفرد. وتوجهت، بعد شهرين في هارفرد، إلى بيرل هاربور. وانضممت هناك إلى البحرية المتركزة برًّا، وخدمت في الكتيبة ٧٢ للبناء البحري، وهي وحدة نُظّمت في جورجيا وجُهّزت بالفعل للهجوم على جزيرة غير محدّدة في المحيط الهادئ البعيد.

ووقعت في خلال ذلك السياق اربعة حوادث غير مُقررة ولكن بارزة.

أبدلت الملفات الطبية في البحيرات الكبرى، وتقرر فجأة، على رغم أنني أشعر أنني في تمام العافية، خضوعي لجراحة في مستشفى القاعدة. ومن حسن الحظ أن الغلطة اكتشفت قبل أن يقطع الجراحون جزءًا صحيحًا من جسدي.

تمتعت خلال نهاية الأسبوع في الجزء التاريخي من وسط شيكاغو بالرقص في مرقص التريانون حيث تعزف الفرق الكبرى الموسيقى وتبلغ تسعيرة الحفلة عشرات السنتات فقط. وكان معظم الرجال، وأنا منهم، يرتدون الزي العسكري ويصلون من دون رفيقات. وكانت الفتيات الجذابات المتجمعات على مقربة من الجدران متوافرات دائمًا لدورة حول الحلبة.

وكان من دواعي سروري، وأنا في هارفرد، أن أنقل ابن شقيقتي الرضيع، رونالد، من المستشفى إلى البيت. وهو الطفل الأول لشقيقتي الكبرى ميريام وزوجها هربرت شالر. وكان هرب رقيبًا في الجيش متمركزًا في بوسطن وفي الخدمة يومَ أُخرجت الأم والطفل من العناية الطبية. وقد أقامت العائلة في شقة فوق مركز للاطفاء. ورزقا لاحقًا بأربعة صبية آخرين.

تحمّلت بعد هارفرد رحلة شاقة بالقطار من بوسطن إلى سياتل. أضفى النجم السينمائي جين كيلي إشراقًا على بعد ظهر أحد الأيام بمجيئه إلى عربة الراحة حيث كنت استمتع مع بحارة آخرين بلعبة بوكر ودّية. ووُجد كرسيّ فارغًا إلى طاولتنا، فقبل كيلي دعوتنا ليلعب معنا جولة. كنا نلعب المكشوفة بسبع أوراق، ولم يمكنني، لسبب من الأسباب، أن أخطئ. وربحت في سهولة. فهنأني كيلي في مرح، وصافح الجميع وغادر. وشكّل اللقاء مع كيلي أفضل الاوقات لأنه كان دومًا ممثلي وراقصي المفضّل. ومثّل في تأدية لا تُنسى في فيلم أميركي في باريس An American in Paris. وكانت الرحلة، في ما عدا ظهور كيلي، بائسة. فالطقس قارس البرد، والطعام رهيب، وبقيت عربات القطار من دون تدفئة طوال أوقات تأخير متكررة استغرق بعضها بضع ساعات.

لكن الأسوأ لم يأت بعد. فقد صعدت في سياتل إلى متن سفينة نقل مع مئات عدة من العناصر العسكريين الآخرين المتوجهين إلى المحيط الهادئ البعيد. كان البحر هائجًا ويتقاذف السفينة مثل طابة كرة الطاولة. أمضيت الكثير من الوقت في التقيّؤ من جانب السفينة. وبقيت أتقيّا حتى بعدما فرغت معدتي. وحاولت تشتيت ذهني عن أحشائي من خلال قراءة الحرب والسلام لتولستوي،

لكن قناة هضمي لم تعد إلى وضعها الطبيعي إلا بعدما رست السفية في بيرل هاربور. وقد احتفظت بالكتاب ذكرى للبؤس.

عملت، في خلال الأسابيع القليلة في بيرل هاربور، في مهمات جديدة بصفة كوني ضابطًا مسؤولًا عن الصندوق ومفوّضًا وتعلّمت أمثولة مهمة في البوكر. قمت، ونحن نلعب إحدى الدورات، بتمرير دوري عندما بدأت المراهنة على الرغم من امتلاكي ورقًا يمكنني أن افتتح به اللعب. ولما بدأت المراهنة من حول الطاولة وبلغتني في المرة الثانية زدت الرهان الذي لم يُبت بعد. قفز زميلي الضابط في قسم المؤن، دان برو، وهو مسؤول في شركة ناشيونال كاش ريجيستر في الحياة المدنية، على قدميه وخبط أوراقه على الطاولة وصاح «يا معبّئ أكياس الرمل، يا ابن الزنى». لم يسبق لي أن سمعت قط عبارة معبّئ الرمل، لكنني عرفت أن عبارة ابن الزنى ليست مجاملة.

جاء رد فعل القسيس إدوين هامبريك، وهو راعي إحدى كنائس اتحاد الكنائس الحرّة في نيويورك، هادئًا من مكانه إلى الطاولة. ففيما تشدّق برو بالكلام بأعلى صوته، شرح لي تشابي، كما نسميه، في هدوء أن لاعب البوكر الذي يمرّر فرصته الأولى في الرهان لكنه يزايد في الدورة الثانية يكون مذنبًا بالخطيئة العظيمة. وهدأ برو في النهاية، واستؤنف اللعب. وأخبرني هامبريك، بعد ذلك بسنوات في اجتماع لضباط كتيبة البناء في البحرية، أنه بقي مستيقظًا حتى أولى ساعات ما بعد منتصف ليل تعبئة الرمل محاولًا اقناع برو بأنني مبتدئ جاهل لم يسمع قط بتلك الخطيئة. وشعرت أن برو بقي، حتى نقله عائدًا إلى الولايات المتحدة بعد ذلك بأشهر، ينظر إلي بتوجّس كل مرّة نلتقي في لعبة بوكر.

ولم يتبق الكثير من الوقت للعب بعدما صاح ضابط التنفيذ في الكتيبة، الرائد البحري لستر كلاوبرغر: «قُضي الأمر». كانت تلك مقدمته الدرامية في إبلاغ فريق الضباط ان الكتيبة ستشارك قريبًا في تحرير غوام. وستكون وسيلة نقلنا سفينة شحن هولندية قبطانها شقيق للألماني النازي المارشال رومل. وسرعان ما حُمّلت بالكثير من المعدات والمؤن الضرورية لبناء قاعدة جوية

للبحرية. وكان من المتوقّع للرحلة إلى غوام أن تستغرق نحو أربعة ايام، غير انها استغرقت ٣٥. فقد استدارت سفينتنا، إلى جانب عدد كبير آخر من السفن، عن الهدف لمدة ٣٠ يومًا، إلى جزيرة أنيويتوك المرجانية الصغيرة في انتظار الأوامر للإبرار في غوام. وأمضيت معظم الأيام إلى طاولة البوكر. وكانت الفِيَشُ رخيصة جدًا بحيث لا يخسر الواحد أكثر من خمسة دولارات حتى في خلال يوم طويل من اللعب. وأصابني الحظ في الأيام الأولى وكدّست أرباحًا بلغت ٢٠٠ دولار. لكن الحظ انقلب فتقلّصت، في قوت بلوغنا غوام، إلى بضعة دولارات.

كان الرصاص لا يزال يئز من حول أغانا، الخليج الرئيس في غوام، لمّا شرع فريق الكتيبة في إفراغ المعدات والمؤن في عملية نُفذت على مدار الساعة. استولى المارينز الأميركيون على معظم الجزيرة. وبلغ عدد القتلى الأميركيين ١٤٠٠ معظمهم من المارينز. وخسر اليابانيون أكثر من خمسة آلاف. وأول أمر لاحظته، إلى جانب اطلاق النار المتفرّق، هو الرائحة الكريهة لجثث الموتى الآخذة في التعفّن في الحرّ الاستوائي. وأنا لم أنس ذلك قط. وقد حضر، بعد سنوات، في شكل واضح إلى الذهن عندما جلنا أنا ولوسيل في ١٩٩١ على أوتستراد الموت بين البصرة ومدينة الكويت في نهاية حرب الخليج ورأينا جثث العراقيين في الدبابات والشاحنات المهجورة على جانب الطريق.

عرفت في غوام ان الخطر الشخصي قد يكون متربّصًا بي. فالجزيرة تقع في مجال سلاح الجو الياباني. ولربما حملت إحدى الرصاصات المتطايرة في الجوار اسمي عليها، إلا أنني لا أذكر انني فكرت باحتمال الموت ولو بفكرة عابرة.

قضت مهمتنا بتوسيع مدرج صغير على إحدى التلال لتحويله قاعدة جوية للبحرية كبيرة بما يكفي للتعامل مع حركة الطيران الكثيفة. وبصفة كوني ضابطًا أمينًا للصندوق ومفوّضًا لم يكن لدي الكثير لأفعله في خلال عمليات الإبرار الفورية. فلن يتم بناء قاعة للطعام إلا بعد تسوية الأرض المرتفعة لإقامة مساكن القاعدة. ولن تكون هناك حاجة حتى يوم الدفع إلى أن يبدأ العمل بنظام

محاسبة الموجودات والصندوق. في الأيام الأولى التي أعقبت الإبرار، اتخذت موقعًا لي في منطقة تخزين على إحدى التلال القريبة من أغانا عاصمة غوام. وتولّى الانتقال رجال خبراء في البناء في حياتهم المدنية. وكانوا جميعهم تقريبًا في أواخر الثلاثين أو أكبر. ومعظمهم متزوج. وكثيرًا ما قيل لي، وأنا في الثالثة والعشرين وواحدٌ من الاصغر سنًّا بينهم، أنني أبدو أشبه بالتلميذ الثانوي.

أصبحت متعلّقا بالقهوة. وكانت آلة صنع القهوة بدائية وهي كناية عن برميل فولاذ بسعة خمسين غالونًا (حوالى ١٩٠ ليتراً)، تغلي فيه المياه التي تحتوي كيسًا كبيرًا من البن المطحون على نار خشب هادئة فتعطي طعمًا خصوصًا بعد منتصف الليل. وكان الطعام كناية عن معلبات ووجبات موضّبة باردة مغذّية ولكن يستحيل التلذذ بها. وشكّلت الوجبات الموضّبة ألواحًا من مادة داكنة تمت الدعاية لها على أنها مغذّية. أما المعلبات فكناية عن أنواع طعام مختلفة في علب صغيرة. وكان فرن الخبز أولى المعدات التي يتم تركيبها. وشكّل تناول الخبز الطازج للمرة الأولى منذ أيام سعادة محضًا. وفي ما يشبه القصة المضحكة للانتقال إلى البر، رفض الرائد البحري كاوبرغر مغادرة سريره في السفينة. وكان لا يمكن رئيسه، القبطان والتر بلو، الاستغناء عنه بصفة كونه ضابطًا تنفيذيًا والثاني في سلسلة القيادة في الكتيبة. وأمر القبطان الغاضب طبيب الكتيبة بتحديد هل تسمح صحّة كلاوبرغر له بالنزول إلى البر. ولما أعطى الطبيب الضوء الاخضر، أمر بول بأن يُسحب ضابطه التنفيذي ويوضع في خيمة. وسرعان ما اختير ضابط تنفيذي آخر. ولكن مرت أسابيع عدة قبل شحن كلاوبرغر إلى الولايات المتحدة. ولا أعلم ماذا كان مصيره النهائي. واعتقد انه الوحيد، بين رجال الكتيبة الألف والثمانمئة، الذي لم يطأ الشاطئ بقدميه.

وسرعان ما أصبح لعناصر كتيبة البناء، الذي يعملون بالتناوب على مدار الساعة، أجنحة للنوم ومكاتب وقاعة للطعام - وكلها في الخيم - وسرعان ما نشطت الحركة في المدرج الكبير على مدار الساعة. وأُنجزت مباني التخزين ومساحة توقف الطائرات الموسعة في غضون أسابيع قليلة. وكان الملازم هومر بارجر، رفيق خيمتي في ذلك الوقت، خبيرًا في بناء صهاريج ضخمة لتخزين

وقود الطيران. وأقنع رسّام اللافتات في كتيبتنا بوضع لافتة على مدخل خيمتنا مستوحاة من رسم فكاهي شعبي. وكتب عليها «فأر الخيل المستوحد وجو الأصلع». وكان هومر فأر الخيل وأنا الأصلع. وأنشأ هومر، قبل الحرب العالمية الثانية وبعدها، مصانع للحديد والصلب وحقولًا من الصهاريج في مختلف أنحاء نصف الكرة الغربي. وهو، وأنا أضع هذا الكتاب، في الثالثة والتسعين ولا يزال يقود سيارته. ونحن بين آخر المتبقين أحياء في الكتيبة، ولا نزال ندردش عبر الهاتف.

كنت بين الحاضرين الدائمين للشعائر الدينية التي يحييها تشابي صباح الأحد. وعرضتُ، في خلال التحضيرات لأحد فصح ١٩٤٥، أن أقود الجوقة في شعائر الفجر. أحسنت الجوقة في تأدية أحد الأناشيد في تمرين بعد الظهر، لكن أصواتها بالكاد أصدرت نعيقًا عند الفجر. ولم يبد القسيس أي احتجاج عندما قدّمت استقالتي من إدارة الجوقة.

وأشغلني تولّي جداول الدفع وأمانة الصندوق، في خلال أشهر غوام الطويلة، معظم الوقت في خيمة أمانة الصندوق حيث تألف فريقي من ضابط صف بحري وثلاثة قيّمين على المخزن. جرّبت تدخين السجائر في محاولة منّي لأكون اجتماعي النزعة، وهو أفضل عذر أمكنني تقديمه. وأقلعت عن التدخين بعدما سمعت عَرَضًا أحد أمناء المخزن يقول إنني لا أستنشق الدخان أبدًا. وكان ضابط الصف البحري معي طوال معظم تجربتي في غوام هو جيمس ميللر، وهو في حياته الخاصة مدير معمل تشاكلز للحلويات في دانفيل، إيلينويز. وزرناه وزوجته فيلليس مرات عدة بعد الحرب.

لم تذهب خبرتي في تحضير الطعام إلى ما هو أبعد من الموافقة على وجبات الأسبوع التي يحضّرها ضابط الصف البحري أنجيلو روتونّو، وهو رفيق سفينة آخر أصبح صديقًا خاصًا. وباع، قبل الانضمام إلى البحرية، مطعمه في سينسيناتي. ولم يواجه أي مشكلة في غوام في تنظيف قاعة الطعام والمطبخ استباقًا لجولات التفتيش الدورية التي يقوم بها الضابط القائد بلو. وتحدّثت بعد

سنوات لاحقة على الهاتف مع أنجيلو الباكي، إذ كان في المرحلة الأخيرة من صراعه القاتل مع السرطان.

وسرعان ما أُنجز العمل، بقيادة القسيس هامبريك، بملعب للكرة اللينة وكرة المضرب. وكنت ملتقطًا دائمًا في الكرة اللينة على رغم أن معدّل ضرباتي كان متدنّيًا. وكانت ضربتي دوما بليدة لأنني ممن يستخدمون يدهم اليمنى. فتسقط الكرة، في المناسبات القليلة التي أصيبها فيها، في يمين الملعب داخل خط القاعدة الأولى تمامًا. وقد أجريت معظم تماريني في ملعب كرة المضرب.

كانت الأخبار شحيحة، وكذلك الكتب والمجلات. بل وكانت التقارير عن الحملة العسكرية في المحيط الهادئ نادرة. وشكّلت الجزيرة الصغيرة -٢٠ ميلًا في أعرض جوانبها- عالمي. وقام المارينز بأمور عظيمة، وكذلك فعل عناصر كتيبة البناء ومهندسو الجيش. بُنيت مدارج عملاقة، ومواقع لاسطول متزايد، في اطراد، من القاذفات الكبرى التي تلقي بقنابلها على طوكيو وغيرها من المدن اليابانية، الأمر الذي شكّل مقدمة عنيفة للاجتياح الأميركي المُنتظر. ولم يعد بعض القاذفات إلى غوام. وأصبحت حفرة عميقة أنشأتها مشاريع البناء في غوام مقبرة للطائرات المحطّمة.

وبين أوائل رعاة القاعدة الجوية البحرية في أغانا كانت لوسيل و١١ ممرضة جوية أخرى تابعات للبحرية، وهو فريق فريد من نوعه كان الرائد في الإخلاء الجوي للمصابين في ساحات القتال. وقد تبادلن الأدوار في رحلات الطائرات المستشفى من طراز دي-سي٣ من غوام إلى أيوا جيما حيث تدور واحدة من أكثر معارك الحرب العالمية الثانية دموية. وقد اعتمدن القرعة لتحديد الترتيب الذي سيبدأن به الرحلات. وكانت لوسيل الثالثة في الترتيب.

في كل رحلة كانت ممرضة وجندي يرافقان ٢٨ مجنّدًا بحريًا جديدًا ينزلون من الطائرة على مدرج صغير لرفع عدد القوى المشاركة فعليًّا في المعارك. وبعد أن تغادر القوات الجديدة الطائرة، تساعد الممرضة والجندي ٢٥ من المارينز المصابين بإصابات بالغة في الصعود إلى حمّالات، كل أربع منها مثبّتة

بعضها فوق بعض في جدران القمرة. وهي بالكاد تسع المرضى، إذ تفصل ثلاثة إنشات المريض عن الحمالة التي فوقه. ويستغرق إفراغ الطائرة وتعبئتها ثلاثين دقيقة في العادة.

ويوجد أحيانًا عنصر أو عنصران يقاومان خروجهما من الطائرة. ويفعل بعضهم ذلك وهو يبكي. إلا أن واجب الممرضة بصفة كونها الضابط المسؤول الطلب من الجميع بالخروج، دامعين أو غير دامعين. وباتت خسائر المارينز في المعارك كبيرة إلى حدٍّ أنّ، وللمرة الأولى في تاريخ السلاح، أصبح معظم المارينز من المجندين الجدد. والكثيرون من الذين نزلوا في أيوا كانوا من المراهقين.

كانت الرحلة الجوية تستغرق نحو ثماني ساعات. وتنطلق في بعض الأيام رحلات عدة في تعاقب سريع. وكل منها يغادر غوام قبيل منتصف الليل وقد تقرر هبوطها فجرًا وهو توقيت يخفف من مخاطر غارة جوية يابانية خلال التفريغ والتحميل. واضطرت لوسيل، في إحدى رحلات الوصول، إلى الانضمام إلى المارينز لمدة ٣٠ دقيقة في أحد التحصينات فيما المدرج يتعرّض للهجوم. ولما اختفت الطائرات اليابانية، وأعيد ردم الحفر على المدرج، عادت الطائرة مع المصابين والطاقم في سلام إلى غوام. ونجت الممرضة غوين جنسن بشق النفس عندما أحدثت النيران اليابانية ثقبًا في أحد الجناحين. وعاد الطيار إلى أيوا بعدما خشي أن تؤدي الرياح إلى توسيع الثقب. واكتشف الهبوط تسرّب في أحد خزانات الوقود فأُصلح. وقالت جنسن: «من حسن الحظ أننا عدنا إلى أيوا للإصلاح، وإلا لرمينا بحمولة طائرة من المرضى في المحيط».

وحصل كل عنصر جريح من المارينز على ميدالية القلب الارجواني قبل مغادرته أيوا. وحاول أحدهم إعطاء الميدالية للوسيل، لكنها اقنعته بأخذها إلى والدته في الديار. وقدّمت الممرضات الساندويشات إلى الجرحى. وتذكّرت إحدى الممرضات أنها قسمت الخبز بسيف ياباني استعارته من أحد المرضى الذي كان سيأخذه إلى منزله كتذكار. وكثيرًا ما كانت ممرضات الجو يضعن أحمر الشفاه والعطور لإضفاء لمسة بيتيّة على مظهرهن. وقد أحب المرضى

العطر، وكانوا يطلبون من الممرضة أن «مرّي من أمامي من جديد». وسمعت إحدى الممرضات، وهي تتحقق من أحمر شفاهها، أحد المرضى يقول في هدوء: «تبدين كأمي تمامًا عندما تضع أحمر شفاهها». بل أن المارينز كانوا يطلقون النكات وحتى وهم شديدو الإصابة. فقد صدرت إليهم الأوامر، على غرار جميع المارينز، بالتوجه بكلمة سيدي إلى كل من هو أعلى منهم رتبة، واستمتعوا خصوصًا بتوجيه مثل هذه العبارة إلى الممرضات. وسأل أحدهم مرة الملازم ماري ليهي: «سيدي، هل يمكنني التوجّه إليك بيا حبّوبتي؟»

والمهمة التي شكّلت تحدّيًا للممرضة والجندي في رحلات العودة هي في إبقاء ٢٥ مريضًا مصابين بجروح خطرة أحياء. كانت المهمة معقّدة، ولم تكن قمرات الطائرة مضغوطة، والطيارون يطيرون على علو مخفوض للتخفيف من نزيف المريض. وهو ما يجعل الرحلة مملوءة بالمطبّات الجوية. وكان يتم نقل الجرحى، ببلوغهم غوام، إلى مستشفى محلي للعناية الطارئة قبل الطيران بهم إلى مستشفى عام في هاواي.

طلبتُ، بعد سنوات لاحقة، من لوسيل وزميلتها ممرضة الطيران الملازمة ليهي [أصبحت الآن هودنال]، أن تقدّرا العدد الكامل للرحلات التي قامت بها الممرضات إلى أيوا جيما. فتشاورتا عبر الهاتف واستنتجتا ان كل واحدة من الممرضات الـ١٢ قامت بما لا يقل عن ستّ رحلات، ذهابًا وإيابًا، إلى أيوا. ويعني هذا أن كلًّا منهن اعتنت بما لا يقل عن ١٥٠ جريحا. أي ان ١٢ ممرضة اعتنين، على وجه الإجمال، بنحو ١٨٠٠ مارينز. ولم يمت إلا مريض واحد على الطريق، وهو رقم قياسي استثنائي في العناية حصلت الوحدة من جرائه على وشاح الثناء من قائد العمليات البحرية. وقامت كل ممرضة، بعد معركة أيوا جيما، بثلاث رحلات على الأقل لإنقاذ جرحى معركة دموية أخرى، وهذه المرة في أوكيناوا. وتطلبت الرحلة الجوية من غوام تسع ساعات. وقامت لوسيل أيضًا برحلة إنقاذ إلى سامار في الفيليبين.

لم تنقص الممرضات الحيلة في تحسين المساكن في غوام. فقد وجدت لوسيل، لدى عودتها من أيوا بعد ظهر أحد الأيام، أن الاعصار أطاح خيمة

الممرضات وكل محتوياتها، بما في ذلك العطر وأحمر الشفاه. وأخذت هي وصديقتها المقربة وزميلتها، الملازمة ميرتل «هومي» هانا، رحلة إلى هاواي لإعادة التزوّد وقد وضعتا العطور على رأس قائمة تسوقهما. نامتا الليلة في مساكن البحرية في أواهو، ولاحظتا، في حسد، مرآة على الجدار وقررتا أنها ستخدم المجهود الحربي في شكل أفضل لو انهما نقلتاها إلى مقر سكنهما في غوام. وكانت تسع تمامًا في الكيس البحري الذي تستخدمانه حقيبة. وفي المصطلح البحري غير الرسمي، تُوصف عملية النقل بأنها «مصادرة منتصف الليل». ووجدتا بعودتهما إلى غوام أن خيمة المنامة استبدل بها منزل جاهز من ماركة كوونست. وجاءت المرآة في مكانها تماماً. وحصلت مصادرة مماثلة عندما استولت ممرضتان على برّاد لمنتجعهما في خلال زيارة للعشاء على متن مدمرة مُواكبة رست موقتًا في ميناء أغانا. وحصلتُ على التصفيق عندما أقنعت النجار في كتيبة البناء بصنع ملاقط من الخشب المضغوط للممرضات.

لم تحاول لوسيل ونورما القيام بمصادرة منتصف الليل عندما تناولتا العشاء في إحدى الامسيات إلى مائدة الأميرال ذي النجوم الخمسة، تشستر و. نيميتز، القائد الاعلى لعمليات أسطول المحيط الهادئ في مقره في إحدى تلال غوام. وهي لا تزال تعتني بالاحتفاظ ببطاقة تحديد أماكن الجلوس التي وقّع عليها الأميرال بطلب منها.

أدت الأمطار الغزيرة التي تروي غوام في شكل شبه يومي إلى أن يرشح المنزل الجاهز للمرضات بما يكفي لتتبلّل الأسرّة العليا. وتوزّعت الممرضات الانزعاج عن طريق تبادل الأدوار في الأسرة العليا. غير ان بعض الرشح تحوّل سيلًا وبلل كل الأسرّة.

بقي عدد من الجنود اليابانيين المُربكين يجوبون المرتفعات الاستوائية بعد وقت طويل على توقف الحرب. وقد أحيط جناح نوم الممرضات، لأسباب أمنية، بسياج من الأسلاك، لكن الحمامات الخارجية كانت تبعد عنه عشرين قدمًا. وتولّى اثنان من المارينز ليلًا حراسة الممر بين جناح المنامة والحمامات. وقالت إحدى الممرضات إن المارينز كانوا يثيرون هلعها أكثر من

احتمال التطفّل الياباني. وفي أحد الأيام ظهر جندي ياباني وحيد، من الواضح أنه كان مختبئًا لأسابيع في نباتات غوام الوافرة النمو، خارج مقر إقامة الممرضات طلبًا للطعام. وهرب إلى الهشير المجاور بعدما التقط تقدمة مؤلفة من بعض قطع الخبز.

واستذكر أحد عناصر كتيبة البناء السابقين، في اجتماع عقد بعد سنوات لاحقة، أنه كان يجلس القرفصاء على أحد الجذوع وهو يقضي حاجته، عندما قاربه جندي ياباني قائلًا بإنكليزية متعثّرة أنه يريد أن يستسلم. ولم يكن الإمساك أمرًا غير عادي في غوام، وربما كان هو سبب جواب عنصر البناء. فقد قال لمن على وشك أن يصبح سجينًا أنه منشغل جدًّا ولا يمكنه أخذه إلى السجن، ودلّه إلى طريق خيمة القسيس هامبريك.

كانت النهارات حارة ورطبة، والليالي رطبة وحسب، والبعوض متوافر في كثرة وحسن التسليح. وانتشرت الضفادع الفائقة الوزن في كل مكان، وأخذنا كل صباح ننفض عظاءات سريعة الحركة من أحذيتنا وغيرها من الألبسة قبل ان نرتذيها. واستيقظت في إحدى الليالي على صوت إطلاق النار. وبلغت الإشاعات جناح إقامة الضباط أن جنديًّا يابانيًّا كان يجوس في شكل ينذر بالخطر أسفل إحدى التلال المجاورة الشديدة الانحدار. عبق الجو بالضجيج والدخان فيما أطلق عدد من الضباط النار على المكان الذي أشيع أن الجندي حوصر فيه. زرت في اليوم التالي المكان الذي تركّز عليه اطلاق النار وعثرت على جثة اخترقها الرصاص، وإلى جانبها محفظة جيب مع صورة لامرأة يابانية وثلاثة أولاد صغار.

لفّني الهول والخسارة التي تشكّلها الحرب. وعلى الرغم من أنني سَلِمْتُ، علمت من رحلات لوسيل الجوية ببعض من الثمن الذي دفعه آخرون. وفي غوام أخذت مقابر الجنود الأميركيين القتلى تأخذ شكلها في بطء. بدت الحرب حماقة ومضيعة رهيبة للمصادر البشرية والمادية. فكّرت طويلًا متسائلًا عن طريقة تفادي الحروب في سنوات المستقبل. وقد اقترعتُ في الغربة، على غرار الملايين من الأميركيين الآخرين، في انتخابات ١٩٤٤. أدليت بصوتي ضد

إعادة انتخاب فرانكلين د. روزفلت لولاية رابعة، إلا إنني اعترفت له بقوته ومقدرته. وقد اهتززت جدًّا عندما أفادت الإذاعة عن موته المفاجئ بعد سنة على إعادة انتخابه. لقد رحل الرجل الذي كان رئيسا منذ كنتُ في الثانية عشرة من العمر. فكيف يمكن أميركا أن تتابع من دون قيادته؟ وتولى الرئيس هاري ترومان السلطة بصفة كونه نائباً للرئيس، وتساءلت هل يمكن هذا الرجل العديم الخبرة تولي المهمة.

وضّبت كتيبة البناء الثانية والسبعون التابعة للبحرية الأميركية أغراضها أواخر صيف ١٩٤٥ للمشاركة في الاجتياح المقرر للبر الياباني، وهي عملية يُتوقّع أن يواجهها بمقاومة ضارية سكان الجزيرة الدولة جميعهم. وأُجريت التحضيرات تحسّبًا لإصابات جمّة.

ومن حسن الحظ ان الاستسلام الياباني حصل، فنزلنا إلى الشاطئ قوة احتلال في القاعدة البحرية اليابانية في ميناء ساسيبو في كيوشو من دون إطلاق رصاصة واحدة او التعرّض لنيران معادية. وكنت، عند ذاك الحد، واحدًا من قلة من الضباط المتبقين في الكتيبة التي نزلت أساسًا في غوام. وقد نقل الآخرون عائدين إلى الولايات المتحدة. لاحظنا، فيما سفينتنا تتحرك إلى الميناء، القمم تحفل بالتحصينات والمغاور والميناء مطعّم بالمدافع. وتنفّس الجميع صعداء شكر عميقة على حصول ترومان على الاستسلام غير المشروط للقوات العسكرية اليابانية. واحتلت الكتيبة في ساسيبو مقارَّ استُخدمت في السابق مركزًا لتدريب الضباط اليابانيين الجدد، واستمتعنا على الفور بوجبات ساخنة من حافظات الطعام التي تعمل على البخار الساخن والتي صنعها عناصر كتيبة البناء قبل مغادرة غوام. وشرعت في أوقات فراغي في جمع التذكارات. فقد قايض الجيران اليابانيون، من دون تردد، الكيمونو والفخاريات بالحلوى والسجائر.

بدت سيطرة الرجل في المجتمع الياباني واضحة. فقد لاحظت في أحد الأيام زوجين يابانيين يسيران على الطريق. لم يحمل الرجل شيئا. ورافقته امرأة، افترضتُ أنها زوجته، وهي تجر عربة بدولابين ثقيلة الحمولة. وسرعان

ما اكتسبت النساء في ظل القيادة التقدّمية للجنرال دوغلاس ماك أرثر وضعًا مساويًا للرجل.

في صباح أحد الأيام ركبنا أنا وصديقي الملازم ديفيد وود سيارة جيب إلى ناغازاكي، مسرح التفجير النووي الثاني وهو الانفجار الذي دفع باليابانيين إلى الاستسلام. وكان من الخطر زيارة الموقع في مثل هذا الوقت القريب بعد إسقاط القنبلة، ولكن لم يظهر، في حالي، أي أثر للتلوث في السنوات التي تلت. كان المشهد عبارة عن دمار شامل وكآبة. لم يتبق شيء من المدينة الصناعية العظيمة سوى حطام في حجم كرة القاعدة أو أصغر، وعارضات حديد ملتوية كالمعكرونة الرطبة. سرنا إلى مركز الانفجار ونظرنا من حولنا. كانت المساحة فارغة لأكثر من ميل واحد في كل اتجاه. ولاحظت بقايا صغيرة قليلة من مبان قرميد.

عندما ضربت القنبلة ناغازاكي مات ما يُقدّر بـ٧٣ ألف شخص على الفور وأصيب المزيد من الألوف بإعاقات على مدى الحياة. صدمتني ضخامة كلفة الحرب للمرة الأولى في قوة. كانت تلك لحظة عميقة وربما أنتجت وعياً فوريًا. فقد مات، على طرفي الحرب العالمية الثانية، ملايين الشبان والكثيرات من النساء ممن في الخدمة العسكرية. وهلك أيضًا مئات الألوف من المدنيين. ونُكبت الملايين من العائلات. وقد استحال احتساب كلفة البؤس الانساني. وأنا كنت واحدا من الناس المحظوظين، إذ نجوت ولم أصب بخدش.

تعهّدت في ذهني، وأنا أفكّر مليًّا في القتلى الأبرياء الذين شاهدتهم بأم العين في غوام ونغازاكي، القيام بما أمكنني القيام به في الحياة المدنية للتخلّص من «آفة الحرب الهائلة هذه» على ما سمّاها لينكولن. وتساءلت ماذا يمكن شابًّا من حقول الذرة في إيلينويز أن يفعل، إذا تمكن من فعل أي شيء، للتأثير في القرارات الكبرى مثل الحرب والسلم. وصممت على إبقاء هدف منع الحرب في المرتبة الأولى في ذهني مع انقضاء السنين. ربما أمكنني أن أصبح صوتًا عامًّا يمكنه أن يدعو المواطنين إلى التحرّك.

أخذ مجال العمل السياسي يجذبني وأنا أقود الجيب عائدًا إلى ميناء ساسيبو. أين عليّ أن أبدأ؟ أفي ممارسة الحقوق؟ الصحافة؟ وكيف يمكنني البدء؟ لنبدأ بالأمور أوّلًا بأوّل. أَخْطُبُ لوسيل وأتزوجها، إذا رضيت بي. وسبق ان أخبرتها ان جني المال ليس أولوية كبرى في أحلامي المستقبلية. أردت قبل أي شيء أن أصنع فارقًا في السياسة العامة - لتفادي الحروب، نعم. فكيف عليّ أن أبدأ؟

الفصل الرابع: المحرر الريفي

عندما وصلت الأوامر بالعودة إلى الولايات المتحدة، قال الضابط التنفيذي للكتيبة أنه يستطيع أن يتدبّر لي رحلة استجمام إلى مدن الصين الرئيسة قبل أن أطير عائدًا إلى الديار. شكّل ذلك عرضًا مغريًا، لكن الروابط الأخرى كانت أقوى. وصعدت، بدلًا من ذهابي إلى الصين، في رحلة جوية إلى غوام. وتراءى لي، عند هبوط الطائرة، منظر كامل للتلال المزدانة بصفوف منتظمة من الصلبان والمستودعات الشاطئية المملوءة بالجرافات وفوهات المدافع والمجارف، وهي آلات كبيرة مجهّزة للغزو المتوقّع لليابان. وقد أبرز المشهد سمة من الحتمية - (لمحة إلى الخسائر في الأرواح تعيد إلى المرء رشده إضافة إلى الدليل المحسوس إلى أن الحرب انتهت).

أمضيت الليلة في غوام، وصعدت من صَمَّ في رحلة جوية إلى هاواي حيث اشتريت للوسيل خاتمًا ألماسيًّا صغيرًا من متجر السفينة. ثم تنقلت بين الرحلات إلى أن بلغت القاعدة البحرية في أولاث، كنساس، حيث يُتوقّع ان تجتمع لوسيل والممرضات الجويّات الأخريات. ووجدت لدى وصولي الممرضات الأخريات ولكن ليس لوسيل الّتي أعاقتها الثلوج في إحدى القواعد الجوية شمال نيويورك. ووافقت صديقتها نورما هاريسون على اختياري للخاتم. وتوجهتُ، وقد دسستُ الخاتم في جيب الحزام، إلى موعد في منزل لوسيل في ستوتن، ماساتشوستس. وكانت مرّة أخرى في مكان آخر بسبب الطقس السَّيِّئ. وعرّفت أهلها وشقيقتها وصهرها بنفسي.

وتبع ذلك زفاف بسيط في مقر إقامة كاهن كاثوليكي محلّي. ارتدينا الثياب الشتوية الزرق، وهي الأدوات الرئيسة في مجموعة ثيابنا. وافترقنا مرّة جديدة

بعد رحلة شهر عسل قصيرة إلى نيو هامشاير المثلجة، فمضت لوسيل إلى سان دييغو لتُسرَّح من البحرية، أما أنا، وقد سبق أن سُرِّحت، فتوجهت إلى واشنطن العاصمة للعثور على مكان للإقامة والتأمل في طريقة القيام بالخطوة الأولى من مخططي لتخليص العالم من الحرب. وقد اخترنا واشنطن لأنها المركز العالمي للتحرّك، وموقع الكثير من كليات الحقوق، وديار إرلند إريكسون زميلي السابق في غرفة الأخبار في خلال أيامي في جورنال كوريير في جاكسونفيل، ومكتب كلارنس ك. ستريت وقد أصبح بالفعل بطل الآلاف من قدامى المحاربين والذي اعجبت به كواضع لخطة أعتقد أن في وسعها الحؤول دون حروب مستقبلية.

تسجلّت في كلية الحقوق في جامعة جورج واشنطن، ثم التقيت ستريت الذي كان يعدّ لمجلة شهرية جديدة سيطلق عليها اسم فريدوم أند يونيون. وعرض علي وظيفة مساعد لرئيس التحرير في مقابل ٤٠ دولارًا في الأسبوع. فوافقت، بعدما راجعت لوسيل بالعرض، وتخلّيت عن خططي في شأن كلية الحقوق. قررنا أن نشر صحيفة ريفية، بدلًا من دراسة الحقوق، سيشكل خطوة جيدة إلى الأمام وإلى الاعلى. فالعمل مع ستريت سيعطي دفعة لقضية جديرة فيما أدور أبحث عن عمل في صحيفة. وارتفع أجري بعد ذلك بأسابيع قليلة إلى ٥٠ دولارًا في الأسبوع.

بلغ تعويض الصرف من الخدمة العسكرية الذي دفعته لي ولاية إيلينويس ٢٠٠ دولار، فيما بلغ تعويض لوسيل الذي دفعته ولاية ماساتشوستس ٥٠٠ دولار. وفيما أخذت في العمل لستريت، حصلت لوسيل على وظيفة ممرضة في مستشفى. اقنعتها بجمع ثروتنا المتواضعة في حساب مصرفي واحد، مما دفعها إلى الاستنتاج بابتسامة أنني تزوجتها طمعًا بتعويض صرفها من الخدمة. كانت المنازل قليلة في منطقة واشنطن. فبات مسكننا الأول طبقة أرضية تُدفَّأ بموقد يعمل على النفط ولا تستقيم له حال. واستفقنا في صباح أحد الأيام لنجد فتحات أنفينا مغطاة بسخام الموقد النفطي. وسرعان ما انتقلنا إلى شقة حديثة على مقربة من مقبرة أرلينغتون، بفضل أحد مؤيدي ستريت ممن لديهم ملكيات

في شمال فرجينيا. وتألف أثاثنا الأول من فراش، وطاولة للعب الورق، وكرسيين قابلين للطي.

طلب ستريت في أحد الأيام أن نرافقه إلى نيوجرسي من طريق مانهاتن للقاء خبير في تصميم المجلات، وليونارد درو الرجل الذي سيصبح المدير التجاري لفريدوم أند يونيون. وتركتُ لوسيل، قبل الصعود إلى العبّارة إلى نيوجرسي للقاء خبير التصميم، ولم اتفق معها على زمان ومكان للقائي معها في وقت لاحق من النهار. حضرت لوسيل عرضًا لمسرحية موسيقية شعبية في قاعة راديو سيتي، ثم صعدت في أحد باصات مانهاتن من دون أن تعرف أين تلتقيني. وعندما انهى السائق جولته لذلك اليوم ووجد أنها لا تزال على متن الحافلة، قاد بها إلى مكان توقف العبّارة حيث افترقنا في وقت سابق من النهار. وقد أملتُ في شكل محموم في أن تظهر بأعجوبة. وقد فعلت. بدونا مرتبطين ارتباطًا وثيقًا بما يسمّى الحظ، لكننا تعهّدنا ألا نتهوّر أبدًا في وضع مخططاتنا، وبخاصة في مدينة نيويورك.

وبعودتي إلى واشنطن، وضعت مسوّدة مشروع طموح مع إريكسون. وهو يقترح مجلة اخبارية اسمها ذي ريكورد ستنافس رب عملي السابق ذي جاكسونفيل كوريير [إيلينويز]. وكان إريكسون يومذاك محرر الصور الليلي في الاسوشيتد برس في واشنطن. وتولّى أيام كنت في المعهد تحرير أخبار الوكالات في صحيفة جاكسونفيل. ووافق صديقي في المعهد تشارلز مينيس وهو عضو في فريق البوست ديسابتش في سانت لويس، ودرو على أن يكونا مستشارين. وأسهم إريكسون في معظم النص. وكان يمكن الريكورد أن تنجح، إلا أنها لم تذهب إلى ما هو أبعد من البيان التمهيدي. وبعد شهر على ذلك دعانا رجلان من جاكسونفيل، عرفتهما وأعجبت بهما أيام ما قبل الحرب، للانتقال إلى بيتسفيلد، على بعد ٣٥ ميلًا غرب جاكسونفيل، حيث سأدير ذي بايك كاونتي ريبابليكان، وهي أسبوعية محترمة أرادا إضافتها إلى سلسلتهما الصغيرة من الأسبوعيات. والرجلان هما ريتشارد ييتس رو الأكبر، وكان يعمل آنذاك أمينًا لصندوق ولاية إيلينويز، وروف جينينغز مدير أعمال المستشفى

الحكومي في جاكسونفيل وهو مؤسسة للمرضى العقليين. وقد توقعا مني أن أشتري ثلث الأسهم في مؤسسة جديدة ستملكها الصحيفة. وعدَّت لوسيل الأمر بمثابة خطوة جيدة، وقبلت الدعوة.

واحتجتُ، لشراء حصصي، إلى سبعة آلاف دولار إضافة إلى اعتماد مالي يكون بمثابة رأس مال عامل. وافقت أمي على إقراضي ألفي دولار، وكذلك فعل أهل لوسيل، أوفيلا وكاثرين جيمي، واقرضني وليام دودسورث، وهو مزارع من منطقة جاكسونفيل لم يسبق لي أن التقيته قط، أربعة آلاف دولار. وقد كفلني جينينغز محادثة مع دودسورث. وكانت القروض كلها غير آمنة وبفائدة أربعة في المئة. واشترينا، قبل مغادرة واشنطن، سيارة شيفروليه طراز ١٩٣٦ بثلاثمئة دولار - كان ذلك في آب/أغسطس ١٩٤٧ حيث حتى السيارات المستعملة كانت نادرة - وتوجهنا إلى بيتسفيلد ومتاع دنيانا موضب على المقعد الخلفي أو مربوط على السطح. وخلت السفرة من الأحداث في ما عدا اللحظة التي تطايرت فيها ثياب لوسيل عن سطح السيارة في منطقة مجهولة من الطريق الأميركية الرقم ٣٦.

وهكذا بدأت مغامرة استمرت ١٣ عامًا في بلاد الذرة والخنزير. وساعدنا إيرل غريغسبي، وهو مصرفي ودود، في شراء منزل، حتى أنه أقرضنا دفعة أولى غير آمنة. ورزقنا في بيتسفيلد بولدينا ثم أن الكثيرين من الأصدقاء الدائمين أغنوا حياتنا.

الفصل الخامس: بيتسفيلد والسياسة

شكّلت بتسفيلد، إيلينويز، مكانًا رائعًا لتربية عائلة وتميّزت لدى وصولنا باقتصادها المزدهر. وقد مرّ الطريق الأميركي السريع ٣٦ الذي يربط الشرق والغرب عبر وسط المدينة فحوّلها مركز استقطاب يجمع مقارّ الكثير من مؤسسات النقل عبر القارة. وكانت مقرًّا رئيسًا للإنتاج والتوزيع الزراعي، ومركزًا للمقاطعة تتألّف من أكثر من عشرين ألف نسمة.

تميّز عملي الجديد بجاذبية خاصة لأنه يمكن تقفّي أصل بايك كاونتي ريبابليكان إلى بايك كاونتي فري برس الصحيفة الأسبوعية التي امتلكها في ما مضى جون ج. نيكولاي الذي أصبح أمين سرّ الرئيس لينكولن. وكان نيكولاي الموظف الوحيد الذي تقاضى أجرًا في حملة لينكولن الرئاسية في ١٨٦٠، وعمل بعد ذلك سكرتيرًا رئيسًا أول خاصًّا للرئيس. وانضم، بعد خدمته في البيت الأبيض، إلى جون هاي، وهو أيضًا سكرتير للينكولن، ليكتبا سيرة حياة الرئيس. وبيتسفيلد مفعمة بالشخصيات التاريخية والمنازل المهمة في ملحمة لينكولن.

تعجّبتُ لإدارتي صحيفة وسط مثل هذه الترابطات الغنية بلينكولن. انتسبت إلى نادي الروتاري وإلى اتحاد الكنائس الحرّة ووسعت دائرة معارفي في المجتمع، وكذلك فعلت لوسيل التي انضمت إلى أخوية القديسة مريم في الكنيسة الكاثوليكية وإلى نادي الأربعاء للبريدج. وُلد كريغ بعد سنة على وصولنا إلى بيتسفيلد. وسرعان ما أصبح راكبًا دائمًا في سيارة الإطفاء كل مرّة يقود رئيس فوج الاطفاء فرجيل كريغشاوزر عائدًا من الاستجابة للإنذار. ولمّا أصبح كريغ، في ١٩٥٤، في الصف الأول الإبتدائي أضطرت المعلمة بيسي بنستون

إلى كبحه عن مغادرة غرفة الصف عند سماعه صوت صفارة الإنذار. وأصبح يرتاد المكتبة العامة في شكل دائم حيث قرأ كل أجزاء كتب أوز. وتطوّر لديه، وهو في المدرسة الابتدائية، حب للموسيقى من قائد الفرقة بول روزين. وتعلّم كريغ المبادئ الأولية للبوق الجهير والتزم دومًا تعمليات تنظيفه. وبلغ كريغ لاحقًا مستوى احترافيًّا في كل من البوق الجهير والصوار، وهو يرأس الآن قسم الصوار في أوركسترا جاكسونفيل السيمفونية.

وُلدت ديان في ١٩٥٤، غير أن تبعات مجيئها بجراحة تسببت بأكثر من سنة من الأوجاع المستمرة للوسيل. وفي خلال تلك السنة الصعبة سافرت شقيقة لوسيل الوحيدة، ليليان بيت، من منطقة بوسطن مع ابنها الطفل لتقدم يد المساعدة طوال أسابيع عدة. واكتشف الاطباء أثناء جراحة ثانية سبب ألم لوسيل وهو اسفنجة أغفلت خلال الجراحة التي أجريت لدى ولادة ديان.

ووقع واحد من الحوادث الأكثر إثارة للقلق في طفولة ديان في حوض السباحة العام في بيتسفيلد. كانت في الخامسة وسابحة ماهرة، إلا انها انزلقت في أحد الأيام عن لوح القفز وسقطت على الأرضية الباطونية من ارتفاع ١٢ قدمًا ووجهها إلى أسفل. لم تظهر الفحوص أي كسر - وهذه معجزة كبرى - لكن ديان مرضت على مدى أسابيع عدة. وتتشابك ذكرياتها عن بيتسفيلد مع شيلي، ابنة روبي ديفلي وهي صديقة لوسيل المفضلة في بيتسفيلد. لم تكونا تفترقان ليلًا أو نهارًا إلى أن انضمت ديان - باكية - إلى رحلتنا المضنية إلى واشنطن في كانون الثاني/يناير ١٩٦١.

ساعدتُ، في خلال سنوات بيتسفيلد، في اطلاق المركز الاجتماعي، ومهرجان الخريف السنوي، واتحاد تطوير الصناعة في البلدة. وقد أمّن الأخير معملًا لتصنيع اللحوم في بيتسفيلد. نشطتُ في نقابة الصحافة في إيلينويز حيث تعرّفت إلى رؤساء تحرير صحف كُثُر بينهم بول سيمون الذي أصبح لاحقًا زميلًا لي في الكونغرس. وتميّز عملي في الصحيفة بالتنوّع: قياس مساحات الاعلان، والإفادة بالأخبار، وكتابة الافتتاحيات، وإدارة الموظفين، وتولي القيام بمختلف أنواع تحديّات الصيانة.

وفّر جس م. تومسون، حتى وفاته، نسخة ملوّنة من الريبابليكان. كان ولوقت طويل لاعبًا أساسًا في فريق الصحيفة، وقد تميّز كمؤرخ لمقاطعة بايك. وهو عازب غريب الأطوار يرتدي دومًا بزة من ثلاث قطع وربطة عنق حتى في خلال الحرّ الشديد لمهرجان قروي صيفي. وافترض أحد عمّال الطباعة عندي ان لدى تومسون كرهًا متأصّلًا لغسل الثياب. فهو يظهر في صفة دورية بقميص جديد يرتديه يوميًّا إلى العمل لمدة أسابيع. ثم تتكرر العملية مع قميص جديد آخر. وشكّل تومسون ركيزة للريبابليكان، إلا عندما يكتب ظرفيًا افتتاحية راديكالية. وانتقل، لدى وفاة والدته، إلى غرفة في أحد الفنادق وأقفل مسكنهما حتى من دون أن يرفع الصحون عن طاولة المطبخ. ولم يُمسّ المنزل إلى ان توفى تومسون بعد ذلك بسنوات.

قام الديمقراطي بول دوغلاس، في أحد أيام ١٩٤٨، بحملة في بيتسفيلد من أجل انتخابه في مجلس الشيوخ الأميركي. تحدّث من درج مبنى المحكمة، وسرّني والكثيرين غيري باقتباسه عن ظهر قلب من قصيدة «بانتي تيم» Banty Tim من ديوان أرجوزات مقاطعة كانوتي لجون هاي. وقد أمضى هاي، الذي برز لاحقًا في المجال الدبلوماسي واضعًا معاهدة قناة بنما، شتاء واحدًا وهو فتي في بيتسفيلد حيث درس في أكاديمية صغيرة يديرها عمه المحامي ميلتون هاي. وتعلم جون هاي وهو في بيتسفيلد واستوحى شعره من اللهجة الفريدة والتقليد الفولكلوري لما بعد الحرب في مقاطعة بايك. وقد أصبح أيضًا على معرفة بنيكولاي.

انشققتُ موقتاً عن الجمهوريين الآخرين بعد استماعي إلى دوغلاس يتكلّم. وساعده تصويتي في التغلب على محاولة السناتور الجمهوري «كورلي» بروكز العمل على إعادة انتخابه. وتسبّبت في ١٩٥١ بالغيظ للمؤيدين المحليين للسناتور روبرت تافت بتأييدي المبكر لحملة دوايت أيزنهاور للرئاسة في الانتخابات الجمهورية التمهيدية المقبلة. وقد زيّنا نافذتنا العريضة بصورة ضخمة لأيك.

تطلّبت الريبابليكان انتباهًا شديدًا. فهي تتنافس مع أسبوعية ممتازة تسمى

ديمقراط تايمز. وتضمنت معداتنا أمرًا غريبًا وهو مطبعة غوس دوارة تطبع ١٢ صفحة. وقد حُشرت والمعدات التابعة لها في واجهة محل صغير عند طرف الساحة العامة تمامًا. وكانت لوحات الصفحات الاسطوانية تُصنع من معدن حام. وقد أمضى والد لوسيل، أوفيلا جيمي، الميكانيكي البارع معظم عطلة الصيف وهو يجري التصليحات على غوس.

قررتُ، بعد ثلاث سنوات من الإقامة في مقرّ ضيق، القيام بتغيير رئيس. وجدت شاريًا في تينيسي للمطبعة الدوارة، وتدبّرت في الوقت نفسه انتقال الريبابليكان إلى مبنى أكبر على بعد تجمّعين من المباني. واشتريت شبكة طباعية مسطحة مستعملة من أحد الباعة في نيويورك. وكان المقر الجديد واسعًا ما يكفي لتجهيز أمكنة منفصلة للمكاتب.

ويمكن تحديد انتاج الصحيفة من طريق تحبير الحروف النافرة على أنه أمر لعين تلو الآخر. وكان صبر الموظفين وولاؤهم أمرًا حيويًا. وقلما تفوه الطبّاع مايرون تيدرو بأكثر من دزينة كلمات كل يوم، إلا انه كان سيّدًا نبيلًا ومتفوّقًا في دفع الطباعة إلى الأمام. وتعلّم جيم هابكين، الجامد كالصخر، وبضعة طباعين آخرين الصنعة بمساعدة مالية من برنامج جي. آي. بيل الذي وضع الكونغرس قانونه مع نهاية الحرب العالمية الثانية. وتولت ماري، زوجة مايرون، مهمات رئيسة في حملتي الأولى للوصول إلى الكونغرس. وأخذا يرسلان إلينا، بعد بلوغنا واشنطن، قالب كعك في كل عيد ميلاد.

ويعيد يوم القبض أو شحنة من ورق الصحف أحيانًا رصيد الريبابليكان في البنك إلى حدّ الصفر، ولكن أمكنتنا النجاة بفضل التعاون المتعاطف من أحد المصرفيين الودودين. وحصلنا على رهن عقاري لدى انتقالنا إلى مبنى لوسترون، وهو بناء مؤلف كله من الفولاذ لم يحتج قط إلى إعادة تزويق من الداخل أو من الخارج. كلّفنا ١٣،٥٠٠ دولار، ولم يتطلب أي صيانة في ما عدا تصليح المرجل ووضع السجاد.

بعد انتهاء نقل الريبابليكان في ١٩٥٢، عادت الرغبة المفرطة في المنصب

الانتخابي إلى الظهور. وقررت، على رغم أن الاحتمالات وقفت بقوة ضد النجاح، ان أسعى إلى الحصول على تسمية الحزب الجمهوري لي لمجلس شيوخ الولاية. وتألفت المحافظة من أربع مقاطعات، أكبرها أدامز ومركزها كوينسي ذات الأربعين ألف نسمة. وهي أيضًا موطن محامية مشهورة جدًّا وخطيبة اسمها ليليان شلاغنهوف سبق لها أن أعلنت أيضًا سعيها إلى الحصول على التسمية.

سعيت، في وقت مبكر من الحملة، للحصول على نصيحة أحد الديمقراطيين في بيتسفيلد، وهو قاضي دائرة حكيم متقدم في العمر اسمه أ. كلاي وليامز. ونصح لي بأن: «صافح الجميع. كن مستمعًا جيّدًا. تتبع أولئك الذين يستجيبون في حرارة. وبهذه الطريقة ستكسب الأصدقاء وتأتي في الطليعة سواء نجحت في الانتخابات أم لم تنجح». حددتُ الانفاق على الحملة بستمئة دولار ولا أذكر أنني حصلت على تبرعات. وضعتُ إعلانات صغيرة في الصحف ولم أشتر أي إعلان في الراديو أو التلفزيون. حصدتُ في انتخابات آذار التمهيدية ثلاث مقاطعات - بايك، كالهون، وسكوت - لكن شلاغنهوف تمتعت بهامش كبير كفاية في مقاطعة أدامز لمحو تقدّمي في الثلاث الأخرى. وخسر شريكي في الصحيفة، راو، في اليوم نفسه سعيه إلى التسمية الجمهورية للحاكمية. وكتب في ملاحظة مؤرخة في ١١ نيسان/أبريل ١٩٥٢، «قمتَ بظهور رائع. آسف لأنك لم تفلح». وفي تعليق كتبتُه في ما بعد الانتخاب، وأعيد نشره في كوينسي هيرالد ويغ، وصفتُ الحملة الانتخابية بأنها «عمل شاق» غير أنني حثثت جميع القراء على «تجربتها في إحدى المرات». وحاولت في حملتي اتباع نصيحة القاضي في الاحتفاظ بعلاقات ودّية مع جميع الذين التقيتهم، بمن فيهم منافستي في كوينسي. فبعد فوز شلاغنهوف بالتسمية أعلنتُ دعمي لها في الانتخابات العامة في تشرين الثاني/نوفمبر. ولما حانت الفرصة بعد ذلك بثماني سنوات للترشح إلى الكونغرس، شكّل الاصدقاء الذين اكتسبتهم في خلال حملتي الفاشلة إلى مجلس شيوخ الولاية نواة الفوز النهائي بمقعد في تلة الكابيتول، وكانت السيناتور شلاغنهوف بينهم.

حصلت على مقعد في رواق الصحافة في مؤتمر ١٩٥٢ في شيكاغو الذي اختار دوايت د. أيزنهاور مرشّحًا رئاسيًا عن الحزب الجمهوري. وفي خلال حفل استقبال كبير جدًا سبق التصويت النهائي، اندسسْتُ من تحت الحبل الفاصل لأتمكّن من مصافحة أيك قبل أن يهرع به مساعدوه بعيدًا. ابتسمَ، ونظر مباشرة في عيني، وتصرّف كما لو انه مبتهج جدًّا بلقائي. كانت تلك لحظة لا تُنسى في الدراما السياسية المميزة التي دارت أحداثها لاحقًا في ساحة بيع المواشي في شيكاغو. وكانت الغلبة لأيك في كفاح عاصف تفوّق فيه على مرشحين بينهم الجنرال دوغلاس ماك أرثر، والسيناتور روبرت تافت، وحاكما كاليفورنيا إيرل وارن ونيويورك توم ديوي. وشكّل حدثُ شيكاغو واحدًا من آخر مؤتمرات التسمية للرئاسة التي تقوم فعلا بالتسمية. وقد انتُخب أيك في تشرين الثاني/نوفمبر بغالبية ساحقة حتى أنه تفوّق على المرشح الديمقراطي، أدلاي ستيفنسون، في مقاطعة بايك وهي في العادة ديمقراطية.

وعلى رغم تعلّقي الميؤوس بالسياسة، أخرجت من ذهني المزيد من الترشح الشخصي. فقد امتلأت كل المجالات بأناس يتمتعون بالشعبية ويُتوقّع لهم حياة طويلة. وامتلأت حياتي بنشاطات عائلتنا الشابة وبمهمة بناء الريبابليكان لتصبح قوة اجتماعية مربحة وبنّاءة.

بعد ذلك بسنتين، اتخذت ولوسيل قرارًا كبيرًا. سنحاول بيع مصالحنا التجارية في بيتسفيلد والسعي إلى حياة جديدة في الخارج. فلطالما راودنا توق شديد إلى مزيد من رؤية العالم وقررنا البحث عن الفرص. ولكن وقبل ان تكتسب أحلامنا المزيد من الزخم، أثبتت وفاة اثنين من غير الأقارب خلال مدة وجيزة من الزمن أنها حاسمة بالنسبة إلى مستقبلنا. كانت الأولى هيلن نيكولاي، الابنة الوحيدة لسكرتير الرئيس أبراهام لينكلون الأول الخاص. والآخر كان النائب سيد سيمسون، ممثل محافظتنا في الكونغرس.

تمتعت الآنسة نيكولاي بعلاقات مهمة في مقاطعة بايك، وقد غطّت الريبابليكان وفاتها في دقة وإحكام. كان قريب بعيد لآل نيكولاي لا يزال يقيم

في بيتسفيلد وساعدني في جمع المعلومات للنعي. فقد تعلّم نيكولاي، وهو مهاجر شاب من بافاريا، مهنة الطباعة في أسبوعية تصدر في بيتسفيلد وأصبح لاحقًا رئيس تحريرها ومالكها. وتعرّف أيضًا إلى لينكولن الذي كثيرًا ما جاءت به ممارسته المحاماة إلى بيتسفيلد. وقد أوصت الآنسة نيكولاي بممتلكاتها إلى مدبّرة منزلها فاي إليزابيث بيج التي ماتت بعد ذلك بأسابيع. فورثت الملكية أبنة السيدة بيج، السيدة باربرا بينوا وهي معلمة مدرسة في سنتر هاربور، نيوهامشاير.

وتضمّن العقار صورة - لوحة فريدة تظهر لينكولن مع سكرتيريه الخاصين نيكولاي وصديق نيكولاي وزميله جون هاي. التقطت الصورة في استوديو ألكسندر غاردنر في واشنطن في التاسع من تشرين الثاني/نوفمبر ١٨٦٣ قبل أيام قليلة على خطاب لينكولن في غيتيسبورغ. ويُعتقد أن ست صور فقط طُبعت من الأصل السلبي. استحصل نيكولاي على واحدة منها وجعل أحد الفنانين يحوّل الصورة البيضاء والسوداء لوحة بالألوان المائية. وصبغ الفنان الوجوه ببعض التعديلات الجمالية، التي وجدها نيكولاي ملائمة، وأحل محلّ الخلفية العادية صورة للغرفة التي تستخدم لاجتماع الحكومة في البيت الأبيض.

علمتُ أن هذه الصورة - اللوحة موجودة الآن في منزل بينوا، فقصدت منزلها في حزيران/يونيو ١٩٥٦ في زيارة جانبية بينما كنّا نزور أهل لوسيل على مقربة من بوسطن. وبطلب مني، سحبت السيدة بينوا الصورة - اللوحة من العلّية. وقالت إنها لم تفكّر ببيعها وهي لا تملك أي فكرة عن سعرها في السوق. وبعد محادثة ودّية عن علاقاتي في بيتسفيلد، باتت السيدة بينوا على استعداد للحديث عن البيع. أشرتُ إلى فريديريك هيل ميسيرف، الهاوي الرئيس لجمع صور لينكولن في العالم، والذي يقيم في مدينة نيويورك. فوافقت السيدة بينوا على اقتراحي محاولة الاتصال به هاتفيًّا للحصول على تقدير لقيمة الصورة. وفوجئتُ بتمكني من بلوغه سريعًا بوساطة الهاتف. وقال إن الصورة قد تساوي ١٠٠ دولار على الأقل إذا ثبت أنها أصلية. ووافقت السيدة بينوا، بعد نقاش قصير، على بيعها بمئتي دولار. فسررتُ وشعرت بالسخاء وأعطيتها

شيكا بـ٢٢٠ دولارًا. وبعد ذلك بأسابيع قليلة ظهرت الصورة معلّقة بفخر على جدار مكتبي في مقر الريبابليكان الجديد.

أبلغتُ جون هاي ويتني بما اقتنيته. وهو ثري متحدّر من جون هاي، ويعمل سفيرًا للرئيس أيزنهاور في بريطانيا العظمى. قمت بذلك لأنني عرفت أن عائلته أعربت سابقًا عن اهتمامها بشرائها. وردّ ويتني بالرسالة التالية: «إذا ما أرادت البايك كاونتي ريبابليكان التخلي أبدًا عن هذه الصورة - اللوحة، فسأقدّر بالتأكيد إبلاغي بذلك». ولم تكن لدي حينذاك نية للبيع، ولكن من الجيّد معرفة أن هناك رجلًا ثريًا يهتم.

بعد ذلك بسنة، وفي أوائل تشرين الأول/أكتوبر ١٩٥٨، تحدّث النائب سيمسون من منصة موقتة مكرّسًا جناحًا جديدًا في مستشفى بيتسفيلد. حدث ذلك قبل شهر على يوم الانتخابات العامة الذي توقع فيه الجميع أن يفوز بولايته التاسعة في الكونغرس. وطلبت مني اللجنة أن أقدّم سيمسون لعلمها بمعرفتي به. ونزلت، بعدما أدليت بملاحظاتي، عن المنصة للحصول على تقدير أفضل لخطاب سيمسون. وعندما أنهى عضو الكونغرس ملاحظاته جلس وما لبث بعد ثوانٍ قليلة ان راح في غيبوبة. نُقل إلى غرفة طوارئ المستشفى على بعد خطوات من المكان حيث أُعلنت وفاته.

قلت في تلك الليلة للوسيل أنني سأحاول الحلول محل سيمبسون كمرشح جمهوري إلى الكونغرس في الاقتراع الذي سيحصل بعد شهر. وأنا متأكد من أنها لم تأخذني على محمل الجد. وقمت في خلال اليومين التاليين بزيارة جميع رؤساء المقاطعات الجمهوريين في المحافظة، إن شخصيا وإن عبر الهاتف. ولم يرحب أي منهم بمبادرتي.

واقنعوا، عن حكمة، أرملة سيمسون إدنا في أن تكون المرشحة. وقد فازت في سهولة لكنها أبلغت الأسوشيتدبرس، لدى وصولها إلى واشنطن، أنها لن تسعى إلى إعادة انتخابها. وأعطى إعلانها للمرشحين نحو سنتين للقيام بحملتهم للحصول على التسمية في الانتخابات التمهيدية في آذار/مارس ١٩٦٠.

وقابلتُ من جديد كل رئيس مقاطعة جمهوري. وقلت عند كل مرحلة أنني أرى المناسبة فرصة عمر ووعدت بأن أبذل أفضل ما عندي لضمان التسمية والفوز بانتخابات تشرين الثاني/نوفمبر، على رغم أنني ساؤجل إعلان ترشيحي إلى ما بعد سنة. لم يقفز أي من الرؤساء فَرحًا، لكن الكثيرين منهم كانوا ودّيين. وحظيت بأفضل الابتسامات عندما أشرت إلى دعمي المبكر لأيزنهاور وكان يومذاك في منتصف ولايته الثانية كرئيس. وفي غضون أيام، أعلن ثلاثة رجال آخرين اهتمامهم بالحصول على التسمية وهم: المدعيان العامان للولاية ألبرت هول من جاكسونفيل، وألفين أوفكس من كوينسي، وكلايد باولس وهو بطل رياضي سابق من مقاطعة سكوت ويعمل راهنًا مسؤول ارتباط في البيت الأبيض.

امتدّت المحافظة على مئة ميل من الشرق إلى الغرب وتضمنت مقاطعات في الجنوب مثل كالهون وغرين، وأخرى في الشمال مثل هانكوك وماكدونو. وتنتمي المحافظة عادة إلى الديمقراطيين على رغم أن الجمهوري سيمسون احتفظ بمقعده في الكونغرس على مدى ١٦ عامًا. ولم تغط صحيفة وحدها أو محطة تلفزيون المحافظة كاملة. فالمحطات الإذاعية كانت كثيرة وتتركز في المجتمعات.

كانت الاحتمالات ضد نجاحي عظيمة. فبيتسفيلد مدينة صغيرة. وكلّ من منافسي الثلاثة معروف أكثر مني. واحتجتُ للفوز إلى أمرين فوق كل شيء آخر: الأول، إلى الحرية في تمضية معظم السنتين وأنا أقوم بحملتي؛ والثاني، إلى خطاب غير متحيّز على ما يكفي من الجودة ليتذكّره المستمعون بعد ذلك بأشهر عندما أعلن ترشحي. ولم يمكنني أن أتوقّع، كوني أملك أقلية الأسهم في مؤسسة الجريدة، أن يسعد شريكاي إذا أهملت واجباتي كمدير للصحيفة على مدى السنتين المقبلتين. كذلك لا يمكنني تحمّل الاستقالة لأنه ليس لديّ مدخول آخر وعليَّ ديون على المنزل والعمل. واحتجت لكسب الحرية اللازمة للقيام بالحملة إلى أن اشتري حصص شريكيّ.

ساعدني أبراهام لينكولن في تحقيق المطلبين. ساعدني في تمويل عملية الشراء التي أحتاج إليها ووفّر لي الخطوط العريضة للخطاب الذي وسّع سريعًا من تأييدي على مستوى المحافظة.

القسم الثاني: السير في ركاب لينكولن



الفصل السادس: إيب يتقدّم المسيرة

فاجأني حاملا الاسهم الآخران في ذي بايك كاونتي ريبابليكان عندما أبلغاني أنهما يريدان البيع. كنت عند ذاك الحد سحبت الأسهم المميزة من التداول مما جعل الشراء ممكنًا بـ ١٦ ألف دولار، وهو مبلغ عليّ جمعه سريعًا. وتبادر إلى ذهني على الفور ما أعرب عنه السفير ويتني من استعداد لشراء صورتي - اللوحة الثمينة. وقد اشتراها بثمانية آلاف وخمسمئة دولار، وهذا مكسب جيّد من الـ٢٢٠ دولارًا التي شكّلت استثماري الاصلي، ووهبها على الفور لمكتبة جون هاي في جامعة براون في بروفيدانس في رود آيلند. وأرسل إليّ صورته وقد كتب عليها هذه الكلمات: «آمل في أن التخلي الحزين عن الصورة الاصلية لهاي - نيكولاي سيعود بأيام سعيدة على البايك كاونتي ربابليكان - وعليك شخصيًا». ومكنتني عملية البيع لويتني، إضافة إلى المزيد من الاقتراض من دودسورث ومن فارمرز ستايت بنك في بتسفيلد، من أن أصبح المالك الوحيد للصحيفة ومن أن أكسب استقلالي في السعي إلى انتخابي في الكونغرس.

تم الشراء في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٥٨، إلا إنني لم أرغب في أن يُنظر إلي على أنني أسعى وراء الاصوات قبل أن أتقدم بطلب ترشحي بعد ذلك بسنة. واعتقدتُ أنني لو أعلنت ترشحي على الفور لعُدِدت سياسيًّا وبالتالي سأستبعد الناس غير المتحزّبين الذين أرغب في بلوغهم.

احتجت أيضًا إلى خطاب قوي مقبول من هؤلاء المستمعين. كتبت خطاباً عن المؤتمر الدستوري الأميركي وآخر عن التضخم. ولكن لم يتضمن أي من النصين الجاذبية الانفعالية التي أردتها. وساعدني لينكولن من جديد. ظهر

موضوع مثالي من رسالة كتبها جون نيكولاي في ١٣ أيار/مايو ١٩٠٠، وأعيد طبعها في سيرة الحياة التي وضعتها ابنته هيلين. وتضمنت الرسالة الموجهة إلى جمعية بلومينغتون التاريخية الجمل التالية:

«من حسن حظّي أنني كنت واحدًا من المندوبين من بايك كومباني إلى مؤتمر ١٨٥٦ في بلومينغتون، وأن أستمع إلى الخطاب الملهم الذي ألقاه أبراهام لينكولن في ختامه والذي استحوذ على انتباه المستمعين إلى حدٍّ أن المراسلين الصحافيين أسقطوا أقلامهم ونسوا عملهم. وسمعته في قاعة المشرّعين في سبرينغفيلد يلقي ذلك الخطاب الشهير الذي اقتبس فيه المثل من الانجيل عن أن البيت الذي ينقسم على نفسه يخرب... وسمعت في ويغوام في شيكاغو تعداد الحضور والتصفيق المدوي الذي قرّر تسميته الأولى للرئاسة ورحّب بها... وعند البوابة الشرقية للكابيتول في واشنطن سمعته يلقي خطاب تسلّمه السلطة الأول الذي أعلن فيه ديمومة الاتحاد... وسمعته في ساحة المعركة في غيتيسبورغ يلقي خطاب غيتيسبورغ الخالد... رأيته يوقّع القرار المشترك في الكونغرس الذي يقرّ التعديل الثالث عشر للدستور... وسمعت من شفتيه مرة أخرى عند البوابة الشرقية الكلمات السامية لخطاب تسلمه السلطة الثاني».

تمتع نيكولاي، بما لا يُصدّق، بامتياز ان يكون حاضرًا في كل واحدة من اللحظات العظيمة في حياة لينكولن، وهو من دون شك الشخص الوحيد الذي تمتع بمثل هذا الامتياز. وأفضل من ذلك كلّه ان لنيكولاي، من وجهة نظري المحازبة، رابطًا سلفيًّا بالصحيفة التي أملكها. شكّلت الرسالة هدية لي من لينكولن لا تُقدّر بثمن لأنها وفّرت الخطوط العريضة لخطاب قوي غير متحيّز. سأخبر قصة نيكولاي المهاجر الفتي من بافاريا الذي كافح بوضعه المتواضع كمتعلّم لصنعة الطباعة ليصبح مالكًا ورئيس تحرير لصحيفة أسبوعية في بيتسفيلد ولاحقًا السكرتير الخاص للرئيس لينكولن. سيكون فحوى الخطاب ان نيكولاي كان هناك. وأتبعتُ الرجوع إلى كل إعلان تاريخي بترداد الكلمات التي سمعها نيكولاي من فم لينكولن وضمّنته حدثين رئيسين شهد عليهما شخصيًّا ولكن لم يشر إليهما في رسالته.

تمتع نيكولاي بالامتياز النادر بالوقوف إلى جانب لينكولن على المصطبة الخلفية لعربة القطار التي ألقى منها الرئيس المنتخب وداعه الخالد المرتجل لمواطني سبرينغفيلد في شباط/فبراير ١٨٦١. وفي حين انطلق القطار من المحطّة، طلب مراسل إحدى صحف نيويورك، هنري فيلارد، نص الخطاب المكتوب. لم يمتلك لينكولن أي نص لأنه ارتجل كلامه. وأخذ، مراعاة منه للمراسل، قلمًا وورقًا قانونيًّا وشرع في كتابة ما يتذكّره من كلامه. ولما بدأت العربة بالاهتزاز وزاد القطار من سرعته، ناول لينكولن القلم والورق لنيكولاي فسجل باقي النص الذي أملاه عليه الرئيس. وبقيت الوثيقة الأصلية وهي تظهر في وضوح أين توقف خط لينكولن وبدأ خط سكرتيره. وفي مناسبة أخرى أساسية ولكن غير مذكورة، غمس نيكولاي القلم في المحبرة وسلمه إلى لينكولن ليوقّع على إعلان تحرير العبيد.

يمكن قصة نيكولاي أن تشكّل موضوعًا آسرًا يربطني بمهارة بملحمة لينكولن بطريقة قد تشكّل أساسًا ممتازًا لترشُّحي اللاحق. وامتلكت أسبابًا وجيهة للاعتقاد أنها ستكون فاعلة. فقبل ذلك بأسابيع، أخبر أحد زوار نادي الروتاري في بيتسفيلد عن التجربة المميزة التي اختبرها في تقديم برنامج ناديه الروتاري في كوليدج ستايشن في بنسلفانيا. وقال إنه لم يتفوّه بأي كلمة من عندياته خلال التقديم. وكل ما فعله هو قراءة مقتطفات من خطابات لينكولن. وقد استمع الحضور في صمت. ولما انتهى وقف الحضور وحيّاه بالتصفيق الطويل.

شكل ذلك ردًّا قويًا وانفعاليًا لكلمات لينكولن السحرية. وقررت، وأنا أحضّر خطابي، أن أتلو عن ظهر قلب الكلمات التي سمع نيكولاي لينكلون يتفوّه بها وأن أحْبك تلك التلاوات في القصة المميزة لذلك المهاجر الشاب. وقد عنونتها «لينكولن الحي»، وهي تتطلب ٢٥ دقيقة لإلقائها، وهو الطول المناسب لأي برنامج ناد أو عشاء في كنيسة. ولمّا اختبرتها في نادي الروتاري في بيتسفيلد بدا الأعضاء كأنهم افتتنوا. ولما انتهيت، وقفوا على غرار حضور نادي الروتاري في بنسلفانيا، وصفقوا في قوة.

بعث رئيس نادي بيتسفيلد، بطلب مني، بملاحظة إلى نوادي الروتاري

الأخرى في المحافظة مقترحًا أن يضعوني على جدول برنامجهم. وأوصى سكرتير نادي الليونز المحلي، بعدما ألقيت كلمتي فيه، بأن اتحدّث في أندية الليونز الأخرى. ومرّر رئيس مدارس بيتسفيلد الديمقراطي هارولد فوشال الخبر إلى مديري المدارس المجاورين الآخرين. وكذلك فعل رئيس رابطة الأهل والمعلّم في بيتسفيلد مع الرؤساء الآخرين للروابط. وكتب طبيب أسنان صديق إلى غيره من أطباء الاسنان. وكتب أيضًا الطبيب الشرعي المحلّي، على رغم كونه ديمقراطيًا، إلى غيره من الأطباء الشرعيين. وكنت أتنبه إلى كل المجموعات مهما صغر حجمها.

كان الحاضرون يصمتون عندما أتحدث. لا حفيف أقدام، ولا نظرات إلى الساعات. بدوا متعلّقين بكل جملة من جمل لينكولن. وكل مرة أنتهي يقف الحضور مصفقًا. كانت التجارب مُسكرة، ومنشّطة. واضطررت إلى تذكير نفسي بأنني الرسول وحسب. فالتصفيق حصل للينكولن، وليس لي، غير أنني أملت في أن يتذكّرني الحضور شاكرًا لجلبي لينكولن إليه. وقمت سريعًا، من خلال تتبع أخبار الذين سمعوني أتحدث، بإنشاء ملف بطاقات أخذ يتوسّع سريعًا وعرفت أنه سيفيدني عندما أبدأ بحملتي. وحصل كل خطاب على تغطية صحافية احتفظت لوسيل بها في دفتر القصاصات.

زرت، قبل أن اعبئ عرائض الترشيح، حاكم إيلينويز وليام ج. ستراتون وسكرتير الولاية تشارلز كاربنتيير، وكلاهما جمهوري ومن معارفي. أخبرتهما عن طموحي، وكيف أتحرّك، وأريتهما دفتر قصاصات دعايتي. وقدّم كل منهما، بطلب مني، اقتراحات في شأن الأدبيات التي أحضّرها لحملتي.

كان كاربنتيير مهمًّا خصوصًا إذ إنه، بصفة كونه المسؤول الأكبر في الولاية الذي يتعامل مع الانتخابات، سيتحكّم بمواقع الأسماء عندما تُطبع أوراق الاقتراع. ولم أتقدّم بأي طلب يتعلّق بقوائم الاقتراع، ولكن ومع حلول الوقت ظهر اسمي في رأس القائمة المعدة للطباعة. وأعلنتني أدبياتي من دون تواضع «الرجل الأول في القائمة والرجل الأفضل للوظيفة».

ومن دهشتي أنني، حتى بعدما أعلنت ترشحي في كانون الأول/ديسمبر ١٩٥٩، تحدّثت في حضورٍ غير محازب. كان جو بونانسينغا، مدير القناة العاشرة وهي محطة تلفزيون في كوينسي تغطي معظم دائرة المحافظة الانتخابية، بين الحضور عندما تحدّثت في نادي روتاري في كوينسي. وتدبّر لي، بعد ذلك بأسابيع، أن ادلي بخطابي الكامل في وقت الذروة في محطته وقد طعّمه بالصور في هذا المكان وذاك.

أدخلتُ الأمكنة التي تحدثت فيها في ملف يحتوي نص الخطاب. وبلغ تعدادها بحلول يوم الانتخاب في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٦٠ أكثر من مئة مكان، بمعدل اثنين في الأسبوع.

أصبحت مدينًا بالكثير الهائل لابراهام لينكولن. فقد ساعدني سحره في جمع المال لكسب الاستقلال في الحملة. ولو أنني لم أعرف بعلاقة نيكولاي الفريدة مع لينكولن لما ألّفت الرسالة المثالية التي وسّعت من دائرة معارفي في سرعة وإيجابية في كل أنحاء المحافظة. وأنا متأكد من أنني لم أكن لأصل إلى الكونغرس من دون مساعدة لينكولن.

وإلحاقًا بأسماء الأناس الذين استمعوا إليَّ وأنا أتكلّم، بقيت أيضًا أتتبع آثار آخرين التقيتهم عرضًا. وقد احتفظت بمخزون من البطاقات بقياس ٣ × ٥ في جيب سترتي الأيسر. وأخذت، كل مرة التقيت شخصًا، أسحب بطاقة بيضاء من جيبي وأكتب عليها اسم الشخص ونحن نتحدث، وعنوانه ورقم هاتفه، ثم أضعها في جيبي الأيمن. وما إن أعلنت ترشحي حتى أصبحت هذه البطاقات ملفًّا فوريًّا لعضوية اللجنة الاستشارية المؤيدة لوصول فندلي إلى الكونغرس. ووافق رئيس بلدية بيتسفيلد، فرانك بنستون الأكبر، على أن يتولّى رئاسة اللجنة. وعدّد بيان صحافي مبكر الأعضاء المؤسسين للجنة: ١٨ في بيتسفيلد، ١٠ في غريغسفيل، وخمسة في كل من بيري وباري، وواحد في بليزنت هيل، واثنان في كل من كوينسي وهامبورغ وإلساه. وأخذت لائحة المتطوعين يوميًّا في الازدياد.

أصبح لدي، مع حلول الحملة، معطيات عن أكثر من ألف شخص سمعوا خطابي أو التقوني عرضًا. وأرسلت، مع تقدّم الحملة، نشرة إخبارية إلى جميع المتطوعين والمستشارين. وبحلول الانتخابات التمهيدية في آذار/مارس، أصبح عدد المتطوعين ٢٠٠ والمستشارين ألفين. وحملت اللائحة، يوم الانتخاب في تشرين الثاني/نوفمبر، نحو ستة آلاف اسم. ومن دواعي دهشتي وغبطتي أن ما من أحد طلب شطب اسمه من اللائحة.

كانت الموارد المالية محدودة، وقد أصررت على ان تتفادى اللجنة التزامات تفوق المال الموجود في البنك. لم أحظ بداعم ثري يدفع فواتير الحملة، ما من «رجلٍ كهل يسترضي صبيّة». وقد كلفت الحملة التمهيدية تسعة آلاف دولار - موازنة أولية مُنازع عليها سينظر إليها سياسيو اليوم بعدم تصديق. وجاءت المساهمة من مصادر غير مُتوقّعة. فبعد أيام قليلة على إعلان ترشحي، جاءني المزارع كينيث ستارك من نيبو، وهو عضو في مجلس إدارة مكتب المزارع في إلينويز، بشيك بقيمة ٢٠٠ دولار طالبًا مني استخدامه في اللوحات الإعلانية وهو شكل الدعاية الانتخابية المفضّل لديه.

ونظم لاحقًا المتطوعين في مقاطعتي بايك وكالهون، وعمل من ثم سكرتيرا للجنة المؤيدة لوصول فندلي إلى الكونغرس. ولمّا يمضِ وقت طويل حتى أصبح مدير الحملة.

كان التحدي الأكبر هو في طريقة الوصول إلى مجموعة المواطنين الصغيرة نسبيًا الذين سيطلبون قوائم الإقتراع الجمهورية في انتخابات آذار/مارس التمهيدية. لم أملك، في محافظة من ١٤ مقاطعة اجمالي عدد سكانها يبلغ نحو ٣٠٠ ألف، أي أمل في أن التقي شخصيًا الثلاثين ألفًا الذين يُرجّح أن يصوتوا في الانتخابات الجمهورية التمهيدية. وسأكون محظوظًا لو صافحت واحدًا في المئة منهم في وقت سيتم الإدلاء بالأصوات. لم تسمح موازنتنا إلا بإنفاق متواضع على الدعاية في التلفزيون والراديو والمطبوعات، وكلها مهمة لكنها تفتقر إلى اللمسة الدافئة الشخصية التي أعدها مهمّة. اعتمدت على المتطوعين لتحفيز الكثيرين من المقترعين، لكنني قررت أن أركز المصادر المالية على

رسالة شخصية إلى حد كبير موجهة إلى الجمهوريين الذين يتوقّع أن يصوّتوا في الانتخابات التمهيدية. شكّل ذلك مهمة شاقة تتطلّب تعاون كتبة المقاطعة وتحضير رسالة سيتم قبولها نداءً شخصيًا مباشرًا يشكل ثاني أفضل شيء بعد المصافحة. ساعدني في التفاصيل نائب الولاية الجمهوري هيوز غرين من جاكسونفيل، وهو رئيس سابق لمجلس نواب إيلينويز ويحظى باحترام شديد بصفة كونه سياسيًّا محنّكًا كبيرًا. ساعدني في اختيار جمل وجيزة يمكنها ان تخلق انطباعًا إيجابيًّا. وأنا عرفت غرين واحترمته منذ أيامي في الثانوية. وربما أنه، بمساعدتي، أهمل حملته الخاصة. فقد سعى إلى إعادة تسميته كمرشح جمهوري إلى مقعد نائب في الولاية في الانتخابات التمهيدية نفسها التي ركّزتُ عليها، وقد هزمه هاريس راو الجمهوري الشاب رئيس مقاطعة مورغان وابن شريكي السابق في الصحيفة.

أسهم، ولدهشتي، معظم موظفي المقاطعة في جمع أسماء والعناوين للذين صوتوا قبل ذلك بسنتين في الانتخابات الجمهورية التمهيدية. حدث ذلك قبل عصر الكمبيوتر والبريد الجماعي الممكنن، وقد استهلك كتبة المقاطعة ساعات في تلبية طلبي. وحضّر فريق مطبعتي صيغة الرسالة. وكانت الرسائل والمغلفات من النوع الإجرائي على ورق مصقول، وهو ليس الحجم الاجرائي المعتاد. وطُبع النص بالحبر الأسود تاركًا مساحة فارغة في الأعلى لكتابة الإسم والعنوان والتحية. أمضت بيتي أور، وهي أم شابة من بيتسفيلد، ساعات ليل طويلة في مكتب الصحيفة مستخدمة آلتي الطابعة التي تعمل على شريط الكاربون وهي تعبّئ المساحات الفارغة. عبأت الفراغات في الرسائل في شكل ممتاز بالأسماء والعناوين والتحيات، وألصقت من ثم طوابع بريد الدرجة الأولى على كل مغلّف. لا أذكر عدد الرسائل التي تم تحضيرها، لكن مجموعها تجاوز الآلاف الستة. وقد أُرسلت بالبريد يوم الجمعة السابق لثلاثاء الانتخابات. جاء فوزي في الانتخابات التمهيدية قويًا في شكل مفاجئ. وكان مجموع أصوات المحافظة: ١٢،١٥٧ لفندلي؛ ٨،٠٦٢ لألبرت هال؛ ٦،١٧٧ لألفن أوفكيس؛ ٥،٢٩٢ لكلايد باولس.

أسهمت قوى متنوّعة في انتصاري، لكنني أعتقد ان عمل المتطوعين والرسائل الشخصية كانت الأكثر فاعلية.

بدأ، في اليوم التالي لتسميتي، العمل على العقبة التالية وهي يوم الانتخابات في تشرين الثاني/نوفمبر. ومع تولّي ستارك المسؤولية أخذت صفوف المتطوعين تزداد والأموال تأتي من مصادر غير متوقّعة. وقد استجاب اثنان من رجال الاعمال في مقاطعة سكوت، راي تشيري بشيك من ٥٠٠ دولار ولافرن جونز بما يزيد عن ٤٠٠ دولار جمعها من الجيران في وينشستر. وبعث شيلي غرين، وهو رجل أعمال من وايت هول، بخمسمئة دولار. إلا ان معظم التبرعات كانت ما دون المئة دولار. وفي أحد الأيام جلبت امرأة من بيتسفيلد تعيش من مساعدات الضمان الاجتماعي ٢,٧٥ دولار إلى مقر الحملة حيث تطوعت للعمل.

أمضى راي هامفريز، وهو موظف كبير في اللجنة الجمهورية الوطنية في الكونغرس، حياته وهو يساعد في انتخاب المرشحين الجمهوريين إلى الكونغرس. وقد دخل حياتي للمرة الأولى في إحدى الليالي المظلمة قبل أيام قليلة فقط على الانتخاب التمهيدي. التقينا في ماونت ستيرلينغ حيث أدت عاصفة قوية إلى قطع الكهرباء طوال الليل. تعارفنا، أنا وهامفريز، على نور الشمعة في واجهة أحد المحال. كنت حينذاك أزور مراكز المقاطعات، وأقوم بالاستطلاعات تحضيرًا لحملتي في الانتخابات التي ستجرى في تشرين الثاني/ نوفمبر.

أبلغني أن لا وقت أضيّعه، وعلي أن أقويّ جهاز المتطوعين لديّ بما هو أكبر بكثير من ذلك الذي ساعدني في الانتخاب التمهيدي. وعلي أيضًا أن أدرّب المتطوعين وأتخلّى عن مسؤولياتي في الصحيفة لأكرّس وقتي الكامل لانتخابي. أقنعني بتنظيم تجمع بعد عشرة أيام في مركز المقاطعة في بيتسفيلد وتدبَّرَ أن يكون النائب الجمهوري جون كيل، الذي فاز للتو بانتخاب خاص في أيوا، هو المتحدّث فيه. وأراد ان يشتمل الحضور رجال اللجنة الانتخابية الجمهوريين في مقاطعة بايك وأناسًا محليين من المتطوعين المُحتَملين.

تجمعت المجموعة في بيتسفيلد للعشاء وللاستماع إلى خطاب مُحرّكٍ من كيل، وفكرته الرئيسة أن تُكسب الأصوات كل صوت بمفرده. وقد حضر رجال اللجنة الانتخابية ومعظمهم يرتدي ربطات عنق متشبهين بالحاكم ستراتون. وكان بين الآخرين مصرفي شاب من جاكسونفيل هو فريد هوسفورد الذي سرعان ما سيحمل رايتي في مقاطعة براون. وجلب هوسفورد معه رجل الأعمال بيل كارل، من جاكسونفيل، وقد وافق بعد ذلك بسنتين على أن يصبح رئيس الحملة على مستوى المحافظة بهدف إيصالي إلى الكونغرس. وشكل ذلك بداية صداقة لمدى العمر بيني وبين كارل وكيل، عادت بالنفع في صفة خاصة في خلال سنواتي القليلة الأولى في الكونغرس.

وعلى رغم أنني أكسب عيشي من العمل في الصحيفة عددت التلفزيون أفضل ثاني طريقة للتأثير في الناخبين. والطريقة الفضلى هي المقاربة بالمفرّق، التي أوصى بها كيل، لتأمين كل صوت بصوته. وشرعت، بعد عيد العمل، في شراء حصص إعلان من دقيقة واحدة في وقت الذروة في اثنتين من محطات التلفزيون في كوينسي، وهما الوحيدتان اللتان تُشاهدان في معظم المحافظة. وبلغتَ كلفة الحصة الواحدة ٦٠ دولارًا. ولم يكن التسجيل على الفيديو متوافرًا بعد. وكان تسجيل الاعلان على فيلم مُكلفاً فقررت أن أقوم بكل حصة من الحصص شخصيًّا. وكانت المحطتان تبعدان كتلة أبنية واحدة إحداهما عن الأخرى. وأمضيت أمسية واحدة أو اثنتين من كل أسبوع وأنا أركض، حرفيًّا، عبر أحد الأزقة، من محطة إلى أخرى لأقدّم رسائلي شخصيًّا وقت الذروة. طبعتُ كلمات التلقين بأحرف من الحجم الكبير على ورق من قياس ٢١,٥ سم بـ٢٨سم، ثم ألصقتها تحت عدسة الكاميرا مباشرة. وحرصت لدى تحدّثي على إبقاء عيني قريبتين من العدسة وعلى ألا أتجاوز أبدًا حدود الدقيقة.

قدّمت نفسي، في التلفزيون والراديو والصحف، رسولًا للحد من التدخل الحكومي، وللحريات الفردية، وللمبادرة الخاصة، وللزراعة المتجاوبة مع السوق، وللموازنات الفديرالية المتوازنة، ولأميركا القوية عسكريًّا. وقد نشرت صحف عدة مقالتي الأسبوعية، القيام بالحملة الانتخابية مع بول فندلي، من

دون أي مقابل. وركّزت دعايتي المدفوعة بقوة على تحرير المزارعين من السيطرة الحكومية.

أخلصت لوسيل في قيامها بالحملة، وقد تضاعف تأثيرها في إحدى الأمسيات في كوينسي بعدما تبرّعت ثلاث جارات من بيتسفيلد، وجميعهن ديمقراطيات، لمساعدتها على تمرير الأدبيات نيابة عني. وقررن وحدهن، قبل أن يتفرقن في أنحاء مختلفة من المدينة، أن يبسِّطن رسالتهن عبر التعريف عن أنفسهن على أنهن السيدة فندلي. وعندما عرفت لاحقًا بالمغامرة ارتحت لمعرفتي أنهن لم يكنّ تحت القَسَم في ذلك الوقت.

واستشهدت دومًا في خطاباتي بلينكولن، ونادراً ما تطرّقت إلى السياسة الخارجية إلا للإشادة بزعامة دوايت أيزنهاور الحكيمة كرئيس. وحصل استثناء في أيار/مايو عندما احتللت العناوين الكبرى بتحذيري الجيش الأميركي من التورّط في فيتنام. ونقلت عني قصاصة إحدى الصحف قولي: «علينا ان نقرّر أوّلًا هل السكان المحليون يرغبون فعلًا في مقاومة السيطرة الشيوعية. وإذا كان لا، يتوجب علينا نسيان أمرهم». حصل ذلك قبل عامين على إرسال الرئيس كنيدي ١٢ ألف مستشار إلى فيتنام الجنوبية حُوِّلوا سريعًا قوة مقاتلة الأمر الذي شكّل الخطوة الأولى نحو الحماقة الفيتنامية.

كان منافسي الديمقراطي، مونتغومري كاروت، تاجر سيارات معروفًا في كوينسي. وقد ظهرنا مرتين معًا على محطة أن.بي.سي. في كوينسي، في مقابلتين تمامًا قبل المناظرتين الشهيرتين بين المرشح الجمهوري إلى للرئاسة نائب الرئيس ريتشارد نيكسون والمرشح الديمقراطي كنيدي. وأعربتُ في أحد الظهورين التلفزيونيين عن استفظاعي بعدما اتهمني كاروت بأنني أعلنت أن «مزرعة العائلة أصبحت أمرًا من الماضي». لم أدرك حينذاك أن هذا الخطأ في الاقتباس سيرتدّ لمصلحتي. فبعد ذلك بأيام قليلة نشر كاروت التهمة نفسها في إعلان مدفوع في ١٥ صحيفة. واستشهد كل إعلان بمزارع مختلف يدلي بالانتقاد نفسه، كلمة كلمة، لترشحي. وضمّنتُ إعلانًا مدفوعًا في العدد التالي من الصحف نفسها الجوابَ الآتي: «عندما لاحظت أن كل مزارع استخدم

بالضبط الكلمات نفسها - ال١٨٩ جميعهم - بدأت أتساءل هل أُحيط المزارعون الذين تم الاستشهاد بهم علمًا بالكامل في شأن الاعلان. فقد نفى كل مزارع تحدّثت إليه سماحه بذلك الاستشهاد في شأني. بل أن أحد المزارعين بدأ حديثه معي بالقول: إن المرة الأولى التي عرفت فيها في شأن هذا الاعلان هي عندما قرأته في الصحيفة».

أزعج ردّي المنشور كاروت كثيرًا إلى حد أنه ساعد، عن غير إرادة منه، ترشحي في هجاء مدفوع لا بد من أنه أضحك معظم القراء. فقد ربط، في إعلان كبير في الهيرالد - ويغ التي تصدر في كوينسي، المزارعين الذين أسيء الاستشهاد بهم بالوطنيين الذين وقّعوا إعلان الاستقلال. وجاء في رسالة كاروت: «لم يكتف منافسي بإهانتي، بل أهان أيضًا ذكاء كل ناخب في المحافظة العشرين، إضافة إلى مُوقّعي إعلان الاستقلال... يبدو أنه يشعر أنه كان على كل شخص معني أن يكتب التصريح بنفسه - وفي ذلك إهانة لرجال الدولة الرفيعي القدر الذين وقعوا إعلان الاستقلال».

في تشرين الأول/أكتوبر، وقبل ايام قليلة على الانتخاب، ظهر نيكسون لمدة وجيزة في مطار كوينسي. وتحدّث، وهو يقاوم البرد الشديد، من منصة خارجية. شكّل ذلك لقائي الأول بالرئيس المستقبلي. وسلمته، قبل أن يبدأ، بطاقة طبعت عليها اسمي، وعرّفت عن نفسي بصفة كوني المرشح إلى خلافة السيدة سيمسون أرملة النائب سيد سيمسون. ودفعه ذلك إلى إعطاء ترشحي دفعة مرحّبًا بها في خلال كلمته.

شكّلت المسيرات بالمشاعل، المستوحاة من تلك التي قام بها «المتيقّظون» في خلال حملة لينكولن الرئاسية في ١٨٦٠، وبالحرف الواحد أبهى ملامح حملتي في كوينسي. قامت أعداد كبيرة من المتطوعين، بمساعدة من فريق رجل الاعمال في كوينسي هارولد نافيدس، بإنارة سماء ليل السبت بحملهم عصيًّا متينة لفّوا عليها خِرقًا مشتعلة منقوعة بالكاز وهم يسيرون في الشارع الرئيسي. وكرروا العرض بعد ذلك بسبع ليال. وكان رجال الإطفاء يميلون في تلك الأيام إلى تقطيب حواجبهم أمام مثل هذا العرض.

ساعدت المسيرات النارية والاعلانات الملتهبة في تحقيق النصر. وبلغت مصاريفنا في الحملة أقل بقليل من ٢١ ألف دولار مدفوعة بكاملها. وقد أمضيت ليلة الانتخاب في مقر الحملة في بيتسفيلد مع لوسيل وكريغ ودايان وأمي والمتطوعين.

وفي وقت متقدم من المساء اكتملت النتائج بما يكفي لإعلاني عضوًا مُنتخبًا في الكونغرس. وامتلأ المقر بالمتطوعين الذين أخذوا يصيحون جميعهم فرحًا. وقد تحمست لوسيل وولدانا أيضًا، غير ان عليهم ان يتوقعوا تغييرات كبيرة - وأحيانا مزعجة - تطل من أمامهم. فسنخسر الكثير من متعة حياة العائلة في بيتسفيلد في ضاحية من ضواحي واشنطن، وهي منطقة من مناطق العاصمة تضم مليوني شخص. ولن يكون من السهل الاستقرار هناك في منتصف الشتاء.

وفي انتخابات ذلك اليوم على مستوى الأمة، هزم الديمقراطي كنيدي بفارق ضئيل الجمهوري نيكسون في السعي إلى الرئاسة. وسيحاول نيكسون من جديد بعد ذلك بثماني سنوات... ويفوز.

الفصل السابع: المحافظة على الموروث

تلبّث أبراهام لينكولن في أفكاري وأنا اؤدّي في ١٩٦١ قسم تولّي المسؤولية الذي أدّاه لينكولن في ١٨٤٧. بدأ الرابط بيننا في خلال طفولتي المبكرة حين كانت قطع التركيب الخشب عن لينكولن لعبتي المفضلة. وهيمن مجلّد مكتبة لينكولن الأكثر سماكة على مكتبتنا المنزلية الصغيرة. بدا أن عائلتنا المؤلفة من سبعة أشخاص تتعامل مع كل ما يتعلّق بلينكولن في عناية وأحيانًا في تبجيل. ونادرًا ما كنّا نغادر جاكسونفيل، غير ان الزيارات لمنزله الخشب في نيو سالم المجاورة ومنزله اللاحق في سبرينغرفيلد احتلّت رأس روزنامة العائلة. وراقبتُ شقيقي الكبير، وليام، في أحد الأيام وهو ينتج مناظر جانبية عدة لوجه لينكولن مصبوبة في الجفص بعدما صنع قالبها من الصلصال. ويوجد واحد من هذه المسبوكات في خزانة التحف في مكتبي.

شرعت، منذ نعومة أظفاري، أحفظ عن ظهر قلب مقاطع من خطابات لينكولن. وكان المفضل لدي هو وداعه لمواطني سبرينغفيلد في شباط/فبراير ١٨٦١ قبل أن يركب القطار إلى واشنطن بصفة كونه الرئيس المنتخب. ولما التحقت بمعهد إيلينويز في ١٩٣٩ وانضممت إلى جمعية في ألفا الأدبية وجدت عمل الذاكرة مفيدًا كلّما طُلب منّي القيام بإلقاء أو بتلاوة. وسُررت لمعرفة أن لينكولن كان عضو شرف في الجمعية وقد حصل على معظم تعليمه من طلاب سابقين في معهد إيلينويز عاشوا مع لينكولن كمواطنين شبّان في نيو سالم.

دهشت لعلمي، بعد سنوات على مغادرتي الكونغرس، ان تشالرز هنري فيلبريك، الذي تخرّج في معهد إيلينويز في ١٨٥٨ والعضو في ألفا، كان السكرتير الخاص للينكولن في الأشهر الستة الخيرة من حياة الرئيس. بل أن

خدمتي في البحرية في خلال الحرب العالمية الثانية تضمنت ما يُذكّر بلينكولن. تلقّيت، وأنا في غوام في ١٩٤٤، من شقيقي وليام نسخة عن تأبينه الشخصي لألفرد د. هوستون، الجار والزميل من هيئة أساتذة جامعة إيلينويز الذي قُتل في الجبهة في فرنسا في أيلول/سبتمبر الماضي. وضمنه نسخة عن ملف صغير مطبوع حضّره يعدد فيه إنجازات هوستون السياسية لدفع السلام العالمي قدمًا من خلال فديرالية الديمقراطيات التي اقترحها ستريت. واستشهد غلاف الملف بهذه الكلمات من خطاب لينكولن في غيتيسبورغ: «حتى لا يكون موت هؤلاء المُكرّمين ذهب هدرًا».

ظهرت الاستشهادات في شكل متكرر على صفحات مجلة ستريت فريدوم أند يونيون عندما كنت مساعدًا لرئيس تحريرها. وامتلك ستريت نظرية سماها قانون لينكولن. وحاجج بأن كل توسيع لحقوق الإنسان إلى الآخرين يكون تأثيره الفوري في تقوية حقوق أولئك الذين قاموا بالتوسيع.

تعمّقت معرفتي بلينكولن في ١٩٤٧ عندما أصبحت مديرًا ومالكًا جزئيًّا للبايك كاونتي ريبابليكان التي لها جذور عميقة في إرث لينكولن. وبعد ذلك بعقد من الزمن، ومع اقتراب ذكرى مولد لينكولن المئة والخمسين، أقمت مع بيل باومان، وهو مصور في بيتسفيلد، شراكة أملنا في أنها ستؤدي إلى تعزيز الذكرى وإلى إنتاج كسب مادي معًا. وتدبرنا أن يقوم فنان من سانت لويس بصنع نموذج من مساند للكتب على نمط النصب في واشنطن الذي يظهر فيه لينكولن جالسًا. وكان النموذج جميل الصنع، ووقّعنا، على ما أذكر، عقدًا لصنع ٣٠ قطعة من الجفص من ساندات الكتب. سوى أننا كنا هواة في التسويق وجاءت المبيعات هزيلة. وبلغ كسبنا أقل بقليل من صفر. ولا تزال توجد في مكتبي ثلاث قطع أثمّنها وهي مفيدة وجذّابة.

وجدت، بوصولي إلى تلة الكابيتول، عضوًا آخر في الكونغرس متكرّسًا على غراري لإرث لينكولن، وهو الجمهوري فريد شْونْغل من أيوا. وقد سبق له أن ثبّت نفسه على أنّه المعجب الأبرز بلينكولن في الكونغرس، وهي سمعة استحقها عن جدارة. وقد حمل في محفظته قصاصات ورق تظهر عليها بيانات

لينكولن بأحرف صغيرة. وساعده ذلك على الاستشهاد بلينكولن في أي وقت في شكل طويل ودقيق، وفي أي موضوع تقريبا. وهو يتباهى بتصحيح أي إساءة استشهاد يقوم بها أحد. وقد سمعت، وأنا أرتاح في أحد الأيام في قاعة استراحة المشرعين المحاذية لقاعة البرلمان، أحد الزملاء يقول في شكل باطل ولكن بطريقة ضاحكة ان «فريد متأثّر جدًا بلينكولن إلى حدٍّ أنه لن يرضى إلا بذهابه في ليلة من الليالي إلى المسرح ويتعرّض لإطلاق النار».

ويوجد زميل آخر معجب بلينكولن هو بول سايمون، الديمقراطي من إلينويز، وهو مثلي ناشر لصحيفة أسبوعية. وقد انتخب في ١٩٧٤ إلى مجلس النواب، ومن ثم إلى مجلس الشيوخ، وكان في ١٩٧٦ مرشحًا لمدة وجيزة للتسمية إلى انتخابات الرئاسة في السنة نفسها. وقبل ذلك بأعوام، وفيما كان لا يزال مشرّعًا مناضلًا على مستوى الولاية، وضع سايمون كتابًا ممتازًا عن خدمة ابراهام لينكولن في مجلس نواب إيلينويز.

بدا من المرجح في ١٩٧٠ ان تضعنا خطوط التعديلات المطلوبة للمحافظة الانتخابية للكونغرس، أنا وسايمون، في المحافظة نفسها. وفكّرت بأننا في حال حصول ذلك قد ننخرط معًا في سلسلة من المناظرات خلال الحملة تكون بمثابة صدى على مستوى صغير للمناظرات التي أجراها لينكولن مع ستيفن أ. دوغلاس في ١٨٥٨. وعرفت أنني إذا تواجهت مع سايمون فسأواجه خطرًا كبيرًا بالهزيمة، لكنني عرفت أن أي مناظرة ستكون حضارية وممتعة ومثقِّفة على ما آمل. إلا أن إعادة رسم خطوط المحافظة انحرفت في وقت لاحق في اتجاه مختلف، وبالتالي لم تحصل أي مناظرة مع سايمون.

توافقنا، أنا وسايمون، جيدًا على الصعيد الشخصي في الكونغرس، وكثيرًا ما تحققتُ لأرى طريقة تصويته على مسألة عالقة ما في مبنى المجلس قبل الإدلاء بصوتي. وقد اتفقنا على الكثير من المسائل، على رغم الاختلافات الحزبية، وساندتُ الكثير من مبادراته. وحاجج سايمون للحصول على الموافقة عندما أوشك أن يُجرى التصويت في قاعة المجلس في ١٩٧٥ على اقتراحي السير قدما في فديرالية الديمقراطيات.

أوائل تشرين الثاني/نوفمبر، بعد بضعة أيام على انتخابي نائباً، بدأت بجولة على المحافظة الانتخابية العشرين للتعبير عن شكري للناخبين وبخاصة أولئك الذين تطوّعوا لحملتي. واتبعت في الجولة روتينًا محدّدًا، فحاولت دومًا البدء بزيارة الناشر المحلي قبل القيام بأي زيارة أخرى. فقد تعلّمت باكرًا، بما أنني صاحب صحيفة - ولو على نطاق صغير - أن أنتبه جدّا إلى الناس الذين يقررون ما الذي يُنشر أو لا يُنشر في صحيفة من الصحف.

زرت، وأنا في كوينسي، وهي أكبر مدينة في المحافظة الانتخابية، غرفة التحرير في صحيفة هيرالد - ويغ. وبدخولي، صاح رئيس التحرير أرثور هيغينز: «فندلي، آمل في أنك لم تهمل توجيه رسالة تقدير إلى أبراهام لينكولن». وعصف موظفو غرفة التحرير إعجابًا. وقد مات هيغينز منذ سنوات، لكن تعليقه وجوابي يبقيان حيّين. أجبته «يستحق السيد لينكولن رسالة التقدير الأولى مني. فلقد كان، ومن بعيد، أكثر مؤيديَّ تأثيرًا». وأنا لم أبالغ إذ اعتقد أنني، في السنتين اللتين سبقتا يوم الانتخاب في ١٩٦٠، استشهدت بلينكولن في كل خطاب ألقيته. وقلت لهيغينز إن لينكولن أدى دورًا عن كثب في الكثير من شراكاتي الأكثر إثمارًا وإثارة للاهتمام. ووجدت في السنوات التي تلت، وفي المرة تلو المرة، أن إرثه وفّر التوجيه والتعزية والإلهام والدعم.

سيطرت مشاريع قوانين الحقوق المدنية على السنوات الأولى من عملي في تلة الكابيتول. وأمضت في إحدى المناسبات زعيم الجمهوريين جيرالد ر. فورد بتوزيعي رسالة نموذجية تحث زملائي الجمهوريين على التصويت على مشروع قانون يمنع التمييز في تأمين المسكن. وقد صوت ما يكفي من الجمهوريين لتأمين مروره. وصوّت فورد ضد المشروع لكنه دعم بعد ذلك وصوّت على كل تنظيمات الحقوق المدنية الأخرى.

وقد احتفظت بنسخة عن رسالتي إلى الجمهوريين في أحد أدراج مكتبي وسحبتها في أحد الأيام عندما جئته طلبًا لخدمة. ولبّى طلبي بعدما وعظني في إيجاز وهدوء.

بدا أن بيانات لينكولن تناسب تقريبًا كل قضية مثيرة للجدل واجهت الكونغرس الذي خدمت فيه. واستشهدتُ به في شكل متكرر في خلال النقاش عن فيتنام. وبينما كنت أُسهم في وضع مسوّدة قرار سلطات الحرب حين أخذت الحرب في التراجع، بدا تحذير لينكولن المكتوب ضد حروب الرؤساء كأنه وضعه وفي ذهنه التحدي التشريعي الذي يواجهنا راهنًا. ففي رسالته إلى شريكه في المحاماة وليام هرندون، والمؤرخة في ١٥ شباط/فبراير ١٨٤٨، وفّر لينكولن حججًا قوية وخالدة ضد الحروب الوقائية وضد امتلاك أي شخص، حتى رئيس الولايات المتحدة، سلطة إعطاء الأمر بالأعمال الحربية:

«اسمحْ للرئيس بغزو بلد مجاور كلما رأى ذلك ضروريًّا لرد اجتياح وستسمح له بالقيام بذلك كلما اختار أن يقول إنه يُعدُّ ذلك ضروريًّا لمثل هذه الغاية، وستسمح له بالقيام بالحرب كما يحلو له. ابحث لترى هل في وسعك وضع أي حد لاستخدامه السلطة في هذا المجال... فكيف يمكنك وقفه لو أنه ارتأى اليوم أن من الضروري اجتياح كندا لمنع البريطانيين من اجتياحنا؟ وقد تقول لا أرى أي احتمال لقيام البريطانيين باجتياحنا. لكنه سيقول لك: اصمت. أنا أرى ذلك إذا كنت لا تراه.

«النص الدستوري الذي يعطي سلطة إعلان الحرب للكونغرس قد فرضه، كما أفهم ذلك، السبب التالي: لطالما أقحم الملوك شعوبهم وأفقروها في الحروب وهم يدعون في شكل عام أن الهدف منها هو مصلحة الشعب. وقد فهم مؤتمرنا الأمر على أنه أكثر طغيانات الملوك طغيانًا وقرر انطلاقًا من ذلك وضع الدستور بحيث لا يمكن أن يمتلك أي رجل سلطة إنزال هذا الطغيان بنا. لكن وجهة نظر [الرئيس بولك] تدمّر الأمر برمّته وتضع رئيسنا في المقام الذي كان للملوك دومًا».

ولا يزال تحذير لينكولن في محلّه اليوم وبلادنا غارقة في وحلة حربي العراق وأفغانستان كما عندما عبّر عن الأمر في ١٨٤٨ وهو لا يزال عضوًا في الكونغرس. وعندما أخذتُ في ١٩٧٤ استعد للسفر وحدي إلى اليمن الجنوبي

لإنقاذ أحد الناخبين من السجن، اهتم مسؤول في وزارة الخارجية بأن يرسل إلي، من دون أن أطلب منه ذلك، نسختين من سيرة حياة لينكولن المنشورة بالعربية. وبوصولي أعطيت إحدى النسختين للرئيس سالم ربيع علي، فابتسم وقال: «يحظى السيد لينكولن بالكثير من الإعجاب هنا».

عندما وصل هان زو، وهو سرعان ما سيصبح سفير جمهورية الصين الشعبية في واشنطن، إلى سبرينغفيلد في ١٩٧٨ في طريقه إلى جاكسونفيل للتحدث في برنامج حفل التخرج في معهد إيلينويز، قام بجولة حملته إلى المنزل الرئاسي القديم في سبرينغفيلد. وراقبت زو وهو يلقي نظرة سريعة على خطاب لينكولن في غيتيسبورغ المعروض في الواجهة، ثم يتراجع ويلقيه عن ظهر قلب. فلقد تعلّمه وهو لا يزال تلميذًا في شانغهاي.

وأوصى تشريع تقدمتُ به مهندسَ الكابيتول المعماري بأن يضع على الأرض الرخامية لقاعة السبت، وهي غرفة سابقة لمجلس النواب، لوحةً نحاسيةً محفورة تدل بالضبط إلى مكان مكتب لينكولن في خلال ولايته عضوًا في الكونغرس. وقد ساعدتُ في وضع الباطون لتثبيت اللوحة في مكانها. وأصبحت الآن محطة منتظمة للسياح الذين يتم التجوال بهم في مبنى الكابيتول.

في خلال سنواتي الخمس الأخيرة في تلة الكابيتول، شكّلت أريكة كانت في مكتب المحاماة التابع للينكولن في سبرينغفيلد القطعة البارزة في مكتبي. وهي موجودة الآن في مكتبي في المنزل. وأصبحت مواد تنجيدها المصنوعة من السبيب ممزقة وهو الدليل إلى انها استخدمت كثيرًا في خلال ٢٤ سنة من حياة لينكولن كمحام. وربما تكبدت معظم تلفها من زمن كان أولاد لينكولن يلعبون في غلاظة في مكتبه. وقد طلب لينكولن في ١٨٣٧ من نجارين اثنين في سبرينغفيلد صنعها، وكان ذلك في سنته الأولى كمحام. وتدعم أصليتها شهادة من المنجد جاكوب راكل، ورسالة أصلية من شريك لينكولن الأخير في المحاماة وليام هرندن. وقد اشتريت الأريكة والوثيقتين من الجمعية التاريخية في بنسلفانيا في شباط/فبراير ١٩٧٨ بستة آلاف دولار. وأُعطيتُ الفرصة في الشراء عندما ساعدتُ الجميعة في جمع الأموال اللازمة عندما باعت أثاثًا لجهاز

المتنزهات الوطنية لعرضه في منزل لينكولن. وأمكنني تحويل الشراء لأن الجمعية أملهتني ثلاث سنوات للدفع. وسيتم عرضها قريبًا، ودائمًا، في مركز القيادة في حرم معهد إيلينويز.

استمرّ إرث لينكولن يظهر في شكل بارز في عملي في تلة الكابيتول في خلال السبعينات. وتعلّقت المرحلة التي تطلبت الأكثر من الصبر والأناة بمستقبل منزل لينكولن في سبرينغفيلد، المدينة التي أصبحت في **١٩٦٣** جزءًا من محافظتي. وسبق لنيكولاي، الذي اشترك مع جون هاي في وضع سيرة حياة لينكولن المؤلفة من عشرة أجزاء، ان وصف منزل لينكولن بدقة كبيرة على أنه «إرث الجمهورية الثمين».

في **١٩٥٥**، وقبل ستة أيام على بدء سنواتي في تلة الكابيتول، تحدّث مواطن سبرينغفيلد وليام إ. سكادن في الاجتماع السنوي لغرفة التجارة في بيتسفيلد وعرض صورًا على الشاشة تظهر أن منازل الرؤساء السابقين، في ما عدا لينكولن، تم الحفاظ عليها وتطوير محيط كل منها لتشجيع الزيارات العامة. وكنت بين الحضور فيما صُوَرُ سكادن وتعليقه تقدم عرضًا يبعث على الأسى لمنزل لينكولن وجواره. ويوجد في الجهة المقابلة من الشارع محل من طبقتين لبيع التذكارات، فيما يعمل آخر على بعد بابين شمال منزل لينكولن. ولم تملك ولاية إيلينويز سوى منزل لينكولن نفسه والبقعة الصغيرة من الأرض المشيّد عليها. وامتلكت مدينة سبرينغفيلد بقعًا عدة فارغة من الأرض. وما تبقى من الجوار المؤلف من أربعة تكتلات من الأبنية، هو ملكية خاصة، وفي حال من الفوضى. وكانت المناطق المحيطة متهدّمة وآخذة في الخراب في كل مكان. واحتاج الأمر في شكل ملح إلى خطة للترميم والحفظ.

وبوصولي إلى تلة الكابيتول، بدا التدخل الفديرالي غير محتمل في جزء منه، لأن حاكم إيلينويز أوتو كيرنر توقّع في العلن أن ما من حاكم سيسمح بأن تخسر ولاية إيلينويز السيطرة على المنزل. واقترحت رابطة شبان سبرينغفيلد ترميم المنطقة المحيطة بالمنزل وإعادتها إلى ما كانت تبدو عليه زمن لينكولن، ولكن لم يتبع ذلك خطوات ثابتة.

تحدّثت في كانون الأول/ديسمبر ١٩٦٦ مع الحاكم المُنتخب ريتشارد أوجيلفي ورئيس بلدية سبرينغفيلد المخضرم نيلسون هوارث في شأن إمكان تدخل جهاز المتنزّهات الوطنية. وفاجأني الاثنان بتأييدهما القوي. وبعد ذلك بأسابيع أحدث حريق ضررًا بالغًا بمنزل يقع تمامًا شمال منزل لينكولن. وركّزت النيران انتباه المجتمع على الحاجة إلى مخطط شامل لحفظ للجوار.

وأعلنتُ في ١٢ شباط/فبراير ١٩٦٩، في خلال برنامج عشاء نظمته جمعية ابراهام لينكولن، أنني سأطرح في مجلس النواب مشروع قانون يجعل من منزل لينكولن وجواره جزءًا من منظومة الحدائق الوطنية. ودعوت أيضًا إلى حملة تمويل خاصة لدفع المشروع قدمًا. وكان حاكم نيويورك نيلسون روكفيلر المتحدث الرئيس في العشاء.

بلغ مشروع القانون تلة الكابيتول من دون عراقيل. وتشارك جميع نواب إيلينويز الـ٢٣ الآخرين، بمن فيهم أشخاص كثر عملوا في الجهاز التشريعي في إيلينويز، في رعاية مشروع القانون. كذلك تلقى المشروع الدعم من سيناتوري إيلينويز إيفريت ديركسن وتشارلز بيرسي. وأعلن الحاكم أوجيلفي دعمه على رغم توصية سلبية من مؤرخ الولاية وليام ك. ألدرفر.

زارت عضو الكونغرس جوليا هانسن، رئيسة اللجنة الفرعية التي تُعنى بتمويل مشاريع وزارة الداخلية، موقع لينكولن وأعلنت دعمها. وقد أمضى فريق من جهاز المتنزهات الوطنية أربعة أيام في دراسة المنزل ومحيطه. وفي الأسبوع التالي وافق مجلس مدينة سبرينغفيلد على مشروع القانون الذي تقدّمتُ به بعدما رفض اقتراحًا من مؤسسة خاصة لإقامة متحف شمع بجوار منزل لينكولن. وبعد ذلك بشهرين اجتمع قادة الولاية والقادة المدنيون مع مسؤولي جهاز المتنزهات الوطنية لمناقشة الاحتمالات. وعاد الحاكم روكفلر إلى الساحة بعد أقل من سنة على خطابه في سبرينغفيلد. واستضاف مجموعة من القادة المدنيين ممن ينظمون حملة خاصة لجمع التبرعات إلى مأدبة إفطار في منزله في واشنطن. وعلى رغم أن روكفلر أعرب عن تأييده للمشروع، لم يعرب عن أي التزام مالي، وكذلك لم تثمر جهود جامعي التبرعات الآخرين.

بلغني في ١٩ أيلول/سبتمبر ان مشروع القانون الذي قدمته حصل على موافقة الإدارة بشرط ان يُضاف إليه تعديل رائع وغير متوقّع يسمح باستملاك فديرالي بقيمة ٥,٨ مليون دولار، في خطوة سبق لمكتب الإدارة والموزانة ان وافق عليها. ذهب التمويل الكامل من الحكومة الفديرالية إلى ما هو أبعد بكثير من أكثر أحلامي جنونًا. وقد تم ذلك، نعم، بالأسود والأبيض.

استبد الفرح بمؤسسة ابراهام لينكولن فدعت النائب واين أسبينال من كولورادو، وهو رئيس اللجنة التي تتعاطى بشؤون المتنزهات الوطنية، إلى التحدث في عشائها السنوي. وما إن وافق حتى دعت المجوعة أيضًا النائب روي تايلور من كارولينا الشمالية، رئيس اللجنة الفرعية التي تولت استملاكات المتنزه، إلى مرافقة أسبينال. ولاحظ تايلور، وهو في سبرينغفيلد، أن مسقط كاتب سيرة لينكولن الشهير كارل ساندبرغ في كارولينا الشمالية أصبح بالفعل متنزها وطنيًّا عامًّا. وأضاف، «إذ كنّا فعلنا ذلك من أجل كاتب سيرة لينكولن، فكم بالحري أن نفعله للينكولن نفسه».

وسرعان ما تمت الموافقة في مجلس النواب على مشروع القانون وقد رُبط به بفرح التعديل المتعلّق بالتمويل. وسار به تشارلز بيرسي سريعًا عبر مجلس الشيوخ. وقرر الرئيس نيكسون، من دون أي دفعة مني، زيارة سبرينغفيلد في ١٨ آب/أغسطس ١٩٧١ بهدف وحيد هو توقيع القانون الذي تقدّمت به والتحدث في جلسة عامة في مقر النواب الذي أعيد تجديده حيث ألقى لينكولن خطابه الشهير عن البيت المنقسم على نفسه.

وأُنجزتْ كل الأوجه التشريعية المتعلقة بصك الموقع التاريخي الوطني لمنزل وتطلب لينكولن في وقت قياسي لم يستغرق سوى أكثر من سنة بقليل. وتطلب الترميم وحفظ منطقة كتل الأبنية الأربعة ٣٩ سنة. ودعم المنزل في حد ذاته وحُمي. واقيم في الشارع السابع مركز للزوار متواضع ولكن أنيق من تصميم المهندس المعماري والي هندرسن من سبرينغفيلد، على بعد كتلة أبنية واحدة من المنزل. وأصبحت المنطقة المحيطة بالمنزل بكاملها، في ما عدا الكنيسة الواقعة عن الزاوية الشمالية الغربية، تحت إشراف جهاز المتنزهات الوطنية

وسلطته. ورُمِّم الجوار بما في ذلك نقل بعض المباني إلى الموقع الذي كانت فيه خلال حقبة لينكولن.

سُررت، في السنوات الأولى من تولّي جهاز المتنزهات الموقع، بالعمل عن كثب مع الموظف في الجهاز ألبرت و. بانتون المسؤول المشرف على الموقع. وأعطاني لدى تقاعده بعد سيرة طويلة ومميزة قبعته الرسمية التابعة لبزة جهاز المتنزهات والتي أعرضها فخورًا في مكتبي. وتوجد على جداري صورة لنيكسون جالسًا في قاعة النواب في تلة الكابيتول وهو يوقع مشروع القانون خاصتي. وأعرض في مكان آخر القلم الذي استخدمه الرئيس في كتابة اسم عائلته. وقد أعطى أوجيلفي القلم الذي استخدمه في توقيع اسمه الأول. وكان هذا التشريع مرضيًا جدًّا لي ويكاد يحتل رأس قائمة مختلف التجارب التي عشتها في الكونغرس. وهو واحد من تلك النجاحات التي من المحتّم لها أن تنجو من مسيرة السنين.

ويجد الزوار اليوم الجوار، وليس المنزل وحسب، كما كان في ١٨٦١. ولا يسع أحدًا أن يسير شرق شارع جاكسون وينظر صعودًا ونزولًا إلى الشارع الثامن ويجول في المنزل من دون أن يشعر ذلك الإحساس الرائع المُرتعش بالقرب من لينكولن. وهي فرحة يختبرها أكثر من نصف مليون شخص كل سنة. وهي ستلهم الملايين الإضافية في السنوات الآتية. فإرث الجمهورية الثمين في أيدٍ أمينة.

وفيما العمل جار في ترميم محيط منزل لينكولن، ركّزت انتباهي على جانب آخر من إرث الرئيس. لاحظت، وأنا أقرأ سير حياته، أن المؤلفين استمروا في ترداد الأخطاء في التصور عن خدمته الوجيزة في الكونغرس. فكل سير الحياة الكاملة والكتاب الوحيد المُكرّس لعمله كعضوٍ في الكونغرس عرضت لهذه الحقبة من حياته على أنها فاشلة. وهي ليست كذلك. وهو بصفة كونه عضوًا لولاية واحدة في الكونغرس أصبح متحدّثًا نافذًا باسم الحزب اليميني، وتكلّم من وجهة نظر وطنية في الحملة الانتخابية الرئاسية المقبلة. وكان في قاعة المجلس على درجة متكافئة وناجحة من الدَّهاء مع سياسيي تلك الأيام

المشهورين. وتشير كل الدلائل إلى أنه كان سينجح لو كل سعى إلى إعادة انتخابه.

استوحيت من سيرة حياة لينكولن في العمل التشريعي في إيلينويز التي وضعها زميلي بول سايمون، وقررت أن أجرّب قلمي في مجلّد يعرض في دقة لسيرة أبراهام لينكولن كعضو في الكونغرس. شكل ذلك اختبارًا في الكتابة مثيرًا للاهتمام، وهي تجربتي الوحيدة مع دار نشر كبيرة في جادة ماديسون، هي كراون، التي لم أجد صعوبة كبرى في تأمين تعاونها. فكبار الناشرين يهوون الحصول على كتاب واحد على الأقل عن لينكولن في قائمة مخزونهم، ولم تكن كراون في ذلك الوقت تمتلك أي كتاب. وبعدما شرحتُ ان سنتَيْ لينكولن في الكونغرس شكّلتا جزءًا رئيسيًا وناجحًا من حياته السياسية على رغم ميل كتّاب السيرة إلى التعامل معها على أنها فاشلة، عرضت علي كراون عقدًا.

تطوّع تشارلز كوني، المتخصص في أرشيفات مكتبة الكونغرس، لجمع المعطيات والصور غير المنشورة. وكانت النتيجة أن أ. لينكولن: محنة الكونغرس A. Lincoln: The Crucible of Congress نُشر في ١٩٧٩، بعد ثلاث سنوات على البدء بالمشروع. وحرّر الزميل بول سايمون، بطلب مني، كل كلمة في مخطوطتي ووضع المقدمة. وقال لي إنه أخذ نصي معه إلى السرير ليلة بعد ليلة. وكانت توصياته مفيدة جدًّا. ولأنني اعتمدت كثيرًا الموظفين الفديراليين - فريقي في الكونغرس والخبراء في مكتبة الكونغرس- أرسلت الدفعة المسبقة التي تلقيتها من كراون، وقيمتها سبعة آلاف دولار، إلى الخزانة الأميركية. وباعت كراون النسخات المطبوعة الـ٧،٥٠٠ كلها.

ازدهيت عندما وصف البروفيسور ديفيد هربرت دونالد، كاتب سيرة لينكولن الحائز جائزة بوليتزر، كتابي في العلن بأنه «لا غنى عنه» و«أفضل رواية لمرحلة مهمة في حياة لينكولن». وتضمّنت مجموعة مختارات مايكل بوركهايمر المتخصص في لينكولن، مئة كتاب أساس عن لينكولن، كتابي أ. لينكولن: محنة الكونغرس.

وأدى ظهوره في محلات بيع الكتب إلى ملاحظات في كل من مجلتي التايم والنيوزويك. وافادت كلتاهما عما عدَّته مظهرًا صغيرًا من ولايته في الكونغرس: تلقيه ٣،٢٥٢ دولار عن المسافة التي يقطعها من واشنطن وإليها، وهي أكثر مما تستحقه المسافة الأقصر. وقد نشرت النيويورك تريبيون إسرافه واسراف عدد آخر من أعضاء مجلس النواب، في مقالة بقلم ناشرها المعروف هوراس غريلي وهو بنفسه قد أنهى للتو سنة خدمة كعضو في الكونغرس. وربما وجد لينكولن تعزية في واقع ان بدل النقل دُفع عن «الطريق الطويلة المعهودة»، وليس بالضرورة عن المسافة الأقصر. ونشرت النيوزويك تعليق غريلي المرفق ببيانات المسافة المقطوعة: «لا يقفزن أحد إلى الاستنتاج أن هذا الفائض قد وُضع على الحساب وقُبض خلافًا للقانون... فالأعضاء جميعهم رجال محترمون. وإذا ما شكك أي كافر لا يتسم بالاحترام في الأمر يمكننا إسكاته بالإشارة إلى اللقب السابق لاسمه في الصحيفة». وقد جرت العادة على أن يجد أعضاء الكونغرس لقب «الموقّر» قبل اسمائهم بغض النظر هل يستحقونه أو لا. ولا شك في أن لينكولن أُعجب بفطنة غريلي على رغم اتهامه بقبض أكثر مما يستحق. ولم يرد علنًا على ما كشفته الصحيفة[١].

توجد في مكتبي نسخة ملونة عن الصورة - اللوحة لنيكولاي التي ساعدني بيعها في فتح الطريق أمام حملتي الأولى للوصول إلى الكونغرس. وإلى جانبها صورتا السفير جون هاي ويتني وهيلين نيكولاي. وعلى رفوف المكتبة طبعات من كتابي عن تجربة لينكولن في الكونغرس ومجلّد يوثق ويصوّر الأحداث التي بلغت ذروتها بالتشريع الذي وقّعه نيكسون. وتوجد في مكتبي تذكارات أخرى من لينكولن. وتعرض إحدى الصور اللحظة التي أمسك فيها الرئيس نيكسون، في خلال أيامه الأكثر سعادة كرئيس للسلطة التنفيذية، بقلم لتوقيع قانوني الذي جعل من مسكن لينكولن وجواره في سبرينغفيلد جزءًا من جهاز المتنزهات الوطنية. وقد جلس نيكسون إلى المكتب الطويل الذي كتب عليه لينكولن خطابه التدشيني الأول. وبفضل سخاء خلف الحبتور، وهو صديق ورجل أعمال كبير

(١) A. Lincoln: The Crucible of Congress, pp 162-3.

في دبي في دولة الإمارات العربية المتحدة، ستصبح ملفاتي في الكونغرس وتذكاراتي، مثل أريكة لينكولن، في حرم مركز القيادة نفسه حيث سيتم أيضًا إحياء ذكرى الكثيرين من افراد معهد إيلينويز الذين كانت لهم علاقات مع لينكولن.



الفصل الثامن: معركة ملحمية ضد سياسي محنّك

ما إن تولّيت منصبي حتى عرفت أن الإحصاء الأميركي الأخير للسكان سيجبر إيلينويز على خفض عضو واحد من بعثتها إلى الكونغرس المقبل. وبعد الكثير من المناورات واجه الجهاز التشريعي في إيلينويز التحدي بوضعي والجزء الكبير من دائرتي الانتخابية السابقة في دائرة جديدة وموسّعة تضمّنت جزءًا كبيرًا من المنطقة التي يمثلها منذ زمن طويل النائب الديمقراطي بيتر ف. ماك الذي يتمتع بالشعبية. وقد خسرتُ مقاطعات عدة في إعادة التوزيع وكسبت مقاطعة سانغامون التي تضم سبرينغفيلد إلى جانب ماكوبين وهي مقاطعة كبيرة تضم موطن ماك. وبلغ عدد سكان الدائرة الجديدة ٤٤٥ ألف نسمة، وهي زيادة كبيرة عن السكان الـ٢٩٩ ألفًا في الدائرة القديمة.

مثّل ماك مقاطعة سانغامون ١٤ عامًا، واشتهر بزعامته اللجنة التجارية بين الولايات، وبطيرانه حول العالم بطائرة صغيرة في «مهمة سلام»، وبرعايته رحلات سنوية مجانية إلى واشنطن للأولاد المعدمين. وقد امتلك الكثيرين من الأصدقاء وقلة من المنتقدين. ويعني هذا أن علي أن أقيم في سرعة علاقات شخصية واسعة ومؤيدة، وجيشًا من المتطوعين في كل أنحاء بلدة لينكولن إضافة إلى كل المقاطعات المجاورة الأخرى في دائرة ماك الانتخابية.

وجلبتْ إضافة مقاطعة سانغامون فوائد عدة على رغم أنها تشكّل تحديًا على المستوى الحزبي. فهي تحتوي عددًا كبيرًا من السكان الجمهوريين من ذوي الخبرة الجيدة في الحملات الانتخابية والمتشوقين ليكون لهم ممثل جمهوري في مجلس النواب. ورائدهم كان ج. ديفيد جونز، وهو بحسب خبرتي واحد من أهم الزعماء السياسيين. كان لطيفًا على الدوام، وقورًا وغير متطلّب أبدًا وتولّى

رئاسة اللجنة المركزية لمقاطعة سانغامون في الحزب الجمهوري، واصبح لاحقًا نائبًا في الولاية وعضوًا في اللجنة الجمهورية في المحافظة. وكانت باربرا غرينينغ زعمية اللجنة النسائية لديه. وكانا، من كل الأوجه، من الصنف الراقي. وقد وفّرت باربرا وزوجها المحامي ألبرت غرينينغ في مناسبات عدة المسكن لي لتمضية الليل في منزلهما في ليامسفيل.

وفي السنوات الأولى التي تلت معهد الحقوق أدى كل من غرينينغ وروبرت كرونسون دور «البوابَين والمراقبين» المتمركزين في غرفة استقبال وزير خارجية إيلينويز تشارلز كاربنتيير في جناح مكاتبه في المبنى الحكومي في الولاية. وبفضل تفحصهما الدقيق للأناس والأوراق والمال والاتصالات من مكتب وزير الخارجية وإليه، خرج كاربنتيير من سنوات طويلة في هذا المكتب الذي اشتهر بصفة كونه مكانًا مثيرًا للجدل من دون أدنى تلميح إلى فساد أو سوء إدارة.

اعتمر كرونسون وغرينينغ توق شديد لهزيمة ماك. فاهتمّا عن كثب، وفي استمرار بكل نشاطات حملاتي، حتى عندما تعلّق الأمر بتصميم إشارات الساحات وبتوزيع الأدبيات.

ضمّت سبرينغفيلد عددًا كبيرًا من السكان الأفرو-أميركيين الذين تمتعوا بقيادة جيدة من أناس جيدين أمثال أولاليا كوربين. وأخبر ج. ديفيد جونز في أحد الأيام عن واقعة من زمن فتوّته تتعلق بعائلة كوربين. لم يسع عائلة جونز تحمّل نفقة الحصول على هاتف، لكن آل كوربين دعوهم إلى استخدام هاتف منزلهم المجاور. ولأن الاتصالات بين العائلتين كانت متكرّرة، علم جونز بعاصفة أثيرت في إحدى الأمسيات عندما زار أفريقي - أميركي من كارولينا الجنوبية آل كوربين ودُعي إلى تناول العشاء وإلى مبيت الليلة معهم. وأشار الضيف خلال الوجبة إلى أنه ديمقراطي. ودفع هذا الكشف برب عائلة كوربين إلى أن يقول له في حزم أنه مُرحّب به لإنهاء وجبته ولكن لن يُسمح أبدًا لديمقراطي بتمضية الليل في منزل آل كوربين. وقال جونز إن الواقعة تظهر الولاء الشديد للحزب الجمهوري الذي ساد في ما مضى في أوساط مجتمع الأفريقيين-الأميركيين. وأوضح جونز أن ذلك كلّه تغيّر عندما أصبح الديمقراطي

فرانكلين د. روزفلت رئيسًا في ١٩٣٣. وقد عمل جونز جاهدًا لاستعادة الأفريقيين-الأميركيين إلى الحزب الجمهوري، وهو مسعى ساندتُه بقوة.

أحد معالم سبرينغفيلد الفريدة والجذابة هو بروز الباحثين والمحترفين المرتبطين بملحمة لينكولن، وهم مؤلفون من أمثال واين تامبل وفلويد بارّينغر، إضافة إلى الجمعيات ذات العضوية، والمتاحف، ومنزل لينكولن وقبره ومكتب المحاماة التابع له.

أعطى معظم المراقبين السياسيين التقدّم لماك في الحملة بسبب أقدميته في الكونغرس، وشعبيته على مستوى المحافظة، والتوازن الحزبي المعتاد في المحافظة الذي يرجّح كفة الديمقراطيين. فقد خاض سبع حملات من دون خسارة فيما أنا مبتدئ لا خبرة لي إلا بحملة واحدة مما دفع المراقبين إلى عدِّه فوزه سهلًا. واعترفت لجنة الحملات الانتخابية الجمهورية للكونغرس في واشنطن بمعركتي العسيرة وأوفدت راي هامفريز لتنظيم مجلسي الحربي.

وافق المصرفي - المزارع في مقاطعة بايك، كنيث ستارك، على قيادة النشاطات اليومية للحملة. وأعادت قراءتي الصفحات الهشّة لثلاثة دفاتر قصاصات كبيرة مكرّسة لحملتي الانتخابية في ١٩٦٢ ضد ماك إلى الذهن ما كان فيها من هرج ومرج، وألعاب نارية، وبرغر الجواميس، والطيران عبر مطار سبيرنغفيلد، وزيارة الرئيس جون ف. كنيدي لسبيرنغفيلد لمصلحة ماك.

وتدبّر ستارك، على رغم اضطراره إلى الإشراف على مصالحه التجارية، أن يكرس وقته كلّه تقريبًا لتنظيم حملتي. وهو خبير في سياسات الزراعة والمال والحزب الجمهوري. وتغلّب على معظم التحديات، إلا أن استثناءً واحدًا حدث يوم دعا جميعَ أعضاء اللجنة الانتخابية الجمهوريين الـ٢٠٢ في مقاطعة سانغامون إلى اجتماع على فطور في فندق ليلاند في سبرينغفيلد. ولم يأتِ سوى ١٢ منهم في الساعة المحدّدة. فقد أغفل ستارك أن يطلب من الذين ينوون الحضور تأكيد مجيئهم. وأدى نداء عاجل من كبير مساعدي وزير الخارجية تشارلز كاربنتيير إلى الموظفين في المكاتب الحكومية المجاورة إلى ملء الكثير من المقاعد الفارغة،

إلا أن ستارك أصيب بالاكتئاب. وسلّمني في وقت لاحق من ذلك اليوم استقالته المكتوبة بخط اليد من رئاسة الحملة. فقلت له إن خيبة الافطار ليست سوى نقطة صغيرة جدًّا عابرة على شاشة الرادار وطلبت منه البقاء في منصبه. ووافق على ذلك.

احتفظت بقائمة بريدية بأعضاء المجلس الاستشاري للكونغرس الخاص بي. وكنت أرسل كل عام إلى كل واحد منهم، إضافة إلى النشرة الأخبارية الظرفية، بطاقة عضوية سنوية مع روزنامة على ظهرها. واقتبست على وجهها أقوالًا محبّذة من حكمة لينكولن. وهاكم مثالان: «على المبادئ الهامة ان تكون، ويجب أن تكون، ثابتة»، و«لنجعل احترام القوانين... يصبح الديانة السياسية للأمة».

تم التعاطي في شكل غير رسمي مع المساهمات المالية في الحملة. فقد عشنا بموجب ميثاق الشرف. وستمضي سنون قبل ان تظهر اللجنة الفديرالية للانتخابات إلى الوجود. وحتى ذلك الحين لم توجد شهادات يجب توقيعها، ولا حدود للدولارات، ولا تقارير فصلية عامة. وكان زعماء الحزب الديمقراطي واسعي الحيلة في واحدة على الأقل من دوائر سبرينغفيلد الانتخابية. وقد وُزعت زجاجات من حوالى نصف ليتر من الويسكي ملفوفة بورقة انتخابية، تم تأشير اللائحة الانتخابية الديمقراطية عليها مُرفقة بورقة من فئة الخمسة دولارات.

فضّلت ألا أعلم في شأن من أعطى وكم، إلا أن مسؤولًا في شركة تأمين التقيته في أحد الأيام في أحد شوارع سبرينغفيلد سلّمني رزمة من المال قال إن مجموعها ألفا دولار تبرّع بها أناس في قطاع التأمين. سلّمتها لستارك وأنا مدرك أنه سيحسن استخدامها.

وافق رجل الأعمال الشاب في جاكسونفيل، بيل كارل، على رئاسة حملتي على مستوى المحافظة. وهكذا بدأت صداقة قوية ودائمة النمو استمرت حتى وفاته في ٢٠٠٩. لم يمكن أحدًا أن يكون صديقًا أفضل وأكثر وفاء. وهو،

على الرغم من كونه هادئًا ولا يفرض نفسه، خبير في تعطيل فاعلية المنتقدين. وأصبحت «كارل كلينرز»، التي يمتلكها وشقيقه تد في جاكسونفيل، مركزًا للاستماع إلى الشكاوى في شأن نشاطاتي والتي يتم حلّها في العادة. ولطالما حصل ستارك وكارل على المشورة الصالحة من قادة فريقي إلى الكونغرس. ومن الأُوَل بينهم دون نورتون وقد ترك في ١٩٦٩ التعليم في جامعة غرب إيلينوز ليترأس فريق المحافظة التابع لي، وستفين جونز وروبرت ويتشسر، اللذان تخرجا للتو في كلّية الحقوق، وتبادلا الادوار في ترؤس فريقي في تلة الكابيتول. ووفروا جميعهم المشورة الماهرة والقيادة.

جنّد كارل المتطوعين ودرّبهم. وأقام قائدين من مؤيدي فندلي في كل مقاطعة محمِّلا الأول مسؤولية تجنيد زعيم متطوع في كل دائرة انتخابية والآخر مهمة جمع التبرعات لتلبية الاحتياجات المالية. وأصبح المتطوعون في الواقع تنظيمًا سياسيًّا على مستوى المحافظة يعود بالفائدة لترشحي فحسب، وقد تسبب ببعض الاستياء والانتقاد في أوساط بعض أعضاء اللجان في الدوائر الانتخابية. وبعيد تسميتي في نيسان/أبريل ١٩٦٠، توقف جورج و. ويلسون رئيس مقاطعة بايك الجمهوري ونائبه هيوز كير في منزلنا في بيتسفيلد في أيام مختلفة لحثّي على حلّ متطوعي فندلي. وحاولت أن أشرح سبب عدم قدرتي على ذلك، معلنًا أنني سأحتاج إلى المتطوعين في الانتخابات العامة المقبلة وفي ما بعدها. وأضفت أن المتطوعين يركّزون على التحديات التي تواجهني فيما لأعضاء لجان الدائرة الانتخابية مسؤوليات على مستوى الحزب ككل. وأعتقد أن معظم القادة الجمهوريين اعترفوا بأن تنظيمي جلب أناسًا جددًا إلى الطابور الجمهوري.

ولا أستطيع أن أتذكّر مناسبة واحدة حاول فيها متطوّع التأثير في موقعي في مسألة ما أو سعيًا إلى وظيفة مدفوعة لأي كان. وقد جهد كارل وفريقه لجعل النشاط التطوعي ممتعًا، وأسهم ذلك، وفي شكل مفاجئ، في إبقاء صفوف المتطوعين ممتلئة جدًا. لم يتمكن فريق كارل قط من تعبئة كل دائرة انتخابية في المحافظة، ولكن مُلئ أكثر من نصفها بطاقم كامل من المتطوعين. واستمر كارل في محاولة تعبئة الفراغات. وفي حملتي الأولى لإعادة انتخابي أصبحت حفلات

فندلي لشواء لحم الجاموس بدعة سائرة. وفي أحد أيام تشرين الأول/أكتوبر، وفي عرض البيع الأول في ساحة احتفالات مقاطعة نيو برلين، دفع أكثر من ألفي شخص دولاراً واحداً لكل قطعة شواء. وكان الاقبال عظيمًا فتفادى المتطوعون أزمة في التموين بمزجهم كمية متواضعة من لحم العجل الصرف مع لحم الجاموس. وبقي شخص واحد جائعًا في حفلة الشواء في ماكومب. كانت لوسيل على وشك تذوّق أحد الساندويشات عندما أخبرها دون مورغان، مسؤولي المالي في مقاطعة ماك دونو - في شكل غير دقيق - وهو في مزاج لعوب، ان الجزارين وجدوا صعوبة كبرى في فصل لحم الجاموس عن شعره. رمت لوسيل بالساندويش ولم تتذوّق مذذاك وحتى الآن لحم الجاموس.

نظّم فريق كارل، على مرّ السنين، أحداثًا ممتعة متنوّعة. وتمتعت الرحلات السنوية على الأحصنة على طريق فندلي بدرجة كبيرة من الشعبية أنها بلغت مرتبة مؤسستية. ومن الأمور التي لا تُنسى في شكل خاص التجربة في داخل عائلة المحامي بوب أوشي من سبرينغفيلد لما كان مرشحًا ديمقراطيًّا في مواجهة إعادة انتخابي في ١٩٧٢. ففي إحدى الأمسيات سألته ابنة شقيقه، وهي من المتعطشات إلى ركوب الحصان على طريق فندلي، «عم بوب، ماذا سيحل بطريق فندلي لركوب الحصان في حال فوزك؟»

جلبت الرحلات على الأحصنة، على مدى ١٥ عاماً، المتعة لأناس من مختلف الحرف. فقد اختلطوا معًا في واحدة من نهايات أسبوع أيلول/سبتمبر في يومين من سلوك طريق جديدة على ظهور الأحصنة والعربات. وكانت نزهة السبت تغطي عشرة أميال. أما الأحد، وبعد إقامة القداس ركوبًا، كانت الرحلة القصيرة تنتهي بالفراريج المقلية التي تقدّم في وقت مبكر كفاية للسماح للمشاركين بالتوضيب والعودة إلى منازلهم قبل حلول الظلام. ونظّم غروفر سميث، وهو مهندس في إحدى شركات الهاتف، العربات التي تشدّها الجرارات والتي ركبها العشرات من الأشخاص، وبينهم لوسيل التي تفضل الجلوس على بالة من القش بدلًا من السرج. وبوفاة غروفر، تولت زوجته كاثي وابنه جورج المسؤولية.

أصبحت النزهات مصدر فخر للمتطوعين الذين جعلوها تنجح. ولا يكاد يمر أسبوع من دون أن يستوقفني شخص ما ليردّد على مسامعي الذكريات المحببة لرحلات سابقة. وكان مسؤولو النزهات، الرجال الذين نظّموا وواكبوا كل رحلة، من طبقة خاصة. وشكّلت النزهات فرحًا خاصًا لابنتنا دايان فتسوق في فخر كل سنة أولد غلوري وهي تمتطيه على رأس التشكيل. وما إن أخذ مرّ السنين يوقع خسائره حتى عدد الكثير من المناعي زعامة النزهات على أنها من انجازات المتوفي في حياته. وتوقفت النزهات لأنها توسعت في شكل خطير ولأن كلفة مسؤولية التأمين ارتفعت في شكل حاد.

نظم المحامي هارلينغتون وود جونيور، من سبرينغفيلد، وقد أصبح لاحقًا قاضيًا فديراليًا في الاستئناف، أول رحلة بمساعدة من رجل الأعمال آل مافيس من روتشستر. وقاد مافيس، بدءًا من السنة التالية، كل النزهات حتى قبل النزهة الأخيرة التي ترأسها المزارع ديك ليسنبي من بلافز. وأجريت الرحلة كل سنة في مركز مقاطعة مختلف. وتعاطت كوكبة من المسؤولين المتطوعين عن طريق نزهة الركوب بالتفاصيل، وساعدهم في ذلك في نجاح زعيم محافظتي نورتون. وقدّم جورج هاميلتون الكبير وفريقه في فرانكلين ثلاث وجبات في اليوم. وسافر مرحاضان متجولان مع العربات. وقد خصص أحدهما للنساء والاخر للرجال. وشرعت النساء في تجاهل اللافتات عندما وجدن ان الخط خارج حجيرة الرجال يتحرّك في سرعة أكبر من الخط امام الحجيرة المخصصة لهن. وكان إيفريت فيستال من رودهاوس هو عازف الكمان المخصص للرقص الرباعي. وحصلت النزهات على فائض من الدعاية وكلها غير مثيرة للجدل.

وفي الرحلة إلى مقاطعة هانكوك، في إحدى السنين، قدم إلي الخيالة سرجًا مصنوعًا على الطلب يحمل اسمي وخاتم الكونغرس. وفي رحلة أخرى أعطاني بو ووسلي من وينشيستر، وهو أحد المسؤولين عن النزهة وفنان، رسمًا لي على الجلد. والرسم والسرج معروضان في مكتبي. وعندما حضرت، بعد سنوات من ذلك، جنازة ووسلي، وجدت أن عائلته وضعت تذكارًا من الرحلة على مقربة من النعش.

وتم الاعلان للرحلات بصفة كونها نزهات عائلية غير سياسية، مع أنها عرضت صور فندلي وحدها. وكدليل إلى طابع الرحلات غير الحزبي، سلّى الديمقراطي بيل هانغيت، وهو زميل في الكونغرس ولاحقًا أصبح قاضيًا فديراليا، المشاركين في النزهة في مناسبتين مختلفتين بوفر من الأغاني والنكات في خلال برامج أمسية السبت. وبين المؤدين المُفضّلين كان أيضًا الصيدلي للويد كوفمان من رودهاوس، وهو فكاهي رائع ومقلّد لمارك توين.

وفي رحلات أخرى كان المتحدثون دبلوماسيين من دول أجنبية تحمّل معظمهم، في شجاعة، ركوب الخيل في خلال النهار. وأكثر الضيوف إثارة للاهتمام كان الدبلوماسي فلاديمير ميتشولاييف من السفارة السوفياتية وزوجته فالنتينا اللذين انضما إلى النزهة في ١٩٧٣. وتحدثا ليل السبت بعدما أنجزت ابنتنا دايان مهمتها المعتادة، وهي تمرير مغرفة رفع روث الحيوانات الخاصة بنا إلى الضيفين الخاصين. وقد قامت دايان، وهي عاشقة للخيل وفنانة، بتزيين المغرفة الجائزة. وعندما زرنا منزل القاضي الفديرالي هونغيت في سانت لويس قبل وفاته في ٢٠٠٧ بسنين، وجدناه يعرض مغرفته في شكل بارز.

دخل وود، الذي نظم النزهة الأولى، حياتي في ١٩٦١ عندما رتّب لي، وقد انتخبتُ حديثًا إلى الكونغرس، أن استخدم مكتب المحاماة خاصته في كوينسي كمكان للقائي مع الناخبين. وأصبح منذ تلك السنة وحتى وفاته الصديق والناصح في الكثير من المسائل. ودرّبني وود، وهو الفارس الماهر، على طريقة إرخاء عضلاتي الخلفية للنجاة من يومين في السنة من الجلوس على السرج. وهو بطوله البالغ ٦,٤ أقدام (نحو ١٩٥سم) يضاهي قامة لينكولن بطل حياته وملهمه. عيّنه الرئيس نيكسون قاضيًا فديراليًّا وتقدّم ليبلغ محكمة الاستئناف الفديرالية في إيلينويز. واستحق لقب صانع السلام من خلال عمله المبدع كرئيس للقسم المدني في وزارة العدل الأميركية في عهد إدارة نيكسون. وقد اعترف بحق المواطنين في الاحتجاج وحماه لكنه أصر على سياسات تمنع إهراق الدم.

وقد حقق خدمته الأكثر تميّزا وشجاعة في ١٩٧٣، عندما تمكن بمهارته من

إجبار إدارة نيكسون على التخلي عن خطط لقمع احتجاج للسكان الأميركيين الاصليين في ووندد ني، وهي مستوطنة تاريخية في داكوتا الجنوبية. ولما دخل وود الساحة كانت يتم تبادل إطلاق النار في شكل يومي بين الهنود وسلطات الحكومة. وحذّر رؤساءه من أنه يفضّل أن يستقيل من منصبه على أن يكون طرفًا في سيطرة بالقوة تقوم بها قوات الجيش. ودخل المحيط المعادي في ووندد ني وحده وأَعزل، ثم واصل عملية التفاوض التي أدت بعد ثلاثة أشهر إلى تسوية الخلاف من دون أن تُطلق طلقة واحدة إضافية أو يتعرّض أحد للإصابة.

وأدهشه أن يسأله الرئيس كارتر في ١٩٧٧ هل يود أن يصبح مديرًا للأف.بي.آي. في واشنطن. إلا أنه بعودته إلى سبرينغفيلد وجد والدته مصابة بمرض خطير ومنزعجة جدًّا من احتمال أن يعرّض ابنها سلامته للخطر كمدير للأف.بي.آي.. وسحب وود اسمه من التداول. ومع أن الجلطة أقعدت وود، فقد أنجز في ٢٠٠٨، بمساعدة من زوجته كاثرين، مذكراته وهي تحت عنوان طريق مجهولة المسالك: ملحمة قاض فديرالي An Uncharted Trail: The Odyssey of a Federal Judge. وهي تتضمن روايات حية عن سيرته في وزارة العدل، إضافة إلى ثلاث رحلات قام بها حول العالم. وقد التهمتُ في خلال أسبوع عطلة كل كلمة من كلمات مذكراته، وقرأت الصفحات القليلة الأخيرة قبل يوم على وفاة وود في منتجع للنقاهة، ويا لها من مصادفة غريبة.

رتّب متطوعو كارل، في خلال إحدى الحملات الانتخابية، رحلات مجانية على متن أحد المراكب النهرية حيث عزفت فرقة جاز مفعمة بالحيوية. وتولى القيادة بوب تشورتش وهو مهندس مدني من سبرينغفيلد أصبح لاحقًا نائبًا لرئيس بلديتها. وجاء ابننا كريغ، وكان يومذاك طالبًا في معهد نوكس في غاليسبورغ، بالسيارة إلى بيردستاون حيث مقر المركب النهري. وكانت برفقته زميلته الطالبة الساحرة كاريل مايستر التي أصبحت لاحقًا عروس كريغ.

عندما أضيفت مقاطعة ماديسون إلى محافظتي الانتخابية صعد أكثر من ١٠٠ متطوع، بمن فيهم والدتي ابنة الثمانين، في قطار مُستأجر في سبرينغفيلد أخذهم

إلى ألتون والبلدات المجاورة حيث أمضوا بضع ساعات يخبرون فيها عن عملي في الكونغرس.

واحتفظت عملية فندلي لشواء الذرة في مقاطعة سانغامون بالشعبية سنة بعد سنة. كان الزوار يحصلون، في مقابل دولار واحد، على لحم الخنزير والفاصولياء وعدد غير محدود من قرون الذرة المغمسة حديثًا بالزبدة الساخنة. وفي حملة أخرى أبقت إحدى حفلات الطيران مطار سبرينغفيلد مملوءًا جوًا وأرضًا بالطائرات الصغيرة.

ونظّم المتطوعون في تشرينالأول/أكتوبر ١٩٧١ طيرانًا ذاتي التمويل إلى واشنطن لنهاية أسبوع من الجولات والخطابات. وملأ من لبّوا النداء طائرتين مستأجرتين. وقال السناتور غولدووتر ليل الجمعة، من باب السخرية، أنه وبالتناقض مع الحشد الكبير الذي جاء طائرًا من محافظتي، لم يحظ في الأسابيع الثلاثة الماضية إلا بزائر واحد من دائرته الانتخابية في أريزونا. وأدى نورتون، في كل هذه المناسبات الخاصة، دورًا قياديًا رئيسًا. وقد تلقى أجره، خلال الحملات الانتخابية، من تمويلات خاصة وليس من الخزانة الأميركية.

لماذا انخرط المتطوعون وبقوا منخرطين؟ الجواب الأفضل عن ذلك مؤلف من ثلاث كلمات: الإدارة الجيدة والمتعة. وعلى الرغم من ان الكلمتين الأولیين تعبّران عن الغرور، أعتقد أنهما دقيقتان. فبعض المتطوعين خالفوني الرأي في بعض المسائل، لكن ذلك لم يخفف من حماستهم لإكمال خدمتي في تلة الكابيتول. فالكثيرون منهم، على سبيل المثال، عارضوا الإجهاض في قوة لكنهم لم يشككوا في اعتقادي أن المسألة على درجة كبيرة من التعقيد والخصوصية لا تسمح بإيجاد حل لها من خلال موانع دستورية شاملة. وقد بقي الكثيرون من المزارعين المنتجين للألبان على إخلاصهم على رغم معرفتهم أنني أعارض برامج التنظيم وتحديد الأسعار الفديرالية لصناعتهم. وأعطت لكنة المهاجر مارتن فالستاد النروجية نكهة دولية لأحاديث المتطوعين. وهو جمع الأموال للحملة في مقاطعة غرين وانضم إلى الفريق بفضل صداقته مع رئيس متطوعي غرين. وقد امتلك فالستاد وشغّل مقلعًا للحجر الجيري.

وفي أحد فصول الخريف رتّب للويد غوردون، وهو تاجر معدات في ريغستون وصديق لي منذ أيام الدراسة، تجمعًا لمزارعي فول الصويا في مخزن كبير في ملكيته. وحذّرني، لدى وصولي، من أن المخزن يعج بمئات عدة من المزارعين، وأن ما من أحد منهم يبتسم. وبدخولي كان المخزن ساكناً سكون كنيسة فارغة. ما من «مرحبا بول» واحدة، أو قحّة. ففي ذلك الموسم كان سعر سوق الصويا متدنيًا في شكل غير معتاد، وقد استاء المزارعون لأنني عارضت الدعم الحكومي لأسعار السلعة. وبُثت الحرارة في الحشد بعض الشيء عندما بدأت كلامي بالقول إن المشهد في المخزن يذكّرني بواحدة من قصص لينكولن المفضّلة. وهي تتعلّق بقاتل مُدان يقتاد إلى المشنقة. وكاد الناس الهارعون للحصول على موقع جيّد كمتفرجين أن يدوسوه بالأقدام، فصاح السجين بهم: «لا فائدة من الاستعجال، فالمتعة لن تبدأ إلا بوصولي إلى هناك». حصلت النكتة على بعض الابتسامات، ولكن لم يبدُ أن ملاحظاتي اللاحقة أقنعت أولئك الموجودين بأنني محق في معارضة دعم الأسعار. وشرحت أنني أعتقد أن التسعير الحكومي سيؤدي، على المدى الطويل، إلى أن فول الصويا سيعاني مشاكل الإفراط في المخزون نفسها التي أصابت الذرة والقمح وهي من السلع المتأثرة بقوة بالإغواءات الحكومية. وبقي الكثيرون من المزارعين - بمن فيهم منتجو فول الصويا - مخلصين كمتطوعين وكناخبين.

لم يتفوّه بيل كارل، على رغم أصوله اليونانية، بكلمة عندما دعمتُ المساعدة العسكرية لتركيا في وقت انتقدتني جماعة المصالح اليونانية في حدّة. وأعتقدُ أن قلّة من المتطوعين شاطرتني التزامي القوي إنشاء فدیرالية تكون الولايات المتحدة جزءا منها. وربّما حكّ آخرون رؤوسهم عندما استهلكتُ الوقت في مسائل خارجية مثل العدالة لشعب بعيد جدًا هو الفلسطينيون، أو مساعدة المزارعين الصغار في أميركا اللاتينية والهند على تحسين انتاجهم الغذائي. ولربما تساءلوا عن مغزى صرفي للوقت في تحسين العلاقات مع النظامين الشيوعيين في الصين والاتحاد السوفياتي ومع حكومة الرئيس الفرنسي شارل ديغول.

ولربّما أحبني بعض المتطوعين شخصيًّا، فيما استمتع الآخرون مع الناس اللامعين والنشطين الذين هم قادة فريقي في الكونغرس. واستمتع متطوعون آخرون بالسياسة بصفة كونها رياضة غير قتالية وربما ساندوني لأنني أتمسّك باقتناعاتي. يبقى أن آخرين قد يكونون استمتعوا وحسب بحماسة المنافسة وبمتعة العمل مع المجموعة المنوعة من المواطنين الممتعين والنشطين في التنظيم.

وسّع المتطوعون عمل العناصر المنضوين في الحزب والرجال والنساء في لجان الدوائر الانتخابية الجمهوريين الذين يشكلون العمود الفقري لمساعي الحزب. وقد قدم معظم المسؤولين الحزبيين المنتَخبين، على مر السنين، دعمًا متينًا وفي بعض الحالات صداقة قوية. وهناك بين الأمثلة هـ. ل. «سمايلي» مابرّي، عضو اللجنة الجمهورية عن دائرة وايفرلي الانتخابية وزوجته هيلين. انضما منذ اليوم الأول، حماسة، إلى فريقي. وطلب مايبرّي من زوجته قبيل وفاته أن تعطيني التذكار المحبب إلى قلبه من الحرب العالمية الثانية. وهو كناية عن فيل كبير وجميل محفور في قطعة واحدة من الخشب الصلب، وهو من عمل صديق مايبرّي عندما كان الجنديان متمركزين في بورما.

الفصل التاسع: تجاهل نصيحة رئيس مجلس النواب

تجاهلتُ، منذ يومي الأول في الكونغرس، التوصية التقليدية التي يعطيها رئيس مجلس النواب المحترم سام رايبرن للوافدين الجدد: «المجاراة، والمماشاة». اي أنه، بعبارات أخرى، ينصح بالبقاء هادئًا على مدى بضع سنوات وعدم إثارة المشاكل. وامتلكتُ أسبابًا وجيهة لرفض النصيحة. لم امتلك الكثير من الثقة بإعادة انتخابي وأدركت أن ولايتي الأولى قد تكون الأخيرة. وأردت في هذه الحال أن أحقق أقصى ما يمكنني تحقيقه في خلال تلك الولاية وإحداث أكبر قدر من المشاكل في سبيل القضايا التي تستحق ذلك.

في تلك السنة، كنت والجمهوري جون ب. أندرسون من روكفورد الوافدين الجديدين الوحيدين من إيلينويز إلى الكونغرس. أنضممنا إلى مجموعة من الزملاء الجمهوريين تُسمى النادي المحافظ. خضع كلانا، في سنواتنا الأولى، للخط المحافظ في خطاباتنا وتصويتنا. وقد عُيّن أندرسون في لجنة النظام بسبب محافظته، لكنَّه حقق لاحقًا شهرة وطنية بصفة كونه ليبراليًا، ولقيامه بحملة غير ناجحة للوصول إلى الرئاسة، في المرّة الأولى جمهوريًا ولاحقًا مستقلًا.

تمسّكت في خلال سيرتي المهنية بالمبادئ المحافظة في المسائل المالية غير أنني أصبحت مدافعًا عن الخدمات الإجتماعية والمساواة العرقية وغير ذلك من مسائل حقوق الانسان. وفي إحدى السنين أعطاني اللوبي المحافظ، الأميركيون من أجل العمل الدستوري، علامة متوسطة من ٥٥ في المئة. وفي السنة نفسها أعطتني المجموعة الليبرالية، ألأميركيون من أجل العمل الديمقراطي، علامة ٤٦. ودفع هذا بالزميل المحافظ جون أشبروك من أوهايو إلى أن يمازحني قائلًا إنني «متطرّفُ منتصف الطريق».

وعندما جعل رالف نادر، المدافع عن حقوق المستهلك، مُغيريه يتجمهورون في إحدى السنوات في تلة الكابيتول، أصدرت منظمته نشرة منفصلة تلخّص فيها سجل كل واحد من أعضاء مجلس النواب. وبدأ النص الذي يفيد عن سجلي بوصفه بأنه «مُحيّر». وبعد ذلك بسنوات، أصبحنا أنا ونادر صديقين شخصيين وحليفين في الكثير من القضايا.

تنقّلت ثلاث مرات في الشهر إلى محافظتي في خلال ولايتي الأولى وفي خلال حياتي العملية في الكونغرس. وكنت في السنوات الأولى، قبل أن تبدأ خطوط أوزراك الجوية بالقيام برحلات مباشرة من سبيرنغفيلد إلى مطار دالاس خارج واشنطن العاصمة، أوقف عادة سيارة حملتي الفان في رمبرت فيلد في سانت لويس. والآلية كناية عن هدية من مؤيّدين في جاكسونفيل ينظمهم الدكتور بون، وهو صديق منذ أيام المعهد.

كانت حياتنا الجديدة مُربكة وفي الغالب مكربة للوسيل وولدينا. أقمنا، في سنتي الأولى في الكونغرس، في منزل مُستأجر في شمال فرجينيا، إلا أننا، في الثانية، اقمنا في منزلنا في بيتسفيلد لأنني أردت استخدام كل ساعة متوافرة في سعيي إلى إعادة انتخابي. وعدنا بعد يوم الانتخاب إلى فولز تشيرتش واشترينا منزلنا المُستأجر.

جمعت مبادرتي الأكثر شعبية في ولايتي الأولى ثلاثة ناشري صحف أسبوعية من المبتدئين الجمهوريين لاقتراح إبطال سياسة بريدية موجودة منذ زمن طويل ويتم بموجبها توزيع الصحف من دون بدل في مختلف أنحاء المقاطعة التي تُنشر فيها. وهذا ما عاد بالفائدة في شكل أساس على المنشورات الأسبوعية لأن معظم الصحف اليومية لم تستخدم الخدمة البريدية للتوزيع إلا في شكل محدود. والناشران الآخران كلاهما جمهوري من أوهايو وهما تشارلز موشر وجون اشبروك. وقد بدأ العمل بالتوزيع المجاني على مستوى المقاطعة قبل ذلك بسنوات كوسيلة للارتقاء بمعرفة القراءة والكتابة في أطراف ريف أميركا. وجعلنا تشريعنا نقدّم أنفسنا كمحافظين حقيقيين شرعوا في مشروع قانون يزيد من واردات الحكومة من خلال وضع حد للدعم الحكومي لمبادراتنا الحرة

الخاصة. وصفّق لنا معظم الناشرين ممن ليسوا مرتاحين إلى الحصول على دعم من الحكومة. ووافق واحد منهم على تشريعنا، لكنه اقترح إلغاء امتياز الدمغ الذي يسمح لأعضاء الكونغرس باستخدام الخدمة البريدية من دون بدل. ولسبب ما لم يعمل أي منا نحن الثلاثي المقدام باقتراحه.

رحّبتُ بتعييني في لجنة الزراعة. فإيلينويز هي، من معايير عدة، الولاية الزراعية الرائدة في البلاد، وكنتُ لسنوات عدة العضو الوحيد في الكونغرس أو مجلس الشيوخ الذي يخدم في اللجنة الرئيسة التي تتعاطى مع المزارعين. ولاعتقادي أن ترقيةَ حيويّة زراعتنا تتم بشكلها الأفضل من خلال منظومة يتجاوب فيها المزارعون بأكثر طريقة مباشرة ممكنة مع حاجات المستهلكين وتفضيلاتهم، شرعت في كوني صوتا لحرية المزارع. بذلت أقصى جهدي لحماية حق المزارع الفرد في اتخاذ قراراته الخاصة في شأن ما يزرعه من محصول ومتى.

انضممت في ربيع ١٩٦١ إلى أعضاء جمهوريين جدد في الكونغرس في زيارة للرئيس السابق دوايت أيزنهاور في مزرعته التي يتقاعد فيها على مقربة من غيتسيبورغ في بنسلفانيا. وأنتجت الصدفة تغطية على المستوى الوطني لوجهات نظري. سمعني أحد مراسلي الأسوشيتدبرس أقول للرئيس السابق إنني أريد إخراج الحكومة من مسألة الحبوب. وأجابني آيك، «وكذلك أنا، يا أخي». واحتل تعليق أيزنهاور المؤلف من أربع كلمات العناوين الكبرى الوطنية لكلينا.

ووفر لي التعيين في اللجنة فرصًا متكررة للحصول على عناوين رئيسة إيجابية أخرى في أنحاء إيلينويز حيث يتم الاعتراف بالزراعة، حتى في شيكاغو، على أنها نشاط اقتصادي كافة. وسرعان ما توطدت معرفتي بديمقراطيي اللجنة، إضافة إلى جمهورييها، واستمتعت بالفكاهة التي تشارك فيها الحزبان.

وكثيرًا ما استهدفت النكات بوب بوغ، من تكساس، المقرر أن يصبح رئيسًا للجنة والذي اشتهر بالصياح كل مرة يتحدث عبر المذياع. وقال لي الديمقراطي

غراهام بورسل «إن بوغ هو الرجل الوحيد الذي أعرف تمامًا أنه يغضب لسماعه صوته». واطلق ديمقراطي آخر في اللجنة تعليقًا فكاهيًا وهو يقدّم بوغ إلى الحضور في أحد الغداءات: «يقول بعض الناس إنهم يفضلون الاستماع إلى بوب يتكلم بدلًا من الاستماع إليه يأكل. وأدرك الآن ما الذي عنوه بذلك وأنا أستمع إلى بوب يتناول الغداء». وفي أحد الأيام أعلن عضو ديمقراطي قديم من تكساس أنه سيغيب عن اجتماع اللجنة المقرر الثلاثاء التالي. وقال: «سيكون هناك عشاء شهادة يقدم على شرفي في الديار. وهذا مميز. فهو العشاء الأول الذي لا أضطر إلى ترتيبه والدفع فيه عن نفسي، وأنا لا أريد تفويته».

شاءت القرعة ان يصبح زميلي الجديد بوب دول، من كنساس، رفيقي على مقعد اللجنة على مدى خمس سنوات. وقد أصبح لاحقًا المرشح إلى نيابة الرئاسة مع جيرالد فورد، وهو جرب في وقت لاحق الترشح إلى الرئاسة من دون نجاح. وهو واحد من أظرف الناس الذين التقيتهم. وأحبَّ ان يقول مازحًا إنه صدر عليه الحكم بأن يكون في لجنة الزارعة. وفي أحد الأيام دعا رئيس اللجنة هارولد كوولي الأعضاء، الواحد تلو الآخر، إلى طرح الأسئلة على الشاهد، وزير الزراعة أورفيل فريمان. وعندما جاء دور بول روجرز، من ميسوري، أطنب في الشرح لمدة لا تقل عن العشرين دقيقة من دون أن يطرح سؤالًا. فقاطعه دول بالتعليق التالي: «سيدي الرئيس، هل تتفضل بالطلب من هذا السيّد أن يكرّر سؤاله». وأنضممت إلى الضاحكين.

تعلق نجاحي التشريعي الأول بالسياسة الخارجية والزراعية معًا. فقد وقّع كنيدي، بعد خمسة أشهر على رئاسته قانون توسيع برنامج الغذاء في مقابل السلام ليتم بموجبه تسليم محصول من الحبوب الأميركية إلى بلدان تعاني عجزًا في الغذاء يُدفع ثمنه بالعملة المحلية التي لا يمكن انفقاها خارج الدولة المضيفة. وسُمح، بموجب التعديل الذي أدخلته، للسياح الأميركيين وغيرهم من المواطنين بشراء العملات المحلية التي تعود إلى الولايات المتحدة والتي روكمت بموجب هذا البرنامج في الهند، وسيلان، وإسرائيل، ومصر، وباكستان، وتونس، وغينيا. وسمح تعديلي لهؤلاء الزوار باستخدام هذه الأموال

المتراكمة استخدامًا جيدًا الأمر الذي أدى إلى التخفيف من بلوى ميزان المدفوعات الأميركي. وكان يمكن هذه المبالغ، قبل تعديلي، أن تُستخدم فحسب في مصاريف التشغيل المحلية للبعثات الديبلوماسية الأميركية. وسرعان ما تمتع «دولار السائح» بالشعبية، إذ شرع السياح الأفراد والشركات والمؤسسات في شراء ما يحتاجون إليه من العملة المحلية من السفارة الأميركية. وأنتج ذلك، في غضون ثلاث سنوات، ربحًا للموازنة الأميركية بلغ ثلاثة ملايين دولار - وهو ليس بالأمر الفائق الأهمية، بل مجرد خطوة نحو السلامة النقدية.

حان وقت اختمار القضايا الزراعية. فقد أيدت إدارة كنيدي، التي تمتّعت بالشعبية على جبهات عدة، تحريكًا حكوميًّا أكبر للقرارات المتعلقة بالمزارع والمخزون من السلع، وهي سياسات تقييدية أقلقت الكثيرين من المزارعين. حمل أورفيل فريمان، حاكم مينيسوتا السابق، لواء الإدارة وزيرًا للزراعة. وأطلقتُ عليه اسم «أورفيل المروّع»، وهو لقب حاز الشعبية. وتفجّعتُ على الفساد في داخل بيروقراطية وزارة الزراعة وقد أدى إلى صرف مسؤول زراعي فديرالي كبير من عمله في مينيسوتا. وفي فضيحة أكبر، دفعت الحكومة إلى التوقيف الموقت لعشرين مليون فدان من الإنتاج الزراعي لكنها لم تستطع لاحقاً سوى تحديد ١٥ مليون فدان مؤهلة لدفع تعويضات عنها للمزارعين. وسميت، في بيانات علنية، الملايين الخمسة الضائعة من الأرض الزراعية «الفدادين الأشباح»، وقدّرت أن سوء الإدارة هذا كلّف دافعي الضرائب ١٥٠ مليون دولار في تلك السنة وحدها.

ظهرت التماساتي من أجل الحرية في الزراعة وضد الفساد الحكومي في الريكورد وفي العناوين الرئيسة. فمن شأن خطة فريمان تدمير حق المزارع في زراعة ما يشاء وتسويقه. وحذّرت، في حال كانت الغلبة لخطة الإدارة، من أن الحكومة، لا القطاع الخاص، ستبرز على أنها الشاري الرئيس والبائع للسلع، وستقرر في النهاية ما الذي يمكن كل مزارع أن ينبته.

في الأشهر القليلة التي أعقبت تولي كنيدي السلطة كرئيس، شكّل تعديل

اقترحتُه في مجلس النواب أول انتكاسة لإدارة كنيدي في تلة الكابيتول. وردّت الموافقة على تعديلي إلى وزارة الزراعة مشروع قانون من شأنه السماح بسيطرة الحكومة على انتاج الحبوب الغذائية. وحذّرتُ في خلال النقاش من ان مشروع القانون «سيكتّف» مزارعي الذرة. وعددته «تهديدا موشوريًا للمزارعين، بمعنى انه يشكّل تهديدًا أيًا تكن الزاوية التي تنظر منها إليه».

وتمت الموافقة على تعديلي القاضي بإعادة النظر في مشروع القانون بهامش ضئيل من عشرة أصوات، ٢١٥ في مقابل ٢٠٥. ولا يزال حيًّا في ذاكرتي وجه وزير الزارعة فريمان الحالك وهو يقف في قاعة المجلس بعد دقائق قليلة على إعلان نتيجة التصويت. وقد طوى ذراعيه وهو يستمع إلى النائب نيل سميث، الديمقراطي البارز من أيوا، يشرح سبب تصويته على تعديلي. ومن المرجح ان تصويته دفع بديمقراطيين آخرين إلى التصويت بالإيجاب بما يكفي لتأمين هامش الأصوات العشرة. وصوّت مناوئي في إعادة الانتخاب، النائب بيتر ماك، بالرفض وهو قرار سيثبت أنه نقطة مهمة لمصلحتي في الحملة المقبلة.

وأُجريت معي، عقب هذا الانتصار، مقابلات في الإذاعات ووسائل الاعلام المطبوعة ودُعيت إلى كتابة مقالات للدوريات. وزعامة الحزب هي التي تتحكم بأي تعديل يفرض إعادة النظر في مشروع قانون في قاعة المجلس، وليس عضوًا جديدًا مثلي. وإذا ما استحق أحد الفضل في المهارة البرلمانية فهذا الفضل يجب أن يعود إلى زعيم الجمهوريين في مجلس النواب تشارلز هالك الذي قرر وجوب إعادة النظر في مشروع القانون وأن عليّ أنا تقديم الاقتراح. كان على ثقة أن هذا الدور سيكسبني الدعاية المؤاتية التي ستساعد في حملتي ضد ماك في وقت لاحق من السنة. وهكذا صار، لأن مجموعات المزارعين، بما في ذلك مكتب الزراعة، أشادت بي جهارة لقضائي على مشروع القانون. وأسهمتُ، بعودة مشروع القانون إلى اللجنة، في وضع تشريع تسوية طارئ أزال بنود «إدارة المخزون». وحدَّد واحد من تعديلاتي على التسوية دعم الأسعار الحكومي مستقبلًا بما دون متوسط أسعار السوق، وهي خطوة نأت بالحكومة عن إدارة اسعار السلع.

وما أن بلغت النسخة الجديدة قاعة المجلس حتى عرضتُ تعديلًا كان من شأنه منع أي تمويل بموجب القانون لأي مرافق ترفيهية تسمح بالفصل العنصري. وقد سقط بـ١٤٢ في مقابل ١٠٦ في عدٍّ للأصوات، في إجراء لا تُسجَّل فيه أسماء المصوتين. لم يكن مزاج الغالبية في المجلس سنة ١٩٦١ تلك مؤاتيًا للتشريع في مجال الحقوق المدنية. وقد وقّع كنيدي مشروع القانون التسوية.

واتتني الفرصة، في وقت لاحق من تلك السنة، للإشادة بهالك أمام حضور مؤات من المزارعين في محافظته في إنديانا. وأغدقت عليه الثناء لقضائه الماهر على مشروع قانون كنيدي الزراعي مقارنًا زعامة هالك بسلوك مدرّب في مباراة «على المنخار» في كرة السلة وهي الرياضة الشعبية في أنحاء إنديانا كافة.

قرر مكتب الزراعة في إيلينويس، أوائل ١٩٦٢، وكان يرأسه حينذاك وليام كوفاس، تقدمة قائمة المنظمة البريدية إلى اللجنة العاملة لانتخاب فندلي في الكونغرس لاستخدامها في حملة جذب المزارعين. وأبلغ وسائل الاعلام أن عملي التشريعي يساند أهداف مكتب الزراعة. وكانت المنظمة، إلى حين اتخاذها هذا القرار، تفادت أي تورط مباشر في الحملات الانتخابية السياسية. شكّل ذلك خروجًا لمرة واحدة عن هذا التقليد، وأدى إلى استشاطة النائب ماك غضبًا.

فزت في مناسبات عدة، في خلال سنواتي الكثيرة في الكونغرس، بالموافقة على مبالغ إجمالية محدودة بعشرين ألف دولار كمدفوعات حكومية مباشرة لأي مزارع واحد، غير ان الكثيرين من المنتجين وجدوا سبلًا للتحايل على الأمر. إذ لا تناصر الآن أي منظمات زراعية رئيسة، بما فيها مكتب الزراعة، التحديدات. ويحصل جميع منتجي الحبوب والقطن الأساسيين اليوم على مدفوعات سنوية كبيرة من وزارة الخزانة الأميركية، يفوق الكثير منها نصف ميلون دولار في السنة.

وأدت مبادراتي أحياني إلى تلقيّ بريدٍ معادٍ. فقد أدت جهودي لكبح

المدفوعات الحكومية المباشرة الكبيرة لزارعي القطن إلى إغضاب مزارع من تكساس فبعث إلي بالبريد التحذير التالي: «هل تحب أن ترى سيارة زوجتك وقد انفجرت وهي تشغلها لتقل أولادكما إلى المدرسة صباح أحد الأيام؟ لقد أجرينا بعض الترتيبات في هذا الشأن». وقد طُبعت على ما بدا أنه آلة كاتبة قديمة توجد شوائب مميزة في بعض من حروفها. وبلغتني رسالتان أخريان تحتوي كلتاهما تهديدات مشابهة طُبعت على ما يبدو على الآلة الكاتبة نفسها. وافادني عميل للأف.بي.آي. أن تقفّي آثار الرسائل أوصل إلى مزارعٍ قطنٍ عجوز. وتوقّفت الرسائل عن الورود، ولم أرفع أي شكوى، ولم يتم تفجير سيارتنا.

وأدَّيت، عندما حانت الفرصة لذلك، دور بائع المحصول الزراعي، مركّزًا على الاستخدامات الجديدة لفول الصويا، وهو سلعة عُدَّت يومذاك مفيدة وحسب لانتاج الزيت النباتي، وتستخدم هريستها علفًا للحيوانات. وضّبتُ في ١٩٧٣ حقيبة صغيرة ملأى بأطايب الطعام المصنوع من فول الصويا، حضَّرها علماء جامعة إيلينويز، وزرت الاتحاد السوفياتي في رحلة جانبية من النروج المجاورة حيث اجتمع برلمانيون من دول حلف شمال الأطلسي. استخدم موظفو السفارة الأميركية في موسكو أنواع فول الصويا لتحضير عشاء للرسميين الأميركيين والسوفيات. وحكم ضيوف العشاء على أنواع فول الصويا بأنها لذيذة.

أسهمت، في سياق سنواتي في تلة الكابيتول، في تنظيم ثلاثة معارض دولية لفول الصويا. وقد رعى الأخير والأكثر نجاحًا في ١٩٧٩ اتحاد فول الصويا الأميركي في مبنى كانون في تلة الكابيتول. فاق عدد الحضور الألف. وكان هدفه الرئيس التسويق للقبول بفول الصويا كطعام. واجتذب المعرض، وقد حل فيه السفير الصيني الواصل حديثًا شاي زمين ضيفًا خاصًا، سفراء من ٣٥ دولة، و٧٩ دبلوماسيًا كبيرًا آخر. وقدم موظفو سفارة شاي عشرة أنواع مختلفة من طعام فول الصويا الذي يحظى منذ زمن بعيد بالشعبية في الصين. ورعت كلّية الزراعة في جامعة إيلينويز معرضًا تضمن منتوجًا من فول الصويا يكاد يتطابق مع

البوظة. ولاحظت في كلمتي الوجيزة كرئيس للمعرض أن تم في السنة السابقة انتاج فول الصويا في ٦٠ مليون فدان من الأرض الأميركية. وحصلت المناسبة على تغطية واسعة من الصحف والتلفزيون.

لم أفعل الكثير، في خلال ولايتي الأولى في الكونغرس، للسير قدمًا في حلم ستريت الفديرالي، على رغم أنه من السبب الرئيس الذي دفعني إلى السعي إلى انتخابي في الكونغرس. وحصلت مبادرتي العلنية الوحيدة عندما قلت في دعوة إلى يوم تكريم المتخرجين في معهد قرطاج في مقاطعة هانكوك ان الفديرالية الدولية الجديدة «ستشكّل العمل الممكن الأكثر مدعاة للاعجاب في مواجهة التهديد الشيوعي وقد يستهل فعلًا ألفية من السلام». وحثثت الولايات المتحدة على «اتخاذ المبادرة في رعاية مؤتمر للمندوبين للأخذ بالاقتراح».

كاد إهمال شخصي يؤدي في أحد الأيام إلى عناوين رئيسة يجزع منها كل سياسي. فقد دُعيت، مع اقتراب الذكرى المئوية لوضع إعلان لينكلون لتحرير العبيد، إلى المشاركة في احتفال لإحياء ذكرى هذا الحدث عند ضريح لينكولن في سبرينغفيلد. وطلب مني جهاز المتنزهات الوطني أن أسلّم مسؤولي الاحتفال المحبرة الثمينة التي استخدمها لينكولن في توقيع الوثيقة. فكل شيء يرتبط بلينكولن يؤدي دومًا إلى دعاية جيدة.

بوصولي إلى مطار لامبرت فيلد في سانت لويس حاملا بيدي علبة صغيرة تحتوي المحبرة، توقّفت عند أحد الهواتف العمومية لاطلاع لوسيل التي تنتظرني في منزلنا في بيتسفيلد على آخر التفاصيل. ووضعت، قبل إجراء المكالمة، العلبة على رف في داخل حجيرة الهاتف. ونسيت أخذها بعدما أنهيت المكالمة. أدركتُ إهمالي بعدما اجتزت جزءًا من المسافة إلى مرأب التوقف وعدت مسرعًا. كانت العلبة قد اختفت. اتصلت كالمسعور بمكتب الأغراض المفقودة في المطار، وفتشت عبثًا في سلال المهملات عبر المطار - وحتى على الطريق المتفرعة من المدرج - وراودتني الكوابيس كيف سيتمكن النائب ماك من تصويري كشخص غير مسؤول ميؤوس منه. واتصلت أيضًا بالشرطة وبمحطات التلفزيون الرئيسة في سانت لويس طالبًا منها إذاعة الخبر في شأن المحبرة.

قدتُ فان حملتي إلى بيتسفيلد وأنا مضطرب جدًّا. وفي وقت متقدم من تلك الأمسية، جلب مراهق شاب يتفقد في شكل روتيني الهواتف العمومية في المطار بحثًا عن نقود مفقودة علبة المحبرة إلى منزله وأراها لوالده ومضى إلى سريره. وعندما علم والده من أخبار الحادية عشرة بواقعتي المؤسفة اتصل زافًّا الخبر السعيد إلى الشرطة. أيقظتني لوسيل في الأولى والنصف فجرا بعد تلقيها اتصالًا من أحد رجال شرطة سانت لويس. وتدبّرت الشرطة إرسال المحبرة إلى سبرينغفيلد في الوقت المناسب لاحتفال ضريح لينكولن. وسُررت، بعد انتهاء الاحتفال، لإيداع المحبرة في عهدة مسؤولي جهاز المتنزهات لإعادتها إلى واشنطن. ويقع الحادث في مصاف المعجزة الكبرى التي أدت إلى إعادة التقائي ولوسيل في مانهاتن بعد وقت قصير على زواجنا.

شكّل سباقي مع ماك واحدًا من السباقات القليلة في البلاد التي تضع اثنين من النواب الحاليين في مواجهة بعضهما بعضًا. وأسف كلانا، علنًا على إعادة تحديد الدوائر الانتخابية. وإلى أن تم عد الاصوات في تشرين الثاني/نوفمبر، توقّع معظم المعلقين السياسيين صراعًا متقاربًا. وكذلك أنا. فقد حصلتُ في الانتخابات الجمهورية التمهيدية على ١،٧٦١ صوتًا أكثر مما حصل عليه ماك في الانتخابات التمهيدية الديمقراطية، غير أنني علمت أن هذا قد يكون مُضلِّلا.

استمررت في حملتي كأنني خاسر. ومضى أحد المتطوعين معي، وهو جمهوري متحمس اسمه ماريو «تشي-تشي» ميلدي يعيش في ويلسونفيل الصغيرة، إلى أقصى الحدود من أجلي. وعلمت في وقت متقدم من الحملة أنه أمضى الكثير من الأمسيات المظلمة يمزق شعارات ماك ويستبدل بها شعاراتي.

ضرب ماك بقوة، وخصوصًا في الإعلانات المدفوعة في الصحف. ففي رسالة من نصف صفحة تحسّرت لجنة ماك الانتخابية على سجلي السلبي في التصويت. وظهر التالي بحرف عريض تسهل قراءته: «صوّت فندلي ضد برنامج الفضاء، والضمان الاجتماعي، وكهربة الريف، وبرامج للشيوخ والضرير، والتعويض عن البطالة، والمساعدة الجامعية، والعناية الصحية، والتربية، والرفاه الاجتماعي، والتلفزيون التثقيفي، ورفع الحد الأدنى للأجور». وكان ذلك دقيقًا

إلى حد مقبول. فقد عددتُ هذه البرامج، وكلها تقريبًا تقترح انفاقًا فديراليًا جديدًا، هادمة للموازنة.

وفي إحدى الأمسيات، وبعد نهار من الكدمات القاسية في العناوين الرئيسة بفضل ماك، توقفتُ في جاكسونفيل للمبيت في منزل جون كارل والد مدير حملتي. لم تكن ميزة السكن الوحيدة أنه مجاني، بل أنه يتضمّن في العادة محادثة نافعة مع كارل الكبير، وهو مهاجر حكيم من اليونان. وبعدما أطلعت كارل على آخر هجمات ماك الكلامية، سألته كيف يجب أن أرد. فاستوحى من اليونان القديمة قائلًا: «سقط سقراط مرّة على الأرض بعدما صدمه ثور وهو يسير في السوق برفقة أحد تلاميذه. ساعد التلميذ سقراط على النهوض وهو يسأله، لماذا لا ترد الضربة للثور؟ فأجابه سقراط لربما فعلت لو أنني ثور أنا أيضًا». فهمتُ المقصد وتجاهلت ماك.

احتللت العناوين بعد ذلك بأيام باتهامي ماك بالتصويت مع الجانبين في عشرات من القضايا إلى حدّ أنني اقترحت أن يُسمى «ماك ذا الاتجاهين». وبلغت بي الوقاحة إلى حد السؤال، «أتساءل كم من السراويل مزقها ماك ذو الاتجاهين وهو يقفز من جهة من السياج إلى الأخرى؟» لم يجاوب ماك. ولربما سمع هو أيضًا بنصيحة سقراط.

ولّدَتْ مسابقة في كتابة المقال، رعتها وأدارتها ماري تيدرو زوجة مايرون تيدرو وهو صديق ذو شأن وطابع في ذي بايك كاونتي ريبابليكان، حماسة في أوساط السكان الشبان على مستوى المحافظة. وكتب عدد كبير من المؤلفين الشبان، وقد اغرتهم الجائزة الكبرى وهي كناية عن قسيمة توفير بقيمة مئة دولار، ردًا على السؤال التالي: «لماذا تجب إعادة انتخاب بول فندلي إلى الكونغرس؟» وقد طُبع عدد من المؤلفات في الصحف المحلية مما أدخل السرور إلى نفوس الأهل والأجداد إضافة إلى المؤلفين أنفسهم. وأصبح واحد من الفائزين، وهو راندي داي من رود هاوس، صديقًا مدى الحياة. والآخر كان ديفيد ورّال، ابن بوب وماريبتا ورّال زعيمي حملتنا في مقاطعة سكوت. وديفيد اليوم مزارع رائد في مقاطعة سكوت.

حصل ماك على عناوين ودّية عندما زار الرئيس كنيدي سبرينغفيلد للحث على إعادة انتخابه. إلا إنني امتلكت ردًّا قويًا سريعًا. فقد تلقيّت الاذن، في تشرين الأول/أكتوبر، بالاستشهاد بقول الرئيس السابق دوايت أزينهاور: «إن عضو الكونغرس بول فندلي يصوّت على المبادئ التي تجعل أميركا عظيمة... وقد تمت على نطاق واسع ملاحظة فاعليته في التشريع الزراعي وفي مشاكل النيتو (حلف شمال الأطلسي) في أميركا وفي ما وراء البحار». وقد أحب أيك اقتراحي إخراج الحكومة الفديرالية من مسألة الحبوب، إلا أنه سُرّ بالدرجة نفسها عندما أنشأتُ اللجنة الجمهورية حول النيتو والمجتمع الأطلسي في ١٩٦٣. فهو كان قائدًا عامًا للنيتو قبل أن يصبح رئيسًا لجامعة كولومبيا.

فزت بالانتخابات ب١٠٠،٥٥٨ صوتًا في مقابل ٨٩،٥٢٢. وقد حقق الفارق تأييد أيك وحماسة المتطوعين، وبخاصة في صفوف المزارعين.

جلبت في صيف ١٩٦٣ حمل ذراعيّ من الرسائل من مزارعي إيلينويز الذين يحتجون على مبيعات الحكومة الأميركية من القمح للاتحاد السوفياتي بأسعار الحسم. وشككت، مثل كاتبي الرسائل، في الحكمة والإنصاف في تقديم حسومات في الأسعار إلى حكومة معادية. نويت وحسب على أن أترك الرسائل مع سكريتيرة كنيدي الخاصة إيفلين لينكولن. ولم أتوقع أن أتحدث مع الرئيس بمثل هذه المهلة القصيرة، لكنني اعتقدت أن التسليم باليد سيزيد من احتمال لفت نظره الخاص إلى البريد. ولدهشتي طلبت مني لينكولن البقاء قائلة «أنا متأكدة من أن الرئيس سيود لقاءك، وأرى أن سيارته الليموزين تسلك للتو الطريق الخاصة». واعتذرتْ بعد لحظة قائلة، «آسفة، لقد بدّل الرئيس خططه وهو يتوجه مباشرة إلى مقر العائلة».

عندما اغتيل كنيدي في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٦٣، توقفت الأمة كلّها توقّفًا مفاجئًا. وكنت عند هذا الحد اكتسبت احترامًا كبيرًا للرئيس وتوقعت منه أن يمارس زعامة جيدة في خلال كل من ولايته الأولى والثانية. وكانت اتصالاتي الشخصية به قليلة لكنها عزيزة. تحادثت مدة وجيزة معه في ثلاثة

استقبالات مختلفة في البيت الأبيض ولدي مجموعة من الصور نظهر كلانا فيها. وتبادلت بضع كلمات معه في خلال أزمة الصواريخ في كوبا وأنا أطلعه على مسح للناخبين يظهر دعمًا شعبيًا كبيرًا لاستخدام القوة ضد نظام فيدل كاسترو. ومن حسن الحظ أن كنيدي لم يأمر القوات الأميركية بالاجتياح. ولما مات كنيدي ألغى الزملاء جميعهم كل المناسبات المقررة لعطلة نهاية الأسبوع وحضروا مراسم الدفن.

نشرت الواشنطن بوست بعد وفاته صورة على امتداد نصف صفحة لآخر خربشاته التي أدخل فيها رسومًا لمراكب وكتب كلمات قليلة عن الفقر. وبين الكلمات الأخرى المكتوبة كلمتا «فندلي» و«قمح» - دليل إلى أن لينكولن أشارت إلى البريد الذي تركته معها. وقد شطب كنيدي الكلمتين بعد كتابتهما. والخربشات دليل إلى ان الرئيس سمع بالفعل كلمة او اثنتين عن البريد الذي تم تسليمه.

قامت مجموعة من الناخبين في دائرتي في تموز/يوليو ١٩٦٤، ومن دون معرفتي، باقتراح اسمي لمنصب أرفع. وكانت المجموعة بقيادة المصرفي من مقاطعة كاس، أ. س. هارت، وضمّت المحامي ريتشارد ميللز من فرجينيا في إيلينويز وقد أصبح لاحقًا قاضيًا فديراليًا، وم. د. كينغ من بيتسفيلد، ولويس هرندون من سبرينغفيلد وكلاهما يعمل في مجال الطحن، وقائد المتطوعين ومشيّد المنازل مارج غليسن من بيردستاون. اقترحوا في مؤتمر صحافي ان ينتقيني السيناتور باري غولدووتر، الذي باتت مؤكدة تسميته مرشحًا جمهوريًا إلى الرئاسة، بصفة كوني رفيقه في الترشح إلى منصب نائب الرئيس. حاز الاقتراح بعض العناوين الرئيسية الإقليمية لكنه لم يمتلك حظًا في النجاح. إذ لم يعد أمام انعقاد مؤتمر التسمية سوى ١١ يومًا. ولم تعرف اللجنة أن سيناتور أريزونا انتقى بالفعل النائب وليام ميللر وهو جمهوري من نيويورك ورئيس إللجنة الوطنية الجمهورية. شكّل الاقتراح مبادرة فيها مراعاة، وأمراً يصيب عضوًا من حقول الذرة في ولايته الثانية في الكونغرس بسكرة في الرأس. وبدلًا من توجه عائلة فندلي إلى مؤتمر التسمية، صعدت على متن سفينة رحلات صغيرة اسمها ذي هوميريك في ميناء

نيويورك وتمتعت بخمسة أيام لا تُنسى من الطعام والمتعة في البحر.

شعرتُ، وأنا أفكر في الإدارة الجديدة برئاسة ليندون ب. جونسون، ان هناك تغييرات كبرى تنتظرنا، وليست كلها بالجيّدة.

في آب/أغسطس ١٩٦٤، لم يحظ إجراء بالحرب، أثبت لاحقا انه على درجة هائلة من الأهمية، إلا بتفحص سطحي قبل ان تتم الموافقة عليه سريعا في مجلسي النواب والشيوخ. وأصبح يُعرف باسم قرار خليج تونكين. فقد أخذت حكومتنا في تعميق تورطها في حرب فيتنام، وطلب جونسون موافقة سريعة على القرار. وزعم القرار ان القوات العدوة اعتدت على مركب عسكري أميركي في خليج تونكين الفيتنامي وسمح للرئيس باستخدام كل الإجراءات الضرورية لمقاومة العدوان في المنطقة. ووافق مجلس النواب، تسريعًا للاجراءات، على تعليق الإجراء العادي من خلال تحديد النقاش بساعة واحدة ومنع التعديلات. اقلقني احتمال أن يؤدي القرار إلى نقل سلطات واسعة إلى الرئيس، فطلبت من جيرالد ر. فورد، الذين انتخب حديثًا ليخلف تشارلز هالك كزعيم للجمهوريين، أن يمنحني دقيقة واحدة من الدقائق الثلاثين من النقاش التي يتحكّم بها. فرفض قائلًا ان الوقت كلّه كُرّس لأعضاء آخرين. قلت له إنني أريد ضمانًا من الزعماء الديمقراطيين ألا يُفسّر القرار على أنه إعلان للحرب. فأجاب فورد «لا تقلق. هذا ليس إعلانا للحرب. انه مجرّد تربيت من الكونغرس على الظهر يظهر الدعم للرئيس في زمن الأزمة».

لم تهدّئ تطمينات فورد من مخاوفي، لكنني لم أقم بالمزيد وأدليت بصوتي موافقًا على غرار الآخرين كلهم ما عدا واحدا. وتوجّب عليّ أن أعلن مخاوفي في ملاحظات في عدد اليوم التالي من الريكورد، لكنني لم أفعل. وهذا تصويتٌ وفشلٌ آسف لهما أشد الأسف. وقد صوت المجلس بـ٤١٤ صوتًا للقرار من دون أي صوت ضده. ولم يصوت في مجلس الشيوخ إلا عضوان ضده.

احتفظ جونسون بنسخة عن القرار في جيب سترته. وفي كل مرّة يتم التشكيك في سلطته في المضي في عملية زيادة هائلة ومكلفة للقوات في فيتنام،

يسحب النسخة من جيبه ويقرأ منها مستشهدًا بها على أنها مساوية لاعلان الحرب. وأثبت تحقيق أجري بعد سنوات على ذلك ان الهجوم المزعوم على المركب العسكري الأميركي لم يقع. فقد شكّل القرار ذريعة للحرب استنادًا إلى معلومات خاطئة.

أبقى واحد من تعديلاتي، في وقت لاحق من ١٩٦٤، مجلس النواب منعقدًا في جلسة نادرة استمرت الليل كله في الليلة السابقة لليلة عيد الميلاد. فقد طرحتُ تعديلًا لمشروع قانون اعتمادات يمنع بيع الحبوب للدول الشيوعية بقروض طويلة الأجل وبفائدة متدنية. ولما عرضتُ تعديلي للمرة الأولى لم يمر في تصويت متعادل بلغ ١٣٣ صوتًا في مقابل ١٣٣. ولكن تمت لاحقًا إعادة النظر فيه والموافقة عليه مما أصاب بالوجوم مسؤولي وزارة الزراعة الجالسين في رواق المجلس. وحاججت، دعمًا لهذا التعديل، «لماذا علينا أن نعطي بطاقة ائتمان للشيوعيين على أساس الحسم؟» شكلت تلك حجة جذّابة، وقوية إلى حد أن الغالبية حافظت على مساندتها لتعديلي في خلال ليلة طويلة. ووضعت مسودة تسوية في ليلة الميلاد. وبعدما تحدّد، بـ٢١٨ صوتًا في مقابل ١٦٩، أن من غير الممكن منح قرض لبلد شيوعي ما إلا بتوقيع شخصي من الرئيس على كل عملية من هذا النوع، توجه الأعضاء المُنهكون إلى منازلهم وإلى شجرة الميلاد.

وفي يوم الانتخاب في ١٩٦٦، فزت بولاية رابعة بانتصاري على الديمقراطي لستر كولينز وهو رئيس بلدية سابق لسبرينغفيلد بـ١١٩،١٩٤ صوتًا في مقابل ٩٨,٢٥٦.

واصلت، قبل فوزي بإعادة الانتخاب وبعده، حملتي على مكافأة الدول الشيوعية بأسعار حبوب متدنية. وقد رفضتْ مداولات المجلس، بـ١٥١ صوتًا في مقابل ١١٩، تعديلي لمنع بنك الصادرات والواردات من بيع الحبوب بأسعار مخفوضة للبلدان الشيوعية، ولكن تمت الموافقة على تعديلي لبرنامج الغذاء من أجل السلام بـ٣٦٦ صوتًا في مقابل ٢٣ وأصبح قانونًا عندما وقّع الرئيس جونسون مشروع القانون الذي يعدّله. وقد تطلّب أن توضع علامة على

الحبوب التي تشحن بشروط «البيع المُيسّر» لإظهار أن السعر المحسوم يصل إلى المستهلكين الأجانب بفضل سخاء الشعب الأميركي. وتطلّب بند آخر أن تحسن البلدان المستفيدة بتحسين إنتاج الغذاء المحلّي.

وها إن أيامًا عاصفة باتت تنتظر الأمة، وتنتظرني.

الجزء الثالث: رياء فيتنام



الفصل العاشر: العلاقة الفرنسية

وجدت نفسي، مع بدء سنتي الرابعة في الكونغرس، غارقًا حتى خصري في التحديات المرتبطة بمنظمة حلف شمال الأطلسي [النيتو]. وسبق للجنة غير الرسمية حول النيتو والمجتمع الأطلسي التي أنشأتُها في مجلس النواب في ١٩٦٣ أن أصدرت بيانات تأسف لما وصفناه بمسؤولية الولايات المتحدة عن المشاكل المتزايدة في المنظمة وبخاصة الخلاف مع فرنسا.

لاحظت مرتاعًا تراجع الإحساس بالوحدة والتماسك بين عدد من دول المجموعة، وليس هشاشة العلاقات مع فرنسا فحسب. واعتقدت ان جمهورية ألمانيا الفديرالية تحتاج إلى تفهّم أفضل لأنها لا تزال تخرج من الاحتلال العسكري لما بعد الحرب وتقيم علاقات ودّية مع فرنسا وما وراءها. لقد خرج النيتو إلى الوجود بصفة كونه تحالفًا ضد أحلام الاتحاد السوفياتي بالتوسع وضد أي اندفاعات كامنة نحو العسكرة في جمهورية ألمانيا الفديرالية الجديدة.

لم يكن قلقي مجرّد اندفاعة مفاجئة. فقد شكّل تماسك المجتمع الأطلسي الشمالي - وطبعا وحدته السياسية الدائمة - قضية شخصية منذ أيام المعهد. كان الرئيس شارل ديغول بطلي منذ خدمتي العسكرية في الحرب العالمية الثانية، عندما قاد مقاومة فرنسا الحرّة لنظام فيشي برئاسة المارشال بيتان الذي يديره هتلر. فقد أعاد ديغول، أكثر من أي شخص آخر، إلى فرنسا كبرياءها وروحها.

أعجبتُ بقيادة الجنرال الفرنسي الثابتة العزم لقوات فرنسا الحرة عندما تلقى بيتان أوامره من الجنرالات الألمان في الجزء الأكبر من الحرب. ففرنسا تشكّل، بالنسبة إلي، دولة ذات أهمية كبرى للولايات المتحدة، وقد جسّد ديغول الكبرياء الفرنسية والكرامة والأمل. وحاولت أن أوصل إلى زملائي تفهّمًا

للمظالم التي أثارت عدائية ديغول لأي شيء يهدد بأن تصبح فرنسا، في استعارة عامية، صنبورًا لمياه الإطفاء يبوّل عليه كلب. جمعت لجنتنا الجمهورية غير الرسمية لجنة من الخبراء في مشروع يُسمى دراسات أطلسية يتضمّن انتقادًا مفصّلًا للبنية العسكرية للتحالفات.

أثار اهتمامي الاستفظاع المعادي لديغول الذي انساب من البيت الأبيض إلى مقاهي القرية في أنحاء أميركا كافّة كرد فعل على العناوين الرئيسة المتعلقة بقرارات الجنرال في شأن النيتو. بدا أن معظم الأميركيين لا يفقهون طبيعة المظالم الفرنسية. أساءوا فهم بنية التحالف واعتقدوا ان ديغول قطع كل علاقة له بالنيتو. افترضوا، من العناوين، أن فرنسا تعود إلى الحياد. وكانوا مخطئين. فقد بقيت فرنسا، من دون انقطاع لحظة واحدة، عضوًا فاعلًا في الحلف. وحاول ديغول، عندما تحدّث أمام جلسة مشتركة للكونغرس في ١٩٥٩، أن يوضح أن فرنسا ستكون دومًا داعمة للحلف. وذكّرني مسؤولون دبلوماسيون فرنسيون كبار، المرة تلو المرة، بأن فرنسا هي أقدم حليف لبلدنا. بل أن ديغول نفسه كتب مرّة أن «فرنسا هي رأس القارة، وبريطانيا جزيرة وأميركا عالم آخر». ونظر إلى فرنسا بصفة كونها «خط المواجهة» في الحرب الباردة حيث أن انكلترا تحميها القناة، والولايات المتحدة تشكّل نفسيًّا وماديًا عالمًا وحدها. فقد تعرضت فرنسا في أقل من قرن لثلاثة اجتياحات على يد القوات الألمانية، وعانت في المرة الأخيرة عار الاحتلال. وأوشكت فرنسا أواخر سنوات ١٩٤٠ إيصال رئيس وزراء شيوعي. وكان أعضاء كثر في الحزب الشيوعي لا يزالون يحتلون مناصب رسمية. وكان ديغول أقل انشغالًا بالتهديد الشيوعي، على رغم أنه لم يستبعده، من انشغاله بالطموحات الأمبريالية لروسيا. وقد أشار في شكل شبه دائم إلى الاتحاد السوفياتي بالاسم المغلوط روسيا.

ويعتقد ديغول والمواطنون الفرنسيون، في معظمهم، أن الولايات المتحدة وضعت فرنسا مرتين في موقف عسكري خطير مع الاتحاد السوفياتي من دون أن تتشاور في ذلك مع الحكومة الفرنسية. كانت المناسبة الأولى العدوان الثلاثي الذي قامت به الجيوش الفرنسية والبريطانية والإسرائيلية في ١٩٥٦ على

قناة السويس. دان الرئيس أيزنهاور الغزو ووقفت الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي بعض الوقت حليفين في مجلس الأمن الدولي التابع للأمم المتحدة في إدانة فرنسا وبريطانيا إضافة إلى إسرائيل. وصلصل الزعيم السوفياتي نيكيتا خروشتشيف السيف وهدد بإمطار كل من لندن وباريس بالصواريخ النووية.

استحق العدوان على قناة السويس الإدانة، لكن تبرير الأمر أو عدمه لم يشكل المسألة المركزية بالنسبة إلى باريس. ففي **١٩٥٦** كانت بريطانيا العظمى وفرنسا، كلتاهما، عضوين في منظمة حلف شمال الأطلسي، ويعني هذا ان عليهما عَدَّ نفسيهما مرتبطتين ارتباطًا عضويًا إحداهما بالأخرى وبالولايات المتحدة. لكن الولايات المتحدة بدت غير مبالية ساعة مواجهتهما الخطر الشديد عندما هدد الإتحاد السوفياتي بتدمير فرنسا بالأسلحة النووية. وقد يكون ذلك تهديدًا لا طاقة لموسكو على تنفيذه، لكن فرنسا امتلكت سببًا وجيهًا لشعور الخطر. وكان يفترض بفرنسا وبريطانيا، كعضوين في النيتو، استشارة الولايات المتحدة ودول النيتو الأخرى قبل الانضمام إلى إسرائيل في الهجوم على السويس.

ووقعت الأزمة الثانية في تشرين الأول/أكتوبر **١٩٦٢** عندما تواجهت الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي في مسألة الصواريخ السوفياتية في كوبا. وفي كل من **١٩٥٦** و**١٩٦٢** أمرت الولايات المتحدة قوات النيتو، ومقرها العام في باريس، بالتأهب التام من دون أن تتشاور أوّلًا مع الفرنسيين. ومن وجهة نظر ديغول تُظهر هاتان المناسبتان، اللتان وقعتا في مدة تقل عن عشر سنوات الواحدة عن الأخرى، استعداد الولايات المتحدة للتضحية بحسن حال فرنسا -وغيرها من دول النيتو- في سبيل ممارسة قرارات عسكرية صاغتها وحدها ونفذتها. وقد أكدت أفعال أخرى شكوكه، وبخاصة في سنوات كنيدي وجونسون. وتألفت اللجنة الدائمة للنيتو من الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا، ولكن لم تُعامل السلطات في باريس قط على قدم المساواة مع لندن. فقد ساعدت الولايات المتحدة بريطانيا في تطوير الأسلحة النووية لكنها رفضت القيام بالأمر نفسه مع فرنسا. ولطالما كان القائد العسكري الأعلى للنيتو أميركيًا. ولم تُفعل قط القيادة

البحرية الإيبرية الأطلسية [ايبرلانت] التي افترض مع بداية التحالف أن يرأسها أميرال فرنسي. ودفعت هذه المظالم بديغول، الذي حظي بالدعم الواسع من الشعب الفرنسي، إلى اتخاذ هذه القرارات الموجعة. ولن تعود القوات الفرنسية المخصصة سابقًا للنيتو لتأتمر بقيادة جنرال أميركي.

وجدت أن من واجبي، كعضو في الكونغرس، أن أشرح الموقف الفرنسي لزملائي، وللشعب الأميركي قدر ما يمكنني ذلك. ولم يبد أن هناك أحدًا غيري على استعداد للنهوض بهذا العمل. وتطلّب ذلك تصحيح المعلومات المغلوطة، في عملية من شأنها تضييق الخلافات. شعرت أن للفرنسيين شكاوى مشروعة على الحكومة الأميركية. فديغول لم يكن دومًا على حق، لكنه لم يكن أيضًا دومًا على خطأ. وقد يمكنه أن يكون شخصية مثيرة للحنق، لكنه قائد عظيم على الدوام. واعتقدتُ أن من الحكمة الدائمة أن يستمع المسؤولون الأميركيون في انتباه إلى الشكاوى الفرنسية. ونعرف الآن، بفضل الإدراك المتأخّر، أن ديغول كان محقًّا أكثر مما كان مخطئًا في شأن فيتنام والسياسة الاقتصادية. وكانت لفرنسا مبرراتها في تطوير أسلحتها النووية، ولا تزال هذه الأسلحة إلى اليوم تشكل رادعًا فاعلًا ضد أي هجوم على دول النيتو.

كانت الحركة في اتجاه الاندماج الكامل للمجموعة الأوروبية بطيئة. ويجد الآن أولئك الذي أرادوا دولة أوروبية واحدة كاملةَ الاندماج، وأنا بينهم، أن هذه الخطوة باتت أقل ترجيحًا مع إضافة أعضاء جدد إلى المجموعة. واعتقدَ ديغول خلال رئاسته أن على المجموعة الأوروبية أن تبقى «مجموعة دول». وتحدّث أحيانًا تأييدًا لفديرالية على مستوى النيتو بصفة كونها هدفًا مرغوبًا، لكنه أصرّ على عدم وجوب محاولة القيام بها من دون «مُوحّد» قوي، أي شخصًا، من المفضل أن يكون رئيس دولة، يتمتع بالاحترام على مستوى الحلف وبالالتزام. وربما كان يفكّر في نفسه. إلا انني أعتقد ان تقويمة كان ملائمًا ودقيقًا.

أيد رجال كثر في حكومة ديغول الديغولية بقوّة قيام فديرالية أطلسية تضم الولايات المتحدة وكندا. وكذلك فعل أيزنهاور لما بلغ سنوات التأمّل في

تقاعده. وعلى رغم أن ديغول لم يشر، على حد علمي، قط إلى أيزنهاور على أنه يمتلك المقدرة على أداء دور «الموحّد»، أعتقد ان أيك كان هو الشخص - وربما الوحيد في أيامه - القادر على ممارسة هذا الدور. ومن سوء الحظ انه لم يعتنق هدف الفديرالية إلا بعد تقاعده. وراجع، في خلال واحد من أحاديثي الخاصة معه، الفرص المهدورة وهو في البيت الأبيض، بما في ذلك خطوات لجلب الولايات المتحدة إلى المجموعة الأوروبية. وأعطى بالنسبة إلى هذا خلاصة عميقة: «نميل إلى التعاطي مع التحديات العاجلة وترك تلك المهمة إلى الغد». ومن الحكمة نقش هذه الحقيقة البديهية على جدار كل غرفة تأخذ فيها الحكومة قراراتها.

ولا أرى اليوم على الساحة الدولية من يمكنه ان يصبح «الموحّد». وحمل ترومان في محفظته، وهو رئيس، نص قصيدة اللورد تنيسون قاعة لوكسلي Locksley Hall، وهو شِعْرٌ يتأمل في برلمان عالمي. وقدم ترومان بتقديم وينستون تشرتشل في معهد وستمينستر في ١٩٤٦، ثم جلس يستمع فيما رئيس الوزراء البريطاني يتحدث بثقة عن الفديرالية، متوقعًا أن تؤدي المواطنية المشتركة في مآل الأمر إلى جمع شعب بريطانيا الكومونولث والولايات المتحدة معًا في شكل دائم. وقد ساعد ترومان من ثم في إنشاء منظمة حلف شمال الأطلسي، لكنه لم يبذل أي جهد لتمتينها في فديرالية.

عرفت وأنا أدعو في ١٩٦٤ إلى تفهّم المظالم الفرنسية أنني سأتعرّض للانتقاد. ففورات الغضب مرتفعة. وقد بلغ استياء الرئيس ليندون ب. جونسون من قرار فرنسا الانسحاب من البنية الموحدة للنيتو وسحب مقر النيتو من الأراضي الفرنسية حدًّا منع معه تقديم الخمور الفرنسية في البيت الأبيض. ولمّا تحدّثت من أجل فرنسا، اعتقد بعض أعضاء الكونغرس أنني فقدت اتجاهاتي. وتحدّث البعض عن ديغول بصفة كونه متعجرفًا ناكرًا للجميل. واقترح أحدهم جدّيا إعادة تسمية البطاطا المقلية على الطريقة الفرنسية (French fries) بطاطا الحرّية. تواصلتُ مع المسؤولين الدبلوماسيين الفرنسيين هنا وفي باريس، وتحدّثت في قاعة المجلس لأشرح موقف ديغول، وحاولت أن أؤدي دور

الجسر بين البلدين الحليفين منذ زمن بعيد. أدرك بعض زملائي سعيي إلى مواجهة التيار المعادي لديغول، فأخذوا ينادونني، في ابتسامة، شارل بدلًا من بول.

ذلك كان المناخ عندما صفت خطة لا سابقة لها. اقترحتُ، وقد استشعرت خطورة القرارات الفرنسية في شأن النيتو، أن يرعى زملائي الجمهوريون في مجلس النواب مهمة جمهورية للحصول على الوقائع مباشرة في باريس التي كانت لوقت طويل المقر المركزي للنيتو. أحب النائب ملفين ليرد، رئيس مؤتمر النواب الجمهوريين ولاحقًا وزير دفاع الرئيس نيكسون، وزعيم النواب الجمهوريين جيرالد ر. فورد اقتراحي الذي حاز موافقة غالبية الجمهوريين الآخرين. ووافقتُ بالطبع عندما طُلب مني ترؤس المهمة.

وهي ستكون ذات موازنة متدنية تُدفع تكاليفها مباشرة من صندوق المؤتمر وليس من دافعي الضرائب. وسينضم إلي في البعثة ألكسندر بيرني من نيويورك، وهو عضو مخضرم في لجنة القوات المسلّحة، وهاستينغز كيث من ماساتشوستس، وجيمس مارتن من ألاباما. وأدى جون أ. ماثيوز، وهو ضابط متقاعد في الجيش وعضو بدوام جزئي في فريقي في الكونغرس، دور المنسق. وستشكّل هذه محاولتي الأولى لتقوية منظمة حلف شمال الأطلسي التي كانت فيها فرنسا، ولا تزال، عضوًا رئيسيًا.

وضع ماثيوز لائحة بـ١٠٣ من زعماء الكونغرس، والديبلوماسيين، والمسؤولين العسكريين ممن هم في الخدمة أو متقاعدون، وتلقّى كل منهم رسالة تتضمن الخطوط العريضة لهدف الرحلة وتطلب اقتراحاتهم. ورد أكثر من نصفهم قبل مغادرتنا إلى باريس. وجاءت كل الردود تقريبًا لطيفة ومشجعة.

بيد أن الرئيس السابق هاري س. ترومان أوصى مجموعتنا في رسالة مؤرخة في ٧ حزيران/ يونيو بأن «تعيد النظر» في الرحلة وتترك مشاكل النيتو للسلطة التنفيذية. وجاء النص كما يلي:

عزيزي عضو الكونغرس فندلي: قرأت رسالتك المؤرخة في الأول من

حزيران/يونيو والتي تطلب فيها اقتراحات تتعلق بمهمتك المعلنة إلى أوروبا بهدف تقويم علاقاتنا مع فرنسا ومشاكلنا في النيتو. ما أنت على وشك القيام به محفوف بالخطورة في حقل حساس ومتخصص - الأمر الذي قد تنتج عنه زيادة في الأعباء على الإدارة وإحراج لأمّتنا. فالرئيس هو المسؤول بموجب نظامنا عن قيادة السياسة الخارجية. ومن المرجح جدًّا أن «الوقائع» التي تسعى إليها قد أضحت في متناوله. وبالتالي فإن نصيحتي لك هي إعادة النظر. المخلص، هاري ترومان».

كانت تلك الرسالة الوحيدة التي أتلقاها من ترومان الرجل الذي أعجبت كثيرًا بعمله كرئيس. لم تخفني فكرته ولم تفاجئني، إذ سبق لي أن تعلّمت أن الرؤساء يفضلون أن يلتزم أعضاء الكونغرس مراجعة السياسة الخارجية ويبقون بعيدين من اتخاذ المبادرات من تلقاء أنفسهم. وقد أثّر فيّ أن ترومان كرّس وقتًا لقراءة رسالتي ووضع جوابًا مدروسًا عليها. وقد قوى ذلك من تصميمي على الحرص على المضي في المهمة بهدف تفادي «الخطورة» التي أشار إليها الرئيس السابق.

وكتب السيناتور غولدووتر: «أنا على اتفاق تام معك في هذا الصدد، وأعطيك دعمي. أعتقد أن عليك القيام بالمزيد والمزيد من ذلك». وكتب درو بيرسون الذي تُباع مقالاته على نطاق واسع: «أوافق في حماسة على هذه الفكرة». وبعث حاكم نيويورك نلسون روكفلر، الداعم الطويل الأمد للفديرالية، بـ «أطيب التمنيات».

حملنا معنا هدايا هي كناية عن تماثيل نصفية صغيرة لابراهام لينكولن. وقد وفّر السفير روبرت شتراز - هوب، مدير معهد السياسة الخارجية في جامعة بنسلفانيا، التحضيرات المسبقة والمشورة. واقترح روزنامة بالتشاور مع مسؤولي وزارة الخارجية، ولما وافقت مجموعتنا عليها قام بسفرة مسبقة خاصة إلى باريس لترتيب المواعيد.

بعد بضعة أيام على إرسال المكاتيب بالبريد، وأنا جالس في قاعة

المجلس، هرع جايمس هارفي، وهو زميل جمهوري من ميتشيغان وقد أصبح لاحقًا قاضيًا فدراليًا، من قاعة النواب المجاورة وسلمني طلحية صغيرة من الورق الأصفر. وقال هارفي وقد بدا عليه القلق «لن تصدق ما قاله ديركسن للتو عن رحلة باريس». كان ذلك خبرًا من ثلاث فقرات انتُزع من برقيات اليو.بي.آي. التي تخرج من واحدة من آلات الطباعة الإعلامية في البهو، وهي برقيات تساعد الأعضاء على متابعة آخر الأخبار. وبحسب البرقية فإن زعيم الجمهوريين في مجلس الشيوخ إيفريت ديركسن أجاب، عندما سأله أحد المراسلين في بهو الصحافيين في مجلس الشيوخ عن رأيه في «مهمة فندلي السياسية الخارجية في باريس» بالتساؤل: «هل تمزح؟» وقال ديركسن، بحسب اليو.بي.آي. ، «هذا لطيف» عندما شرح مراسل آخر أن المجموعة ستستكشف الصعوبات الأميركية مع فرنسا. ثم «فكر ديركسن بصوت مرتفع» في شأن قانونية الرحلة، قائلًا إنه لا يعرف هل تشكل انتهاكًا لقانون لوغان، وهو تشريع يمنع المواطنين العاديين من الانخراط في مفاوضات في شأن السياسة الخارجية.

ارتعت عندما قرأت البرقية. ففي النهاية أنا وديركسن رفيقان جمهوريان وهو المتحدث باسم بعثة إيلينويز الجمهورية في الكونغرس. وكاد اسمه يحتل رأس لائحة الأشخاص الذين بعثت إليهم برسالتي. وسبق له منذ بضعة أشهر أن هنأني على علاقتي بوسائل الإعلام الإخبارية. وأعلنتُ أن الرحلة هي مجرد تقصٍّ للحقائق وأن لا اعتراض على ذلك من وزارة الخارجية. وعقدت في وقت سابق من النهار مؤتمرًا صحافيًّا أشرح فيه أهداف المهمة. لم يطرح الإعلام أسئلة انتقادية، وبدا كل شيء على درجة تامة من التنظيم إلى أن سلمني هارفي برقية اليو.بي.آي...

وفي اليوم التالي نشرت ستايت جورنال - ريجيستر في سبرينغفيلد تقريرًا من واشنطن تحت عنوان «انهيار مشروع فندلي لتقصي الحقائق». اتصلت بمكتب ديركسن. لم يكن موجودًا لكن سكرتيرته أبلغتني أن رسالة الشرح خاصتي كانت ليومين على الأقل على رأس الأغراض على مكتب السيناتور. وقالت إن من

الواضح أنه لم يقرأها. واتصل بي ديركسن هاتفيًا في وقت لاحق. كان اعتذاريًا لكنه رفض الإدلاء ببيان علني توضيحي قائلًا إن الأمر سيبدو «أشبه بالحساء الذي بولغ في تسخينه». ولا بد من أنه راودته أفكار ثانية في شأن الحساء لأنه أبلغ الاعلام في اليوم التالي ان حديثه مع المراسلين عن رحلتي كان من باب «المزاح» ولم يجدر بهم نقله. وأضاف أنه لا يجد موجبًا للاعتراض على الرحلة. ونشرت الاسوشيتدبرس الخلاصة التالية بعد ذلك بيومين: «[ديركسن] يقول إنه كان يمزح وحسب عندما سخر من خطة النواب الجمهوريين التحقيق في العلاقات الأميركية - الفرنسية».

بالكاد شكّل ذلك الانطلاقة السليمة التي أردتها للرحلة. أدرك أيزنهاور السلوك الغريب لديركسن، فرحّب القائد الأعلى الأول للنيتو بمجموعتنا لاجتماع يسبق الرحلة في مكتبه في غيتيسبورغ. وفعل نائب الرئيس السابق ريتشارد نيكسون الأمر نفسه في مكتبه في مانهاتن.

أفاد كاتبا المقال الذي يُنشر في عدد من الصحف، رولاند إيفانز وروبرت نوفاك، يوم حلت بعثتنا في باريس عن جدل على المهمة في أوساط النواب الجمهوريين عندما حث فرانسس بولتون، وهو جمهوري كبير في لجنة الشؤون الخارجية في مجلس النواب، النواب الجمهوريين على إدراج عضو واحد على الأقل من اللجنة في البعثة. واستنتج إيفانز ونوفاك أن «بعثة فندلي... عالقة في شرك سياسات الحزب الجمهورية أكثر مما هي في الدبلوماسية الدولية». ولم تُحدث تعليقات بولتون في الواقع اهتزازات، إذ سبق للجمهوري الكبير في لجنة العلاقات الخارجية، إي. روس أدير، أن وافق على المشاركة ثم انسحب بسبب تضارب في المواعيد.

بدأنا بروزنامتنا التي تستمر تسعة أيام في باريس من دون عقبات تُذكر. التقينا كبار القادة العسكريين والمسؤولين المدنيين في النيتو وفرنسا، وبينهم كوف دي مورفيل وزير خارجية فرنسا، وموريس شومان وزير الخارجية المستقبلي الذي عمل في خلال الحرب العالمية الثانية على أنه صوت فرنسا من راديو فرنسا الحرة الذي يبث من لندن. وهكذا بدأت صداقتي الوثيقة مع شومان

والتي استمرت حتى وفاته بعد سنوات من ذلك. كان واحدًا من مسؤولين فرنسيين كثر يجهرون بدفاعهم عن فديرالية دول النيتو التي اقترحها ستريت. وكان بين المسؤولين الذين اجرينا معهم المقابلات الأمين العام للنيتو مانليو بروسيو؛ الجنرال الفرنسي بيار غالوا؛ وزير الدفاع الفرنسي بيار ميسنر؛ القائد الأعلى للنيتو الجنرال ليمان ك. لمنيتزر؛ والمدير العام لمؤسسة الدراسات الاستراتيجية الفرنسية الجنرال أدريه بوفر. وكان السفير الأميركي في فرنسا تشارلز إي. بوهلن ودودًا ومسعفًا.

وأعطت نقاشاتنا الدليل إلى ان النيتو احتفظ، من منظار الفرنسيين، بعلاقة القائد والتابع، حيث الولايات المتحدة هي دومًا القائد وكثيرًا ما تحصل بريطانيا على الأفضلية على حساب فرنسا. وشدد مسؤولون فرنسيون كثر على أن بلادهم أجبرت على الانصياع بدلًا من التكامل، مستشهدين بالدليل إلى أن إدارة جونسون حجبت معلومات وقرارات تتعلق بالمسائل النووية عن فرنسا زاعمة أن الشيوعيين تغلغلوا في البيروقراطية الفرنسية. وكان الرد الفرنسي هو أن الجاسوس البريطاني كلاوس فوش ضُبط وهو يسرق أسرارًا نووية لحساب الاتحاد السوفياتي، ولكن لم يحدث أي خرق مشابه في فرنسا. وقد شرعت فرنسا في تطوير أسلحتها النووية الخاصة. وشرحت مجموعتنا، بأفضل ما يمكن، طغيان المعلومات المضللة في الكونغرس وفي أنحاء البلاد عن النيات الفرنسية.

على رغم أن ديغول لم يستجب طلبنا إجراء مقابلة شخصية معه، أرسل إلى المجموعة رسالة مبهمة ركّز فيها على الدور الأميركي في فيتنام. وقد نقلها أحد مساعديه، العقيد دو شينيه، الذي شارك في حفل عشاء أقامه على شرفنا الجنرال بيار غالوا الإختصاصي في التخطيط الاستراتيجي النووي. كان الحكم الفرنسي في الهند الصينية - الفرنسية، التي تُعرف الآن بفيتنام، انتهى قبل ذلك بسنوات عدة. ولما حصلت زيارتنا لباريس، كان حشد القوات الأميركية في فيتنام يجري على قدم وساق. وفيما نقل شينيه رسالة ديغول الشفوية، كتبتُ كلماتها على بطاقة اعتنيت بالمحافظة عليها: «آمل في أن تحققوا انتصارًا في

فيتنام. لكنني لا أعتقد ان في وسعكم ذلك. وإذا واصلتم «نجاحكم» الحالي فستصبحون في غضون خمسة أعوام متورطين في عشرة أماكن. وعندذاك سيتعب الشعب الأميركي ويعود إلى الانعزال. وبقولي هذا، أرجو منكم أن تتذكروا أن لا أنا ولا الشعب الفرنسي نكره الشعب الأميركي». شكل ذلك توقّعًا صريحًا وقاسيًا، ودقيقًا، للفشل المُكْلف الذي ينتظر الولايات المتحدة في فيتنام.

وضعنا، قبل عودتنا إلى واشنطن، إكليلًا على ضريح الجندي المجهول. وأضفى هاستينغز كيث سرورًا على المتفرّجين بإلقائه كلمات الثناء بالفرنسية بلكنة نيو إنغلند. وفي ٢٢ حزيران/يونيو بعث غالوا بالرسالة التالية: «علينا، إذا أردنا أن نبني شيئا معًا، أن نكون صريحين ونعرف بالضبط ما هو المشترك بيننا وما الذي يفرقنا». وأعرب أيضًا عن القلق من تقارير في وسائل الإعلامية عن أن «بلادي ستفلس بسبب الإنفاق الذرّي». وكتب أن هذا «لا يتلاءم مع الواقع».

عمل أعضاء فريقنا الصغير معًا بتناغم في التحضير للرحلة، وفي متابعة الروزنامة في باريس، وفي وضع التقرير النهائي. وخلصنا إلى أن فرنسا لن توافق في وقت قريب، هذا إذا وافقت، على العودة إلى بنية قيادة النيتو المشتركة، لكنها ستبقى في الحلف وتدعم في إخلاص قرارات النيتو من خلال السيطرة الوطنية على مصادرها العسكرية المحلية المستقلة النووية منها وغير النووية. وجاء في توصياتنا:

تجب، من أجل تحسين روح التحالف وحسن المعاملة بين الدول، إعادة تنظيم النيتو بصفة كونه شركة حقيقية بين متساوين.

يجب ان يتم تناوب القيادة العليا للقوات المشتركة سنويًا من دولة إلى دولة. وعلى الدول الأعضاء التشاور صراحة ومن غير إبطاء بعضها مع بعض قبل الشروع في أي أعمال عسكرية.

ولإعطاء مثل عن القدر القليل الذي تغيّر، فإن القوات التي يقودها الحلف

الأطلسي في أفغانستان اليوم تعمل في صفة مستقلة عن القوات العسكرية الأميركية في ذلك البلد. فالقوات الأميركية تعمل كلها بقيادة أميركية مباشرة.

ولا بد من ان مهمتنا تفادت المخاطر التي ساقها ترومان لأن معلقين كثرًا بارزين في وسائل إعلام الأمة أعطوا علامات جيدة لتقريرنا. بـ«المتوازن» سخرية ديركسن، ووصفت النيوزويك تقريرنا بـ«المتوازن»، وعرفّت عنّي بأنني واحد من «الشبان الخمسة اللامعين» في المجلس. وتابعت مقالة النيوزويك: «تسبب [فندلي] بضجة بقيادته بعثة من أربعة أعضاء [جميعم جمهوريون] للتحري عن الخلافات الأميركية - الفرنسية على النيتو. تسببت الفكرة بالضحك المكتوم في الوسط الدبلوماسي، ولكن تبين أن تقرير فندلي شكل تقويمًا متوازنًا. . .» وبعد ساعات على نشر تقرير النيوزويك، حضرتُ حفلة عيد ميلاد تكريمًا لديركسن. ولاحظ الضيف ريتشارد نيكسون أن الأعضاء الأربعة الآخرين الذي ذكرتهم النيوزويك كانوا من الديمقراطيين، فسألني بابتسامة لطيفة: «ما الذي تفعله مع هؤلاء الليبراليين جميعًا؟» وكان ذلك سؤالًا ودّيًا لأنني عرفت حينذاك أن نيكسون يشاطرني دعمي فديرالية دول النيتو.

كرّس ديفيد لورنس، رئيس تحرير يو.أس.نيوز أند وورلد ريبورت، صفحة كاملة للتعليق على عمل بعثتنا. وحصلت على تعليقات مؤاتية من كاتبي المقالات التي تُنشر في عدد من وسائل الاعلام وهم فولتون لويس جونيور، وروسكو دراموند، وسي. ل. شولزبرغر، وتشارلز بارتلت. وبين الذين ردّوا في حرارة عبر البريد رئيس الوزراء البريطاني السابق أنتوني إيدن، ووزير الخارجية الفرنسية السابق موريس شومان، وبطل الحرب الكورية الجنرال ماثيو ب. ريدجواي، والأميرال أرليه بورك. وفي نظرة إلى الوراء أجد أن واقعة ديركسن كانت كوميديا ظريفة يجرح فيها السيناتور إبهامه في النهاية. واضطررت إلى إطلاق ضحكة مكتومة وأنا أتذكر كيف استمتع بشهرته ككوميدي كبير عند لقائه المراسلين في بهو الصحافة.

ملأ نص تقريرنا عن مهمة باريس أكثر من ثلاث صفحات من عدد ٣٠ حزيران/يونيو ١٩٦٥ من الكونغريشونال ريكورد. وبعيد ذلك عينني زعيم

الجمهوريين في مجلس النواب فورد في البعثة الأميركية التي كانت تُسمى يومذاك برلمانيي النيتو، وسُميت في ما بعد مجلس الأطلسي، وأشاد بعملي عن النيتو في ملاحظة مكتوبة بخط اليد. وفي اليوم السابق مباشرة ليوم الانتخاب كتبت إيلينويز ستايت ريجيستر افتتاحية جاء فيها: «بدا أن فندلي حاول في السنة التي مرّت تمضية المزيد من الوقت في محاولة لتهدئة الخواطر وإعطاء المبررات للرئيس الفرنسي الامبريالي شارل ديغول أكثر من إشغال نفسه بمصالح محافظته». إلا أن تجربة باريس عمّقت، على الرغم هذا التقويم، التزامي في الهدف الفديرالي. فقد دعمت اقتناعي بأن الدول القومية لا تستطيع تلبية حاجات الحقبة المعاصرة. فهناك عدد متزايد من المشاكل المُكدّرة التي لا طاقة لأي بلد وحدَه على حلّها، وعلى الواقع أن يحث الدول ذات الباع الطويل في الديمقراطية والحفاظ على الحرّية الفردية أن تحرر نفسها من القيود الملازمة للتحالفات وربط أنفسها بعضها بعض في شكل دائم. ومع نهاية السنة تشاركت مجموعة من الحزبين من أكثر من مئة نائب في رعاية قراري المتعلق بالاتحاد الأطلسي. وزودني هذا المجموع الأمل في إمكان إحراز تقدم في العملية التشريعية.

لم ينهِ التقرير عن مهمة باريس التزامي الفرنسي. فقد زرت فرنسا مرات عدة في خلال عملي في المجلس الأطلسي وجددت علاقات الصداقة مع البرلمانيين وغيرهم مَن المسؤولين الذين التقيتهم في ١٩٦٥. ورافقتني ابنتي دايان، وكانت يومذاك في السادسة عشرة، في واحدة من رحلاتي إلى باريس. أمضت يومًا كاملًا في السفارة حيث حلّت ضيفة على عائلة السفير بينما كنت أشارك في نشاطات النيتو. وانضمت بعد الظهر إلى ابنة السفير، وعمرها ١٦ عامًا للتنزّه سيرًا في المتنزَّه المجاور. وضحكت الفتاتان لما فتح أحد المتعرين معطفه لعرض جسمه لكنهما ركضتا بأسرع ما يمكنهما عائدتين إلى السفارة. وتناولنا في تلك الأمسية، أنا ودايان، العشاء على أحد مراكب النزهة في نهر السين إذ حللنا ضيفين على مراسل ذي شيكاغو تريبيون في باريس. وطَلَبَتْ، بناء على اقتراحي، طبقًا من الحمام مغطى بغطاء من الزجاج. أكّدت لها أنه أشبه بالفروج تمامًا. وعندما وصل امتقع لونها ثم تقيّأت. وقالت في وقت

لاحق، «لم يسبق لأي فروج رأيته أن كان مطبوخًا في فطيرة ورأسه المتكرمش وقدماه تبرز كلها من أمكنتها. كان ذلك أصعب على النظر مما سبق للمتعري أن عرضه».

وعاشت دايان حماسة من نوع آخر بعد ذلك ببضعة أيام عندما قمنا بسفرة جانبية إلى برلين، حيث عبرت وحدها، في اختبار مفقد للجأش، بيت الحرس الألماني الشرقي عند نقطة التفتيش تشارلي في طريقها إلى برلين الشرقية. وشرح المرافق الذي وضعته السفارة في تصرّفنا أن الولايات المتحدة ترفض السماح للحارس بالتدقيق في جوازات السفر الدبلوماسية. ولذا كان على دايان، لأنها تملك جواز سفر عاديًا، أن تغادر سيارتنا وتسير وحدها عبر المبنى الذي يأوي الحرس. وهي تتذكّر أنَّ رجال الحرس كانوا عابسين وصارمين. تركوا دايان تنتظر ١٥ دقيقة قبل السماح لها بالمرور للانضمام إلينا ونحن ننتظر في سيارة السفارة. كانت الزيارة لألمانيا الشرقية وجيزة ولكن مُثقّفة. فهي هادئة وكالحة على عكس المجتمع الحي والكثير الحركة في ألمانيا الغربية. وقد سعدتُ بعد ذلك بسنوات كثيرة عندما سقط الستار الحديد الذي يفصل أوروبا الشرقية الشيوعية عن الغرب، وتحمّلتْ ألمانيا الغربية فرحة كلفة إعادة التوحيد التي وضعت حدا لمحنة ألمانيا الشرقية.

دفعتْ، ويا لدهشتي، مساعيّ الفرنسية بدنيس إمبراي، وهو واحد من الحجّاب الشبان الذين يتولّون الإجابة على الاتصالات وتنفيذ المأموريات لدى الجمهوريين في خلال جلسات مجلس النواب، إلى إعطائي نسخة من كتاب هل باريس تحترق؟ Is Paris Burning? للاري كولينز ودومينيك لا بيار. وهو كناية عن رواية تمسك بالألباب عن آخر أيام الاحتلال الألماني للعاصمة الفرنسية في الحرب العالمية الثانية، وقد وقع عليها إمبراي ورفاقه الحجّاب اهداء بكلمات حارة. وتلقيت بعد أربعين سنة رسالة إلكترونية من إمبراي الذي نال شهادة الدكتوراه وارتقى إلى مرتبة وطنية بارزة كخبير في علم الاجتماع. ولما أشرت إلى أنني فقدت الكتاب عن باريس زمن الحرب، استحصل على نسخة ثانية وكتب في الإهداء: «نحن الحجاب نحبك ونحترمك».

بعد سنوات عدة على لقائي الأول إمبراي، جاء رئيس فرنسي جديد، هو جورج بومبيدو، إلى الولايات المتحدة. فدُعي إلى التحدّث في اجتماع مشترك للكونغرس على الرغم المشاعر المعادية للفرنسيين التي أعرب عنها مؤيدو إسرائيل الذين يعارضون بيع فرنسا طائرات حربية للدول العربية. وأعلن النائب لستر وولف، وهو أحد هؤلاء المؤيدين، أنه سيعرب عن احتجاجه بالنهوض من مقعده في مجلس النواب والخروج من القاعة عندما يبدأ بومبيدو بالكلام. وعددتُ مثل هذا التصرف ضربة خسيسة لضيف مميّز، وضمنتُ تعاون زميلي الذي احترمه كثيرًا النائب لي هاميلتون في مواجهة مخطط وولف. ولما نهض وولف من مقعده، كما هو متوقّع، فيما شرع بومبيدو في الكلام، كنت في موقع سمح لي - بفضل تعاون هاميلتون - باحتلال المقعد الفارغ لحظة أخلاه فيها وولف. ويعني هذا أن ليس هناك مقعد شاغر يمكن الكاميرا أن تركّز عليه.

شكّل ديغول موضوعًا ظرفيًا في الزيارات التي كنت أقوم بها لأيزنهاور في بيتيسبورغ. وقال لي آيك في أحد الأيام أن في إمكان ديغول أن يكون مثيرًا للحنق، إلا أنه يكن له دومًا التقدير العظيم على ولائه لفرنسا. ولما توفّي أيك جاء ديغول إلى واشنطن لحضور مأتمه. ووصل إلى مطار دالاس حيث كنت في انتظاره مع مساعدي ستيفن جونس أملًا مني في إلقاء نظرة على الزعيم الفرنسي. لم تدرجنا وزارة الخارجية ضمن فريق الاستقبال، ولكن، كما سيتبيّن، أصبحنا أنا وجونز الفريق كلّه. فبسبب سوء تفاهم غابت اللجنة الرسمية عن الاستقبال لتوقّعها وصول الرئيس الفرنسي بعد ذلك بساعة.

ظهر بأبهى حلة في بزّة الجنرال الفرنسي، وتلكأ ما يكفي ليقول merci bien (شكرًا جزيلًا) ردًّا على ترحيبي به. وأصبح بعد لحظات من ذلك في سيارة سيتروين انطلقت به مبتعدة إلى مقر السفير الفرنسي. وفيما انسحبت الليموزين عند المنعطف حتى فكّرت في التعارض في الشخصية بين الجنرال الفرنسي الذي وصل للتو والجنرال الأميركي الذي جاء ليكرّمه. فديغول لا يبتسم، وهو فظّ، ومستعجل. وكانت مصافحة أيزنهاور، في كل مرة ألتقيه منذ لقائنا الوجيز الأول

في ١٩٥٢ وحتى آخر لقاء لنا في مكتبه في غيتيسبورغ، حارة وشديدة، وابتسامته عريضة، وتوحي كلمات ترحيبه بالصدق.

أظهر أيك، قبل سنوات على وفاته، رقّة حيال ابنتنا دايان، وكانت يومذاك في الثامنة، وحيال حفيدته آن وهي في سن الذهاب إلى المعهد. ولما أرسلت دايان إلى آيك صورة صغيرة رسمتها له في المدرسة وقد كتبت عليها بالأسود «أحب آيك»، ردّ بصورة موقّعة له ورسالة كتب فيها «أحب دايان». وطلب مني أيزنهاور، في ١٩٦٨، إرشاده إلى كيف يمكن حفيدته آن تلميذة المعهد أن تحصل على وظيفة صيفية كمتدرّبة في تلة الكابيتول. تخيلوا جنرالًا من خمسة نجوم في الجيش يطلب من ملازم بحري سابق صغير الرتبة متواضع إرشادًا عن أي شيء! ومع هبوط الليل كانت آن حصلت على عمل صيفي مع فريقي في تلة الكابيتول.

وفي عودة إلى ديغول في دالاس، توافر لديه طبعًا سبب للانزعاج. ومن المرجح أنه طلب من طيّاره الاستمرار في الدوران حول دالاس حتى الوقت المحدد المقرر لوصوله. وما من شك في أنه أُبلغ لاسلكيًا أن فريق الاستقبال غير متوافر. وتُمكن مسامحته على اعتقاده أن هذا ليس إلا مجرّد استهانة مقصودة أخرى من الحكومة الأميركية بـ la belle France (فرنسا الجميلة). ويبقى الترحيب به في الذاكرة على رغم أنه كان وجيزًا. فمن حق أي فرنسي نجا من عار نظام فيشي ومن سنوات الانحياز المناهض لفرنسا في مجلسي الحكم في الولايات المتحدة وبريطانيا أن يكون سريع التأثر وباردًا. وشكّل الأمر بالنسبة إلي لحظة مشوّقة. فلقد صافحت وحسب يد البطل الذي جاء إلى واشنطن لإحياء ذكرى بطل آخر متوفّ، وهو البطل الذي أحب دايان.

الفصل الحادي عشر: الحقوق المدنية والقائمون باللوبي

ميّز التنوّع ولايتي الثالثة: دعم التشريع في مجال الحقوق المدنية وهو ما وضعني مرة على خلاف مع الزعيم الجمهوري جيرالد ر. فورد؛ مواجهات بأعلى صوت في شأن لوبي السكّر؛ الخلل في عمل مدافع الدبابات؛ سن تشريع يمنع التمييز في العمل على أساس السن؛ والجدل في شأن المدفوعات المباشرة للمزارعين. وأثار الكثير من هذه المساعي ردود فعل شخصية حانقة من وزير زراعة الرئيس كنيدي ومن رئيس لجنة الزراعة المخضرم في مجلس النواب.

وكان أكثر تصويتاتي إثارة للجدل في مجال الحقوق المدنية هو مشروع قانون ١٩٦٤ الذي يمنع التمييز العرقي في الصفقات الإسكانية، وهو إجراء لم يتمتع بالشعبية في دائرتي الانتخابية ومع الزعيم الجمهوري فورد. إنْشَقَقْتُ، قبل التصويت، عن معارضة فورد المُعلنة وبعثت برسالة إلى جميع الجمهوريين في مجلس النواب أحثهم فيها على منحي دعمهم. واستشهدت فيها بزعامة أبراهام لينكولن المناهضة للتمييز العنصري وذكّرت زملائي بأن الجمهوريين أعضاء في الحزب السياسي الذي قاده لينكولن إلى النجاح الوطني. وأسهم تصويتي - أو ربما رسالتي إلى الزملاء المجمهوريين - في هزيمة تعديل كان من شأنه القضاء على مشروع القانون. وقد تمت الموافقة عليه في التصويت الأخير بـ٢٥٩ في مقابل ١٥٧.

على رغم أن تصويتاتي لم تتمتع حينذاك بالشعبية في دائرتي الانتخابية، فإنني أعدها وغيرَها من تشريعات الحقوق المدنية الأكثر مدعاة للفخر في سيرتي المهنية. وضمّت محافظتي الانتخابية، سبرينغفيلد، موطن لينكولن، التي شهدت

في ١٩٠٩ أعمال شغب عرقية رهيبة. وأُنشئت فيها فورًا بعد أعمال الشغب أول مجموعة رئيسة للحقوق المدنية، وهي الاتحاد الوطني لترقية الملوّنين. وشكّل تصويت فورد ضد الإجراء المتعلق بفتح باب الإسكان أمام الجميع الانشقاق الوحيد في السلسلة، إذ صوّت بعد ذلك لمصلحة مشاريع قوانين الحقوق المدنية الأخرى.

برهن فورد في السنة التالية، ١٩٦٥، انه لا يكن لي أي ضغينة إذ سمح لي باختيار فرانك ميتشل، وهو تلميذ في الخامسة عشرة من العمر يقيم في سبرينغفيلد، لتعيينه أول حاجب أفريقي - أميركي في تاريخ مجلس النواب. وقام ميتشل بعمله كحاجب على أحسن ما يرام وتابع في ما بعد حياة مهنية ناجحة في الصحافة التلفزيونية. وأبلغني بعد ذلك بسنوات أنه لم يختبر أي تمييز عرقي من أي شكل من أعضاء الكونغرس أو من غيره من الحجاب في خلال عمله في تلة الكابيتول. وقال ميتشل إنه حاول دومًا أن يتصرّف بـ «كرامة واحترام». وأضاف: «آمل في أنني سهّلت الأمر على الفتى [الاسود] التالي من بعدي». وقال ان مهمات الحاجب ساعدته في توسيع آفاقه. وأضاف «كانت حياة مدهشة وحسب». ولما سألته عن النصيحة التي يسديها إلى الجيل الأكثر شبابًا من الأفارقة - الأميركيين، قال «من المهم مواصلة الاتصال بالناس الذين تلتقونهم، ففي وسعهم أن يبنوا لكم جسورًا ضخمة في المستقبل»[1].

في ١٩٧٣، وفي مثال آخر على التناغم بين الأعراق، اختارني رئيس مجلس النواب كارل ألبرت في خلال إحدى الجلسات التشريعية في قاعة المجلس لأتحدث عن تقاعد إرنست بتينو رئيس النُدُل الأفريقي - الأميركي الذي يصادف في ذلك اليوم. وقد تمتع بيتينو بالشعبية في قاعة طعام مجلس النواب في الكابيتول. ومع بدئي بالكلام كان معظم أعضاء المجلس موجودين في القاعة. أشرت أوّلًا إلى ان يوم بيتينو الأول كعضو في فريق غرفة الطعام صادف الرابع من آذار/مارس ١٩٢٥ مع بدء كالفين كوليدج ولايته الرئاسية. ثم

(١) التاريخ الشفوي المروي لحجّاب مجلس النواب في مؤتمر الحجاب في ٢٠٠٩ في واشنطن.

أضفت: «ان حياة إرنست الودودة، الدمثة، اللطيفة والمراعية للآخرين غنيّة عن التعريف. ولكن ما لا يُعرف الكثير عنه هو حياته الخاصة الرائعة. فقد تعوّقت أمه ٢٥ عامًا فكرّس حبّه لتأمين حسن حالها إلى أن ماتت في ١٩٣٦. وأصبح بعد ذلك بسنتين متزوّجًا سعيدًا. وكانت إحدى هواياته كتابة البطاقات للمعوّقين بيديه الجميلتين. ولا يمكنني بموجب قواعد مجلس النواب ذكر أناس موجودين في رواق القاعة، ولكن كم سيكون رائعًا في هذه المناسبة لو أننا نقف جميعنا ونظهر مودّتنا للسيّد والسيّدة بيتينو». وفيما أتلفّظ بآخر الكلمات وقف زملائي واستداروا ليصفقوا للزوجين بيتينو وهما يقفان في صف المقاعد الأول في الرواق. استمر التصفيق أكثر من ١٥ دقيقة. ثم عاد الجميع إلى الجلوس للاستماع إلى الأعضاء وهم يتناوبون التنويه به بالكلمات. وقال زعيم الغالبية توماس ب. «تيب» أونيل: «هذا هو التكريم الاعظم الذي أشاهد شخصًا فردًا يتلقاه من هذه الهيئة في سنواتي الـ٢١ في الكونغرس». ونشرت الصفحات الأربع التالية من الكونغريشونال ريكورد مشاعر مشابهة فيما أخذ آخرون دورهم أمام المذياع. وقال زعيم الجمهوريين جون رودز: «يمكن لأرنست أن يتذكّر اسم كل عضو حالي أو سابق بل وحتى اسم زوجة كل عضو تقريبًا، في الزمن الماضي وفي الحاضر». وأضاف تشارلز بينيت، من فلوريدا، «أن تعرفه يعني أن تحبه». كانت تلك ساعة من العواطف الخالية من أي خجل. وتعمّقت صداقتي مع آل بيتينو في الأيام التي تلت. وحللنا، أنا ولوسيل، في إحدى الأمسيات ضيفين على العشاء في منزلهما نستمتع بوجبة أعدتها السيدة بيتينو وقدّمتها بنفسها، ثم تفحّصنا تذكارات حياتهما الزاخرة بالأحداث. وقد اعتزّت لوسيل بهدية من العطر قدّمتها إليها السيدة بيتينو.

وأخبر بيتينو في خلال الامسية عن تجربة فريدة من نوعها مع ريتشارد نيكسون وكان الرئيس لا يزال عضوًا في المجلس. طلب منه نيكسون أن يرتب له عشاء في يوم الجمعة التالي في مقرّه. قال بيتينو إنه، ويا للأسف، لا يستطيع، لأن ذلك سيعني تركه زوجته المريضة في المنزل وحدها. ولما عرض نيسكون إرسال ممرضة قانونية للعناية بزوجته أثناء الحفلة، وافق بيتينو على

المهمة. ووفّر نيكسون رعاية الممرضة على نفقته الخاصة ليس لتلك الليلة فحسب بل إلى ان شفيت السيدة بيتينو تمامًا بعد أكثر من أسبوع على ذلك.

تحدّث الأفريقي - الأميركي ملفين كوب في ١٩٧٦ في رفاقه المتخرجين في المدرسة الثانوية بضعة كونه ثاني أفضل متخرّج، بينما كنّا آل فندلي وفريق عملي موجودين في القسم المخصص للهتاف. فقد كان كوب، قبل ذلك بسبع سنوات، واحدًا من أربعة فتيان جاء بهم رئيس الفريق بوب ويشر وزوجته بات ومادلين إيفن وهي عضو آخر في الفريق إلى أمسيات مقر ويشر في تلة الكابيتول لاعطائهم دروسًا خصوصية. فقد تعرض حيّ الفتية للتخريب والحرق في اضطرابات ١٩٦٨ التي اجتاحت داخل المدينة عقب اغتيال المحترم مارتن لوثر كينغ جونيور. وسرعان ما تناقصت المجموعة ليبقى كوب وحده. وأصبح موظفًا، بدوام جزئي، فاعلًا ويُعتمد عليه في مكتبي.

وأخيرًا، اصبح في ١٩٧٧ واحد من أول اقتراحاتي التشريعية قانونًا. وهو لا علاقة له بالعرقية، لكنه تأهل ليكون جزءًا رئيسًا من التشريع في مجال الحقوق المدنية. والقانون، الذي وقّعه الرئيس جيمي كارتر في حديقة الورد في البيت الأبيض وأنا أقف وراءه، رفع إلى السبعين السنّ التي لا يمكن، إلا باستثناءات قليلة، حرمان أي شخص فيها العمل بسبب عمره فقط. وهو يعكس اعتقادي الراسخ أن بعض الناس يكونون شبانًا وهم في السبعين بينما يصبح آخرون عجزة وهم في الأربعين. وأنا أعدّ مشروع القانون هذا مشروعي على رغم أن النائب كلود بيبر [الديمقراطي من فلوريدا] يحتل رأس القائمة بصفة كونه الراعي الأكبر للمشروع الذي يأتي فيه اسمي ثانيًا. إلا أن بيبر عارض الإجراء قبل سنة على تحوّله قانونًا. وما لبث أن غيّر رأيه عندما تمتع المشروع فجأة بالشعبية. وقد سرّني قراره لأن دعمه ضمن السَنّ الفوري للقانون. وقد ترأس في ذلك الوقت لجنة خاصة بالتقدم في السن، وكان هو نفسه تجاوز الثمانين. وقد تعوّدت في الواقع أن أوضع من وقت إلى آخر في خلفية المسرح لأن الجمهوريين لم يشكلوا الغالبية قط في خلال سنواتي في الكونغرس. وبعدما وقّع كارتر مشروع القانون قدّمت نفسي إليه وشكرت له توقيعه على

«تقدّم ذي مغزى في الحقوق المدنية». سمع سام دونالدسون من أخبار الإي.بي.سي. تعليقاتي وأعرب عن دهشته بصوت مرتفع: «هل سمعتك، يا بول، تعرّف عن نفسك للرئيس؟» وقد دهشت، على رغم عدم إفصاحي عن ذلك، لأن سام أصيب بالدهشة. فقد سبق لي أن التقيت كارتر في عدد من المناسبات، غير أنني لم أتوقع منه أن يتمكن في سهولة، وعلى الفور، من ملاءمة مئات الأسماء مع الوجوه. وطلبت من كارتر، قبل مغادرة أرض البيت الأبيض، أن يبادل قلمه بقلمي. أعطيته قلم كروس جميلًا وحصلت في المقابل على قلم الحبر الناشف العادي الذي استخدمه لتوقيع القانون. وقال الرئيس: «لقد حصلتُ على الجزء الأفضل من الصفقة». ولا يزال قلم كارتر معروضا على جدار مكتبي تحت صورة مأخوذة للرئيس ولمجموعة من زملائي في خلال توقيع القانون.

بدأ الجدل في شأن كوتا (حصص) السكّر في ١٩٦٥ في غرفة الاستماع الرئيسة للجنة الزراعة عندما طرق رئيس اللجنة المخضرم هارولد كولي بمطرقته وأوقف استجوابي لأحد القائمين المحترفين باللوبي الذي كان يدلي بشهادته لمصلحة نظام الكوتا الذي تُمنح بموجبه الدول الأكثر رعاية حصة محددة من واردات السكّر الأميركية. وحكم كولي بأنني خرجت عن النظام لما سألت القائم باللوبي عن المبلغ الذي دفعه عميله الأجنبي في مقابل خدماته.

لم أعترض على حكمه، لكن ذلك دفعني إلى النبش في شكل أعمق في دور القائمين بلوبي السكّر وبالأسعار. وعلمت ان كوتا الاستيراد أبقت أسعار الاستهلاك الأميركي بنحو سبعة سنتات للرطل بالمقارنة مع السعر العالمي وهو سنتان ونصف السنت. وكان بعض الزبائن من الزعماء البغيضين لبلدان أميركا الوسطى. وأخذت كلما نقّبت عن معلومة أضعها في الكونغريشونال ريكورد. وقدّرت أن نظام الكوتا يكلّف المستهلكين الأميركيين ما لا يقل عن ٧٠٠ مليون دولار في السنة، إذ يُسلم ٢٨٠ مليون دولار من هذا المبلغ إلى أفراد غير منتجين وحكومات أجنبية. وحصد القائمون باللوبي رسومًا بـ ٣٥٠ ألف دولار من أصحاب مصالح السكر في السنة السابقة وحدها. وغذّت هذه المعلومة

شهية وسائل الأعلام للمواضيع الغريبة وبقيت جهودي الإصلاحية تحتل العناوين. وقد تبدو مبالغ لوبي السكّر شبه تافهة في حقبة اليوم من مليارات وتريليونات من الدولارات.

وأدى هجومي على كوتات السكّر إلى توتير علاقاتي بالنائب بيج بيلتشر من أوكلاهوما، وهو جمهوري كبير في لجنة الزراعة، وكذلك مع رئيس اللجنة كولي. ورأى بيلتشر في مساعيّ اتهامات ضمنية بأن داعمي الكوتات، وربما هو نفسه بينهم، يتلقون الرشاوى من القائمين باللوبي. وقد راودتني الشكوك في كولي وبضعة آخرين غيره، غير أنني لم اتهم أي أشخاص بأفعال سوء، وبالتأكيد ليس بيلتشر. وأردت في ١٩٧١ استعادة مقعدي في لجنة الزراعة الذي أخليته في ١٩٦٧ للحصول على مقعد في لجنة الشؤون الخارجية. وكان بيلتشر حينذاك الجمهوري الأعلى رتبة في لجنة الزراعة ولا يزال مستاء منّي، فلم يوافق على عودتي إلا بعدما سلّمته رسالة ذات تاريخ مفتوح باستقالتي من اللجنة الزارعية. وأبلغته أنه إذا فتح الطريق أمام عودتي إلى اللجنة فإن في وسعه تحريك رسالة استقالتي متى يشاء. سمح بتعييني، ولم يحرّك الرسالة ولم يفتح الموضوع من جديد. وقدّم إلي بيلتشر مرة النصيحة التالية: «لا تتقدّم بمشروع قانون أبدًا لأنه قد يصبح قانونًا». لم أتبع نصيحته، لكنني تبنّيت هذه السياسة في بريدي إلى الناخبين. وكان يتم تسجيل كل رسالة واردة على مكتبه في الكونغرس. وراقب عن كثب لضمان جواب سريع عن كل منها.

واكتشفت، لمّا اتبعت إجراء مماثلًا في مكتبي، أن مديرة مكتبي الجديدة واجهت تحدي البريد الوافد الكثير بحشو أحد الادراج بالكثير من الرسائل التي لا يتم الرد عليها. وسرعان ما أصبحت في الشارع تبحث عن وظيفة أخرى.

اندفع تشريع كوتا السكّر عبر لجنة الزراعة من دون تعديل. وبدا أنه يتجه إلى مراجعة روتينية في قاعة المجلس حين قررت لجنة القوانين السماح للمجلس بالقيام بإجراء يتعلق بالتعديلين اللذين عرضتُ التقدم بهما. ويمنع أحدهما الكوتا عن أي بلد يستخدم قائمًا باللوبي، ويفرض الآخر ضريبة على الكوتا الأمر الذي سيسمح للخزينة باسترداد بعض من كلفة الفاتورة للمستهلكين.

وسقط تعديلاي في مداولات المجلس بهامش ضيّق في تصويت لم يتم تسجيله. وتمت الموافقة على التشريع من دون تعديل في كل من مجلسي النواب والشيوخ. وكتبت النيوزويك الخلاصة التالية: «حاز [فندلي] هتاف الاستحسان على جمعه البارع للوقائع والأسئلة عما يفعله حقًا القائمون بأعمال اللوبي لمصلحة الحكومات الأجنبية التي تدفع لهم مبالغ مالية كبيرة من أجل الحصول على أموالهم - والكثيرون منهم من المسؤولين الأميركيين السابقين. واقترب في محاربته مؤسسة الكونغرس إلى أقرب مما توقّعه أي كان من تمرير التشريع الاصلاحي».

وفي أيار/مايو التالي نشرت الريدرز دايجست مقالة لي تحت عنوان «السكّر: فوضى لزجة في الكونغرس»، لخّصتُ فيها الغرامة التي يدفعها المستهلكون لنظام الكوتا، وحجّتي للاصلاح. وأعلنت ان «الهدف الوحيد الصالح لقانون السكّر هو حماية صناعة السكّر المحلية المرتفعة الكلفة عندنا. ويمكن تحقيق هذه الغاية من دون برنامج معقّد. علينا إلغاء قانون السكّر برمّته واستبدال تعريفة مباشرة به بقيمة سِنْتين للرطل على سبيل المثال. وسيؤمّن ذلك بضربة واحدة الحماية اللازمة للصناعة المحلية، ووصولًا عادلًا ومتساويًا لجميع المنتجين الأجانب إلى السوق الأميركية، ويجلب ملايين الدولارات إلى الخزينة الأميركية بدلًا من التصدّق بالملايين منها. وسيؤدي ذلك إلى خفض سعر السكّر بالمفرّق ويقضي على ترويج النفوذ والمحسوبية وغير ذلك من الانتهاكات». وكانت كتابة هذه المقالة أكثر مشقة من كتابة أطروحة رئيسة في المعهد. وقد انطبعت التجربة في ذهني من خلال الدقة المتناهية في التحرير الذي قامت به الدايجست. فقد تم تفحّص كل كلمة لإلغاء أي إمكان في المبالغة. أضف إلى ذلك أن مقالتي قد تكون أنهت حياة كولي الطويلة في الكونغرس، إذ خسر محاولته التالية لإعادة انتخابه.

وفي جبهة زراعية أخرى، اتهمتُ الإدارة في ١٩٦٦ بإغراق السوق بمخزونات الذرة كأداة لإجبار المزارع على الانصياع لما «يُسمّى» البرامج الفديرالية الطوعية للتحكّم بزراعة المحصول. واقترحت في العلن أن يلغي وزير

الزراعة أورفيل فريمان خطاباته الحزبية ويمضي في جولة استماع في المناطق الزراعية. وطالبت في مناسبة أخرى بإقالته من منصبه.

وبسبب مثل هذا التصرّف أطلق عليّ فريمان اسم «منفذ أعمال الحزب الجمهوري القذرة». ولمّا زار فريمان في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٦٦ سبرينغفيلد تأييدًا لمناوئي الديمقراطي ريشتارد وولف، دخلتُ من غير دعوة قاعة الولائم في الفندق حيث كان يعقد مؤتمرًا صحافيًّا. ومددت يدي على الفور ورحّبت بفريمان «في أعظم محافظة زراعية في أميركا». شكّل ذلك قرارًا تلقائيًا غير مُخطّط له اتخذتُه وأنا أسير إلى الفندق الذي عرفت أن تنظيم الفطور تقرر فيه. لم أقصد الاهانة أو الفظاظة. بل توقّعتُ في الحقيقة أن يضحك فريمان ضحكة مكتومة حيال إيماءة الترحيب هذه. لكنها أدت عوضًا عن ذلك إلى تخريب يومه كله. ومع هبوط الليل كتب لي، وهو لا يزال يستشيط غضبًا، رسالة يؤنّبني فيها على ظهوري في ذلك الصباح. وكتب أنني بقيت «ما يكفي من الوقت لتؤخذ (لي) صورة وحسب ومن ثم هربت!» وعلى رغم هذا التقويم، هزمتُ وولف في يوم الانتخاب بهامش مريح من ١٠١،٩٦٤ صوتًا في مقابل ٦١،٨٧٧. وبعد ذلك بسنوات وجدنا أنا وفريمان أرضية مشتركة في مسائل أخرى وتواصلنا في شكل ودّي. وقد دفن كلانا الخلاف بيننا، في حال وُجد الخلاف أصلًا.

ختمتُ في أواخر ١٩٦٦ حملة استغرقت ثلاثة أشهر لاجبار البنتاغون على إلغاء عقد مثير للجدل بقيمة ٧٣ مليون دولار لشراء مدافع ألمانية غربية من عيار ٢٠ ملم تشوبها عيوب. وهي ستحل محل رشاشات من عيار ٥٠ موضوعة على ناقلات الجند الأميركية ومراكب الإنزال على رغم بيانات رسمية تظهر أنها تمتلك معدّل خلل غير مقبول. وأطلقتُ على القضية اسم «فجوة المدفع» واستخدمت الكونغريشونال ريكورد لإبقاء البنتاغون ووسائل الإعلام على اطلاع على تحقيقي. وعلمت بالفضيحة أوّلا من تشارلز نيكوديموس وهو مراسل تحقيقات نجم في شيكاغو ديلي نيوز. وتداخلت صفقة الجيش مع السياسة الداخلية المتعلقة بالتزام الإبقاء على جنود في ألمانيا الغربية، وهو التزام متواصل ومكلف بدأ العمل به عقب الحرب العالمية الثانية. وأُجبرت حكومة

بون على دفع مبلغ مقطوع للسلاح المصنوع في الولايات المتحدة للإسهام في تمويل الجنود الأميركيين المتمركزين في ألمانيا. وسيساعد شراؤنا هذه المدافع في تلبية ذلك الالتزام. وحازت حملة «فجوة المدفع» خاصتي تأييدًا قويًّا من الافتتاحيات والتغطية الأخبارية من النيويورك تايمز وغيرها من وسائل الاعلام الرئيسة، بل أنها تضمّنت ظهورًا خاصًّا على «توداي شو» في الأن.بي.سي. وكتبت التايمز في الثالث من تشرين الأول/أكتوبر افتتاحية جاء فيها: «جمع الجيش كتابًا أبيض طويلًا لدحض الانتقاد، لكنه يحتوي، على ما أشار إليه فندلي، تناقضات ذاتية وأنصاف حقائق أو مواربات ولا يجيب عن بعض من الانتقادات الأساسية. والأهم هو لماذا، بعد ست سنوات على إعلان الحاجة الملحة إلى مدفع يتفوّق على النموذج الروسي، تعمد الحكومة إلى شراء مدفع ذي تكنولوجيا لا تبعث على الرضى...؟» ونقلت الأسوشيتدبرس عني قولي «إننا نعرج بسلاح يعود إلى الحرب العالمية الثانية فيما يمتلك الروس معدات أكبر وأفضل». وفي النتيجة قُلص عقد المدافع الألمانية إلى عملية شراء صغيرة، وهي بديل موقت لتضييق «فجوة المدفع».

أدت الرسوم الضريبية على مُعالجات القمح إلى تحرّكين من قبلي. فعمدت، في محال البقالة في دائرتي الانتخابية، إلى توزيع بطاقات رُبِطَت بكل منها قطعة نقود من فئة الخمسة سنتات للتعبير في شكل مسرحي عن واقع ان المزارعين يحصلون على هذه الخمسة سنتات فقط في مقابل كل رغيف خبز يُباع بخمسين سنتًا. وأدليت أيضًا بشهادتي أمام لجنة القوانين في مجلس النواب محاججًا بأن الرسم الضريبي على مُعالجات القمح هي في الواقع ضريبة على الخبز، لأن أصحاب المطاحن سيحولون الرسوم الضريبية لتطاول أصحاب الأفران. وأفادت نشرة لغرفة التجارة الأميركية أن «فندلي حمل قطعة ثمينة من فرو المنك [هي في الواقع دثار لوسيل من فرو المنك] وذكّر أعضاء اللجنة بأن الكونغرس شطب أخيرًا رسمًا ضريبيًا من عشرة في المئة على الفرو وغيره من السلع الفاخرة. ورفع نائب إيلينويز لاحقًا رغيفًا عاديًّا من الخبز. وقال فندلي، بتهكم مرير، أن ما سيفعله التشريع المعلّق هو استعادة ضريبة العشرة في المئة المرفوعة عن فرو

المنك بوضعها في كل رغيف من الخبز يُباع للأمة». وعلى رغم عروضي وأقوالي أرسلت اللجنة قرارًا إلى قاعة المجلس منع فيه التعديلات. وقد وافق مجلسا النواب والشيوخ على الضريبة.

وانضممت في مسائل تشريعية أخرى إلى الزملاء جون ب. أندرسون وروبرت ماكلوري ودونالد رامسفلد في تقديم توصية تقضي بأن يغطي التلفزيون والراديو مداولات اللجنة والمجلس، وهو اقتراح وافقت عليه في السنة التالية لجنة القوانين في المجلس. وعارضتُ توصية من الرئيس جونسون بإطالة ولاية أعضاء المجلس من سنتين إلى أربع محاججًا بأن ذلك سيشكّل «خطوة إلى الوراء» في الحكم التمثيلي فيحصر قدرة الشعب على إحداث التغييرات الملائمة في أولئك الذين يتبوأون مراكز مُنتَخبة.

وواصلت، في خلال السنة، جهودي الرامية إلى تقليص المدفوعات الفديرالية المباشرة إلى المزارعين محاججًا بأنها إسرافية وغير مفيدة للمزارعين المكافحين الصغار وتشكل حاجزًا مُكلفًا بين المُنتِج والسوق. ونشرت في الكونغريشونال ريكورد أسماء جميع من تلقّوا في السنة السابقة أكثر من خمسة آلاف دولار من المدفوعات الحكومية لبرنامج السكّر. وكان مارك أندروز، الزميل الجمهوري من داكوتا الجنوبية، بين الذين وردت اسماؤهم. ولم يرحّب بهذه الدعاية.

نشرت الريدرز دايجست في ١٩٧٦ مقالة لي تحت عنوان «لنوقف نزف المليار دولار في المزارع». وأسفت فيه في شدة للميل إلى اعتماد المدفوعات الحكومية المباشرة إلى المزارعين التي لم توفّر سوى مساعدة لا تذكر للصغار المكافحين منهم في حين أدّت إلى إثراء المؤسسات الكبرى. واليوم، وبعد ٣٣ عامًا، بات نزف المزارع يكلّف دافعي الضرائب عشر مرات أكثر، إذ باتت المدفوعات المباشرة للمزارعين تتجاوز العشرين مليار دولار في السنة.

وفي السنوات الخمس والعشرين التي أعقبت مغادرتي الكونغرس اختفى معظم تشريعات السياسة الزراعية التي تقدّمتُ بها. والفوز الوحيد المتبقي هو

إنهاء الدعم الحكومي لزارعي الأشجار اليتّوعية التي تُنتج زيتًا استخدم في ما مضى عنصرًا أساسًا في تصنيع الطلاء. وعندما تحول المشروع الذي تقدّمت قانونًا كانت مستودعات الحكومة تحتوي جردة خمس سنوات أخذت احتمالات تسويقها تتضاءل مع مرور كل سنة. وبات الانتاج الآن خاضعا لقوانين السوق التي، في رأيي، يجب ان يتم من خلالها تسعير كل السلع.



الفصل الثاني عشر: التجارة مع العدو

كشف الرئيس جونسون في خطاب رئيس عن السياسة الخارجية، ألقاه في تشرين الأول/أكتوبر في نيويورك، الخطوط العريضة لاقتراح «بناء الجسور» مع بلدان أوروبا الشرقية الشيوعية باستثناء ألبانيا التي بدت عزلتها شبه الكاملة غير ذات صلة بالنسبة إلى الرئيس. ولم يمكن الاقتراح أن يأتي في وقت أكثر سوءًا، أو أكثر ضلالًا.

وشكّل الدافع الجزئي لجونسون واقع أن سياسته الخارجية أضحت عقيمة وغارقة في وحول حرب فيتنام الأمر الذي أدى إلى إهمال مجالات أخرى من العالم تتطلب اهتمامًا طارئًا. وهي مجالات تتضمن الشرق الاوسط والنفور المتزايد بين الاتحاد السوفياتي والصين والتخلص من الاستعمار في أفريقيا والعلاقات الصعبة مع كندا والمكسيك. وكان حلف شمال الأطلسي واحدة من القضايا المهمة ولكن المُهملة، إضافة إلى علاقاتنا مع قوى القارة الأروبية والأهم بينها علاقاتنا مع ألمانيا وفرنسا.

وتحارب الولايات المتحدة في فيتنام، بحسب جونسون، لمنع توسع الصين الشيوعية إلى «صحن رز» جنوب شرقي آسيا. وسبق لإدارة الرئيس أيزنهاور أن عممت نظرية الدومينو التي تنص على أن في حال «سقوط أحد حجارة الدومينو - فيتنام على سبيل المثال - في أيدي الشيوعيين قد تسقط كمبوديا ولاوس وتايلندا وغيرها وسيكسب الشيوعيون أفضلية عسكرية وسياسية كبرى في الحرب الباردة».

ارتبكتُ وقلقت لقراءتي أن الرئيس يريد توسيع الائتمانات المحسومة وغير ذلك من أشكال المساعدة لأعضاء كثر في معاهدة حلف وارسو - وهو الردّ

السوفياتي على حلف شمال الأطلسي - في الوقت بالذات الذي حصدت فيه الحرب على الشيوعية أرواح أكثر من عشرة آلاف أميركي في فيتنام وأسهمت في التضخّم وأثارت عنفًا عرقيًّا في أميركا. وجاء اقتراحه بعد ١٥ سنة بالكاد على انتهاء القتال في كوريا مع أن ما من معاهدة سلام وقعت فيها، وأهم من ذلك هو وجود دليل إلى أن هذه الدول بالذات التي نحن في صدد مساعدتها ماليًّا تقوم، على رغم نظامها الشيوعي المفلس في اضطراد، بمساعدة عدونا في فيتنام بوسائل مختلفة. فقد نقلت سفنها التجهيزات العسكرية إلى فيتنام وهو ما يعني إلحاق الضرر برجالنا ونسائنا الذين يقاتلون هناك. وحاججتْ زعاماتها السياسية بصحة قضية فيتنام الشمالية وحثّت هانوي على مواصلة الإجراءات الحربية ضد قواتنا. وأدارت هذه الدول نفسها ظهورها لنا عندما طلبنا مساعدتها في حلّ النزاع الفيتنامي. بل أن الأسوأ هو أن المجر دفعتنا إلى الاعتقاد أنها تساند قواتنا فيما عمدت في السرّ إلى مساعدة هانوي. والأدهى هو أن هذه الدول التي تدّعي الفقر عقدت «صفقات ودّية» قدّمت بموجبها قروضًا بشروط جذّابة إلى فيتنام الشمالية.

واقترح جونسون في خطابه ائتمانات مؤاتية لأصدقاء عدوّنا. ويصعب تخيّل سياسة أكثر ضلالًا. فما عُرض ليس تجارة، بل ائتمان أميركي مدعوم. فمعظم العملات الأوروبية الشرقية لا قيمة لها، وغير مقبولة كوسيلة للتبادل في الأسواق العالمية. ونحن كل مرة نساعدها في مصادرها المالية نقوي من قدرتها على مساعدة فيتنام الشمالية.

عرفتُ أن تبنّي برنامج الرئيس سيؤدي إلى تقوية السيطرة السوفياتية في أوروبا الشرقية في وقت يعمل المواطنون المحليون على التحرر من تلك السيطرة أو التخفيف منها. ومن شأن هذا أن يترك ألمانيا الشرقية، وهي جزء اصطناعي من دولة لم تحظ بعد باعتراف المجتمع الدولي الكبير بها، وبولندا والمجر وتشيكوسلوفاكيا وبلغاريا قابعة بقوة في الكتلة السوفياتية. ولم يقترح جونسون مساعدة ألمانيا الشرقية. ويُعتقد ان بلغاريا واقعة كلّيًا تحت نفوذ موسكو.

كان الكثيرون من مواطني بولندا والمجر وتشيكوسلوفاكيا من المؤيدين للغرب، غير أن حكوماتهم كانت متجذّرة بقوة في معاهدة حلف وارسو وتشكّل حليفات طيّعات للاتحاد السوفياتي. وطرحتُ روتينيًّا، منذ مطلع ١٩٦٥، سلسلة من «تعديلات فندلي» على برنامج الغذاء من أجل السلام وعلى بنك التصدير والاستيراد وعلى قوانين السماح بالمساعدة الخارجية، وقد مررها المجلس. ومنعت تعديلاتي استفادة الحكومات الأوروبية الشرقية التي تتاجر مع العدو من فوائد برامج الانفاق والمساعدة الحكومية. وقد تم في النهاية توقيعها لتصبح قوانين. ومع استمرار مقتل الرجال والنساء الاميركيين في فيتنام واصلت غالبية الأعضاء من جمهوريين وديمقراطيين في مجلس النواب التصويت لمصلحة «تعديلات فندلي».

استرعى انغماسي في شؤون أوروبا الشرقية من خلال هذه التعديلات التي رعيتها من موقعي في لجنة الزراعة في المجلس انتباه إدارة جونسون. جاءني مسؤولان على درجة كبرى من الكفاية في وزارة الخارجية إلى مكتبي. وهما والتر ستوسل أحد مساعدي وكيل وزارة الخارجية، وزبيغنيو بريجنسكي وهو عالم سياسي في جامعة كولومبيا ومؤلف أصبح لاحقًا مستشار الأمن القومي للرئيس كارتر. حاولا ان يشرحا لي أن معارضتي تأتي بنتائج عكسية. لم يمتلك ستوسل ما يكفي من الدليل ليثبت وجهة نظره، لكن بريجنسكي كتب لي لاحقًا رسالة طويلة تدعم حجته مع أمثلة من بولندا حيث أن توافر الفرصة لشراء الحبوب الأميركية بالدين سمح للبولنديين ببعض الاستقلالية عن الاتحاد السوفياتي.

أوجز بريجنسكي في مقابلتنا التطورات في بولندا. واستذكر قول الماريشال ستالين في إحدى المرات إن تحويل بولندا إلى الشيوعية أشبه «بوضع سرج على بقرة»، وإن البولنديين في تكوينهم مؤيدون للغرب، وإن الحياة تحسنت في بولندا في ١٩٥٦ مع عودة نفوذ فلاديسلاف غومولكا. وشرح ان غومولكا وخروشتشيف توصلا إلى تسوية بالمصافحة تصبح بولندا بموجبها حليفًا موثوقًا به في الشؤون العسكرية وتساند السياسة السوفياتية في وقت كان خط الإمداد

الحيوي لدعم القوات الروسية في المانيا الشرقية يمر عبر بولندا. وتابع بريجنسكي: إلا ان غومولكا أجرى عددًا من الاصلاحات الداخلية.

فقد ألغيت الدولة البوليسية والترهيب والتوقيفات «وقرع أبواب البيوت منتصف الليل». وتم في ١٩٥٦ اطلاق الكاردينال فيزينسكي. وفُتحت الكنائس الكاثوليكية وأعيد إليها معظم ممتلكاتها ولم يعد يتم توقيف الكهنة، بل أن الحكومة الشيوعية قدّمت المعونة المالية إلى جامعة لوبلين الكاثوليكية.

وواجهتُه من جهتي بوقائع لا يمكن نكرانها استنادا إلى بحث أعطاني إياه جهاز المرجعية التشريعية من خلال مارجوري براون، الباحثة المتمكّنة، وإلى دوائر المهاجرين البولنديين والتحقيقات التي أجراها فريقي. وقد جعلتُ، في إحدى الصيفيات، واحدة من أبرع التلميذات المتدربات عندي، هي شيريل كارد، تمضي فصل الصيف كله في تقويم هل الإصلاحات التي وضع نصوصها غومولكا أواخر الخمسينات لا تزال موجودة في الشكل أو في الجوهر. ولم تكن النتيجة مُشجّعة. فلقد أخذ غومولكا يصبح في اطراد أقل تسامحًا حيال المعارضة في كل المجالات فيتم توقيف الطلاب في شكل منتظم ويتعرض بعضهم للضرب. ووُجدت إشارات إلى معاداة مقلقة للسامية تصدر عن الحزب الشيوعي، وإلى أن بعض شيوعيي الخط القديم هم من مشجعي الفيتناميين الشماليين. ولعل الأكثر إثارة للقلق هو انتقاد غومولكا الصريح لتمرد ١٩٦٨ في تشيكوسلوفاكيا.

وعلى الرغم من ذلك اقترح جونسون أن تُعامل أوروبا الشرقية معاملة مؤاتية: فستوسّع الولايات المتحدة، من خلال العمل التشريعي، معاملة الدولة الأكثر تفضيلًا لتشمل بولندا ودولًا أوروبية شرقية أخرى؛ وتخفف القيود التجارية على مئات السلع؛ وتسمح لبنك الاستيراد والتصدير بضمان التسليف الإيطالي لمعدات آلية أميركية للمعمل السوفياتي - الايطالي المشترك الذي سيشيّد في روسيا؛ وتسمح لبنك الاستيراد والتصدير بضمان التسليف لأربعة بلدان أوروبية شرقية أخرى، هي بولندا والمجر وبلغاريا وتشيكوسلوفاكيا، لشراء البضائع الأميركية والخدمات.

وقاد جمهوريو مجلس النواب، على أثر إعلان المبادرات، حملة لتقليص قدرة بنك الاستيراد والتصدير على تنفيذ مشروع التسليف الذي يقترحه الرئيس. فقد حظر النظام الأساس، في ١٩٦٣، على بنك الاستيراد والتصدير ضمان قروض للبلدان الشيوعية إلا في حال وجد الرئيس في شكل واضح أن في الأمر مصلحة وطنية. وما إن أصبح جونسون رئيسًا حتى وجد حالين من هذا النوع، وكلتاهما في ١٩٦٤، فسُمح بنتيجتهما لبنك الاستيراد والتصدير بضمان ائتمانات ليوغوسلافيا ورومانيا لشراء البضائع والخدمات من رجال الأعمال الاميركيين وبضمان قروض أعطتها البنوك التجارية الأميركية لهذين البلدين. وكان في وسع الاتحاد السوفياتي وغيره من دول حلف وارسو الحصول على ضمان ائتمانات ولكن لشراء البضائع الزراعية فحسب.

غير أن بولندا والمجر وبلغاريا وتشيكوسلوفاكيا أضحت، مع إعلان الرئيس في السابع من تشرين الأول/أكتوبر، مؤهلة هي الأخرى لضمانات توافرت في السابق ليوغوسلافيا ورومانيا فحسب. وهذا العمل هو الذي قرر جمهوريو مجلس النواب أنه يجب عكسه. وكانت وسيلتنا لتحقيق ذلك هي في تعديل مشروع قانون ١٩٦٧ للاعتمادات المالية الإضافية الذي يحتوي بنودًا لها تأثيرها في بنك الاستيراد والتصدير. وانضم ديمقراطيو الجنوب إلى الجمهوريين في إضافة تعديل على مشروع القانون يمنع في شكل واضح البنك من ضمان ائتمانات أي بلد شيوعي. وقد رعيتُ وزميلي النائب فرانك باو من أوهايو هذا التعديل الذي تمتع بشبه إجماع جمهوري. فقد سانده ٨٥ جمهوريًا في مقابل ثمانية عارضوه. وصوت ٨٢ ديمقراطيًا، ٥٣ منهم من الجنوب، لصالح التعديل في مقابل ١١٣ ضده.

غير أن مجلس الشيوخ خفف من الموانع التي عُدلت بالتشاور لتتضمن بندًا يقدم تنازلًا إلى الرئيس؛ تم تضمين الحظر ولكن مع منح الرئيس القدرة على تجنّبه إذا صرح بوجود مصلحة وطنية في ذلك. انتقدت الزعامة الجمهورية في مجلس النواب هذا التنازل الذي تمت الموافقة عليه في تصويت بالمناداة بـ١٢٩ صوتًا في مقابل ١٠٢. ولم يصوت سوى ستة جمهوريين بالموافقة عليه فيما

رفضه الـ٧٤ الآخرون. وبدّل ٣٢ نائبًا، صوتوا في ١٨ تشرين الأول/أكتوبر لمصلحة نسخة المجلس، موقفهم وصوتوا على القبول بالتنازل الذي فرضه مجلس الشيوخ. ولو انهم صوتوا لإعادة إحالة الاقتراح على المجلس لسقط مشروع القانون.

أثارت حملتي على السعر المقطوع لمبيعات الحبوب الأميركية للبلدان التي تتاجر مع العدو حماوة دبلوماسية. فقد حظر تعديلي، في وقت سابق من السنة، مبيعات الحبوب بشروط سهلة «لأي دولة تبيع أو تجهّز أو تسمح لأي سفن أو طائرات مسجّلة لديها بأن تنقل أي معدات أو مؤن أو سلع إلى فيتنام الشمالية ما دامت تحت الحكم الشيوعي».

وجرى هذا الحظر في كانون الأول/ديسمبر على مبيع الحبوب ليوغوسلافيا بموجب برنامج الغذاء من أجل السلام وأثار ردًا محتدما على أعلى مستوى في وزارة الخارجية. فقد طلبت يوغوسلافيا ٥٠٠ ألف طن من فائض الحبوب، بمعظمها من القمح، بشروط جذابة مع مهلة سنتين للدفع وبسعر فائدة متدنّ. وكنتُ لأدعم عملية البيع هذه بحماسة في زمن السلم، ولكن ليس ونظام تيتو في يوغوسلافيا متحالفًا مع نظام هانوي الذي يعطي الأوامر بشن هجمات قاتلة على قواتنا في فيتنام.

ويتعلق صلب الموضوع، بحسب رأيي، بمواصلة جونسون الفاترة للحرب وفشل الكونغرس في المطالبة بتغيير المسار في فيتنام. لم يعلن الكونغرس الحرب قط على هانوي، ولم يطلب الرئيس مثل هذا الاعلان. فقد رأى أن قرار خليج تونكين يزوّده ما يكفي من السلطة على رغم عدم احتوائه كلمة حرب أو أي مرادف لها.

بدا ان الردّ الموزون هو الذي شكّل مبدأ جونسون العملاني في خلال الحرب. فلم يُسمح لقواتنا بالرد بقوة لدى تعرضها للهجوم. ودفعت الخدمة الاختيارية بمعظم قواتنا العسكرية إلى المعركة، ولكن لم تعلن التعبئة قط في البلاد، ولم تصدر أي سندات حرب، ولا جباية أي ضرائب لتمويل مصاريف

الحرب. ولم يحدث أي تقنين. لم يؤت بما من شأنه وضع البلاد على قدم الحرب. وأنا أمتلك، بصفة كوني أحد قدامى الحرب العالمية الثانية الفخورين، وجهة نظر قوية عن كيف يجب على الحكومة أن تتصرف في زمن الحرب. فيجب أولًا عدم الشروع في أعمال الحرب ما لم تنص موجبات معاهدة ما على ذلك أو ما لم يتم إعلان الحرب، إلا إذا تعرضت الأراضي الأميركية لتهديد داهم. وما إن يتم الشروع دستوريًا في الحرب حتى يتوجّب على الرئيس أن يعلن التعبئة في البلاد كلها ويوحّد كل قواها السياسية والدبلوماسية ومصادرها الاقتصادية وراء قواتنا العسكرية. ولكن تواصلت حرب فيتنام كما لو انها نشاط جانبي. وحاولت الحكومة، على رغم التعديلات المعاكسة في الكونغرس، مواصلة أغراضها في شرق أوروبا التي قوضت اهدافنا العسكرية في فيتنام.

وأثار تعديلي جدلا كبيرًا عندما طُبّق على يوغوسلافيا. وأفادت النيويورك تايمز في ١٣ كانون الأول/ديسمبر ١٩٦٦: «ان مسألة هل يحظِّر تعديل فندلي بيع المزيد من الغذاء ليوغوسلافيا... يتوقّف على تحديد عبارة أمّة». ورفضت الصحيفة في إحدى افتتاحياتها تعديلي لأنه «قصير النظر». ووصفته افتتاحية في الواشنطن بوست بأنه «قصور كونغرسي في النظر». ومن حسن حظي ان إيلينويز ستايت جورنال، الصحيفة الطليعية في محافظتي، عدَّت منطقي «سليمًا».

حاجج مسؤولون أميركيون بأن شحنات الامدادات الطبية هي من منظمات إنسانية في داخل يوغوسلافيا وليست من الحكومة. ودحضتُ هذه الحجة في رد قانوني من خمس صفحات حضّره هايد موراي، المستشار القانوني لجمهوريي اللجنة الزراعية. وكان موراي واحدًا من أقرب أصدقائي. وعمل عن كثب على كل المسائل ذات العلاقة بالزراعة. وحاجج الردّ الذي حضّره موراي بأن لا يمكن أي شحنة من دولة شيوعية مثل يوغوسلافيا أن تتم من دون إجازة من المسؤولين الرسميين، وبالتالي لا يمكن التفريق بين الأعمال الحكومية والخاصة. وأُرسلت نسخة من الرد إلى وزير الخارجية بالوكالة نيكولاس كاتزنباخ. وفي مقالة مسهبة عن الخلاف في شأن يوغوسلافيا، دعم المعلّق درو بيرسون موقف وزارة الخارجية: «كانت سياسة التجارة الرئيسة مع

دول أوروبا الشيوعية موضوع نقاش حاد داخل وراء أبواب مقفلة بين النائب بول فندلي [الجمهوري عن إيلينويز] ووزير الخارجية بالوكالة نيكولاس كاتزنباخ الذي قال لفندلي: نحن نرى ان الكونغرس تدخّل في السياسة الخارجية عندما تبنى تعديلك... فأجابه فندلي: لا أوافقك الرأي. وأعتقد، في حال تمت عملية بيع القمح هذه، أن الرئيس ووزراة الخارجية يكونان قد تجاوزا سلطات الكونغرس الذي لديه الكثير من المسؤوليات في مجال السياسة الخارجية.

ذكرت الميامي هيرالد في ١٢ كانون الأول/ديسمبر أن نائب وزير الخارجية يوجين روستو ومساعد وزير الخارجية للعلاقات مع الكونغرس دوغلاس ماك أرثر الثالث، حفيد الجنرال، التقيا زعيم الجمهوريين في مجلس النواب جيرالد فورد بحثًا عن طريقة للدوران من حول تعديلي. وتوجها، بناء على اقتراح من فورد، إلى مكتبي في الكونغرس. كان المجلس في حال انعقاد في ذلك الوقت لكنني عدت إلى مكتبي واستمعت إلى حجتهما. كان واضحًا أنهما يريدان مني أن «أشيح بوجهي إلى الجانب الآخر» وترك عملية البيع القانونية ليوغوسلافيا تأخذ مجراها. فرفضت.

وفي خلال اجتماع الغداء الذي أشار إليه بيرسون كان كاتزنباخ ودّيًا واحتفظ بسيطرته على شخصيته الطاغية في العادة. إلا ان تصرّفاته فقدت من ودّيتها عندما سلّمه أحد المساعدين في هدوء نسخة من ملفي القانوني المؤلف من خمس صفحات التي بدا أنها بلغت مكتبه قبل دقائق قليلة وحسب من ذلك. ألقى نظرة سريعة على الملف - وهو البرهان أنني سبق أن اتخذت قراري محاربة عملية البيع ليوغوسلوفيا- فيما يتم تقديم الحلوى بعد الطعام. استشاط كاتزنباخ غضبًا. وأعترفُ أنني تسلّيت غير أنني جهدت لعدم إظهار ذلك. وأنا لم أقل، قبل الدعوة إلى الغداء، ما من شأنه أن يدفع أيًا كان إلى الاعتقاد أنني سأتراجع. ولم يمتلك كاتزنباخ أساسًا للاعتقاد أن من شأنه استمالتي في غداء خاص. احمرّ وجهه، ولم يمكث لتناول القهوة. ونقلت إيلينويز ستايت جورنال في ٣٠ كانون الأول/ديسمبر ١٩٦٦ قولي للمراسلين: «لا معنى أبدًا في أن نرسل المساعدة إلى بلد مثل يوغوسلافيا يصرّ على مساعدة عدونا». وقد

وبّخ مكتب المحاسبة العامة البيت الأبيض ووزارة الخارجية على محاولاتهما الالتفاف من حول تعديلي.

أطلقت في كانون الثاني/يناير، وقد عُيّنت عضوًا جديدًا في لجنة العلاقات الخارجية في مجلس النواب، احتجاجًا جديدًا، هذه المرة على بولندا. أرادات إدارة جونسون تحويل مدفوعات الديون الخارجية البولندية للولايات المتحدة من الدولار الأميركي إلى الزلوتيس البولندي الذي لا قيمة له فعلية في خارج بولندا. وحاججت بأن هذا التحويل سيعادل خسارة الخزينة الأميركية لـ ١٨ مليون دولار في الأشهر الاثني عشر التالية وحدها. واشتكيت في «كتاب أبيض» من ١٧ صفحة إلى وزارة الخارجية من أن بولندا منخرطة في الواقع في حرب بالواسطة على الولايات المتحدة من خلال دعمها الاقتصادي والعسكري والمعنوي لأعداء الولايات المتحدة في فيتنام الشمالية. وطرحت، عندما لم أتلقّ ردًّا مرضيًا، تعديلًا على تشريع مُعلّق يلغي وضع بولندا الذي يحظى بالرعاية في العلاقات التجارية مع الولايات المتحدة. وشاهد الدبلوماسيون البولنديون من البهو الإجراءات وأصيبوا بالوجوم عندما وافق عليه مجلس النواب. لكنه أزيل في شكل رئيس، بفضل نفوذ النائب كليمنت زابلوسكي العضو الرئيس في لجنة العلاقات الخارجية والمتحدر من أصل بولندي في ما أعقب ذلك من مداولات على مستوى مجلسي الشيوخ والنواب. وعندما طرحتُ تعديلًا لمنع بولندا ويوغوسلافيا من الحصول على قروض حكومية بفوائد أدنى من أسعار السوق، صوّت المجلس بالرفض بـ١٥٧ في مقابل ٢٠٠. ولربما كان ليمرّ لو انه طُبّق على يوغوسلافيا فحسب.

تحولت عملية قابضة للصدر روتينًا يتم فيه تمييع التعديلات التقييدية التي فرضها مجلس النواب في خلال عمل اللجنة المشتركة بين مجلسي النواب والشيوخ. ولكن أبقي على بعض المكاسب: فقد تم، بداية، تحدّي الركيزة الاساسية للإدارة وهزيمتها موقتا؛ ثم أن العملية أدت، ثانيًا، إلى احلال ما يشبه الوحدة بين النواب الجمهوريين ضد السياسات المسيئة إلى المصالح الوطنية؛ وأدت ثالثًا إلى تقوية دور المجلس النيابي في الشؤون الخارجية.

ولمرّة أُخذ مجلس النواب على محمل الجد.

انخرطتُ، وسط المعركة التشريعية المتعلقة بيوغوسلافيا، في جهد مثير جدًّا للنزاع، نجح في البداية لكنه أُجهض في النهاية. وهو القضية الخاصة المتعلقة بتلقي بولندا ويوغوسلافيا معاملة الدولة الأكثر رعاية وهما الدولتان الأوروبيتان الشرقيتان اللتان تحظيان بهذا الامتياز. وقضى النص بألا تتعدى الرسوم المدفوعة على البضائع المستوردة من بولندا ويوغوسلافيا التعرفة التي تدفعها الدول الأكثر حصولًا على الرعاية مثل الحلفاء المقربين كبريطانيا وإيطاليا. فقد كانت رسوم التصدير إلى الولايات المتحدة باهظة بالنسبة إلى أي دولة شيوعية أخرى.

حصلت يوغوسلافيا على هذه المعاملة المميزة بعد قطيعة تيتو الدرامية مع ستالين في ١٩٤٨. وسبق لتيتو، قبل هذه القطيعة، أن مارس القدر نفسه من القمع السياسي الداخلي الذي مارسه الزعيم السوفياتي ستالين. وما إن قطع مع موسكو وأصرّ على أن يتولّى وحده السيطرة على الأحداث في يوغوسلافيا حتى سارعت الحكومة الأميركية إلى دعمه برسوم الدولة الأكثر رعاية. ومن الإنصاف لتيتو القول إنه حرر بالفعل بعض أوجه المجتمع وسلك خطًّا مستقلًا في السياسة الخارجية.

واختلف الوضع في بولندا. فقد صفّى ستالين الحزب الشيوعي البولندي قبل الحرب، اللهم إلا من بعض الأعوان المخلصين أو من أولئك الذين لم يتمكن عملاؤه من العثور عليهم لتوقيفهم. بقي من نجا من الشيوعيين حتى نهاية الحرب في الاتحاد السوفياتي وجاءوا، بمعنى ما، إلى السلطة على ظهور الدبابات السوفياتية. وشكّل غومولكا استثناء إذ كان وطنيًّا بولنديًّا حقيقيًّا لكنه أيضًا ماركسي. وقد بقي في خلال الحرب في بولندا. وأعتقد أن على البلاد ان تعثر على طريقتها الخاصة في بناء الاشتراكية. فوضعه ستالين، بسبب شططه هذا، في الإقامة الجبرية، إلا أن الديكتاتور السوفياتي لم يجرؤ على إعدامه كما فعل مع معظم الزعامة الأوروبية الشرقية إثر القطيعة مع يوغوسلافيا. بيد أن الشيوعيين أبقوا، من جهة أخرى، رجلهم فوق عنق بولندا. وعاد غومولكا إلى

السلطة بعدما دنت لخروتشيف السيطرة في موسكو. وبعد ذلك بعشر سنوات تراجع غومولكا على كل الجبهات تقريبًا، لكنه لم يتحرّك ضد الكنيسة لأن ٩٥ في المئة من سكان بولندا، بمن فيهم الكثيرون من الشيوعيين، كانوا من الكاثوليك الممارسين، لكنه لم يجد صعوبة في مضايقة الطلاب واليهود والمثقفين. وبقيت الحكومة الأميركية، على رغم هذا المشهد الكالح، تسمح بصادرات بولندا إلى هذه البلاد بموجوب الشروط الجذابة للدولة الأكثر رعاية. واعتقدتُ أن الوقت حان لأبعث برسالة إلى غومولكا.

لفتُّ مع قلة من الحلفاء أعضاء المجلس إلى تدهور الوضع الداخلي في بولندا. وشكّل ذلك زمنًا عاطفيًا صعبًا بالنسبة إلى الكثيرين من البولنديين الأميركيين الذين لديهم أصدقاء وأقارب في بولندا، أو ممن هم من أصل بولندي. وأوضحت أن معارضتي هي لسياسة الحكومة لا الشعب، وأعلنت أنها إذا انتزعنا حلاوة معاملة الدولة الأكثر رعاية - التي توفر على المصدّرين البولنديين ٢٠٠ مليون دولار في السنة - سيكون للتهديد بالسحب تأثير مفيد.

خشيت الإدارة، في بيئة ١٩٦٧ السياسية الآخذة في السوء، تداعي المبادرات الأوروبية الشرقية حيال التعديلات التقييدية التي يمررها المجلس، وهي عملية من شأنها أن تهدد وضعية بولندا كدولة أولى بالرعاية. ولطالما تشكل الجسم الدبلوماسي البولندي من مجموعة محترفة ذات أهمية، ونوعية أرفع من نوعية تراتبية الدبلوماسيين السوفيات والأوروبيين الشرقيين. وتمتع البولنديون أيضًا بالدعم السياسي في هذا البلد، وامتلكوا وزيرًا للخارجية محنَّكًا جدًا ومُحترمًا، هو آدم راباسكي، يتمتع بخلفية ثقافية وتربوية أوروبية وهو من اشتراكيي ما قبل الحرب. وبنقل ستانيسلاف بافلاك إلى السفارة البولندية في واشنطن حيث أصبح، في الحقيقة، القائد الميداني لجهود بولندا في هزيمة تعديلات فندلي. وجال بافلاك، الدبلوماسي ذو الخبرة الذي يتحدث الإنكليزية بطلاقة، على تلة الكابيتول بما في ذلك على مكتبي.

استهدفَنا، أنا وفريقي، في عملية لخطب الود. ودُعي مساعدي، ستيفن جونز، إلى العشاء مع ليون روبن أكبر مستوردي لحم الخنزير البولندي إلى

الولايات المتحدة. وفي يوم آخر اصطحبني أفريل هاريمان، حاكم نيويورك السابق وسفير الرئيس فرانكلين روزفلت إلى الاتحاد السوفياتي والذي شارك في مؤتمر يالطا، إلى الغداء في مطعم مجلس النواب. وقد دبّر اللقاء صديقي وزميلي في لجنة العلاقات الدولية النائب جوناثان بينغهام من نيويورك، وهو سبق له أن عمل لدى هاريمان. وقد اضطلع هاريمان، الرجل ذو البنية التي تفرض نفسها، على مدى الأعوام الثلاثين الماضية بمهمات دبلوماسية لمصلحة الرؤساء الديمقراطيين. وبذل في ١٩٥٦ جهدًا كبيرًا للفوز بتسمية الديمقراطيين له للرئاسة. وهو لا يتصنّع الكلام. فما إن جلسنا معًا حتى قذفني بهذه الكلمات: «اقتراحك هو أغبى وأسخف» ما نتج عن المجلس. ضم قبضته وضرب بها على الطاولة وكان صداميًّا ومهينًا في شكل صريح. قال «إن تعديلاتك تساعد الشيوعيين ولا تضر بهم». عددتُ سلوكه تمثيلا ووجدته مسلّيا. أصيب بينغهام بالاحراج، وسأل جونز، وقد أصابه الوجوم، «هل استخدمت مع ستالين، يا سيدي السفير، مثل هذه اللغة التي تستخدمها مع عضو منتخب في الكونغرس؟» وأدار هاريمان، من دون أن يتوقف، نظرته الفولاذ إليه وقال: «يمكنك واللعنة أن تتأكد من أنني فعلت». امتلك هاريمان على الأقل فضيلة التحدّث صراحة. لم يقنعني، لكنني استمعت إليه بما أمكنني من التهذيب. واعتذر بينغهام في وقت لاحق، غير أنني شكرت له هذه اللمحة السريعة إلى واحد من كبار اللاعبين على المسرح الديبلوماسي.

أحيل على مجلس النواب، في آب/أغسطس، مشروع القانون الذي يبيح المساعدة الخارجية. فطرحتُ تعديلًا مرّ من دون تصويت بالمناداة. علّقت بنوده تسعيرة الدولة الأكثر رعاية لبولندا إلى أن يصرح الرئيس رسميًا أنها لم تعد تزود فيتنام الشمالية العتاد. وشكّل ذلك زجرًا صاعقًا لجهود الإدارة في إضفاء الدفء على العلاقات مع أوروبا الشرقية. فقد حظر القانون، في السنوات السابقة، كل أشكال المساعدة بموجب قانون المساعدة الخارجية وغيرها من التشريعات إلى البلدان التي تتاجر مع فيتنام الشمالية «مادام نظام فيتنام الشمالية يقدم المساندة إلى الأعمال العدائية في فيتنام الجنوبية». منع القانون القائم المساعدة بموجب

قانون المساعدة الخارجية عن البلدان التي تسمح للسفن أو الطائرات المسجلة لديها بنقل البضائع إلى فيتنام الشمالية، لكنه لا يتناول البلدان التي تسلم البضائع إلى فيتنام الشمالية في سفن بلدان أخرى وطائراتها. ولكن تم في مجلس الشيوخ تغيير الموانع التي صوّت عليها مجلس النواب للسماح للرئيس بإسقاط الحظر إذا حدّد أنه بقيامه بذلك سيقوي الأمن ويعزز السلام العالمي. وقد فاز النائب هـ. ر. غروس، من أيوا، والذي ينظر إليه طرفا الطيف السياسي بصفة كونه مراقبًا قيّمًا للعملية التشريعية، بالموافقة على تعديل ينهي سلطة الإسقاط الرئاسية.

عندما بلغ مشروع القانون بقيوده الجديدة المؤتمر، أُسقط مؤتمرو مجلسي الشيوخ والنواب التعديلين اللذين وافق عليهما مجلس النواب، التعديل الذي طرحه غروس والتعديل الذي طرحته أنا. وبعودة تقرير المؤتمر إلى مجلس النواب، رعى غروس إعادة نظر في مشروع القانون لتضمينه تعليماتٍ تعيد العمل بكل من تعديله وتعديلي. إلا أن إعادة العمل بالتعديلين فشلت بهامش ضئيل من أربعة أصوات. حافظ مسؤولو الإدراة على صفوف الديمقراطيين شبه سليمة فلم يصوت سوى تسعة منهم فقط مع إعادة النظر. وصوّت ١٣٧ مع الرئيس. ومرّ قانون التسوية النهائية من خلال تصويت بالمناداة بهامش ثمانية أصوات.

اعتقدت، في حثّي على هذه المبادرات، أنها تمثل مصالح الولايات المتحدة الفضلى. والمنوي بها هو مواجهة حركتين خطيرتين رأيت أنهما تظهران في داخل حكومتنا. الأولى هي العجز المتزايد لمجلس النواب في الشؤون الخارجية. فقد تنازل مجلس النواب بخنوع ومن دون داع عن معظم نفوذه لمجلس الشيوخ. وامتلك الشيوخ الميزة الحصرية في إقرار المعاهدات أو رفضها والسلطة نفسها للموافقة على تعيين السفراء وغيرهم من المسؤولين الكبار. وهذه كلها مهمة، إلا أنّني ذكّرت مرة زملائي في مجلس النواب بعهد سابق انخرط فيه نواب المجلس دانيال وبستر وهنري كلاي وجون سي. كالهون في السياسة الخارجية الأميركية. وقد أشرك الرئيس هاري ترومان، منذ وقت يعود إلى نهاية الحرب العالمية الثانية، مجموعة النواب التي أطلق عليها اسم

زعامة الشؤون الخارجية في تصميم شرعة الأمم المتحدة ووضعها، غير أن رؤساء الشؤون الخارجية في مجلس النواب كانوا على استعداد لركوب المقعد الخلفي واعتماد وجهة نظر «فاترة». وقد يحاجج علماء السياسية بأن مجلس النواب، بصفة كونه الهيئة الأقرب إلى الشعب، يهتم في شكل أساس بالسياسة المحلية ويمكنه أن يشير إلى أن على مشاريع قوانين المداخيل أن تنشأ من المجلس. بيد ان هذه الاعتراضات دعمت في الواقع موقفي. فما من شأن داخلي أكثر من وقع موت شاب أو شابة في الخدمة في معركة خارج الولايات المتحدة. وقد أجاز مجلسا النواب والشيوخ، كلاهما، الحربين العالميتين الأولى والثانية. بينما لم تكن حرب كوريا، وحرب فيتنام، أو الحربان الراهنتان في العراق وأفغانستان حتى عرضة لإعلان الحرب. وقد مات أكثر من مئة ألف رجل وامرأة أميركيين في هذه الحروب غير المعلنة. واضطر مجلس النواب إلى تمرير قوانين لتمويل هذه الحروب وتوسيع التعبئة وتحديد شروطها ودفع معاشات السفراء والسماح بالإنفاق على سفاراتنا في الخارج إضافة إلى وزارة الخارجية.

يشكل مجلس النواب فرعًا حكوميًّا على قدم المساواة مع مجلس الشيوخ. وإذا كانت المسائل المالية تعكس نفسها في انتخابات مجلس النواب، فكذلك تفعل مسائل الحرب والسياسة الخارجية. ويفترض معظم الناخبين، عن خطأ، وبخاصة من لا يعيرون منهم الحكم الكثير من الانتباه، أن مجلس النواب يوازي مجلس الشيوخ نفوذا في السياسة الخارجية. وانعكاسًا لهذا التفكير يعاقب الناخبون النواب في الغالبية عندما يثبت المسعى العسكري الخارجي أنه مكلف ومخيّب للآمال. ففي ١٩٤٢ كاد الديمقراطيون يفقدون السيطرة في مجلس النواب لأن الشعب الأميركي لم يسعد بسلسلة الخسائر العسكرية في الشرق الاقصى. وخسروا في ١٩٦٦ نحو ٥٠ مقعدًا في البرلمان لسبب أكبر وهو الاستياء من الحرب في فيتنام. وخسر الجمهوريون السيطرة على مجلس النواب في انتخابات ٢٠٠٦ بسبب الاستياء من الحرب في العراق.

منذ سنوات طويلة، خسر مجلس النواب بفعل الإهمال دوره المشروع في

السياسة الخارجية. وسعيتُ، منذ مطلع ١٩٦٢، إلى استعادة ذلك النفوذ من خلال الخطب والاعتراضات على مطالب القبول الاجماعي، والتعديلات - وكل منها اعتراضًا على ما عددته سياسة خارجية خاطئة ومضرّة - والتشريع. وكثيرًا ما نُظر إلى مساعيّ، كوني كنت موجودًا في الأقلية طوال ٢٢ سنة، على أنها سلبية - في مقابل مواقف الغالبية - غير أن هذه المبادرات كانت تبني في الواقع مداميك لسياسات جديدة وبرامج جديدة ورؤية جديدة. سعيت وراء هدف بسيط ولوّاذ في آن: أن أعيد إلى مجلس النواب نفوذه السابق في السياسة الخارجية في شكل معادل لمجلس الشيوخ، بحسب مقصد واضعي الدستور.

الفصل الثالث عشر: عذاب لا نشوة

صبيحة السادس والعشرين من آذار/مارس ١٩٦٩، جلس رجل مهيب رمادي الشعر على كرسي جلد منجّد كبير أشبه بالمقاعد الموضوعة في مختلف مكاتب أعضاء مجلس النواب. وكان هذا الكرسي بالذات موجودًا في رواق يسمّى بهو رئيس المجلس، على مقربة تمامًا من قاعة المجلس في الكابيتول الأميركي. والقابع في الكرسي كان هارولد دوناهيو وهو نائب كبير من ماساتشوستس.

تمتم وهو ينظر إلى إحدى صفحات عدد اليوم من الكونغريشونال ريكورد: «يا للعنة!» وقلب الصفحة وقال «يا للعنة!» بمزيد من التشديد. وقلّب في بطء عددًا آخر من الصفحات وكلها ملأى بالأسماء والبلدات. وتوقّف عن التلفظ بالحشو من الكلام. فوضع عدد الريكورد في حضنه، وقد زم شفتيه، وحدّق أمامه في الفراغ. شكّلت تلك لحظة صدمة لدونهيو ولعضو فريقه الذي وقف جامدًا في مكانه وهو يراقب من بعيد. فقد التقط عضو الكونغرس المخضرم عدد الريكورد لإلقاء نظرة سريعة عليه قبل زيارته مكاتب رئيس المجلس. وأجبره ما شاهده على الدخول في سرحان ذهن كئيب سيتكرّر في أوقات لا تحصى وأمكنة لا تُعد في أميركا في الأيام التي ستلي ذلك مباشرة.

تضمن الريكورد المنشور في ذلك اليوم ما أمرتُ بإدراجه فيه في خلال جلسة مجس النواب التي عقدت قبل ذلك بيومين وهو سجل الشرف الذي يحتوي أسماء وبلدات لعناصر الجيش الـ٣١،٣٧٩ الذين قتلوا حتى الآن في فيتنام. وغطت الأسماء، المطبوعة بأحرف صغيرة على ثلاثة أعمدة في الصفحة، ١٢١ صفحة.

كانت تلك حقبة صب أحرف الرصاص بنظام اللينوتايب، وكانت مهمة طباعة الأسماء أكبر مما يمكن لكل مطابع الحكومة وتجهيزاتها أن تتولاها في غضون ليلة واحدة. وقد تأخر تسليم عدد ٢٥ آذار/مارس ١٩٦٩ من الريكورد نحو يوم واحد. كان طلب النشر الذي تقدّمت به روتينيًا وجاءت الموافقة عليه روتينية. إلا أن ذلك أثبت انه على درجة كبرى من المشقة لجهاز الطباعة الحكومي بحيث أدى لاحقًا إلى تغيير في قواعد المجلس تم بموجبه تحديد كمية «المادة العرضية» التي يمكن العضو إدراجها في شكل روتيني.

نبع قراري نشر لائحة الشرف من حديث أجريته مع مساعدي ستيفن جونز. ذكّرني بأن عدد حزيران/يونيو ١٩٤٢ من مجلة لايف نشر أسماء جميع العناصر العسكريين الأميركيين الذين قُتلوا في الأشهر الستة الأولى من الحرب العالمية الثانية، وهي لائحة أثارت المشاعر العامة بقوة في كل أنحاء البلاد. وخطر لي أن من شأن نشر أسماء قتلى الحرب الفيتنامية أن يضفي طابعًا مأساويًّا على الكلفة الضخمة للحرب ويكرّم، في الوقت نفسه، أولئك الذين ماتوا.

شكّلت تلك مرحلة انتقالية وطنية حيث ورث ريتشارد نيكسون التحدّي الفيتنامي بعدما أقسم يمين تولي سلطة الرئاسة قبل ذلك بشهرين فقط. وكان ذلك وقتًا مناسبًا لتكريم قتلى الحرب، فوقّعت رسالة إلى وزير الدفاع أطلب فيها أسماء جميع عناصر القوات المسلحة الذين هلكوا في فيتنام.

ورد عليَّ بعد ذلك بأسبوعين اتصال هاتفي من مدير مكتب الاحصاءات في البنتاغون الذي سأل هل أمانع في أن يتحدّث كمواطن عادي في شأن طلبي. فشجعته على التحدث صراحة. وقال، في إحساس، «أنا قلق في شأن طلب الأسماء. وأتساءل هل من المصلحة العامة نشرها». شعر حرية التحدث بصراحةً لأن عائلتينا على معرفة وتعيشان في الحي نفسه في شمال فرجينيا. ورددت أن لا شك لدي في ضرورة نشر الأسماء. وأنهى المحادثة بالقول: «أشكر لك سماحك لي بالتحدث صراحة».

وصل الصندوق الذي يحتوي الأسماء والبلدات بعد ذلك بأسبوع إلى مكتبي

في الكونغرس. وقد احتوى لوائح مطبوعة على الكمبيوتر توفّر المعلومات التي طلبتها بالتحديد. قسمت اللائحة بين الولايات والأجهزة العسكرية في داخل كل ولاية. وسُمح لي روتينيًا في اليوم التالي بالتحدث ٣٠ دقيقة في ختام الأعمال التشريعية في غرفة المجلس، وكذلك بمراجعة ملاحظاتي وتوسيعها. وتوجهت فور انتهائي إلى مكتب رئيس المجلس وسلّمت الصندوق إلى الكاتب الجالس بقربه. ولم يلاحظ سوى قلة من الأعضاء ما قلته، ولم يسأل أحد عن المادة التي يجب إدراجها؛ أقلّه حتى صباح اليوم التالي.

يقرأ جميع الأشخاص تقريبًا المهتمين بالسياسة والمقيمين في واشنطن الإصدار اليومي من الكونغريشونال ريكورد - في ما عدا الصبيحة التي تلت إدراجي لائحة الشرف. لم يتم أي توزيع في ذلك الصباح. وطُرح السؤال نفسه في كل أنحاء المدينة: «أين الريكورد؟» وأعلن مكتب الطباعة الحكومي ردا على الاتصالات الهاتفية الكثيرة أن العدد المفقود من الريكورد سيتوافر في وقت لاحق من ذلك اليوم. وانهمرت الأسئلة لاحقًا على فريقي: «لماذا قمتُ بذلك؟ ما الذي أملت في تحقيقه؟ كيف حصلت على لائحة قتلى الحرب؟»

أثار عدد الريكورد رد فعل قويًا كان في معظمه تأييدًا حارًا، لكن البعض الآخر شكّل انتقادًا حادًا. واستُخدم على مدى شهور لتعداد الأسماء في مسيرات مناهضة للحرب وفي السهرات السلمية وغير ذلك من التعابير العامة عن السخط على الحرب. وبلغ استفظاع المشرعين في الكثير من الولايات من استخدام المناهضين للحرب الأسماء حدًّا أقنعوا معه هيئاتهم المشرعة بوضع قوانين تجعل من «قراءة أسماء الجنود المقتولين في فيتنام» في «التجمعات المناهضة للحرب وللتعبئة وللشرطة» «جريمة جنائية». إلا ان المحاكم عدت هذه القوانين غير دستورية لأنها تنتهك التعديل الدستوري الأول. وطلب أعضاء في الكونغرس مئات النسخ من الريكورد لعائلات المتوفين واصدقائهم الذين كانوا شاكرين للإعتراف الايجابي الذي وفرته عملية النشر.

وحثثتُ الرئيس الجديد ريتشارد نيكسون، في ملاحظات سبقت لائحة الشرف، على سحب القوات الأميركية: «إذا استمرت الإصابات بمعدلها الراهن

على مدى الاشهر الـ١١ المقبلة فستتجاوز خسائرنا في الحرب العالمية الأولى... فما الفائدة التي ضمنها مقتل الرجال الواردة اسماؤهم في الصفحات التالية للمصلحة الوطنية؟ هل أحداث فيتنام وقضاياها تبرر تضحيات بمثل هذا الحجم؟ يجب على هذه الأسماء أن تسترعي انتباه الإدارة والشعب الأميركي لأنها تبرهن، كما لا يمكن أي ترتيبات أخرى أو كلمات أن تفعل، الأبعاد الحقيقية لحرب فيتنام من حيث المجموع العام، إضافة إلى الجانب الأكثر خصوصية... ومن المؤكد ان للنشر ما يبرره تمامًا لسبب آخر وهو أن الرجال الذين قضوا في هذا النزاع الخاطئ يستحقون كل اعتراف وتقدير على رغم أن مشاركتنا القتالية في الحرب قد تكون خطأ خطيرًا منذ البداية، كما أعتقد بقوة أنه كذلك... وواقع أن الزعامة الوطنية المضللة، التي أعترفُ طوعًا بأن جزءًا من الملامة يقع فيها على عاتقي، أخطأت في إرسالهم إلى الحرب، لا يقلل في أي شكل من بطولتهم، ولا يجعل من تضحياتهم أمرًا أكثر سهولة، ولا يخفف أبدًا من كرب أقربائهم».

وأدرجت في ٢٢ تموز/يوليو ١٩٦٩ لائحة شرف ثانية في الريكورد موردا اسماء نحو ثلاثة آلاف ضحية إضافية واسماء بلداتهم، وهم أولئك الذين قضوا في فيتنام منذ تولي نيكسون السلطة. وأدخلت، في حلول ١٢ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٧٢، مزيدًا من لوائح الشرف في سبعة أعداد من الريكورد. ولم يكن إعلاني الأول لائحة الشرف هو احتجاجي الأول على حرب فيتنام، لكنه كان الأكثر تأثيرًا.

وأدليت، في اليوم الذي سبق النشر في الريكورد، بالملاحظات التالية في قاعة المجلس: «ان مبررات الانسحاب واضحة؛ لقد ارتكبت الولايات المتحدة خطأ جوهريًّا من خلال توريط قواتها في المقام الأول. ويقضي العمل التصحيحي الوطني بالانسحاب بدلًا من مضاعفة الخطأ الأصلي».

أدليت، منذ وقت مبكر يعود إلى ١٩٦٥، بشهادتي أمام لجنة الشؤون الخارجية في مجلس الشيوخ، حاثًا الكونغرس على إعادة النظر في السياسة الفيتنامية. وأبلغت اللجنة أنني لا أعتقد أنَّ قرار خليج تونكين، الذي صدر قبل

ذلك بسنة، يوفّر للرئيس جونسون سلطة توسيع القوات العسكرية الأميركية في فيتنام. وكتبت في ١٢ كانون الثاني/يناير ١٩٦٦ للرئيس جونسون أفيده بـ«القلق العام في شأن دور الولايات المتحدة كشرطي للعالم». وطرحت، في ١٨ أيار/مايو ١٩٦٧، القرار «هـ ج. ر. ٥٨٦» (H.J.R. 586) الذي سيعدّل قرار خليج تونكين ليسمح لمحكمة العدل الدولية، وهي فرع قضائي للأمم المتحدة موجود في لاهاي، في الفصل في النزاع الفيتنامي. وقلت في ١٣ حزيران/يونيو ١٩٦٧: «نحن نواجه إمكان أن يرسل [الرئيس جونسون] ٢٠٠ ألف جندي آخر أو ٣٠٠ ألف، إلى فيتنام الجنوبية، إن لم يكن احتمالًا. فبموجب أي سلطة شرعية سيقوم الرئيس بمثل هذا العمل؟ هل بموجب قرار خليج تونكين؟ . . . وأتساءل هل كان الكونغرس فعلًا على قدر مسؤوليته الدستورية في السنوات الأخيرة؟». وتحدّثت في ١٠ تموز/يوليو ١٩٦٧ مرّة أخرى إلى زملائي: «لا يمكن أحدًا أن يحاجج منطقيًا بأن من شأن قرار خليج تونكين الصادر في ١٩٦٤ أو الفوز الانتخابي أن يعطيا الرئيس جونسون التفويض في إرسال قوات برية إلى فيتنام من دون حدود». وكررت، بعد ذلك بأسبوعين فكرة: «أنني لا أعتقد أن في وسع أي كان أن يقرأ في القرار وجودًا لسلطة تسمح بإيصالنا إلى هذا المستوى من التورط. وعلى ما أعلنه الرئيس أيزنهاور في الأسبوع الماضي فإن هذا القرار لا يوفّر سوى سلطة محدودة».

وفي آب/أغسطس ١٩٦٧، دعت مجموعة من ٥٧ عضوًا من الحزبين إلى نقاش «شامل» للسياسة الأميركية في فيتنام. وانضم إليّ في المؤتمر الصحافي الديمقراطي وليام هونغات من ميسوري، وثلاثة جمهوريين هم برادفورد مورس من ماساتشوستس، وتشارلز و. والن من أوهايو، وباربر كونابل من نيويورك. وكان من شأن القرار الذي طُرح توجيه لجان مجلسي النواب والشيوخ إلى أن تحدد فورًا «هل المزيد من تحرك الكونغرس في ما يتعلق بالسياسات في منطقة جنوب شرقي آسيا أمرٌ مرغوبٌ فيه».

وطرحت في الشهر نفسه قرار المجلس الرقم ٨٦٩، التي شاركني في رعايته ٢١ جمهوريًا، ويدعو لجنة الشؤون الخارجية في مجلس النواب إلى «مراجعة

تطبيق قرار خليج تونكين والنظر هل يعطي الرئيس سلطة مواصلة العمليات العسكرية في جنوب شرقي آسيا بالنطاق والحجم الحاليين، أو هل الأمر يتطلب تعديلًا... وهل المطلوب وضع تشريع بديل». وأدليت في ٢٣ آب/أغسطس برسالة أكثر تفصيلًا في الموضوع نفسه في شهادتي أمام لجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ، وهو بيان أعادت طبعه لجنة الحقوقيين الأميركيين عن السياسة الاميركية حيال فيتنام.

طرحت في أيلول/سبتمبر في الكونغرس القرار الرقم ٥٠٨ (H. Con. Res. 508)، وهو قرار أكثر لينًا اعتقدت أنه سيستجلب المزيد من المشاركين في الرعاية. ويكتفي بدعوة لجان الكونغرس إلى الإفادة هل «من المرغوب فيه القيام بمزيد من العمل في الكونغرس في ما يتعلق بسياسات جنوب شرقي آسيا». وفي غضون بضعة أشهر أصبح ١٤٤ نائبًا - أكثر من ربع مجموع الأعضاء - من المشاركين في الرعاية. وأملت، من خلال طرحي مشاريع القوانين هذه، أن أحث زملائي على أن يكونوا على قدر مسؤولية مجلس النواب الدستورية في ظل سلطات الحرب. ولم يؤدِّ أي منها، لخيبتي، إلى جلسات استماع في اللجان، والأقل منه إلى توصيات منها. وأقتنعتني التجربة بأن رؤساء اللجان، باستثناء السيناتور وليام فولبرايت، ومثلهم غالبية الأعضاء الآخرين راضون بالتملّص من مسؤوليتهم الدستورية. لم يريدوا أن تلسعهم أشواك سلطات الحرب. أحبوا الشكوى من القرارات الرئاسية في شأن القيام بالحرب لكنهم فضّلوا تجنّب المساعدة في أن يضعوا بأنفسهم السياسة المناسبة.

واشتكيت في ١٤ كانون الأول/ديسمبر ١٩٦٧، من «أن الكونغرس سيرجئ أعماله هذا الأسبوع من دون أن يلامس حتى موضوع عمله الأكثر أهمية وهو جوهر السياسة في جنوب شرقي آسيا. وعلى هذا أن يصيبنا بالخجل». وفي الأول من نيسان/أبريل ١٩٦٨ - لم أقصد الأمر على أنه كذبة أول نيسان - حثثت الكونغرس على إلغاء عطلته المعتادة في عيد الفصح والتعامل بدلا من ذلك مع سياسة فيتنام في تلة الكابيتول.

نُشرت لائحة الشرف بعد نحو عام على استقالة روبرت ماكنمارا، أحد أكبر

مهندسي سياستنا في فيتنام، من منصبه كوزير للدفاع. أدرك الرئيس جونسون أن ماكنمارا انقطعت به الأسباب. فقد كذب في توقّعه الانتصار في ساحات القتال بعد وقت طويل على استنتاجه الخاص أن لا يمكن الفوز في الحرب. وقد حظي لنفسه بنوع من العفو بانتقاده في مآل الأمر، سياسته الخاصة الفاشلة. واختار الرئيس كلارك كليفورد، وهو محام ماهر جدًا من نيويورك، خليفة له وهو الذي سبق له أنه أبحر في مياه دسائس واشنطن السياسية الضحلة وفي الحكومة الوطنية أوائل أيام إدارة ترومان. وهو شخصية تحظى بالاحترام على نطاق واسع.

ووجدت نفسي، في حماستي لإخراج قواتنا من فيتنام، في تشابك تشريعي مع كليفورد على طلبه تمديد ولاية رئيس هيئة الأركان المشتركة في البنتاغون، الجنرال في الجيش إيل ويلر، ولاية ثالثة من سنتين. وليست لدي مشكلة شخصية مع ويلر سوى أنه واحد من مهندسي سياسة الحرب الكارثية الكبار. فويلر، كما قلت لاحقًا لمجلس النواب، واحدٌ من واضعي سياسة «لا يمكن الدفاع عنها أخلاقيًا وتأتي عسكريًّا بغير المرجو منها». وأدركت أنني إذا وقفت واعترضت فسأخسر في النهاية. فمن شأن اعتراض عضو واحد في قاعة المجلس سحب أي مشروع قانون من تلك الروزنامة المعينة، سوى أنني عرفت أن في إمكان زعامة صممت رأيها في المجلس أن تحقق النتيجة نفسها باعتماد اقتراحات أخرى مثل تعليق الأحكام. إلا أنني، باعتراضي، سأكسب الحق في أن أشرح لزملائي شكواي الرئيسة في شأن ويلر واستعداده لاتباع مبدأ التدرج العسكري الذي يوصف أيضًا بأنه ردّ موزون. وانتظرت إلى أن وصل الكاتب الذي يقرأ عبر مشاريع القوانين إلى ذلك الذي يمدد ولاية ويلر وقلت: «أعترض». وعم الصمت فورًا قاعة المجلس. استدار الأعضاء وبعضهم فوجئ والبعض الآخر اعتراه الفضول، والبعض القليل الآخر غاضب. فالاعتراض على مادة على روزنامة الموافقة الإجماعية حدث نادر لم يختبره الكثيرون من الأعضاء قط من قبل. ومن شأن هذه الواقعة أن تظهر في أقل تعديل أن قواعد مجلس النواب تسمح بحق التعبير الحر عن الرأي لعضو صغير في القلة البرلمانية.

وفي وقت قصير قاربني مسؤول الانضباط الجمهوري، لس أرندس، وقد بدا على مظهره القول «ما الذي يحدث بحق الجحيم؟» فهو في الكونغرس منذ ٣٠ عاما وقد جاء في عز الركود الاقتصادي زمن رئاسة فرانكلين د. روزفلت ولم يكن سوى بضع دزينات من أعضاء المجلس من الجمهوريين. وهو في الزعامة منذ سنوات وما من شك في أنه استُشير في شأن تمديد ولاية ويلر. وها أن المشكلة أصبحت جمهورية وأسوأ ما فيها أنني من ولاية أرندس، إيلينويز. وقد أصبحت منبوذًا في ذلك اليوم.

كان معظم فريقي غادر المكتب في نهاية يوم العمل. ورنّ جرس الهاتف وأجاب جونز بعبارته المعهودة «مكتب النائب بول فندلي». فأجابه الصوت في الطرف الآخر من الخط: «هنا كلارك كليفورد، هل يمكنني التحدث من فضلك إلى السيد فندلي؟» واجه جونز صعوبة في التصديق أن يتصل كلارك كليفورد شخصيًّا بمكتبي. عرّف جونز عن نفسه وقال إنه سيبحث عني ويجعلني أعاود الاتصال به. فقال كليفورد: «أيمكنني معاودة الاتصال بك؟ فالرئيس على الخط الآخر». اتصلت، بعودتي إلى المكتب بعد ذلك بدقائق قليلة، بالوزير كليفورد على الرقم الخاص الذي تركه. كان ذلك اتصالي الأول بكليفورد ووجدته ناعمًا كالحرير. شرع يقول لي إن الرئيس طلب منه أن يصبح وزيرًا للدفاع وأنه شرع في مراجعة كاملة للسياسة الفيتنامية. وتبين أن هذه الكلمات، وقد سمعتها من قبل، حقيقية هذه المرة. وأضاف أنه طلب شخصيًّا - وشدد على كلمة شخصيًّا - إبقاء ويلر لأن ليس لديه سوى أقل من سنة كوزير للدفاع (كان جونسون عند ذاك الحد سحب نفسه من الترشح إلى ولاية ثانية)، وهو يعتقد أن ويلر هو أفضل مصدر للمعلومات يمكنه الحصول عليه.

شكلت تلك حجة معقولة. وأجبته أن ليس لدي أي مأخذ شخصي على ويلر إلا انني أعتقد أنه واحد من مهندسي الحرب الأصليين وسيميل إلى الوقوف موقفًا دفاعيًا حيال قراراته الماضية. وقلت إنني أشعر تحوّلًا رئيسًا في الرأي العام الأميركي يحبّذ إخراج الولايات المتحدة من الحرب في أسرع ما يمكن، على أن يُرسل قريبًا قائد جديد - الجنرال كريتون أبرامز - إلى فيتنام.

ولا يمكنني وحسب الوقوف موقف المتفرج والقبول بولاية ثالثة لا سابقة لها لرجل أدى دورًا رئيسًا في خلق كارثة فيتنام. وقلت إن رجلًا جديدًا من دون وجهة نظر مسبقة أو من دون استثمار شخصي له في توصيات سياسية سابقة لهذه الأسباب سيكون الأفضل.

وأمسك كليفورد، طبعًا، بالورقة الرابحة. فقد عرفتُ أن ويلر سيبقى في مركزه إلى أن يمرّر مشروع القانون، وهو لا يملك أدنى شك في أن المشروع سيمر في النهاية. وقد مر في الواقع في ١٤ أيار/مايو من خلال تعليق القواعد. وعاملني كليفورد بلياقة واستمع إليّ. لم أغيّر رأيه، ولم يغيّر رأيي. ولم أسحب اعتراضي.

عاش كليفورد طويلًا بعد مغادرة الرئيس جونسون السلطة. ولمّا قاد الرئيس كارتر اتفاقات كامب ديفيد التي تضمنت معاهدة سلام مصرية مع إسرائيل جلستُ في لجان فرعية تفاوضية عدة مع كليفورد الذي مثّل في ذلك الوقت وزارة الخارجية في الاتفاقات عن المنح السنوية لإسرائيل. والتقيته كذلك في مكتب المحاماة الخاص به للحصول على توقيعه بعد نشر مذكراته الرائعة عن سنواته كمستشار قانوني للرئيس ترومان. ولطالما شكّل حضورا يفرض نفسه. وطريقته في الكلام هي أكثر طريقة متروّية سبق لي أن لاحظتها. فهو يعتمد البطء الشديد في إطلاق كل كلمة.

ستحدث تطورات كثيرة في فيتنام بعد تولي الرئيس نيكسون السلطة، وقد مات خلالها المزيد من الجنود الأميركيين. طرحت، وقد شجعني قراره سحب ٢٥ ألف جندي من فيتنام، مشروع القانون الرقم ٥٦٤ (H. Res. 564) الذي حصل على أكثر من ١٠٠ مشارك في الرعاية. وجاء في جزء منه: «يقرر... بأن تتم مساندة الرئيس في تصميمه على سحب ما تبقى من قوات في أسرع تاريخ ممكن عمليًا».

عرقلت ووترغيت في شكل كبير مسار تورطنا في فيتنام. فقد سرّعت الفضيحة من موجة الاعتراض العام المعادي للحرب، وليس فحسب من طرف

الخنافس وقدامى المحاربين. بذل نيكسون أقصى ما يمكنه لمساعدة الإدارة الفيتنامية الجنوبية ولكن ثبت أن نجاتها مستحيلة تمامًا كنجاته. واستخدم الكونغرس في النهاية، ردًا على هذه الموجة، سلطة حافظة النقود - حصر التمويل لفيتنام بمساعدة من تصويتي - لإنهاء التورط الأميركي في فيتنام. وبذلت القوات الأميركية، في ظل هذه الظروف، أفضل جهودها. ففشل السياسة الأساس لا يشكل انعكاسًا على أولئك الذين ماتوا.

لم يعرف سوى قلة من ناخبيّ الكثير عن فيتنام، عندما انتُخبت للمرة الأولى في ١٩٦٠، وربما أن عددًا أكبر بقليل عرف عن لاوس وأهميتها، إلا ان جنوب شرقي آسيا كانت بالنسبة إلى معظمنا، في غرب إيلينويز، بعيدة منا بعدنا عن القمر. وكان تولي الولايات المتحدة المسؤولية السياسية عن فيتنام الجنوبية بلغ عامه السادس سوى أن ذلك لم يكن قد أدى بعد إلا إلى إصابات قليلة في صفوف الأميركيين. ومن شأن مراجعة التاريخ الفيتنامي الحديث المساعدة في تفسير تعقيدات المشاكل التي واجهتني كعضو في الكونغرس.

الأمر المربك في شأن فيتنام هو في أن الحقيقة والمنطق والاقناع تبدو موجودة في كل من طرفي أي موضوع نزاع. ولنأخذ أكثر الأمثلة بداهة: هل جنوب فيتنام، جمهورية فيتنام، دولة حقيقية ذات سيادة معترف بها دوليًا أم انها مجرّد منطقة عسكرية اصطناعية أنشئت لاهداف إعادة الانتشار عقب مؤتمر جنيف في ١٩٥٤؟ تشكّلت فيتنام تاريخيًا من ثلاث ممالك مستقلة حظيت حتى باعتراف الفرنسيين بها، في الشكل إذا لم يكن في الجوهر، ما إن أصبحوا القوة الاستعمارية الطاغية. وبحلول ١٩٥٤، تركز الكفاح العسكري الفرنسي للقضاء على «الفيت مينه»، أو المتمردين الشيوعيين، في صفة خاصة في الشمال وأدى ذلك إلى تقسيم عملي للبلاد. سيطر الفرنسيون على هانوي، ومعظم الساحل، ونحو ثلث الجنوب بما في ذلك سايغون. أما باقي البلاد فكان متنازعًا عليه عسكريًا أو تحت سيطرة الفيت مينه. وأخذ الشيوعيون، بعد انتصارهم في الحرب الأهلية الصينية، بتزويد الفيت مينه إمدادات عسكرية ذات شأن وغير ذلك من أوجه المساعدة. هزم المتمردون الفرنسيين في قرية ديان

بيان فو. وشكّلت تلك هزيمة سياسية إضافة إلى الهزيمة العسكرية. فسقطت حكومة جوزف ليونيل مما أدى إلى اجتماع للدول الغربية الأساسية الكبرى إضافة إلى الاتحاد السوفياتي والصين والدول والأطراف المعنيين بالنزاع في كوريا وجنوب شرقي آسيا ربيع ١٩٥٤ في جنيف.

لم تؤت المداولات في شأن إعادة توحيد كوريا شيئًا، ولكن تم تحقيق الهدنة الفيتنامية نتيجة الدولبات الماكرة لوزير الخارجية السوفياتية ف. م. مولوتوف ووزير الخارجية الصينية شو إن - لأي التي أدت إلى اقناع ممثل الفيت مينه، فام فان دونغ، بالموافقة على ما هو في الواقع «أقل من نصف رغيف». اعترف جميع الأطراف بالحاجة إلى مناطق «إعادة تموضع» يتجمع فيها الفرنسيون جنوب أحد الخطوط والفيت مينه شماله. وأراده الفيت مينه ان يُرسم ما أبعد إلى الجنوب عند خط العرض الثالث عشر. وأراد الفرنسيون رسمه ما أبعد إلى الشمال عند خط العرض الثامن عشر. وأراد رئيس الوزراء الفرنسي الجديد بيار منديس - فرانس عملًا سريعًا. وأبلغ الجمعية الوطنية أنه سيستقيل إذا لم يحقق السلام في فيتنام في غضون ٣٠ يومًا، وهي مهلة نهائية تأخذ سريعًا بالاقتراب.

وعلى ما يصح في الغالب في السياسات الدولية، كان الاعتبار الرئيس في مؤتمر جنيف في مكان آخر. فالاتحاد السوفياتي لم يرد لفرنسا أن تدعم مجموعة الدفاع الأوروبية التي ستعيد تسليح ألمانيا الغربية. ولم ترد الصين نزاعًا آخر مع الولايات المتحدة ولمّا يمضِ عام على انتهاء الحرب الكورية. ووافق مولوتوف، في مقابل اتفاق بالمصافحة يقضي بعدم انضمام فرنسا إلى مجموعة الدفاع الأوروبية، على استخدام عضلاته، وهي هائلة الحجم، لجعل الشيوعيين الفيتناميين يوافقون على نوع من أنواع وقف النار. وحذا الصينيون حذوهم. فأبلغ مولوتوف وشو إن - لاي، فام فان دونغ أن حركته ستفوز في الانتخابات - الموعودة بعد سنتين من الآن - وحاججا بأن البلاد ستسقط عند ذاك في أيديهم كالثمرة اليانعة.

تم التوصل إلى اتفاق. وقُطعت فيتنام إلى جزءين؛ فسيسيطر الشيوعيون على

الشمال فيما يستمر الجنوب، الذي سيتواصل فيه الصراع السياسي والعسكري، منفصلًا على أن تُجري انتخابات لإعادة التوحيد في ١٩٥٦. وأثبت الاتفاق في الواقع أنه انتصار ترك العالم الحرّ أسوأ حالًا مما كان عليه من قبل. فبرسم الخط شمالًا إلى أبعد مما يبرره الوضع العسكري على الأرض، شُرِّع وجود عشرات الآلاف من مؤيدي الشيوعيين في الجنوب. ودعمت الولايات المتحدة الوطني نغو دينه ديام رئيسًا، غير أنه أثبت أنه على القدر نفسه من الديكتاتورية والاعتباطية التي للشيوعيين في الشمال. وأخّرت أعمال الشغب المتعلقة بالغذاء في شمال فيتنام جهود الشيوعيين في إعادة السيطرة على الجنوب حتى ١٩٦٠. وعنداذاك شرع المتمردون الشيوعيون المحليون في عملياتهم وحلّ محلهم بعض الوافدين من الشمال الذين دخلوا الجزء الجنوبي من فيتنام عبر "طريق هو شي منه" الشهير عبر لاوس وكمبوديا.

بعد ذلك بسنتين، اتخذ الرئيس كنيدي خطوة مصيرية بحيث ان أميركا بدأت، في ظل خليفته ليندون جونسون، محنة فيتنام الرهيبة. ولو أن كنيدي عاش لربما تبنى نصيحة الجنرال جايمس غافين بإقامة محوطات على طول الشاطئ الفيتنامي ومن ثم التفاوض على خروجنا كويسلة لتحويل هو شي منه إلى تيتو جنوب شرقي آسيا. وكان من شأن اقتراحات غافين الاعتراف بطموحات هو شي منه الوطنية ودعمها. ولو تمت الموافقة على توصياته لأدت، في رأيي، إلى تفادي المذبحة البشرية الرهيبة في شأن فيتنام المقسمة والتي تبعتها مذبحة أسوأ في لاوس وبورما وكمبوديا.

قاد جونسون خداعًا كبيرًا ومصيريًا ضلل الكونغرس والشعب الأميركي. ولكنتُ عارضت بقوة، منذ ١٩٦٣، حربه في فيتنام، ولحذا معظم زملائي حذوي، لو أننا عرفنا أمرين:

الأول، وكما تم تبيان ذلك في شكل قاطع في «أوراق البنتاغون»، وهي التأريخ المتعدد المجلدات عن تورط الولايات المتحدة في فيتنام، فقد ادرك كل شخص تقريبًا من أصحاب العلاقة على المستوى الحكومي الكبير في كل من إدارتي كنيدي وجونسون أن مهمة إنقاذ فيتنام الجنوبية من السيطرة الشيوعية قد

تكون بعيدة المنال. ونشر دانيال إلسبرغ في ١٩٧١ في النيويورك تايمز على الملأ هذه الوثائق التي كانت سرّية في السابق.

ثانيًا، وبعد مدة قصيرة على اغتيال كنيدي، حذّر السيناتور ريتشارد راسل، العضو الأكثر نفوذًا في مجلس الشيوخ والصقر الشهير، الرئيس جونسون في رسالة سرية بأن فيتنام كفاح علينا تفاديه، ولا يمكننا الفوز به، وسينتهي في مآل الأمر إلى كارثة. تجاهل جونسون هذه التحذيرات وأبقاها سرّية. وسمح لنفسه، لسبب غير معروف، بأن يتم اقناعه، على رغم خبرته وحكمه السياسي على الأمور، بأن على الولايات المتحدة دعم ما أخذت تصبح في اطراد حكومة سلطوية وديكتاتورية لا تحظى إلا بالقليل من التأييد العام.

تحرك جونسون في حذر في خلال ١٩٦٤، لكن ما إن انتخب لولاية كاملة حتى شرع في زيادة مستوى القوات من الآلاف إلى نصف المليون. وحاول خوض حرب فيتنام بالادعاء أنها غير موجودة. وأدى هذا إلى تعريض دوره كقائد أعلى للضرر. ولم يشأ أن يطلع الشعب الأميركي، والأقل منه الكونغرس، على التضحيات الجسام اللازمة «للفوز». لم يطلب ضريبة حرب أو تقنينًا. واستمرّ في «الرد الموزون» الذي لا طائل منه، ولم يطلق قط ثقل قوتنا العسكرية كله ضد الفيتناميين الشماليين. وبات الاعتراض الشعبي يصم الآذان مع ازدياد تورطنا من خلال الأرواح المفقودة والمال المصروف.

وسيطرت فيتنام على حياتي من الصباح حتى المساء على رغم أنني لم أزرها كما فعل الكثيرون من الأعضاء. خدم أكثر من مليوني أميركي في فيتنام، جُنِّدَ معظمهم. وإضافة إلى أولئك الذي قتلوا، جُرح مئات الآلاف الآخرين وأصيبوا بآفات مدى الحياة. وأبقيتُ بابي مفتوحًا دومًا للذين يحتجون على الحرب. وتعاطفت في قوة واطراد مع المحتجين على رغم أن الكثيرين منهم كانوا رديئي الهيئة ومتسخين. واستمررت في البحث عن مبادرات من شأنها المساعدة في وضع حد للحرب.

في بعد ظهر أحد الأيام، وعلى أثر المناداة على النصاب القانوني، تحدّث

النائب جايمس سيمينغتون من ميسوري في قوة لنحو دقيقتين وحسب في قاعة مجلس النواب. كان الأعضاء جميعهم تقريبًا حاضرين عندما تحدّانا كلنا معًا ذلك الديمقراطي الهادئ في العادة. قد لا أتذكّر كلماته بالتحديد، لكن موضوعه كان التالي: «انظروا من حولكم. ها نحن هنا نحو ٤٠٠ بشري - العدد نفسه تقريبًا للشبان الأميركيين الذين قُتلوا الأسبوع الماضي في فيتنام. ولو قدّر ان نكون نحن من سنزول الأسبوع المقبل، فهل نجلس مكتوفين لا نفعل شيئًا؟ ما الذي نفعله في شأن المذبحة الدائرة في فيتنام؟ أم نحن عاجزون؟ أولًا نملك سلطة وواجبًا كنواب في الكونغرس؟ هل نبقى جالسين مكتوفين لا نفعل شيئًا اليوم وغدًا لوقف قتل ٤٠٠ آخرين الأسبوع المقبل وكل أسبوع يلي؟ أطلب منكم التفكير مليًّا في هذه الأسئلة». وتذكّرتُ، وهو يثير الاسئلة، الرسالة المرمّزة عن التدخل الأميركي في فيتنام التي بعث بها الرئيس ديغول في ١٩٦٥ إلى بعثتنا الجمهورية في باريس.

نظمت في ٢٠-٢١ أيار/مايو ١٩٧٠ جلسات في قاعة استماع لجنة الشؤون الخارجية مخصصة للاستماع إلى «وجهات نظر الطلاب حيال سياسة الولايات المتحدة في جنوب شرقي آسيا». وعُقدت جلسات الاستماع في خلال توغّل نيكسون العسكري المثير للجدل في كمبوديا والذي بدا أنه يُنظر إليه في شكل عام على أنه توسيع خطير للحرب. وعملت، بموافقة من رئيس اللجنة توماس إي. مورغان ورئيس فريق اللجنة المخضرم بويد كراوفورد، على نشر جلسات الاستماع على أنها وثيقة رسمية للجنة، وهي المرة الأولى في حياتي في الكونغرس أُدرج رئيسًا لجلسات استماع تجيزها لجنة رسمية. وشارك معي ثلاثة ديمقراطيين كبار وجمهوريّان آخران. وقد تم الاستماع، طوال يومين كاملين طويلين، إلى ٦٣ طالبًا يمثلون جامعات ومعاهد من أنحاء البلاد كافة. وطُبع لاحقًا النص الكامل للاجراءات ووُزع على نطاق واسع. وتضمن السجل ١٩ بيانًا آخر قدمها أفراد أو مجموعات من الطلاب. اكتظت قاعة الاستماع بمعارضي الحرب من التاسعة صباحًا وإلى الخامسة بعد ظهر اليومين. كانوا في معظمهم منتظمين، على الرغم أنهم في غالبيتهم لا يرتدون ثيابًا لائقة. وأذكر

لحظة طلبت من شابين الجلوس على كرسييهما بدلًا من الاستمرار في التمدد على الأرض. وطُلب من شهود كثر أن يخلعوا قبعاتهم وهم يدلون بشهادتهم.

تحيّنت الفرص لاستمع من قدامى المحاربين إلى أسباب معارضتهم الحرب. وزرنا، أنا ولوسيل، في إحدى الأمسيات أحد المعسكرات على حشيش الـ «غريت مول» في واشنطن حيث يتجمع قدامى المحاربين المعارضين. جلسنا على الحشيش حيث تولت مجموعة من إيلينويز شرح أسباب معارضتها. وفي يوم آخر قاد مساعدي، بوب ويشر الذي عمل من دون كلال في تقديم مبادراتي المؤيدة للسلام، سيارتنا الستايشن، وأنا راكب فيها، عبر حشد من المعارضين الفوضويين الذين ما إن لاحظوا أرقام تسجيل سيارتي كعضو في الكونغرس، حتى كادوا يقلبونها.

يزعم المتهكمون ريتشارد نيكسون كان يسعه الحصول في ١٩٦٩ على وقف النار الذي حصل عليه أخيرًا في ١٩٧٣. ولا يوجد ما يؤكد ذلك في شكل قابل للتصديق. فقد كان الفيتناميون لا يزالون يقاتلون في مرارة والشماليون يحتفظون باليد الطولى في القتال. وبدلًا من أن يأمر نيكسون بشن هجوم شامل، عمل على خطة انسحاب نجحت في النهاية. حسّن العلاقات مع الاتحاد السوفياتي وجمهورية الصين الشعبية بحيث يتوقف هذان المركزان الشيوعيان عن مساعدة عدونا ويضغطان في نهاية الأمر على فيتنام الشمالية للجلوس إلى طاولة السلام. أنهى نيكسون عملية التجنيد، وهو قرار خفف من المعارضة، واستحصل على الدعم من «الأكثرية الصامتة» بإعادته الجنود إلى الديار في وقت حاول تعزيز القوات الفيتنامية الجنوبية. وكثف في الوقت نفسه من الإجراءات الحربية ضد فيتنام الشمالية وملاذاتها في كمبوديا. وكلف ذلك المزيد من الأرواح في فيتنام، غير أن الوضع العام تحسن في شكل هامشي. واعتُقد على نطاق واسع في ذلك الوقت أن على القوات الأميركية الخروج ولكن على الانسحاب أن يتم بطريقة لا تؤدي إلى انهيار مفاجئ للحكومة الفيتنامية الجنوبية.

تكلل معظم جهود نيكسون في اتجاه تحسين العلاقات مع الصين والاتحاد

السوفياتي بالنجاح. وقرر الاتحاد السوفياتي في أيار/مايو ١٩٧٢ المضي قدمًا في لقاء قمة على رغم قرار نيكسون قصف هانوي وتلغيم ميناء هايفونغ. واتضح ان موسكو تنظر إلى علاقاتها مع الولايات المتحدة على أنها أكثر أهمية من استثمارها في حرب فيتنام. وينطبق الأمر نفسه على الصين. وعلى رغم أن الصين كانت أكثر تحفظًا من السوفيات، فإن الاجتماعات الرفيعة المستوى التي عقدتها مع الزعامة الفيتنامية وسجلات تلك الاجتماعات تظهر أن الصينيين أرادوا للحرب أن تنتهي. ولم يتوقّعوا من حلفائهم الفيتناميين أن يجرّوا أذيالهم ويهربوا، بل توقعوا تحقيق تسوية من خلال التفاوض تسمح لقوات الولايات المتحدة بالانسحاب.

وتذكّرت القيادة الفيتنامية في هانوي أنها تلقت في ١٩٥٤ وعودًا من كل من الصين والاتحاد السوفياتي بتحقيق نصر سريع في غضون سنتين إذا وافقت على تسوية على مراحل. غير أن الحرب بقيت مستمرة بعد ذلك بعشرين سنة. سوى أن كان على الفيتناميين الشماليين أن يواجهوا مواجهة شبه اليقين بأن المأزق العسكري الطويل الأمد يشكل حربا مكلفة ودموية و«تأخذ بالخناق كاملًا» وقد قام الجيش الفيتنامي الجنوبي الذي مولته الحكومة الأميركية وقدمت إليه الاستشارة بأفضل مما هو متوقع منه. ولم تسقط إلا عاصمة إقليمية واحدة وفشلت في ١٩٧٢ جهود احتلال البلاد بالوسائل العسكرية التقليدية تمامًا كما فشلت ما سُمّيت بانتفاضة تيت في ١٩٦٩.

بدأت في مفاوضات باريس، أواخر الصيف، الحركة في اتجاه تسوية متفاوض عليها. اتضحت، عند ذاك الحد، إعادة انتخاب الرئيس نيكسون، وأن الصين والاتحاد السوفياتي سيحسنان علاقاتهما مع الولايات المتحدة، بل أن حتى فيتنام الشمالية بلغت لحظة الحقيقة. حان الوقت لعقد صفقة. ولا بد للمرء هنا من إعطاء الفضل لمدرسة نيكسون في الواقعية السياسية. ويُقرّ في شكل عام لمبادرته تجاه الصين على أنها أكبر إنجاز له في السياسة الخارجية. وربما وازى ذلك عظمة الاتفاق الذي تم التوصل إليه في كانون الثاني/يناير ١٩٧٣ في باريس والذي وضع حدًا موقّتًا لحرب فيتنام. فقد كسر نيكسون،

الذي عمل من خلال هنري كيسنجر، المأزق. وأوحى الفيتناميون الشماليون أنهم سيوافقون على وقف لاطلاق النار «كما هو عليه الوضع الآن» ويتركون ثيو في السلطة. ولم يحصل أي من الطرفين على ما يريده، لكن كلًا منهما حصل على شيء. فقد تخلت الولايات المتحدة عن إخراج الشمال من الجنوب، وتخلى الشمال عن إخراج ثيو من القصر الرئاسي. ووافق الطرفان على «وقف لإطلاق النار بحسب الوضع الراهن» مما يعني بساطة توقف الجميع عن اطلاق النار بعضهم على بعض. وكانت هناك تفاصيل أخرى، غير أن الحرب انتهت بعدما قيل وتم كل شيء. هل يصمد وقف النار إلى ما لا نهاية في حال توافرت الشروط السياسية والمالية؟ ربما لا، إذ إن حلم هو شي منه في فيتنام موحدة مستقلة لم يتحقق.

أعطيت جائزة نوبل لمفاوضَي وقف النار، كيسنجر والفيتنامي الشمالي لي دوك ثو. وكان يجب أن تُعطى لنيكسون الذي صمم كل خطوة وخطط لها.





محادثتي الأولى مع الرئيس دوايت د. أيزنهاور في كانون الثاني/يناير ١٩٦١ في نادي تلة الكابيتول في واشنطن. التقينا تكراراً في مكتب أيزنهاور في غيتسبرغ خلال سنوات تقاعد الرئيس.



صورة لي وأنا أسلّم بريد احتجاج المزارعين إلى مكتب الرئيس جون ف. كنيدي في ٢٥ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٦٢. وقد وعدت السكرتيرة إيفلين لينكولن بتسليمه شخصياً إلى الرئيس فور عودته من الغداء.

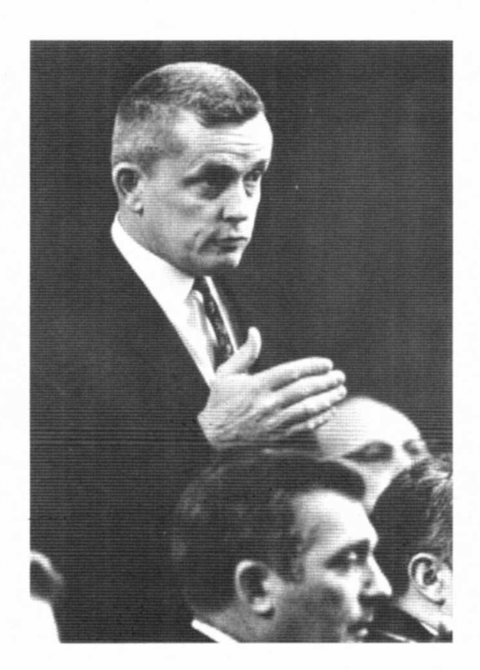
مشاركاً في المراسم عند قبر الجندي المجهول في باريس في حزيران/يونيو ١٩٦٥.



في مؤتمر صحفي في باريس على أثر بعثة تقصٍ للحقائق رعاها الجمهوريون وترأستُها في حزيران/يونيو ١٩٦٥. وأنا أجلس في الصورة بين رئيس المؤتمر الجمهوري في مجلس النواب ملفين ليرد (إلى اليسار) وزعيم الجمهوريين في المجلس جيرالد فورد.



في ١٩٦٥، صنع فرانك ميتشل من سبرينغفيلد (الثاني من اليسار) التاريخ بوصفه أول خادم أفريقي أميركي يعمل في مجلس النواب الأميركي. إلى اليمين زعيما النواب الجمهوريين جيرالد ر. فورد وليزلي أرندس.



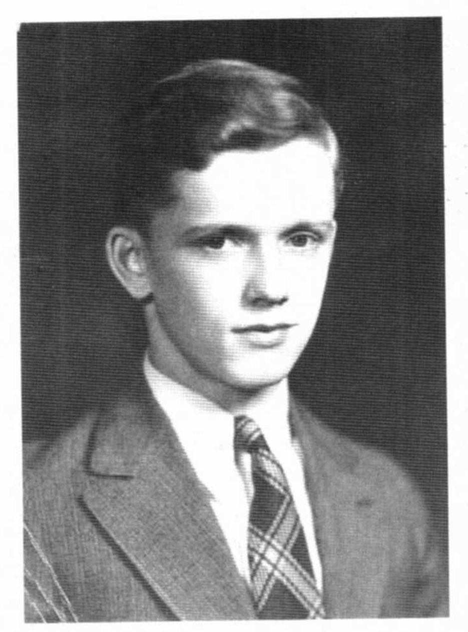
سألت الرئيس ليندون جونسون، «وماذا بالنسبة إلى الفلسطينيين؟» في خلال اجتماع في البيت الأبيض في ٦ شباط/فبراير ١٩٦٧، قبل أربعة أشهر على حرب الأيام الستة الإسرائيلية-العربية المصيرية. وبعد ذلك بسنوات استذكر السيناتور الأميركي جايمس أبو رزق أنه فكّر عندها أن «هذا الفتى يمتلك الشجاعة». [من صور البيت الأبيض]



محيّياً الحشد مع نيلسون روكفلر على درج منزل لينكولن في سبرينغفيلد في خلال حملة حاكم نيويورك للرئاسة في ١٩٦٨.



صورة التقطت في ١٩٦٨ وأنا أهم بمساعدة مهندس الكابيتول جورج ستيورات في تثبيت لوحة نحاسية على الأرضية الرخامية في قاعة التماثيل في مبنى الكابيتول للدلالة إلى موقع مكتب لينكولن الذي خدم لولاية واحدة في مجلس النواب (١٩٤٦-١٩٤٨).



فزت بأول انتخابات وأنا في الخامسة عشرة عندما أصبحت رئيساً للصف الثاني في ثانوية جاكسونفيل.



خلال إدارتي لفرقة معهد إلينوي في حفلة موسيقية في ١٩٤١.



لقائي الأول مع زوجتي المستقبلية الممرضة الجوية في سلاح البحرية لوسيل جيمي في ١٩٤٤ في غوام.



صورة التُقطت عام ١٩٦١ وأنا أهم بقيادة سيارتنا الأولدزموبيل طراز ١٩٥٥ وفي داخلها أعضاء عائلة فندلي الآخرون في طريقنا إلى واشنطن العاصمة.





مسافراً في ٥ أيار/مايو ١٩٦٧ على متن الطائرة الرئاسية مع الرئيس فورد وزعيم الجمهوريين في مجلس النواب بوب ميتشل خلال مسعى الرئيس الفاشل لانتخابه لولاية كاملة في البيت الأبيض. [من صور البيت الأبيض]

THE WASHINGTON POST, TUESDAY, FEBRUARY 22, 1977

Paul Findley

'The Good Life' of a Congressional Recess

The article in The Washington Post of Feb. 9, "Congressional Recess, by Any Other Name . . ." smacks of a bit of jealousy, carrying with it the implication that reporters, too, might enjoy the leisurely life of a "congressional recess" or "district work period"—whatever you choose to call it.

If that is the case, I only wish you could have been with me these seven days to enjoy the good life in Illinois. Enclosed is my daily schedule for this period. As you can see, I had a ball!

Lest you be unfamiliar with Illinois' geography, I can assure you that I did not take my swimming suit and snorkel on my recess—there are no sunny beaches in Illinois at this time of year. Nor did I take my skis. There is still plenty of snow and ice in Illinois (unlike Washington) because it is usually 10 degrees colder in my district than it is here, but we have no mountains.

But I had a ball, nonetheless, and I am certain you would have also. In fact, I hope that you will make plans to join me for a later recess in the 20th

The writer is a Republican representative from Illinois' 20th congressional district.

district. Of course, as a hard-working reporter, you'll be prepared to stay out until midnight driving halfway across Illinois and then getting up early the next morning for a 7:30 a.m. meeting. And I'm certain that you are used to spending all day Saturday and Sunday going from one meeting to another. I assure you, it's the best way I know to meet a lot of wonderful people and learn what is on their minds. It helps me better represent them in Washington, and who knows, it might help you do a better job of reporting for them.

Oh, by the way, if you come with me next time, you'll want to bring along your wash 'n' wear shorts and shirts. In our travels we'll have to move from one motel to another almost every night, but I'm sure you're used to living out of a suitcase. And bring some Dramamine. If you aren't used to so much traveling and excitement, all this "fun" can really get to you.



THURSDAY, FEBRUARY 10

11:20 a.m. Left National, TWA 561
1:15 p.m. Left St. Louis, Ozark 862
1:49 p.m. Arrived in Quincy
2:30 p.m. Visited Channel 7
Visited Herald Whig Newspaper
Visited Channel 10
Met with Joe Ourth, who wants a job
6:30 p.m. McHugh Theater, Administration Building, Quincy College, for Quincy Town Meeting
8:30 p.m. Met Bob Mays at MacHugh Theater following Town Meeting. He presented a proposal on Corps of Engineers assistance in dredging a recreational lake on Quincippi Island
8:45 p.m. Met Dolora Whitney at MacHugh Theater following meeting with Mr. Mays. Committee to Keep Telephone Operators in Quincy
9:00 p.m. Met with approximately 15 constituents on individual problems, policies, and issues
10:00 p.m. Stopped for a Burger Chef and milk shake
10:47 p.m. Left Quincy, Ozark 507
11:12 p.m. Arrived in St. Louis (Mr. Iversen met me at the Ozark ticket counter at airport and drove me to the Bel Air Hilton)

FRIDAY, FEBRUARY 11

a.m. Called Betty Kriegshauser, a patient at Barnes Hospital in St. Louis
a.m. Talked by phone with Washington office preparing statement on Ag-Land Fund
p.m. Attended World Food Program discussion session, Bel Air Hilton
5:45 p.m. Dinner—Greater St. Louis World Food Program, Bel Air Hilton
6:45 p.m. Introductions
7:00 p.m. Speech—"Dimensions of the World Food Problem and the Role of the United States"—explained Famine Prevention Program.

SATURDAY, FEBRUARY 12

a.m. Due to fog, drove 166 miles from St. Louis to Champaign, Illinois
noon Annual Awards luncheon, College of Ag., University of Illinois—Awarded with Certificate of Appreciation for contributions to agriculture and its development in Illinois and the world.
p.m. Drove to Springfield, Illinois
5:00 p.m. Tour Illinois Bell Museum, 529 South 7th, Springfield (Dick Kahne)
6:30 p.m. Reception, Abraham Lincoln Assn., Apollo Room, Forum 30
7:30 p.m. Attended Abraham Lincoln Assn. Dinner, Forum 30, Springfield. Following dinner attended a special showing of the Lincoln Home Visitor Center film.

SUNDAY, FEBRUARY 13

a.m. Attended Church
noon Lunch
1:00 p.m. Met with various constituents prior to dedication ceremonies
2:00 p.m. Participated in dedication of Lincoln Home Visitor Center, First Presbyterian Church, 7th & Capitol, Springfield.
3:15 p.m. Attended Ribbon Cutting Ceremony at Visitor Center
p.m. Dinner
7:30 p.m. Springfield Town Meeting, County Farm Bureau Building, 2449 North Dirksen Parkway, Springfield
9:00 p.m. Met with George Cashman, retired Curator of Lincoln Tomb
9:15 p.m. Met with constituents on individual problems, policies and issues

MONDAY, FEBRUARY 14

10:00 a.m. Alpha Jones. Received a book of poetry that she had written.
10:15 a.m. John Kirby. Discussed a highway problem
10:30 a.m. Father Mascari. Discussed plans for a golden age retirement center for rural Americans
10:45 a.m. Dale Rowand and Ken Redfern, Department of Ag. Discussed plans for an International Visitors Day at the State Fair
11:30 a.m. Stopped for a hamburger
11:45 a.m. Drove to Jacksonville
12:15 p.m. Made visits around Jacksonville Square
1:30 p.m. Attended Ribbon Cutting Ceremony at District Service Office of Honorable Jim Reilly, 224 West State, Jacksonville
2:00 p.m. Jacksonville Town Meeting, City Council Chambers. Was made an honorary fireman and an honorary policeman by the City of Jacksonville and received commendation from the City Council and Mayor Hocking for assistance on solving community problems.
3:30 p.m. Met with Don Lakin in mayor's office, regarding Murrayville/Woodson water plant
3:45 p.m. Met with Dr. Fuhrig in mayor's office, regarding Conference of Churches, Great Decisions Series, China slides
4:30 p.m. Stopped at McDonalds for a cheeseburger
4:45 p.m. Drove to Alton
7:00 p.m. Alton Town Meeting, Metropolitan National Bank on Beltline, Community Room, Alton
8:00 p.m. Met with various constituents on individual problems
9:00 p.m. Interview with Southern Illinois University radio on foreign policy

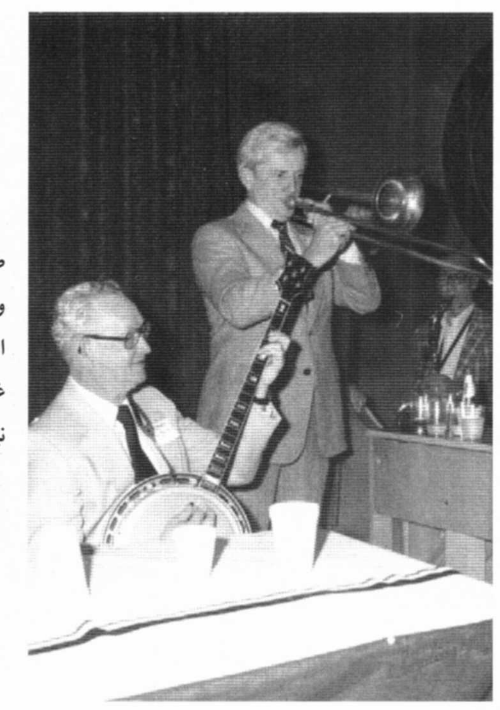
TUESDAY, FEBRUARY 15

10:00 a.m. Met with Mary Heitzig and Mayor Joe Susnig of Jerseyville, regarding city problems with HUD
10:30 a.m. Met with constituent who wants to establish cable TV for Carlinville
noon Lunch with Board of Directors of Alton-Wood River Chamber of Commerce
2:00 p.m. Toured Lock and Dam 26 at Alton
4:00 p.m. Met Harold Rice, President, Alton-Wood River Area Federation of Labor, at the Stratford, Alton
6:30 p.m. Dinner with AFL-CIO union officials
8:00 p.m. Drove to St. Louis

WEDNESDAY, FEBRUARY 16

7:30 a.m. Spoke at Grain and Feed Assn. of Illinois Annual Meeting, Stauffer's Riverfront Towers, St. Louis—"The Future of On-Farm Storage"
9:00 a.m. Discussions with Grain and Feed Assn.
10:50 a.m. Left St. Louis, TWA 482
1:30 p.m. Arrived at National Airport
p.m. Appointments in Washington office

مواجهة الواقع، وقد نشرت الواشنطن بوست في ٢٢ شباط/فبراير ١٩٧٧ تفاصيل عن «تراجعي في الكونغرس».



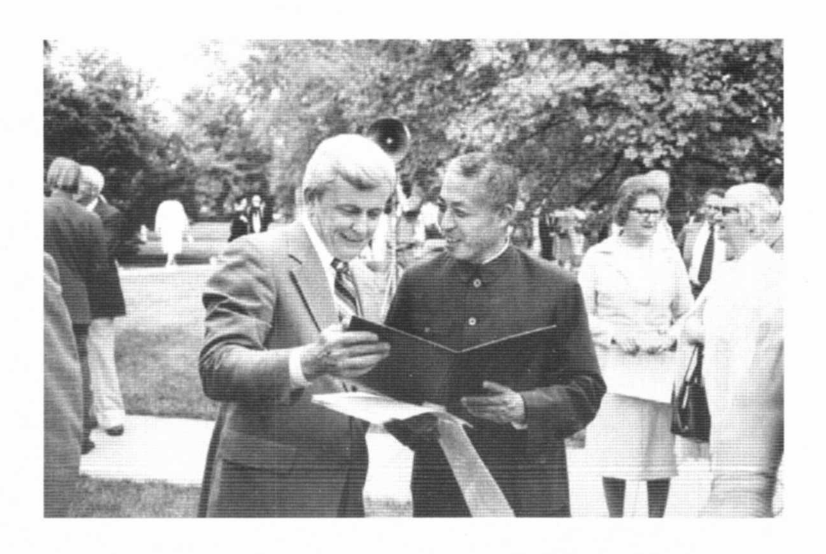
صورة التُقطت في ١٩٧٧ وأنا أحمل الصوار وفي الخلفية لاعب البانجو بيل غارد في عشاء خيري في نيو كانتون في إلينوي.



في تموز/يوليو ١٩٧٨، وأنا واقف وراء الرئيس في حديقة الورود فيما جيمي كارتر يوقّع على قانون حق العمل للمتقدمين في السن والذي رعيته بمشاركة النائب كلود بيبر.



حصلت، بوصفي رئيساً لبعثة إلينوي الزراعية إلى جمهورية الصين الشعبية في ١٩٧٨، على أوشحة تذكارية لزملائي في البعثة من نائب وزير الزراعة هي كانغ.



مع السفير هان زو في حزيران/يونيو ١٩٧٨ بعدما خطب الدبلوماسي في المتخرجين في معهد إلينوي في جاكسونفيل، إلينوي، في أول حضور رئيسي عام لمسؤول شيوعي صيني.



مقدّماً، في ١٩٨٧، لوحة للممثل الهزلي بوب هوب بعدما رعيت حفلة فرحة لمناسبة عيد ميلاده الخامس والسبعين في مبنى مجلس النواب.



عقدت في ١٩٧٩ أول اللقاءات المتعددة مع الرئيس المصري أنور السادات (إلى اليسار) وسفيره في واشنطن أشرف غربال.



كتب رئيس منظمة التحرير الفلسطينية ياسر عرفات في ١٨ شباط/فبراير ١٩٨٠ «أشكر ابنتك ديان على الخزفية الجميلة التي احتفظ بها دوماً على مكتبي. رافقك الله دومًا لأنك متكرّس لقضية عادلة». وفي وقت لاحق تلك السنة دمرّت قنبلة الخزفية على مكتب عرفات ولكن ليس رئيس منظمة التحرير. وبعث إلي عرفات في كانون الأول/ديسمبر ١٩٩١ هذه البطاقة الموقعة منه مع صورته.

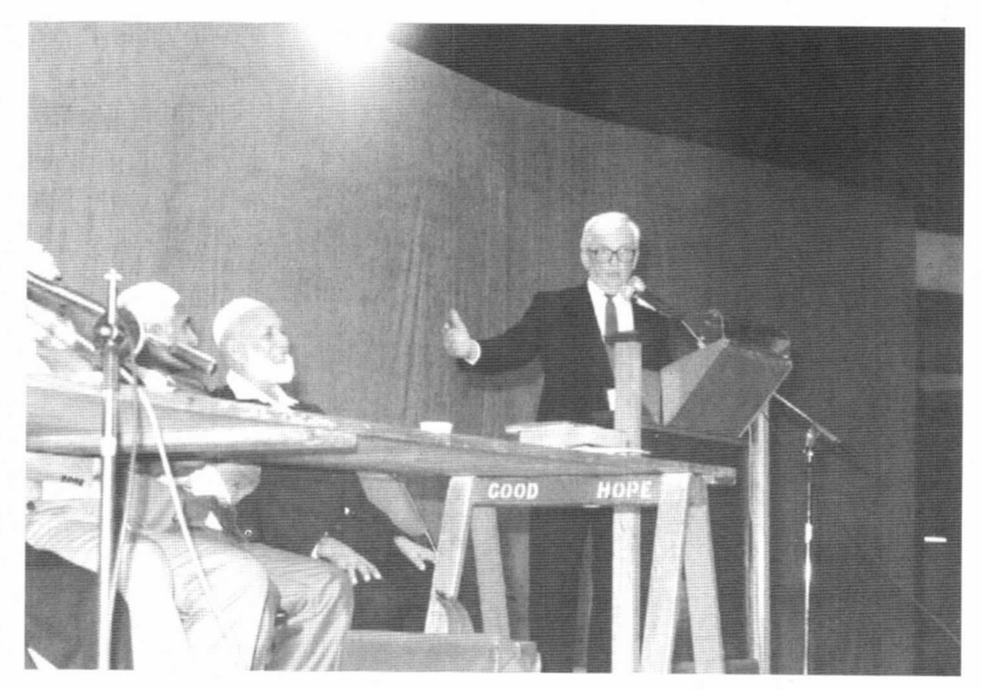
To Mr Paul Findly
With my best wishes
Y. Arafat
6/12/91



في ١٩٨٠، نقل قطار خاص عدة مئات من المتطوعين من سبرينغفيلد إلى ألتون حيث أمضوا النهار وهم يقومون بحملتي الانتخابية. [الصورة من ستايت جورنال ريجيستر]



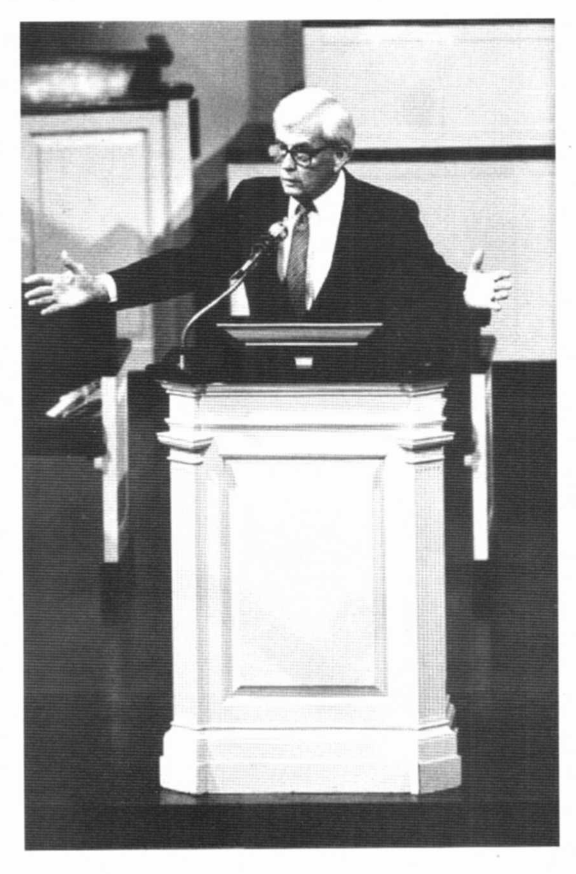
أبلغت الرئيس ريغان (أجلس في الصورة إلى يسار ريغان) في ١٩٨١، فيما تغادر مجموعة من الكونغرس قاعة الحكومة في البيت الأبيض، أنني أعتقد بأن الفلسطينيين يستحقون وطناً خاصاً بهم.



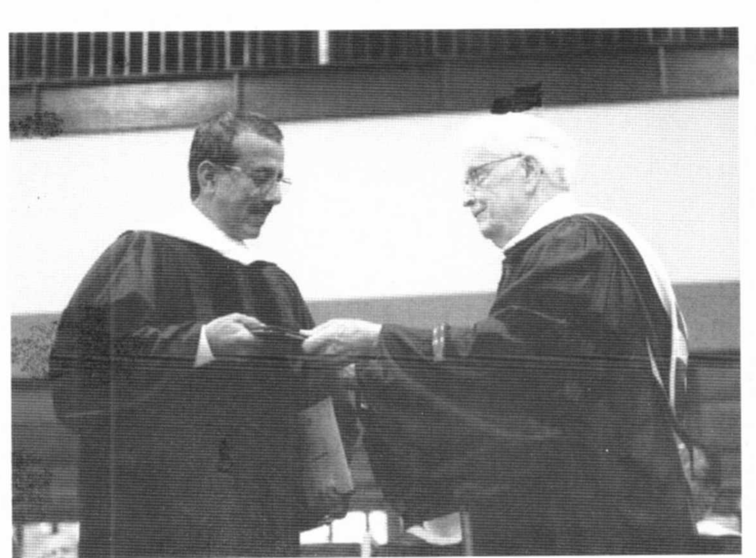
صورة وأنا أومئ، في تموز/يوليو ١٩٨٩، خلال محاضرة مشتركة مع الشيخ أحمد ديدات أمام حضور إسلامي حاشد في كايب تاون في جنوب أفريقيا.



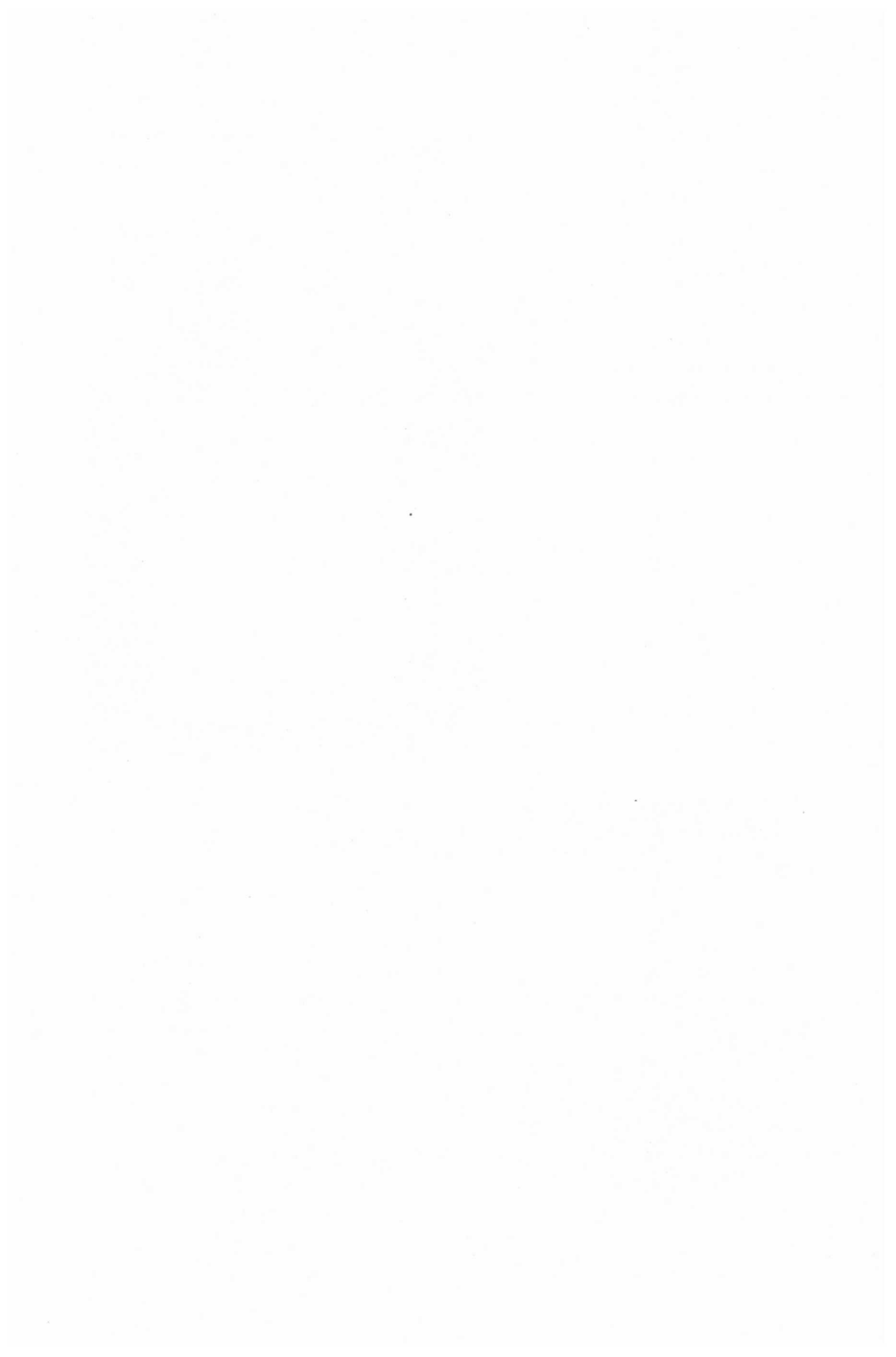
قال العاهل الأردني الملك عبدالله الثاني خلال زيارتي له في ١١ شباط/فبراير ١٩٩٩، إن والده، الملك حسين، أعطاه في خلال سنوات دراسته نسخة من كتابي «من يجرؤ على الكلام» وأوصاه بأن «أُعنى بقراءة كل كلمة».



أمضيت معظم حياتي ما بعد الكونغرس وراء المنابر، غير أن قلة منها كانت فاخرة، مثل هذا المنبر.



مسلّمًا ابن دبي خَلَف الحبتور درجة الدكتوراه الفخرية خلال حفل التخرج في معهد إلينوي في ١٦ أيار/مايو ٢٠١٠.



القسم الرابع: الصراع ضد الحماقة

الفصل الرابع عشر: كبح الحروب الرئاسية

لم يعمّر السلام الفيتنامي الذي فاوض عليه الرئيس نيكسون طويلًا. فبعد قليل على صفقة باريس عمد الكونغرس، الذي يسيطر عليه الديمقراطيون والذي سئم الحرب، إلى قطع التمويل عن العمليات العسكرية الأميركية في فيتنام، ولم يموّل المساعدة الإنسانية الموعودة لفيتنام الشمالية. وكنتُ، على غرار جميع زملائي تقريبًا، لا أعرف عن وضعية مفاوضات نيكسون أو التفاصيل التي وافق عليها الطرفان. وكان الهدف الذي يتملّكني كلّيًا هو انسحاب القوات الأميركية ووضع حد للإصابات في صفوف الأميركيين. وأسهم صوتي في الحصول على الغالبية عندما رفض الكونغرس تمويل شروط صفقة السلام التي فاوض عليها نيكسون.

دفع هذا الرفض بالفيتناميين الشماليين إلى استئناف الحرب، وسقطت سايغون في نيسان/أبريل ١٩٧٥ بفعل سلسلة من القرارات العسكرية الرديئة وحسابات الرئيس الفيتنامي الجنوبي ثيو الخاطئة التي تخلى بموجبها عن الهضبات الوسطى. وعند ذاك الحد كانت ووترغيت أطاحت نيكسون من السلطة. وبرحيله من الرئاسة وبقطع التمويلات العسكرية، عجزت الإدارة الجديدة برئاسة نائب الرئيس جيرالد فورد عن تقديم المزيد من المساعدة إلى حكومة فيتنام الجنوبية.

وكانت النتجية توحيد الفيتنامَيْن تحت حكم هانوي. فقد تمت في النهاية خسارة حرب فيتنام في ووترغيت. وليس من يعرف هل تنجح خطة نيكسون، بجزرها وعصيّها، لكن السجلات تظهر أن السلام الذي بُني في باريس أثبت أنه

قصر واهٍ من الورق لم يمكنه الصمود أمام جرف ووترغيت السياسي. ومات، في تلك الأثناء، ملايين من الناس في فيتنام ولاوس وكمبوديا.

قضى ردّي الأول على تورطنا العسكري في فيتنام بدعم القائدين الأعليين جون ف. كنيدي وليندون ب. جونسون. فقد كنت صقرًا في معظم سنوات خدمتي الستة الأولى في الكونغرس. اعتقدتُ حينذاك أن إذا كانت قوة أميركا العسكرية ودعمها المالي، وأهم من ذلك كله رجال قواتنا المسلحة ونساؤها منخرطين في معركة، فمن واجب الكونغرس والأمة مساندتهم. ويعني القيام بذلك القبول بالفرضية الأساسية بأننا محقون في وجودنا هناك في المقام الأول، وبأن إلتزامنا تقديم مواردنا يشكّل سياسة صائبة. وأعترفُ بأنني لم أعر المسألة الكثير من الانتباه في خلال السنوات الأولى. وكانت مهماتي في اللجنة في ذلك الوقت هي الزراعة والتربية والعمل، وتركز اهتمامي بالشؤون الخارجية على حلف شمال الأطلسي وأوروبا الغربية واعتقادي أن على الديمقراطيات الغربية ان تتوحد في فديرالية.

واستجبت ميلي الطبيعي دعم الرئيس و«قواتنا»، بالاعتقاد بهدف البيت الأبيض السامي ونظرًا إلى كفاحنا في «حقول الرزّ في فيتنام» على أنه ضروري لوقف الشيوعية الدولية. لم يخطر على بالي قط أن جونسون سيضللنا وأن الأحداث قد تكون مفبركة وأن النقاش الداخلي العميق داخل الإدارة سيُحجب عنّا وأننا سنكون عرضة للغش الرئاسي. وشاركني جميع زملائي في المجلس تقريبًا وجهة النظر هذه.

شكّل قرار خليج تونكين «الشيك على بياض» الذي قبضه الرئيس جونسون بعدما مرّ من دون أي صوت معارض في مجلس النواب ولم يصوّت سوى اثنين ضده في مجلس الشيوخ. ونحن نعرف الآن أنه استند إلى إفادة بحصول أعمال عدائية لم تقع. ووافق القرار، بمفعول رجعي، على الردّ الانتقامي على المهاجمين المزعومين، لكنه لم يسمح بإجراءات حرب أخرى.

وكنت أعتقد أن النصر لا يمكن أن يتحقق إلا بقوة عسكرية أميركية ضخمة

وبوقوع إصابات كبرى. لم أنظر، في تلك السنوات، إلى الصراع في فيتنام بصفة كونه حربًا أهلية أو نزاعًا داخليًا، بل بوصفه كونه عدوانًا تشنه الشيوعية الدولية. وذلك كان، ربما، رأي ٩٠ في المئة من الشعب الأميركي. وأخذت وجهة النظر تختلف، أقله بالنسبة إلي، نتيجة لحادثين اثنين: الأول عندما أُسقط أحد أبناء دائرتي الانتخابية، النقيب فيليب سميث من سلاح الجو الأميركي، وهو في مهمة عسكرية على مقربة من فيتنام الشمالية وأسر الشيوعيين الصينيين له؛ والثاني عندما مُددت سلطة التجنيد العسكري.

اتضح أن الأميركيين الذي يقومون بمعظم الاعمال القتالية في فيتنام هم من مجموعات الأقليات ومن البيض الفقراء. ويتحدّر الكثيرون منهم من الجنوب حيث الوطنية والدعم للجيش قويان، ومن المناطق الاثنية/العرقية في ديترويت وشيكاغو ونيويورك وكليفلاند وبافالو. وحصل الكثيرون من رجال الطبقتين المتوسطة والعليا البيض، وبعضهم ممن يخدمون في الكونغرس، على تأجيل للتجنيد.

وأوضح الجنرال لويس هيرشي، الحليق الرأس ومدير جهاز التجنيد الذي لا يقبل بالهراء، أن الشبان المنخرطين في الاحتجاجات المناهضة سيتم تجنيدهم للحرب. وأكثر هؤلاء شهرة كان الملاكم كاسيوس كلاي، وقد سمى نفسه لاحقًا محمد علي، إذ رفض الذهاب إلى فيتنام فجُرّد من أمجاده وسُجن بسبب معتقداته. وأصبحت مجالس التجنيد، علاوة على جور جهاز التجنيد، جزءًا من «قلب العاصفة». والأكثر شهرة بينها الغارة على مجلس تجنيد كاتونسفيل، في ماريلاند، في ١٩٦٥ عندما قام الكاهنان الكاثوليكيان فيليب ودانيال بريغان - وغيرهما من المشاركين معهما والذين أصبحوا يعرفون باسم «تسعة كاتونسفيل» - بتدمير سجلات مجلس التجنيد بسكب النابالم عليها. وقد أرسلا إلى السجن.

وبحلول ١٩٦٧ بات هناك استياءٌ متزايد من سياستنا في الصفوف الخلفية لقاعة مجلس النواب وفي قاعات استراحة النواب وفي الممرات المؤدية إلى الكابيتول، حيث تحدّث النواب في جماعات صغيرة على انفراد. فقد جاءت

الحرب إلى الديار بعبارات شخصية. وكان دون رامسفلد، وهو نائب شاب وواعد من الأجزاء المترفة في كوك كاونتي، إيلينويز، واحدًا من قادة الجهد لإسقاط إعادة السماح بالتجنيد. وتأثرت في حديثي مع رامسفلد وغيره، ومن بينهم النائبان تشارلز غودل من نيويورك وآل كوي من مينيسوتا، بالحجج التي يطرحونها. وعندما حان موعد إعادة تجديد التجنيد في ١٩٦٧ صوَّتت ضده، وكنت في ذلك واحدًا من قلة من الجمهوريين. وعقب التصويت، هنأني أميرال في الخدمة الفعلية على تصويتي المخالف. وبقي في ذاكرتي واحد من تعليقاته التي أدلى بها إلى مائدة الغداء في ذلك اليوم إذ قال: «عندما يمتلك الجنرالات جيشًا كبيرًا، يجدون في العادة حربا يخوضونها». وقد أيد جيشًا صغيرًا مؤلفًا كله من المتطوعين.

أبلغني سفير الدانمرك في الولايات المتحدة على انفراد أن وضعنا في فيتنام لا يحظى بالتأييد في بلاده على رغم أنها حليف في النيتو ووقفتْ في شجاعة ضد الألمان في الحرب العالمية الثانية ورفضت أن يخيفها الإتحاد السوفياتي حتى عندما احتل الجيش الأحمر جزءًا من الدانمرك. وقال لي صراحة إن الشعب في الدانمرك يتماهى مع فيتنام الشمالية أكثر مما هو مع الولايات المتحدة. وكانت تلك كلمات تعيد إلى المرء رشده.

حوّلت انتباهي، وقد انتهى تورطنا في فيتنام، إلى التشريع الذي أملت في أن يجعل كوارث مثل فيتنام أقل احتمالًا في المستقبل. وعنى ذلك، بالنسبة إلي، توضيح العلاقة بين الكونغرس والرئيس في ممارسة سلطات الحرب. كان ذلك حيّزًا مُهمَلًا يفتقر إلى التوضيح التشريعي. وقد لاحظ الرئيس ثيودور روزفلت مرة أن للرؤساء «منابر استئساد»، وأن في وسعهم تعبئة الرأي العام بأسهل جدًا مما يمكن أي كونغرس القيام به في أفضل حالاته. ووضع هذا حملًا خاصًا على الفرع التشريعي وهو يحاول ممارسة مسؤولياته المتعلقة بسلطات الحرب.

ففي فيتنام واصل الرئيس جونسون حربًا كبرى طويلة الأمد من دون موافقة محددة من الكونغرس. وانخرط في الخداع على مستوى هائل. فقرار خليج

تونكين ليس إلا احتيالًا. وهو ليس في أي حال من الأحوال إعلانًا للحرب، لكن جونسون استخدمه في صفاقة كأنه كذلك. وكنت شاهدا في مناسبات عدة على سوء سلوكه.

لم يعامل الرئيس جونسون الشعب الأميركي راشدًا يستحق الحقيقة والإخلاص. وأسوأ من ذلك كله هو أنّ الكونغرس، باستثناء قلة من الأعضاء مثل السيناتور وليام فولبرايت، فشل فشلًا ذريعًا في الوقوف في وجه إساءة جونسون استخدام سلطته الرئاسية. فقد نظر شعب الولايات المتحدة، في الحرب العالمية الثانية، إلى هتلر وتوجو تهديدين حقيقيين. ولم يُنظر قط إلى فيتنام من هذا المنظار. إذ لم يكن في وسع الفيتناميين، ولا في مئة سنة، تشكيل تهديد حقيقي للأراضي الأميركية. ونحن في حماستنا لمقاومة ما وصفناه بالشيوعية الدولية أغفلنا الإحساس القوي والدائم بالوطنية. فقد رضي هو شي منه بالالتحاق بالشيوعيين إلا أن مهمته الأولى كانت استقلال بلاده وطرد الحكام الاستعماريين.

شحذتْ محنة فيتنام فهمي للحرب بما هو أبعد كثيرًا من دروس الحرب العالمية الثانية حيث كنت في منأى عن معظم فظاعة الحرب وبشاعتها على رغم خدمتي في منطقة القتال في أقصى المحيط الهادئ. شاهدت عن كثب قلة من جثث الأميركيين ولم أعرف أيًّا منهم شخصيًّا. ولم أشاهد عندما زرت ناغازاكي، فور الاستسلام الياباني، إلا الحطام الكبير الذي خلفه القصف النووي. لم توجد جثث مرئية في المدينة التي كانت تضم الآلاف العدة قبل ذلك بأسابيع أو قربها. شكّل قتلى الحرب في معظمهم، بالنسبة إلي، احصاءات أكثر من صفة كونهم بقايا أفراد انسانيين.

وكانت فيتنام في المقابل محنة كاوية تدمي القلب. وقد تواجهت تكرارًا، وجهًا لوجه، مع ضحايا الحرب وزرت في أحد الأيام، على سبيل المثال، أكثر من ألفين ممن فقدوا أحد أعضائهم ويعالجون في مستشفى فالي فورج العسكري، واستمعت عبر الهاتف فيما أخذت كاثلين أكين، جارتنا القريبة لسنوات في بيتسفيلد، تجهش ببكاء لا تستطيع السيطرة عليه في شأن مصير ابنها

الأكبر، جون، الذي قتل بلغم أرضي في يوم خدمته الأول في فيتنام. وحضرت مراسم جنازة الكثيرين من الناخبين الذين قتلوا في فيتنام وشاهدت الضحايا وقد ألبسوا الزي الرسمي في النعوش المفتوحة. وتحدثت عشرات المرات في مراسم عامة مكرّسًا أشجارًا مزروعة كذكرى حيّة لقتلى الحرب وبعضهم أحيانًا أبناء أصدقاء مقربين.

أضحت الحرب شخصية كما لم يسبق لها أن كانت من قبل، وقد كرهت ذلك. اعتقدت أنها عودة إلى بقاء الأقوى في الأدغال. ويجب استبدال ذلك، في شكل من الأشكال، بحكم القانون وبتوخي المساواة في العدالة لجميع البشر. ارتعت للآفة الإنسانية الرهيبة ولمعاناة الأبرياء، وهما الجامع المشترك لكل حرب - بما في ذلك الحرب العالمية الثانية آخر «الحروب الصالحة» - فقبلت بضرورة تقوية المؤسسات الدولية.

ساند أيزنهاور الأمم المتحدة والمجموعة الأوروبية. أراد للمؤسسات الدولية أن تقوى. وأجبر، عشية إعادة انتخابه رئيسًا في ١٩٥٦، إسرائيل وبريطانيا وفرنسا على إنهاء حربها على مصر. وحذّر، عند مغادرته السلطة، من التأثير الخطير للمجمع العسكري - الصناعي في الحياة الأميركية، وأيّد فديرالية الأمم الحرة ضمانًا ضد نشوب أي حرب كبرى في المستقبل. وعلى رغم أنني اعترف بأن على الرئيس أن يكون قادرًا على إصدار أوامر سريعة بالأعمال الحربية في ظروف محدودة جدًّا وقصوى، فإن واضعي الدستور لم يألوا جهدًا للتأكد من عدم تمكن أي رئيس، حتى أكثرهم انحرافًا، من استخدام سلطات الحرب أداة جاهزة للسياسة الرئاسية. وبالفعل، فإن الدستور يثبت في وضوح أن السياسة الحكومية يمكن أن تُقر باتفاق الرئيس ومجلسي الكونغرس إلا في حال الإلغاء الناتجة عن استخدام الفيتو. وعلى رغم أن مجلس الشيوخ يتمتع بالسلطة الحصرية لاقرار المعاهدات والموافقة على تعيينات الرئيس للقضاة والسفراء وغيرهم من كبار المسؤولين الحكوميين، فإن مجلس النواب يتساوى مع مجلس الشيوخ في ما يتعلق بكل الأوجه الأخرى للسياسة الخارجية، بما في ذلك استخدام أدوات الحرب.

دفعني ندمي في شأن فيتنام وشغفي الدفين المناهض للحرب إلى أن أطرح في ٢٦ آذار/مارس ١٩٧٠ مشروع القانون الرقم ١١٥١ (H.J. Res. 1151)، وهو كناية عن قرار يتعامل مع سلطات الحرب الرئاسية. اعتقد انه كان مشروع القانون الأول من نوعه يُقدّم في مجلس النواب. وقد شكل سابقة لقرارات سلطات الحرب، وسُن في النهاية على رغم فيتو الرئيس نيكسون. ومنذ أن سن القرار قانونًا التزم جميع الرؤساء بنوده، مع أنهم كثيرًا ما اعترضوا على دستوريته. وأعلنت في حجتي للقرار انه «لو كان [قرار سلطات الحرب] قيد التنفيذ في ١٩٦٢ عندما رُفع عدد المستشارين الأميركيين في فيتنام من ٧٠٠ من دون معدات قتال إلى ١٠ آلاف مجهزين للمعركة، لتوجّب على الرئيس كنيدي شرح تحركه على الفور وخطيًّا للكونغرس». ويوحي لي ذلك أن الكونغرس كان من شأنه، حتى وهو يعتمد الحرص، أن يجبر كنيدي على إعادة النظر في هذا الاقحام المصيري الأول لقوات مقاتلة في فيتنام.

أسهمت في عنصرين أساسيين في مسودة النسخة النهائية من القرار: الأول، طلب إبلاغ رئاسي فوري خطي للكونغرس كلما اتُخذ قرار بإدخال قوات أميركية أو زيادة مثل هذه القوة زيادة كبيرة في أي منطقة تحدث فيها، أو يحتمل أن تحدث، أعمال عدائية عسكرية؛ والثاني، الإقرار في تقرير اللجنة بحق الكونغرس، بقرار متزامن، في طلب انهاء أي عمليات عسكرية قام بها الرئيس من دون إذن واضح من الكونغرس.

أسهمتُ، عندما نقض نيكسون القرار، في تنظيم حملة في مجلس النواب لتجاوز الفيتو. واتخذت مجموعة من عشرة أعضاء من الحزبين مواقع لها عند الأبواب المؤدية إلى قاعة المجلس بحيث يمكن اطلاع جميع الأعضاء الواصلين خلال التصويت على تجاوز المسألة العالقة في شكل صحيح. وصوّت على قرار التجاوز ٢٨٤ عضوًا، بمن فيهم الكثيرون من الجمهوريين، بالإيجاب وصوت ١٣٥ بالرفض. وامتنع ١٤ عن التصويت.

كان قرار سلطات الحرب نتاج تفكير رزين في شأن فيتنام. وعدّه رعاته الأساسيون، وأنا بينهم، خطوة مهمة في تفادي ما سميناه «الحروب الرئاسية».

وشكل القرار، كما سنَّ في قانون، توضيحًا تشريعيًا، لطالما كانت هناك حاجة إليه، للعلاقة المناسبة بين الرئيس والكونغرس في ممارسة سلطات الحرب. وسيشكّل ذلك واحدًا من أكثر المشاريع أهمية في حياتي في الكونغرس. وتجدر الإشارة إلى أن نيكسون، في لقاءاتي الظرفية التالية معه وفي مراسلاتي، لم يشر إلى دوري في تجاوز الفيتو الذي وضعه. ولربما كان هو أيضًا سيصوت بالإيجاب لو انه كان عضوًا في الكونغرس.

وفي حدث يرتبط مباشرة بوقف الحرب في فيتنام، تم في ١٥ آذار/مارس ١٩٧٣ تحرير ابن دائرتي الانتخابية النقيب في سلاح الجو فيليب سميث بعد سبع سنوات ونصف السنة في الأسر في جمهورية الصين الشعبية. وقد أجبرته طائرة مقاتلة صينية في ٢٠ أيلول/سبتمبر ١٩٦٥ على الهبوط في جزيرة هنان التي تعود ملكيتها إلى الصين. وكان دخل عن غير قصد المجال الجوي الصيني بعدما تعطلت أجهزة الملاحة في طائرته في خلال طيران ليلي. ولو لم يفتح نيكسون النقاشات مع بكين كعنصر من عناصر حملته الانتخابية لسحب قواتنا من فيتنام، لبقي سميث رازحًا لمزيد من السنوات في السجن.

الذكرى الأكثر حيوية لحرب فيتنام هي، بالنسبة إلى معظم الأميركيين، لوحة الذكرى الرخامية السوداء الكبيرة على الـ «مول» في واشنطن. وهي رائعة. فهل ساعد نشر أسماء قتلى الحرب في ١٩٧٣ في الكونغريشونال ريكورد في الإيحاء للفنان الذي صممها؟ ربما. وأنا أمر لدى كل فرصة من أمام الجدار. فهو، بحسب اعتقادي، أعظم نصب تذكاري للحرب في كل الأزمنة. وهو يكرم قتلى الحرب مرسّخًا حفر كل اسم في الرخام المتين الذي يفترض أن يبقى قرونًا. وفي المقابل أدخلت لائحة الشرف التي وضعتها في الريكورد على ورق تالف، وذكرياتها عزيزة جدًا لكنها آخذة الآن في الاصفرار السريع وتصبح هشة. وهي، على عكس الرخام، ستتحول في يوم من الأيام غبارًا. غير أنها خدمت لدى طباعتها هدفين نبيلين: الاعتراف بطريقة فورية ومهيبة بقتلى الحرب كأفراد، إضافة إلى ان طريقة نشر الأسماء أسهمت في تقصير الحرب ولائحة الإصابات.

ويتطلب جعل حروب الرؤساء في المستقبل أقل احتمالًا يقظة دائمة. ودعا

وزيران سابقان للخارجية في تموز/يوليو ٢٠٠٨، ولدهشتي، إلى استبدال قرار سلطات الحرب الصادر في ١٩٧٣. شكل اقتراحهما، بسماحه بسلطة شن الحرب الرئاسية في حالات إضافية، تهديدًا للقيود الدستورية على السلطة الرئاسية. وحضّرتُ، بمساعدة من جون ريمينغتون غراهام، الخبير في التاريخ الدستوري والقانون المقيم في كندا، وبالتعاون مع دون فرايزر صديقي وزميلي الديمقراطي السابق من مينيسوتا، نقدًا مخصصًا للنشر لاقتراح بايكر - كريستوفر. كنّا أنا وفرايزر في لجنة الشؤون الخارجية في ١٩٧٣ عندما سُنَّ قرار سلطات الحرب في قانون لتجاوز فيتو الرئيس نيكسون. وقد خدم فرايزر كممثل ديمقراطي لمينيسوتا في مجلس النواب من ١٩٦٣ إلى ١٩٧٩، وكرئيس لبلدية مينيابوليس ما بين ١٩٨٠ و.١٩٩٣

عُين موعد جلسات الاستماع إلى اقتراح بايكر - كريستوفر في ٢٤ أيلول/ سبتمبر .٢٠٠٨ وقد نُشر نص المقالة التي وضعناها أنا وفرايزر كمقالة رأي في عدد ٢١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٨ من لوس أنجلس تايمز. وفي ما يلي النص الموجز بعض الشيء:

المعركة على سلطات الحرب

«تعقد لجنة الشؤون الخارجية في مجلس النواب جلسات استماع عن اقتراحين لتعديل قانون سلطات الحرب الصادر في .١٩٧٣ وسيؤدي أحد الاقتراحين بحكمة إلى تضييق القيود على سلطات الرئيس التنفيذية في شن الحرب. أما الآخر الذي اقترحته لجنة من ١٢ شخصًا بقيادة وزيرين سابقين للخارجية - الجمهوري جايمس بايكر والديمقراطي وارن كريستوفر - والذي لم يطرح بعد كمشروع قانون، فيوسع في شكل خطير من سلطة الرئيس في الأمر بأعمال حربية من دون إذن من الكونغرس. ومن المقرر أن يدلي بايكر وكريستوفر بشهادتهما الأربعاء أمام الكونغرس في شأن اقتراحهما.

«قصد واضعو الدستور. . . منع الرئيس من شن حرب من دون إعلان

للحرب أو من دون إذن محدد من الكونغرس إلا عندما تقضي الضرورة بدحر هجمات على أراضي أميركا أو على تجارتها وجيشها ومواطنيها. ويعتدي اقتراح بايكر - كريستوفر على هذا المنع الحاسم.

«وفي التاريخ الحديث، أنزلت الحرب الرئاسية غير المسوح بها فاجعة بالولايات المتحدة. وقد استُخدم الابهام في قرار خليج تونكين في ١٩٦٤ كذريعة لشن السلطة التنفيذية حربًا على فيتنام لم يقصدها الكونغرس. ولم يكن هناك ما يبرر هذه الحرب من وجهة النظر العسكرية أو الجيوسياسية. وأقر القرار، بمفعول رجعي، الانتقام الذي شنه الرئيس جونسون على هجوم على سفن للبحرية في خليج تونكين، وحذّر فيتنام الشمالية وكل الأطراف المعنيين من استعداد الولايات المتحدة للانخراط في مزيد من العمليات العسكرية من خلال منظمة حلف جنوب شرقي آسيا. لكنه لم يحتو لغة تسمح في الواقع للرئيس بإعطاء أوامر بأعمال حربية في المستقبل. ومع ذلك استخدمه جونسون لمضاعفة الالتزام الأميركي في فيتنام إلى نصف مليون رجل.

«مع ازدياد المعارضة الداخلية للحرب وبدء انسحاب القوات الأميركية، سن الكونغرس في ١٩٧٣ قانون سلطات الحرب. وكنا أعضاء في لجنة مجلس النواب التي أسهمت في وضع هذا القرار وانخرطنا في العملية إلى أن مُررت من فوق فيتو الرئيس نيكسون. وهذا قانون ضروري ومناسب يمنع الرئيس من خوض حرب من دون سلطة من الكونغرس إلا في حال دحر هجوم. وهو يطلب من الرئيس توفير كل التفاصيل كتابة في غضون ٤٨ ساعة على إعطاء الأمر بإجراءات حربية أو بتوسيع القوات العسكرية في بلد أجنبي. وهو يطلب أيضًا من الرئيس وقف استخدام القوات العسكرية الذي تم من دون إذن من الكونغرس في غضون. . . تسعين يومًا، ما لم تكن البلاد عرضة للهجوم وتوجد استحالة مادية لاجتماع الكونغرس. وهو يسمح لأي عضو من أي من مجلس النواب أو مجلس الشيوخ بالاجبار على القيام بتصويت رافض في أي وقت يكون إجراء الحرب ساريًا.

«وافترضنا في وضع قرار ١٩٧٣ التوصل إلى تطبيقه من خلال يقظة

الكونغرس، على أن يكون الاتهام بالإخلال بالوظيفة هو العقوبة القصوى لأي رئيس ينتهك سلطته عن قصد. وقد تم التفاهم في ذلك الوقت على أن استخدام الرئيس للقوة العسكرية غير ذات المغزى من دون موافقة مسبقة من الكونغرس يمكن قبوله في شكل ضمني. غير أن الإجراء أشار إلى أن الكونغرس لن يتسامح أبدًا بعد الآن بخرق واضح وعدواني للمبدأ الدستوري من خلال إقحام الرئيس أميركا في حرب مكلفة من دون موافقة من الكونغرس.

«كبح قانون سلطات الحرب بفاعلية سوء استخدام الرؤساء غير المسوّغ والخطير للقوة العسكرية. فقد أجاز الكونغرس حرب الخليج في ١٩٩١، وكذلك أعمال العداء الراهنة في أفغانستان والعراق. ولا تزال إجراءات الحرب في كل من البلدين مثارًا للجدل، ولكن سُمح بها على الأقل. وعلى رغم هذه الحقائق، تحثُّ مجموعة بايكر - كريستوفر على التخلص من قانون سلطات الحرب الصادر في ١٩٧٣ لمصلحة ما سُمّي بالقانون الاستشاري لسلطات الحرب للعام ٢٠٠٩ الذي سيزيد من سلطات الرئيس الحربية إلى أبعد من الحدود التي يسمح بها دستورنا. فهذه اللجنة تطلب من الكونغرس الموافقة على تشريع يسمح للرئيس بالشروع في حرب - أو باستخدام القوة العسكرية بأي شكل من الأشكال - حتى من دون إفادة الكونغرس، والأقل منه استشارته. ويتضمن هذا التشريع المقترح ثغرًا كبيرة بما يكفي للسماح للرئيس وحده بإجازة عملية عسكرية رئيسة. ونجد بين هذه الثغر أن «أعمالًا انتقامية محدودة ضد إرهابيين أو دول ترعى الإرهاب» معفية من الرجوع إلى الكونغرس. ولكن من يحدد من هم «الإرهابيون»؟ ومن يحدد ما هو «المحدود»؟ إنه الرئيس وحده. وسيكتفي الكونغرس بدور المشاهد غير العارف والذي لا يُستشار.

«ويمكن للرئيس، بموجب هذا الاستثناء، ومن دون حتى إيماءة رأس واحدة للكونغرس، أن يتجاهل الحقوق التاريخية للسيادة الوطنية ويرتكب أعمال حرب ضد أي بلد يحدد أنه مأوى لمن يشك في أنهم إرهابيون. ويمكنه، على سبيل المثال، الاعلان أن إيران دولة ترعى الإرهاب ويقصف منشآتها النووية قصفًا مدمرًا. فاللغة على ما يكفي من الغموض بحيث تسمح لرئيس يرغب في ذلك

بالشروع في حرب كبرى من دون سلطة دستورية، تمامًا كما حصل في فيتنام.

«ومن شأن توسيع آخر لسلطات الرئاسة الحربية التي اقترحها بايكر وكريستوفر أن يسمح بأعمال تمنع النشاط الإجرامي في الخارج. لكن من الذي يحدد النشاط الإجرامي؟ ومن الذي يقرر نوعية الأعمال التي يجب استخدامها لمنع مثل هذا النشاط؟ مرة أخرى إنه الرئيس وحده الذي يقرر. وهناك ثغرة أخرى أيضًا وهي استثناء «النشاطات السرية» من موافقة الكونغرس. ومع ما تكشف أخيرًا عن عمليات القصف التي تقوم بها السي.آي.إي. في باكستان وفضائح أبو غريب وغوانتانامو لا تزال ماثلة في الذهن، فلا بد من أن يتضح أن البلاد تحتاج إلى المزيد من الرقابة، وليس إلى التقليل منها.

«إن قانون سلطات الحرب الصادر في ١٩٧٣ سليم في شكل أساس، ولا يزال يشكل إجراءً مهمًا لمساندة حكم القانون».

شهد بايكر وكريستوفر في ٥ آذار/مارس ٢٠٠٩ لمصالحة اقتراحهما زاعمين أن قرار سلطات الحرب الصادر في ١٩٧٣ «لا يعمل» وهو «غير دستوري». وبدلاً من إعمال المزيد من الدرس لاقتراحهما، حولت اللجنة انتباهها إلى اقتراح بنّاء يبقي على كل البنود الأساسية في قانون ١٩٧٣. وقال لي فرايزر، لدى مناقشة اقتراح بايكر - كريستوفر، إن الاقتراح «يوقف الدستور على رأسه».

الفصل الخامس عشر: التطفّل على القمّة

غطت خدمتي كعضو في الكونغرس قمة الحرب كاملة في أمتنا، ووجدت نفسي فجأة متورطًا، بدرجات مختلفة، في مصير ثلاثة أشخاص في القمة أو على مقربة منها. كنت أول عضو جمهوري يدعو إلى اتهام نائب الرئيس الجمهوري سبيرو أغنيو بالإخلال بالوظيفة. فاستقال بعد ذلك بتسعة أيام وعيّن الرئيس نيكسون زعيم النواب الجمهوريين جيرالد فورد خليفة له ووافق الكونغرس على هذه التسمية.

ولمّا لاح اتهام نيكسون بالإخلال بالوظيفة بسبب ووترغيت، نظّمتُ حملة لو نجحت لقرّعت نيكسون على سوء سلوكه وأنهت اجراءات اتهامه بالإخلال بالوظيفة وسمحت له بإنهاء ولايته الثانية كرئيس. ولما استقال نيكسون في آب/ أغسطس ١٩٧٤ أصبح فورد رئيسًا وعيّن نيلسون روكفللر لملء فراغ نيابة الرئاسة، وهي تسمية سرعان ما حظيت بموافقة الكونغرس. ومع اقتراب نهاية ولاية فورد - روكفللر، قرر فورد السعي إلى إعادة انتخابه لولاية كاملة، وقرر، لأسباب فاتتني، عدم الاحتفاظ بروكفللر كزميل له في الترشح. وفيما فورد يبحث عن رفيق جديد، أثرتُ عاصفة عن غير قصد عندما حذّرته من اختيار حاكم تكساس السابق جون كونوللي الذي ارتدّ حديثًا إلى صفوف الجمهوريين.

شكّل سبيرو أغنيو غرابة منذ بداية حياته المهنية. والمرة الوحيدة التي أتذكّر التقائي به كانت في طائرة سلاح الجو الرقم اثنان وكنت من ضمن مجموعة من أعضاء الكونغرس رافقته في رحلة قصيرة إلى أحد المراسم. اختلط بالآخرين مدة وجيزة قبل أن يعزل نفسه وراء إحدى الستائر. كان ممشوق الجسم، حسن الهندام وواثقًا من نفسه. وربما شكّلت مساعيّ اللاحقة عاملًا من عوامل

استقالته، إلا أنه، وفي مراسلة حصلت بعد ذلك بسنوات، ساند، بصفاء ودّ، نشاطاتي في الشرق الاوسط وأشاد بكتابي الذي احتل قائمة الكتب الأكثر مبيعًا «من يجرؤ على الكلام» The Dare to Speak Out.

ارتقى أغنيو في ست سنوات من مدير مقاطعة بالتيمور في ماريلاند إلى نائب لرئيس الولايات المتحدة. وأسعفه الحظ الطيب في أن يصبح، في ١٩٦٦، المرشح الجمهوري إلى منصب الحاكم في ماريلاند الديمقراطية تقليديًّا. شكل منافسه جورج ماهوني، وهو متعهد ثري من بالتيمور، لعنة للكثيرين من الديمقراطيين بسبب مواقفه العرقية. وانتُخب أغنيو لأن الناخبين رفضوا ماهوني. وما إن أصبح في السلطة حتى بعث بإشارات متناقضة إلى وسائل الاعلام وإلى الجمهور العام. فهو ساند من جهة الإسكان المفتوح للجميع وأعرب عن معارضته التمييز العنصري. ودعا، من جهة أخرى، أكثر من ٣٠ من زعماء الحقوق المدنية السود إلى مكتبه «ووبخهم في شدة» على أثر أعمال الشغب العرقية الرهيبة في بالتيمور في ١٩٦٨. وحببه ذلك إلى قلب الكثيرين من مدعي المحافظة ممن طفح معهم الكيل من أعمال الشغب التي يوحي بها ويهندسها المناضلون السود. وبعد ذلك بسنة حرص أغنيو على تسويق حاكم نيويورك نيلسون روكفللر للرئاسة. وثارت ثائرة أغنيو عندما أعلن روكفللر فجأة عزوفه عن السعي إلى تسميته، وهو موقف انقلب عليه بعد ذلك بستة أسابيع. شعر المهانة لكنه حصل على انتقامه. وتبيّن أن مخلصه هو ريتشارد نيكسون.

كان نيكسون في ١٩٦٨ المرشح الطليعي للتسمية الجمهورية إلى الرئاسة لكن تسميته لم تكن قد تقررت بعد. فالجمهوريون الشماليون الشرقيون الليبراليون دعموا روكفللر. وإلى اليمين أخذت شعبية حاكم كاليفورنيا رونالد ريغان في الارتفاع. وفقد الجنوبيون وكذلك جمهوريو الولايات الحدودية والولايات الجبلية السيطرة على أنفسهم من شدة حماستهم لريغان السياسي بالفطرة بمظهره الجذاب وفصاحته في الكلام وبكونه ممثلًا سينمائيًا معروفًا.

واجه نيكسون مشكلة أخرى: وهي أن حكام الولايات الكبرى، مثل حاكم

ميتشيغان جورج رومني، سيساندون روكفللر. لم يكن لدى نيكسون أصواتًا يستغني عنها في المؤتمر بوجود روكفللر إلى اليسار، وريغان إلى اليمين، وانتهازية الأبناء المفضّلين. وأنا كنت ساندت، في أول أيام الانتخابات التمهيدية، سيناتور إيلينويز تشارلز بيرسي.

وجد نيكسون حليفًا في ستروم ثورموند من كارولينا الجنوبية وهو كان قبل ذلك بأربع سنوات ديمقراطيًّا. وكُلف ثورموند، وهو من أنصار التمييز العنصري المعلنين والذي أُسكت في ما بعد، تجيير الجنوب لمصلحة نيكسون. واشترط ثورموند في مقابل دعمه الكامل ألا يختار نيكسون ليبراليًا رفيقًا له في الترشح. وأدى ذلك إلى استبعاد جون ليندسي وروكفللر ومارك هاتفيلد وتشارلز بيرسي. ولكن بقي على نيكسون أن يفوز في الانتخابات العامة. وسيتعرض للضغط الشديد في الجنوب بسبب الدعم الذي أخذ الحاكم السابق جورج والاس يحظى به كمرشح مستقل.

كنت مندوبًا لروكفللر في مؤتمر التسمية في ١٩٦٨. وكانت لآل فندلي، الذين تزينوا بأزرار روكفللر، غرف في الفندق الذي عُدّ مقرًّا لنيكسون. ووجدتُ في روكفللر المرشح المتوافر الأقوى بسبب خبرته التنفيذية وشعبيته الواسعة وبخاصة في أوساط المستقلين والأقليات. واعتقدت أن في وسعه شفاء الانقسام العرقي في البلاد. ولو أن روكفللر كان رفيق نيكسون في الترشيح في ١٩٦٠ لربما هزمت اللائحة الجمهورية كنيدي وجونسون.

أجريتُ، في مؤتمر ١٩٦٨، اتصالات - كلها غير ناجحة لمصلحة روكفللر. فقد وجد نيكسون، بعد تسميته، رفيق ترشح من شأنه ان يجتذب ناخبي الجنوب والولايات الحدودية من دون أن يكون من انصار التمييز العنصري. فقد ناسب حاكم ماريلاند، أغنيو، تمامًا متطلبات نيكسون. وأعطى تحالف نيكسون ثماره، وفاز نيكسون - أغنيو بالانتخابات. وأصبح أغنيو نائبًا للرئيس لا كيان له إلى أن استخدمه نيكسون لمهاجمة منتقديه في الأكاديميا ووسائل الإعلام، وفي بناء الدعم له في أوساط «الغالبية الصامتة» وهي جزء

كبير من المواطنين، عدّ نيكسون أنها بالسر في زاويته. وتمتع أغنيو بالشعبية لالقائه خطابات شديدة القساوة كتبها بات بوكانان.

أزعجني كثيرًا احتمال فوز أغنيو بالرئاسة. فهو ليس «نوعي من الجمهوريين». أردت للحزب الجمهوري البقاء في الوسط التقدّمي وفضّلت احتمالات مثل الحكّام روكفللر ووليام سكرانتون ومارك هاتفيلد. واستاء الكثيرون من المحافظين في دائرتي الانتخابية من دعمي حاكم نيويورك.

تلقيت في إحدى الأمسيات اتصالًا هاتفيًّا من كوينسي، إيلينويز، تناوب في خلاله عدد من الناخبين، لومي على قراري. وانقطع الاتصال في منتصف أحد العروض. لم أشأ أن تعتقد المجموعة أنني أنهيت المكالمة، ولكن ولعدم توافر رقم هاتف الناخب الذي شرع في الاتصال، عشت دقائق عدة مسعورة قبل أن أتمكن من مواصلة تجربتي الإستماعية.

غير ان الإتصال من كوينسي لم يردعني. ولمّا بدا مؤكّدا ان أغنيو سيكون المرشح الجمهوري المقبل إلى الرئاسة، انضممت إلى سيناتور ماريلاند تشارلز ماثياس وبضعة جمهوريين آخرين لمناقشة ما يجب فعله لتفادي هذه المصيبة. وبدا أن إجماعًا حصل على ضرورة النظر جديًّا في الرد بحزب ثالث. وأصبح ذلك خارج الصدد عندما أفل نجم أغنيو.

استهدف تحقيق أجري في بالتيمور أساسًا خليفة أغنيو كمدير للمقاطعة ونتجت عنه مذكرات استدعاء لعدد كبير من المهندسين والمقاولين الذين كانت لهم أعمال مع حكومات مدينة ماريلاند والمقاطعة والولاية. وشهدوا، في مواجهة احتمال أن يدانوا، أنهم كانوا يدفعون الرشاوى لأغنيو، بل وحتى يسلمونه الأموال النقدية في مكتب نائب الرئيس التابع له في مبنى المكتب التنفيذي القديم على مقربة من البيت الابيض. وكان أغنيو مذنبًا في تلقي المال المشبوه وفي عدم إفادة مصلحة الضرائب عن مدخوله، غير أنه كان من غير الواضح، في أفضل الحالات، هل يشكل ذلك رشوة أو ابتزازًا. فقد كان إعطاء عشرة في المئة للسياسي الذي في السلطة في ماريلاند بمثابة تقليد محترم

بحيث أن أحد المراسلين اقترح تغيير شعار الولاية إلى «ماريلاند: ولاية المغلّف الأبيض».

انزعجت، نظرًا إلى هذه الوقائع، من التحدي الدستوري الذي تطرحه جنايات أغنيو. فبعض هذه الجنايات حصل، بحسب دلائل أفادت عنها وسائل الإعلام، في خلال خدمته كنائب لرئيس الولايات المتحدة وليس فحسب كمدير في مقاطعة بالتيمور أو كحاكم لماريلاند، وهي بالتالي قابلة لاتهامه بالإخلال بالوظيفة.

أنا لست بمحام، لكنني أنظر إلى الجنايات التي اتهم بها أغنيو أنها تضعه في موقع منفصل عن المتهمين الآخرين لأنه كان على بعد خطوة واحدة من الرئاسة. فلا يشكل جلوس نائب حالي للرئيس في مقعد المتهمين في محاكمة جزائية مشهدًا مُلهِمًا. ولو أن نيكسون مات أو استقال خلال المحاكمة لصعب تخيُّل أي شيء أكثر تنافرًا من أن يقسم أغنيو يمين الرئاسة وهو متهم في قاعة محكمة بالتيمور.

خلصتُ إلى وجود مغزى في اتهام سريع لأغنيو بالإخلال بالوظيفة وفي خضوعه لمحاكمة في مجلس الشيوخ لإزاحته من منصبه. ولتصفية المسألة الدستورية وتفادي مشهد رهيب مثير للاضطراب في حال غادر نيكسون الرئاسة لأي سبب من الأسباب، قررت القيام بما يمكنني لتسريع إخراج أغنيو من السلطة. ففي الأمر عنصر ملحّ وقد بدأت هيئة المحلفين الكبرى تحقيقها بالفعل في بالتيمور. وراجعت المسائل في ملاحظات في عدد الكونغريشونال ريكورد في الأول من تشرين الأول/أكتوبر ١٩٧٣، وسبق لأغنيو ان كتب إلى رئيس مجلس النواب كارل ألبرت طالبًا من المجلس التحقيق في الاتهامات الموجهة إليه، لكن الرئيس رفض. وحثت ألبرت في رسالة إليه وفي خطاب في المجلس على أن يعيد النظر في موقفه، مستشهدًا بالضرورة الملحة لتفادي موقف رهيب في حال غادر نيكسون الرئاسة فجأة. وعقّد أغنيو المشهد بإعلانه على الملأ أنه لن يستقيل من منصبه كنائب للرئيس حتى لو تمت إدانته. وقلتُ في بيان إلى المجلس: «طرحت اليوم، وبهدف تركيز انتباه المجلس على الطابع الملح

للمسألة، قرارًا مميزًا، وهو قرار بإجراء تحقيق ويعطي التعليمات للمدعي العام لإمداد المجلس بأي وقائع تتعلق بالاتهامات الموجهة إلى نائب الرئيس». وأضفت أنني، في حال لم تقم اللجنة القضائية في المجلس بأي عمل، سأطرح قرارًا مميزًا على المجلس لإعفاء اللجنة من متابعة النظر في القضية، ولطرح المسألة على التصويت في المجلس. وحَثَثْتُ المدعي العام إليوت ريتشاردسون في رسالة إليه على التوسّط. وأجاب في رسالة مكتوبة مقتضبة: «القضية ليست كافية». ومن حسن الحظ أن أغنيو، وكجزء من مساومة اتهامية، استقال بعد تسعة أيام، في ١٠ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٧٣، من منصبه كنائب للرئيس ووافق من دون اعتراض على عَدّه مذنبًا بجنحة طفيفة.

بعد ذلك بأسابيع قليلة، وبتسمية من الرئيس نيكسون وموافقة مجلسي النواب والشيوخ أصبح زعيم الجمهوريين في المجلس جيرالد ر. فورد نائبًا للرئيس. وسأضيف حاشية صغيرة على هذه العملية التاريخية. فقد أبلغني فورد، قبل ان يتم التصويت في المجلس، عن تجربة مزعجة له مع النائب واين هايز، وهو ديمقراطي كبير مستبد ولكن قوي من أوهايو. استاء هايز مني بسبب بعض من مبادراتي في السياسة الخارجية وحاول إبقائي خارج بعثة برلمانية من النيتو سيرأسها قريبا في كندا. ولما طرح فورد اسمي لواحدة من حصص الجمهوريين في البعثة طلب منه هايز اختيار شخص آخر. وقال لي فورد بصراحته المباشرة المعهودة أنه، ومع اقتراب موافقة المجلس على تعيينه نائبًا للرئيس، لم يشأ إثارة استياء هايز المحب غالبًا للانتقام. قال فورد: «أعرف أنني كنت جبانًا في التعاون مع هايز. وحاولت جاهدًا إيجاد بديل. والحقيقة هي أنني لم أجد أي جمهوري يريد الخدمة في البعثة واضطررت أخيرًا إلى أن أقول لهايز إن عليه في النهاية أن يأخذك». وجدت الواقعة مسلّية وأكّدت لفورد ان محاولته مماشاة فَرَمان هايز هي في الواقع عمل نابع من الحرص وليس من الجبن.

عندما دفعت فضيحة ووترغيت بالرئيس نيكسون إلى الاستقالة في ١٩٧٣ كانت معرفتي به بلغت عامها الثالث عشر، أتيحت لي في خلالها فرص كثيرة لمراقبته عن كثب. فهو ذو شخصية مركّبة. ولطالما استمتعت بصحبته. لم

أسمعه قط يتفوّه بكلمات نابية، معادية للسامية أو خشنة. وقد تكون تسجيلات صوته التي أثبتت لغته الفظة فيها أنها السبب الرئيس في سقوطه، وقد تكون عائدة إلى لاعب قلق النفس يحاول المشاركة في ارتياح في جعجعات كلام بشع مع مساعديه المقربين في المكتب البيضوي فأطلق كلامًا متهوّرًا افترض أنه سيسلي فريقه لكنه سيبقى سرًّا. وخسر في النهاية الكثير من قاعدته في الطبقة المتوسطة لا لسبب إلا هذا الكلام البذيء المسجّل.

بدا نيكسون، بحسب خبرتي، مُحرَجا أحيانًا بل وحتى ملاوصًا. وقد يكون اعتقد، وهو المثير دومًا للجدل، أن معظم الناس اعداء شخصيون له. والمرات القليلة التي أتذكّر أنه كان مرتاحًا جدًا فيها هي خلال زياراتي له في خلوة المكتب البيضوي أو في خلال اليوم الذي زار فيه سبرينغفيلد في إيلينويز لتوقيع قانون جعل منزل لينكولن جزءًا من جهاز المتنزهات الوطنية. فقد شعّ بالسعادة المرتاحة التامة، وسلّمته، وأنا جالس معه في الليموزين الرئاسية في سبرينغفيلد كدسة من قصاصات الصحف. وكانت تفيد عن زيارة ابنته جولي الباسمة والمبتهجة قبل ذلك بأيام لجاكسونفيل المجاورة حيث كرّست مدرسة ابتدائية جديدة لذكرى الرئيس أيزنهاور. وبدت ابتسامته العريضة مصطنعة في مناسبات أخرى.

كنت، ولأسباب متعددة، واحدًا من آخر ثلاثة أعضاء جمهوريين في المجلس في إعلان مساندتي للاتهام بالاخلال بالوظيفة. اعتبرت أن آثامه الأساسية تنبع على الأغلب من محاولة خرقاء لحماية أعضاء ضالين في فريقه من الملاحقة القضائية، وتساءلت هل هذه تبرر الوصول إلى قرار بالإدانة. وقلقت أيضًا من أن المحاكمة في مجلس الشيوخ ستدخل الأمة بأسرها - وليس نيكسون وحسب - في حال من الاضطراب الطويل الأمد وعدم اليقين. عرفت أنه سيدافع عن نفسه بقوة لو أحيل على المحاكمة، وستبدو أمتنا من دون قيادة وتصبح بالتالي معرّضة مع المضي قدمًا في المحاكمة.

وأهم من ذلك كله هو اعتقادي أن البلاد في حاجة ماسة إلى مهارة نيكسون ورؤيته في السياسة الخارجية لما تبقى من ولايته. وعلى رغم قلقي العميق من

العثرات غير القانونية التي أمر بها نيكسون أو تغاضى عنها، أبقيت في ذهني حنكته كرجل دولة في كسب اتفاقات قيمة مع السوفيات على الأسلحة النووية، وفي فتح أبواب الدبلوماسية والتجارة مع الصين، وفي التفاوض على اتفاق لوقف النار في فيتنام. وفيما انزعجت من الطريقة الفظة التي ردّ فيها نيكسون على الفضيحة وفشله في الإدانة الفورية للجنة حملته في السطو على مقر الحزب الديمقراطي في مجمّع ووترغيت، خلصتُ إلى أن بلادنا ستكون، في نهاية الأمر، هي الخاسرة إذا أُجبر على ترك السلطة.

أقنعتني معرفتي الطويلة الأمد به بأنه يتمتع بالصلابة والرؤية لمعالجة سوء معاملة إسرائيل للفلسطينيين وهو ما أخذ، في رأيي، يلوح بصفة كونه من أخطر مشكلات سياسة أمتنا الخارجية. تعمّق اهتمامي بهذا التحدّي عندما زرت الشرق الأوسط قبل ذلك بسنوات لإنقاذ أحد ناخبيّ من عدن. لم أمتلك أي تلميح إلى أن نيكسون سيريد في الواقع معالجة الأزمات الشائكة في الشرق الأوسط، إلا أنني احترمت جدارته في التعامل مع الزعماء الأجانب الاشداء، وهي مهارة شحذها في موسكو وبكين. وأُعجبت أيضًا باستعداده لمعالجة مشكلات تبدو مستعصية على الحل. علمت، ويا لمفاجأتي، بعد سنوات على استقالة نيكسون أنه قرر سرًّا، عشية ووترغيت، الضغط على إسرائيل لتسوية شاملة مع جاراتها العربية وأعطى تعليماته لوزير الخارجية هنري كيسنجر لتحضير أوراق الخطوة السياسة الخارجية الكبرى تلك - وهي المواجهة مع إسرائيل. حُضرت وثائق هذا الإنذار، لكن فضيحة ووترغيت تدخلت في الأمر. بقيت الأوراق متروكة في درج مكتب كيسنجر. وفي ١٩٨٣، أبلغني ديك تشيني، الرئيس السابق لموظفي جيرالد فورد الذي خلف نيكسون في المكتب البيضوي، انه لم يعلم قط بأوراق المواجهة التي حضّرها كيسنجر. وقد أدلى بتعليقه هذا وأنا جالس بقربه في أحد المؤتمرات.

التقيت نيكسون مرات كثيرة في السنوات الست التي أعقبت ولايته كنائب للرئيس وكانت تعليقاته ودّية دائمًا ومتفائلة وبنّاءة. وساعد في حزيران/يونيو ١٩٦٥ في توفير حفلة وداع جيّدة لدى ترؤسي بعثة النواب الجمهوريين إلى

باريس. وقد أعجبت بمهارته اللغوية. إذ تحدث طويلًا وفي قوة، من دون أوراق ملاحظات، وتمكن بعد ذلك، من الذاكرة، من وضع الكلمات نفسها بالضبط على الورق لملاءمة من رغبوا في الحصول على تسجيل كامل. وبين المناسبات التي لا تُنسى خطابه الارتجالي البليغ الذي ألقاه في ١٩٧١ في سبرينغفيلد قبل أن يوقع تشريع منزل لينكولن.

إنه من دون أي شك واحد من أكثر السياسيين الأميركيين الذين هيمنوا على النصف الأخير من القرن العشرين، والرئيس الأول الذي قدّر الملابسات السياسيٰة الكاملة للغرب الأميركي متوقّعًا دورًا لكاليفورنيا التي أصبحت الآن الولاية الأكثر سكانًا في الاتحاد. وكان، في صورة مجملة، أول رجل دولة أميركي يتفهّم كلّيًا مغزى الدول المحيطة بالمحيط الهادئ وما يُرجى منها. إذ كانت الولايات المتحدة، حتى سنوات نيكسون، تتطلع صوب الشرق ونادرًا ما تنظر صوب الغرب.

وتقدّمت سيرته المهنية في ١٩٥٢ عندما اقنع مندوبي كاليفورنيا بالتصويت في المؤتمر الوطني الجمهوري لقرار «الصدق في المعاملة» الذي أوحى به أيزنهاور والذي ضمن، في الواقع، تسمية آيك للرئاسة. وعمل نيكسون، وهو نائب للرئيس، من دون كلال كقائم بالحملات الإنتخابية الجمهورية فيما أدى آيك دورًا لا مباليًا كزعيم للحزب. وأخذ زمام المبادرة في سحق السيناتور جو مكارثي، وعانى في سعيه إلى الرئاسة في ١٩٦٠ هزيمة محزنة بفارق ضئيل، ثم هزيمة منكرة في سعيه إلى منصب حاكم كاليفورنيا بعد ذلك بسنتين.

إلا أن نيكسون، وبدلًا من اختفائه من الساحة السياسية، هزم وبفارق ضئيل نائب الرئيس هيوبرت هامفري في التصويت الشعبي على الرئاسة بعد ذلك بست سنين. وسبقه بأشواط في التصويت الانتخابي. وفاز بعد ذلك بأربع سنين وبهامش كبير بإعادة انتخابه في كل من التصويت الشعبي والتصويت الانتخابي.

راقبت في ارتياع تكشّف فضيحة ووترغيت. فقد شكّل ذلك زمنًا مضطربًا

في تاريخ أمتنا، ربما بأكثر من أي وقت آخر منذ رئاسة أبراهام لينكولن. كانت أميركا في وسط نزاع مدني أحدثه تغيير حاد في الثقافة على مستوى الأجيال وحرب غير شعبية وشقاقية وانقسامات عرقية والحرب في الشرق الأوسط والتضخم الحاد والصفوف الطويلة عند محطات البنزين والشك في التجنيد العسكري. ما إن صوتت اللجنة القضائية في مجلس النواب، بدعم من أربعين في المئة من أعضاء اللجنة الجمهوريين، على اتهام الرئيس بالإخلال بالوظيفة بدا من المرجح أن مجلس النواب سيوصي باتهامه بالإخلال بالوظيفة وسيمثل الرئيس للمحاكمة أمام مجلس الشيوخ. وبات واضحًا أن الغالبية الساحقة من أعضاء مجلس النواب تؤيد عملًا تأديبيًا في حق نيكسون. فسجل سوء سلوكه أخطر من أن يتم تجاهله.

كانت المشكلة في الموافقة بين المطالب السياسية والقانونية. فبموجب الدستور لا يحدد أعضاء مجلس النواب هل الرئيس مذنب أو بريء، بل وحسب هل من دليل كاف لإظهار «سبب محتمل» يطلب منه المثول أمام المحاكمة في مجلس الشيوخ بتهم قد تطيحه من منصبه. والدليل الموجود أكثر من كاف، إلا أن أعضاء المجلس وجدوا أنه، وفيما الدليل، ومعظمه كلام متناقل ظرفي وتكهّني، مقبول لأهداف اتهامه بالإخلال بالوظيفة، غير مقبول في محاكمة في مجلس الشيوخ. وكانت الاحتمالات متساوية على الأقل أن نيكسون سيُبرّأ إذا حوكم أمام مجلس الشيوخ. واعتقد عدد لا بأس به من أعضاء مجلس النواب، وخصوصًا ديمقراطيين الجنوب وجمهوريين الغرب الأوسط - وأنا بينهم - وجوب عدم كف يد أي رئيس ما لم يكن الدليل إلى الذنب طاغيًا ولا يرقى الشك إلى حظوظ أن يدينه مجلس الشيوخ. وحاججنا بأن القبول بما هو أقل من ذلك سيعرض الرؤساء المقبلين لكف اليد كأمر مساوٍ للتصويت بعدم الثقة. ولا بد لي من أن أشير في ملاحظة جانبية إلى أن اتهام الرئيس بيل كلينتون بالاخلال بالوظيفة ومحاكمته يوحيان أننا كنا محقين في اتخاذ هذا الموقف. فقد اتهم بالإخلال بالوظيفة في مجلس النواب في مناخ منقسم جدًّا بين الحزبين ثم واجه المحاكمة في مجلس الشيوخ في ظروف أكثر هدوءًا.

وفشل كل تصويت في مجلس الشيوخ يهدف إلى إزاحة كلينتون من السلطة في الحصول على الغالبية المطلوبة.

غير أن الأمر تطلب في ١٩٧٤ التأثير في الرأي العام للوصول إلى القرار في شأن اتهام نيكسون بالإخلال بالوظيفة. وكان من الواضح ان ٢٥ في المئة من الشعب يقف وراء الرئيس، سوى ان الضعفين على الأقل شعروا ضرورة اتخاذ اجراء تأديبي ما. وعددتُ، بصفة كوني عضوًا جمهوريًا في مجلس النواب، إطاحة نيكسون متطرفة جدًّا. لكن التبرئة لم تكن خيارًا.

وكان الجواب في مصالحة المتطلبات القضائية مع الوقائع السياسية من خلال إعطاء الكثيرين من أعضاء المجلس بديلًا من التصويت على الاتهام بالإخلال بالوظيفة عندما يتم التحقق من الحضور. والأرضية الوسطى هذه هي التوبيخ. وهذا إجراء صارم. فالشخص الذي يوبّخ يقف وحده في ممر قاعة التشريع في جلسة مفتوحة للعموم فيما يقرأ أحد الكتبة قرار التوبيخ.

توصلتُ إلى قرار التوبيخ في إحدى أمسيات أواخر تموز/يوليو ١٩٧٤ الرطبة إبان نقاش مع برايس هارلو الذي بقي طويلًا مساعدًا مقربًا من الرئيس أيزنهاور وهو واحد من أكثر السياسيين الذين أعرفهم حكمة. كان، لما التقيته للمرة الأولى، عنصر الارتباط الرئيس لأيزنهاور في تلة الكابيتول. وفي الليلة التي تحدثنا فيها كان قانون الاتهام بالإخلال بالوظيفة لا يزال على بعد أسابيع وحسب. جلسنا - من بين كل الأمكنة - على حجر رصيفي على مقربة من الكابيتول الأميركي. شعرت، على رغم أن الوقت آخذ في النفاد، ان المخاطر على الأمة كبيرة وتجب بالتالي محاولة خيار التوبيخ. ولم يمكنني في تلك اللحظة تسمية ولو زميلًا واحدًا أتأكد من أنه سيساندني. وفي الصبيحة التي تلت محادثتنا، اتصلت بجونز الذي كان رئيس فريقي قبل أن يفتتح مكتب المحاماة الخاص به في إينيد في أوكلاهوما. طلبت منه أن يترك مكتبه في إينيد لما يكفي من الوقت لمساعدتي في إطلاق حملتي من أجل التوبيخ. فوافق، وجاء إلى تلة الكابيتول وسرعان ما وجد، وهو يعمل عن كثب مع بوب ويشر، سوابق رئاسية للتوبيخ. فقد تعرض الرئيس أندرو جاكسون للتوبيخ بسبب عدم إفراجه عن

بعض الوثائق للكونغرس. وتعرض الرئيس جايمس بوكانان للتوبيخ بسبب تدخله المشكوك فيه لمصلحة بعض رجال الاعمال. وعلى مر السنين، تعرض قضاة وأعضاء كثر في المجلس للتوبيخ من الكونغرس، ثم أن السيناتور جوزف ر. مكارثي تعرض في ١٩٥٤ للتوبيخ من مجلس الشيوخ.

كان مجنّدي الأول في الكونغرس هو الجمهوري دلبرت لاتا من أوهايو العضو في لجنة الأحكام في المجلس. قضى هدفنا بضمان موافقة لجنة الأحكام على استدعاء من شأنه، إذا تمت الموافقة عليه، إحلال التوبيخ محل اتهام الإخلال بالوظيفة. وإذا فشل ذلك فسنحاول هزيمة تمرير المجلس للاتهام بالإخلال بالوظيفة أو جعله يمر بهامش ضيّق. وبات من الضروري أولًا ضمان موافقة لجنة الأحكام التي من المقرر ان تجتمع في ١٣ آب/أغسطس لتقرر الإجراء الذي ستوصي به لمجلس النواب كاملًا. بعثتُ في الثاني من آب/أغسطس برسالة إلى جميع أعضاء المجلس أدعوهم فيها إلى المشاركة في رعاية قرار بالتوبيخ وحث لجنة الأحكام على السماح بالتوبيخ كبديل ممكن من الاتهام بالإخلال بالوظيفة. وتضمنت رسالتي النص الكامل لقرار التوبيخ المقترح والذي جاء في جزء منه أن: «ريتشارد م. نيكسون، في قيادته مكتب الرئيس على رغم الإنجازات الكبرى في السياسة الخارجية التي عادت بالفائدة الكبرى على كل مواطن وبالتأكيد على كل شعوب العالم- [١] أظهر فقدانًا للحس بالمتطلبات الأخلاقية، و[٢] فشل، من خلال الإهمال الفاضح وسوء الإدارة، في منع اقرب مرؤوسيه وعملائه من ارتكاب أعمال خطيرة من سوء السلوك ومن عرقلة العدالة والتأثير فيها سلبًا ومن سوء استخدام السلطة والافراط فيها وانتهاك القوانين التي تحكم وكالات الجهاز التنفيذي. . .» وقد «أثبتت» اللجنة القضائية في مجلس النواب والمحاكم «في وضوح الإهمال وسوء الإدارة وفقدان الحس الأخلاقي من جانب الرئيس». وشككت في رسالتي في أن يكون الدليل إلى هذا الحد الكبير من الأهمية لإجازة إطاحته من السلطة.

جمعت رسالتي في غضون ثلاثة أيام ٦٠ توقيعًا بما في ذلك تواقيع لديمقراطيين جنوبيين بارزين بينهم النائب ج. ف. «صوني» مونتيغومري من

ميسيسيبي الذي سعى إلى الدعم في أوساط الديمقراطيين، والجمهوريين نافذين كثر بينهم زعيمنا الجمهوري جون رودس والجمهوري ويب أرندز، وأعضاء من اللجنة القضائية. امتنع رئيس المؤتمر الجمهوري في المجلس جون أندرسون عن التوقيع لكنه أشار إلى موافقته.

عدّ النائب الديمقراطي عن أيوا إدوارد مزفينسكي التوبيخ «تهرّبًا من المسؤولية»، لكن المسؤول عن الانضباط في الحزب الديمقراطي جون ماكفل، من كاليفورنيا، أعلن دعمه خيار التوبيخ قائلًا «ان الأمر برمته مدعاة للحزن على أي حال». وقال رئيس المجلس كارل ألبرت إنه سيترك مسألة السماح بالتوبيخ لتصويت لجنة الأحكام، لكنه أضاف، في شكل ينذر بالسوء: «لن أصوت لتوبيخ الرئيس. بل سأصوت إما مع قرار الاتهام بالإخلال بالوظيفة وإما ضده».

لقيت قضيتنا المساعدة من مذكرة قانونية حضّرها سام غاريسون، المستشار القانوني القادر للجنة القضائية في المجلس. ووُضعت الخطط لنشر اسماء الموقعين على العريضة. وبدأ العمل في مسودة خطاب يحث على التوبيخ إلى جانب تحليل، لغايات المحاكمة، للدليل ضد الرئيس. ووضعت مسودة مقالة رأي لتُرفع إلى النيويورك تايمز. اعتقدنا أن للتوبيخ فرصة جيدة في الحصول على موافقة اللجنة.

شرعت وسائل الاعلام في أخذ حملتنا على محمل الجد عندما دعم تشارلز بلاك، البروفسور الحجة في كلية الحقوق في يال، علنًا خيارنا في التوبيخ. وتوقعنا، أنا ولاتا، ضمان أكثر من ١٠٠ اسم من أعضاء المجلس على معروضنا في وقت ستجتمع لجنة الأحكام. وشددنا، في طلبنا دعم الأعضاء، على أن هذا الدعم لن يؤثر في موقفهم حال فشل التوبيخ وتم التصويت فعلًا مع الاتهام بالإخلال بالوظيفة أو ضدّه.

بعد ثلاثة أيام على إرسال رسالتي عن التوبيخ إلى إعضاء المجلس، اعترف نيكسون علنًا بسوء التصرف مما دفعني إلى إلغاء مشروع التوبيخ. وأعلنت في السادس من آب/أغسطس، في قاعة المجلس قراري التصويت لمصلحة الاتهام

بالإخلال بالوظيفة مستشهداً باعتراف نيكسون بأنه أعطى تعليماته في حزيران/ يونيو «بأن تُستنفر الأف.بي.آي. للتعاون مع السي.آي.إي. لضمان ألا يفضح التحقيق هذه المسائل الأمنية الوطنية الحساسة....» وأعلن نيكسون: «كنت مدركاً المزايا التي ستنتج عن سياق العمل هذا بالنسبة إلى الحد من الكشف العام عن تورط الأشخاص المرتبطين بلجنة إعادة انتخابي».

شكلت هذه صدمة لي وللكثيرين غيري. ودعوت نيكسون، في ملاحظاتي في الكونغريشونال ريكورد، إلى الاستقالة. وقد قام بذلك في ٩ آب/ أغسطس، أي بعد ذلك بثلاثة أيام. وكان السيناتور باري غولدووتر وغيره من كبار الجمهوريين زاروا نيكسون قبل ذلك بأيام وحثوه على الاستقالة. وفي التاسع من تشرين الأول/ أكتوبر أصبح نائب الرئيس جيرالد ر. فورد الرئيس الثامن والثلاثين للولايات المتحدة.

كنت مقتنعًا بأن لجنة الأحكام كانت ستوافق على خيار التوبيخ وكذلك ستوافق غالبية مجلس النواب على التوبيخ بدلًا من الاتهام بالإخلال بالوظيفة. ولسمح ذلك لنيكسون بإنهاء ولايته الثانية. ولربما تمكن نيكسون في هاتين السنتين الأخيرتين من إحلال السلام الشامل في الشرق الأوسط. ولجنّب ذلك الشعب الأميركي وباقي العالم، وبخاصة الفلسطينيين والإسرائيليين، استمرار الحماقة المكلفة.

يدعي بعض المؤرخين والكثير من وسائل الإعلام أن ووترغيت كانت أزمة دستورية. وهي ليست كذلك. لم تحصل أزمة دستورية. كانت هناك أخبار مبالغ فيها وتحقيقات جنائية نشطة إضافة إلى تحقيق في الكونغرس، لكن ذلك شكل حال النظام في العمل وليس نظامًا في أزمة. فقد كنت موجودًا في واشنطن وراقبت عن كثب تلك الأحداث المثيرة في خلال كل مرحلة الاتهام بالإخلال بالوظيفة في فضيحة ووترغيت. وقد تحدى نيكسون من عارضه في المحكمة، وتحدّوه هم بالطريقة نفسها. ولما حكمت المحاكم ضده انصاع واستقال في النهاية. فالنظام عمل، وساعده نيسكون في العمل.

كان التاريخ لطيفًا مع نيكسون، حتى بالنسبة إلى ووترغيت. فبعد أكثر من ثلاثين سنة على استقالته - مع ما كشفته لجان تشيرتش وبايك في السبعينات عن السي.آي.إي.، والمذكرات المنشورة لمديري كبار سابقين في الأف.بي.آي.، وما كُشف بموجب قانون حرية الوصول إلى المعلومات، وعمل لجنة مجلس النواب في شأن الاغتيالات - أصبح في وسع الشعب الأميركي اليوم رؤية الأف.بي.آي. والسي.آي.إي. تحت ضوء أكثر دقة. افتُرض، عندما تحدث الرئيس نيكسون ورئيس موظفيه بوب هالدرمان عن جعل السي.آي.إي. تطلب من الأف.بي.آي. التنحّي، انهما يستخدمان السي.آي.إي. وسيلة مناسبة لوضع حد لمشاكلهما الجزائية. ومن المرجح أنهما فعلا ذلك، لكن هناك سوابق لمثل هذه الإساءة الرئاسية في استخدام السلطة. فمن المعروف للعامة الآن أن السي.آي.إي. والأف.بي.آي. انخرطتا، سنوات كثيرة، في سلوك غير قانوني وغير لائق من خلال التشارك مع مجرمين أميركيين لاغتيال فيدل كاسترو، ولتخريب الجمهورية الكوبية وتعطيلها، واغتيال زعماء أجانب آخرين، أو القيام بعمليات تنصت غير مشروعة، «وتفتيش الأماكن من دون إذن»، ومراقبة غير مشروعة للبريد. وقد نشر فرد تومسون، وكان يومذاك المستشار القانوني للقلة في لجنة مجلس الشيوخ التي تدقق في ووترغيت وأصبح لاحقًا سيناتورا، شكوكه في شأن سوء مسلك السي.آي.إي..

ارتكب الرئيس نيسكون ذنوبًا شبيهة ببعض تلك التي ارتكبها سابقوه، إلا انه الرئيس الأول الذي يتم الإمساك به. فقد استخدم الرئيس جونسون الأف.بي.آي. في ١٩٦٤ لمراقبة حزب الحرية الديمقراطي في خلال المؤتمر الديمقراطي الذي عقد تلك السنة. وبين الرجال السبعة الذين دينوا في اقتحام ووترغيت خمسة موظفين سابقين أو موظفين متعاقدين بأجر مع السي.آي.إي.. إما إذا كان سوء استخدام نيكسون السي.آي.إي. والأف.بي.آي. عرضة للاتهام بإساءة استخدام السلطة فمسألة فيها نظر. فلو ان نيكسون حوكم في مجلس الشيوخ لأمكنه أن يتحجج بأنه قام بما فعله رؤساء سابقون.

يشكّل واقع أن استقالة نيكسون عادت بفائدة أكبر على الحزب الجمهوري

مما عادت به تبرئة بيل كلينتون على الديمقراطيين حاشية مثيرة للاهتمام في التأريخ السياسي. فلو أن السيناتورات الديمقراطيين أجبروا كلينتون على الاستقالة لأصبح آل غور رئيسًا. وكان من المرجح أن يُنتخب غور في سنة ٢٠٠٠ لولايته الخاصة من أربع سنوات، وربما أعيد انتخابه مرة أخرى في ٢٠٠٤. ولاختُصرت سيطرة الجمهوريين على الكونغرس. إلا ان الرئيس كلينتون كان محظوظًا في اختيار أعدائه. فقد مقت ديمقراطيو مجلس الشيوخ فكرة إجبار كلينتون على التخلي عن السلطة لأن من شأن ذلك أن يفرح رئيس مجلس الشيوخ نيوت غينغريتش، عدوهم الجمهوري اللدود، وكذلك تو ديلي زعيم الغالبية والرجل الذي ينفذ الاعمال القذرة لمصلحة كلينتون.

قذفت استقالتا أغنيو ونيكسون في غضون بضعة أشهر بجيرالد فورد إلى الرئاسة من دون انتخاب. وكانت خبرته الانتخابية الخاصة محدودة بالحصول على الغالبية للوصول إلى الكونغرس في دائرة انتخابية في ميتشيغان، السيطرة فيها للجمهوريين. وبصفة كونه محبوبًا ووسطيًّا ومُنظّمًا ومُتحفّظًا وشريفًا، فاز سريعًا بالدعم من حزبي الكونغرس عندما سمّاه نيكسون نائبًا للرئيس بعد استقالة أغنيو. وفورد معروف جدًا ومُحترم في تلة الكابيتول، وهو بالكاد قام بأي حملة خارج نطاق دائرته الانتخابية إلا في رحلات ظرفية لمساعدة زملاء جمهوريين، من أمثالي. وهو لم يكن خطيبًا لامعًا ولا مثيرًا للوحي. وتسبب، وهو يشغل ما تبقى من ولاية نيكسون الثانية، بعواصف بمنحه العفو للمواطن نيكسون وللشبان الذين تهرّبوا من الخدمة العسكرية في فيتنام بذهابهم إلى الخارج. وقد صفّقتُ لهذه القرارات، لكن الكثيرين من الأميركيين الصيّاحين لم يفعلوا.

عرفت، عندما أعلن فورد خططه للترشح في ١٩٧٦ إلى ولاية رئاسية كاملة، ان أمامه طريقًا وعرة، حتى أن المرشح الديمقراطي جيمي كارتر الصلب، لم يكن اسمًا متداولًا تمامًا في البيوت. وقد فوجئت وأصبت بخيبة عندما اسقط نائب الرئيس نلسون روكفللر من كونه رفيق ترشحه، وشعرت بالقلق الشديد عندما علمت أن حاكم تكساس السابق جون كونوللي هو المرشح المحتمل. وعرفت أن النواب الجمهوريين بول «بيت» ماكلوسكي وتوم ريلسباك

ووليام كوهن، وزير الدفاع المقبل، أعلنوا بالفعل على الملأ معارضتهم كونوللي.

حذّرت فورد في رسالة من أن اختياره كونوللي سيشكّل «كارثة» لارتباطه بـ«الخدع القذرة» في التحقيقات المتعلقة بووترغيت. «لقد جعل الديمقراطيون من ووترغيت بالفعل واحدة من القضايا الأولى في حملتهم. ووضْعُ كونوللي على اللائحة أشبه بصب الزيت على النار. أما سمعتك في الانفتاح والنزاهة فهي، في المقابل، أبعد من الشك... لدى الحزب الجمهوري عشرات الرجال والنساء القادرين بقيت نزاهتهم، كنزاهتك، لا يرقى إليها الشك في خلال حقبة ووترغيت، ونزاهة بعضهم تشع بالفعل كالمنارة في الظلمة». وبعثت بالرسالة نفسها إلى جميع جمهوريي مجلس النواب. وثارت ثائرة كونوللي.

أوجز كاتب السيرة جايمس رستون جونيور الجدل المتكشّف الذي اندلع في شأن مستقبل كونوللي: «سئل [كونوللي] في برنامج «مسائل وأجوبة» على الإي.بي.سي. عن ملاحظات ريلسباك وفندلي وكوهن، فأختار الأحرف الأولى من الأسماء، الراء والفاء والكاف، وقال إنها تعني جمهوريون من أجل أكل لحوم البشر. (بالإنكليزية R, F, C وهي الاحرف الأولى من Republicans for Cannibalism) فقد أخذ يرى أن جائزته تذهب كالوميض وحاول قلب المسألة. قال إن من المشكوك فيه جدًّا أن يقبل تسميته لنيابة الرئيس إذا عرضها فورد عليه. وفي عيادة مايو... نظر بول فندلي في هذه التأدية وقرر، على رغم قلقه على زوجته، أن يملي رسالة أخرى لفورد يبث فيها وجهات نظره بمزيد من الإلحاح والحدّة»[1]. كانت لوسيل تتعافى من جراحة لإزالة كيس من الدم على مقربة من دماغها، وهو تطوّر يهدد حياتها ويتطلب جراحة ماهرة عاجلة. [انضمت إليّ بعد ذلك بسنتين في ركوب طائرة هيليكوبتر سوفياتية في أجزاء بعيدة من اليمن].

---

(١) Reston, James R., The Lone Star: the Life of John Conolly, Harper and Row, pp 551-553.

نبع جزء من قلقي في شأن كونوللي من الدعاية التي ربطته بالقائمين باللوبي لمنتجي الألبان الذين كانت لي معهم تجربة سيئة قبل ذلك بسنوات عدة. أسهموا بألف دولار في حملتي في إحدى السنين، وجاءوا بعد أيام على الانتخاب ليشرحوا لي كيف يتوقعون مني أن أصوّت في مسائل تتعلق بالألبان. فطردتهم. ولما علمت أن لكونوللي علاقة بالمجموعة نفسها قررت أن أملي من العيادة الرسالة الثانية إلى فورد التي أشار إليها رستون، ووضعت عليها هذه المرة علامة شخصي وسرّي. وأسهبت فيها عن علاقة كونوللي بـ«الخدع القذرة». وفي الثالث من أيلول/سبتمبر ١٩٧٧ نقل عني المعلقان إيفانز ونوفاك في الواشنطن بوست، وقد استحصلا بطريقة من الطرق على رسالتي التي لم تكن على هذه الدرجة من السرية، اتهامي بأن «عملية سرّية لديمقراطيي كونللي المؤيدين لنيكسون روجت سرّا لرسالة مبعوثة إلى اليونان الأميركيين تهاجم المرشح إلى للرئاسة جورج ماكوفرن لاختياره صحافيًّا يونانيًا شيوعيًا مغمورًا كمتحدث باسمه في القضايا اليونانية. وشكّل ذلك طعنا بإلياس ديميتراكوبولوس، وهو محرر صحافي محترم وعدو لدود للديكتاتورية العسكرية اليونانية التي كانت حينذاك في السلطة». وأضفتُ في رسالتي إلى فورد «أن ارتباط جون كونوللي بهذه الواقعة، وعلاقته بـ«الخدع القذرة» التي كشفتها لجنة ووترغيت، تجعل منه عبئًا على أي منصب في إدارتك».

في السنوات التي تلت ذلك أرسل إلي ديميتراكوبولوس وثائق تثبت أنه لم يكن قط شيوعيًّا. وفي ٢٩ أيلول/سبتمبر ١٩٧٧، كتب البروفسور في هارفرد ميكولاوس ستافرو في الإيفنيغ ستار في واشنطن ان جيمي كارتر مدين بانتخابه رئيسًا في ١٩٧٦ إلى شخصين: أنا، لكتابتي رسالة إلى فورد أحثه فيها على عدم أخذ كونوللي زميلًا في الترشح، وفورد، «الذي سمح لنفسه أن يقتنع بالحجج الواردة في تلك الرسالة».

وأشك في أن المراسلة كانت حاسمة في اتخاذ فورد قراره. فقد امتلك الكثيرون من المواطنين، على غرار البروفسور، رأيا ساميًا بموهبة كونوللي في الحملات الانتخابية. ولم ألتق كونوللي قط، غير أنني أجريت معه بعد ذلك

بسنوات حديثًا هاتفيًا وديًا أعرب فيه عن دعمه مساعيّ السياسية في الشرق الأوسط.

انتهت علاقتي مع كل من نيكسون وأغنيو إلى أساس ترحيبي حار. ولم يشر أي منهما، في مراسلة خلال التقاعد، إلى قراراتي في دعم الإتهام بالاخلال بالوظيفة. وهنأني كلاهما على سعيي إلى السلام في الشرق الأوسط. كتب لي أغنيو رسائل عدة في ١٩٨٨. وعزا في واحدة مؤرخة في العشرين من نيسان/ابريل «المصاعب» التي أدت إلى استقالته كنائب للرئيس إلى المواجهة مع لجنة الشؤون العامة الاميركية الإسرائيلية (الإيباك) وغيرها من مؤيدي إسرائيل في شأن رحلة قام بها إلى السعودية والإمارات في ١٩٧١. وقال إن نيكسون طلب منه القيام بالرحلة لتوفير «بعض التوازن إلى الحفل الزاخر من أعضاء الكونغرس الذين يهرعون إلى إسرائيل لدى أوهى حجّة». وأضاف أغنيو أنه رفض مطالب ملحّة بأن يزور إسرائيل في طريق عودته إلى الديار، لأن من شأن ذلك أن «يضعف كثيرًا الإشارة التي حاولت زيارتي إرسالها إلى الدول العربية». وكتب أن الموالين لإسرائيل الغاضبين «تأكّدوا من أنني لن أصبح رئيسًا».

وكتب لي نيكسون في الخامس من تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨٢ من مكتبه في مدينة نيويورك معربًا عن أسفه لهزيمتي في الانتخابات قبل ذلك بيومين. وقال «على منتقديك... أن يعترفوا بأنك كنت تتخذ القرارات دومًا كما تراها على الرغم أنك عرفت... أن المواقف التي تأخذها قد تثبت أنها لا تتمتع بالشعبية». وفي رسالة كتبها باليد في الثاني من تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٣، من مقره في نيو جرسي، شكر لي نيكسون تعازيّ له بزوجته، بات، وأضاف: «كثيرًا ما أفكّر كم خسرت البلاد عندما هُزِمْتَ وأنت تحاول أن تكون منصفًا حيال الشرق الاوسط».

الفصل السادس عشر: الشدّ على باب الصين

وضعتُ، في أوائل تشرين الأول/أكتوبر ١٩٦٦، اللمسات الأخيرة على بيان للكونغريشونال ريكورد اقترحت فيه علاقات مباشرة مع الجمهورية الشعبية الصينية على أن نبدأ بالتجارة بالغذاء كمقدمة لعلاقات دبلوماسية طبيعية. وسيثبتُ أنها خطوتي الرئيسة الأولى في ما سينضج ليصبح رحلة طويلة ومثيرة وبنّاءة ستساعد في فتح الباب إلى بلد ذي أهمية فائقة، أمّة تعرّضت لسنوات طويلة من العزلة التي لا مبرر لها والخطيرة.

وتعود العلاقة في هذا كله إلى أحد أبناء دائرتي الانتخابية النقيب فيليب سميث الذي أسرته القوات العسكرية الصينية وسجنته في ١٩٦٥ بعدما تعطّلت أجهزة ملاحته في خلال مهمة ليلية فوق فيتنام الشمالية. قَصَدَ الطيران جنوبًا إلى مقر قيادته، لكنّه دخل خطأ المجال الجوي فوق جزيرة هنان الصينية. وأجبرته الطائرات المقاتلة الصينية على الهبوط، وأُخذ سجينًا على الفور.

بقيت أشدّ على باب الصين على مدى السنوات الـ١٤ التالية. وفُتح الباب في ١٩٧٣ بما يكفي للسماح بعودة سميث إلى الديار، بفضل مبادرات إدارة نيكسون. وفتحتْ هذه الخطوة الطريق أمام رئاسة كارتر للوصول في ١٩٧٩ إلى التطبيع الكامل للعلاقات الدبلوماسية بين بكين وواشنطن. وانتقلت الحكومة الأميركية في خلال تلك السنوات من العداء إلى السلام.

حيَّرتْ أخبار اقتراحي وأغضبت بعض الناخبين الذين وجدوه على تناقض مع حملتي المتزامنة لتضييق الخناق الاقتصادي على فيتنام الشمالية الشيوعية التي يُعتقد على نطاق واسع أنها ألعوبة في يد نظام بكين. ملأ بياني في ١٩ تشرين

الأول/أكتوبر أكثر من خمس صفحات في الريكورد وأُرفق بترتيب تأريخي لأهم الأحداث في العلاقات الأميركية - الصينية.

حذّرتُ في بياني الإفتتاحي من أن انعزال أميركا عن الصين يحمل في طياته خطرًا كبيرًا في إساءة الحكم بعضنا على بعض، وفي تعميق العداوة والتهديد بالحرب. فالصين ترى في القوات العسكرية الأميركية التي تطوق عمليًا شواطئها استفزازًا. وأوصيتُ في شكل ملحّ بأن تتبنى الولايات المتحدة سياسات تشجّع على التواصل المباشر والمستمر من أجل علاقات سلمية تعود بالفائدة على الطرفين. ومن شأن هذا، في اعتقادي، ان يهدّئ من قلق الصين المفهوم في شأن السياسة العسكرية الأميركية.

دعوتُ إلى تحالف جديد في أقصى شرق المحيط الهادئ للمساعدة في ردع الصين عن القيام بمغامرة عسكرية وفي حمل مسؤوليها على الدخول في تجارة مع جيرانها ومع الولايات المتحدة تكون مفيدة للطرفين. وهو تحالف سيتألّف من الولايات المتحدة ومن الحكومات الديمقراطية في الشرق الاقصى. وستشارك كل الدول الأعضاء في اتخاذ القرارات بما فيها الإجراءات الامنية. وسيكون تحالفًا مفتوحًا أمام بلدان أخرى في المنطقة، ويؤمل أن يضم الصين.

وفي اليوم الذي ظهر فيه بياني، زار مساعدي، ستيفن جونز، المحكمة الأميركية العليا حيث استمع إلى نائب الرئيس السابق ريتشارد نيكسون يحاجج في إحدى المسائل. وقد امتلك جونز اهتمامًا خاصًا بنيكسون لأنه كان في ١٩٦٤، وقبل أن ينضم إلى فريق رامسفلد، موظفًا في مدينة نيويورك بصفة كونه مساعده الخاص للأبحاث. وكان لنيكسون، الذي يستعد للترشح مرة أخرى إلى الرئاسة، فريق من أربعة أشخاص.

توجه جونز صوب المصعد بعد ختام جلسة الاستماع، فسمع من يناديه باسمه، فاستدار للترحيب بنيسكون الذي شكر له أنه أرسل إليه مسبقًا نسخة بالبريد عن بياني في شأن الصين. فنيكسون، الرجل الذي كاد على شعرة واحدة يصبح رئيسًا في ١٩٦٠ والمقدّر له أن يصبح الرئيس المقبل، كان مركّزا في

ذلك اليوم على الصين وليس على قضيته في المحكمة. وطلب من جونز أن يلفت انتباهي إلى بيانه عن الصين الذي سيصدر قريبًا في فصلية الـ «فورين أفيرز».

توقف جونز، قبل عودته إلى مكتبي، في مكتبة الكونغرس حيث طلب من الموظفة مارجوري براون تجميع ما أمكن من الكتب والوثائق عن العلاقات الأميركية مع الصين الشيوعية. وسبق لبراون ان أسهمت في جمع المادة من أجل بياني عن الصين. ولأن الانتخابات العامة في تشرين الثاني/نوفمبر باتت على مسافة أقل من شهر، قسّمت وقتي بين الحملة في دائرتي الانتخابية والسياسة الصينية، إذ بقي النظام الصيني في ذهني كل الوقت بسبب النقيب سميث.

لم امتلك سوى معرفة ضئيلة بتاريخ الصين، إلا أنني أعجبت بالدكتور والتر جود، وهو عضو الكونغرس من مينيسوتا الذي يلقى الكثير من الإعجاب وسبق له أن كان مُرسَلًا طبّيًا في الصين عندما كانت حكومة البر الصيني برئاسة تشيانغ كاي - شيك. وبقي في ولائه لتشيانغ سنوات كثيرة بعد انسحاب قوات تشيانغ إلى جزيرة فورموزا، التي تُعرف الآن بتايوان، واستيلاء القوات الشيوعية على البرّ الصيني. وكان هناك وقت اعتبر فيه معظم أعضاء الكونغرس، وأنا بينهم، أن تشيانغ يشكل قوة مضادة مهمة لأي اجراءات عدوانية تقوم بها حكومة البر الصيني. وطلب مني جود، لما التقيته للمرة الأولى في ١٩٦١، توقيع عريضة تتعهّد دعم حق تشيانغ في إعادة السيطرة على البرّ. تأثرت بصدق جود وبالدعم الواسع الذي يحظى به من الحزبين، فوقعت العريضة من دون تساؤل، على غرار ما فعل معظم الأعضاء الآخرين. وشكّل التوقيع، بالنسبة إلي، بادرة صداقة حيال جود أكثر منها حيال تشيانغ، على رغم أنني افترضت ان الجنرال الوطني يرأس مؤسسة رائعة مناهضة للشيوعية وقد يشكل عاملًا في مساعي الولايات المتحدة الجدية في فيتنام.

حاولت في الأشهر الأولى على أسر النقيب سميث، وردًا على التماس من أهله في مقاطعة غرين، أن أعلم مكان سجنه وطريقة معاملته. ولم يخطر على

بالي قط أن هذه الخدمة الانتخابية ستدفع بي إلى دراسة سريعة للعالم الشيوعي، وبخاصة الجمهورية الشعبية الصينية، وتتسبب بتغيير وجهات نظري في طريقة التعامل مع أولئك الذين في المسؤولية. وستستوجب تورطًا مباشرًا، وأحيانًا مثيرًا للجدل في السياسة الفيتنامية. وأدت إلى علاقات شخصية مع مسؤولين شيوعيين، وأنعشت سيرتي في تلة الكابيتول، وأنتجت تحديات شديدة جديدة مع بعض من الناخبين وأقامت صداقات شخصية دائمة. وإحدى ميزات الصينيين التي لم أفقهها تمامًا إلى ان غادرت الكونغرس هي أنهم لا ينسون أصدقاءهم. فبعد مغادرتي الكونغرس، وما بقيت في منطقة واشنطن، استمررت في تلقي الدعوات إلى مناسبات السفارة الصينية بل إنني حتى اليوم أتواصل من وقت إلى آخر مع عدد من المسؤولين والمسؤولين السابقين.

سُررت عندما عرفت من جونز أن مقالتي لفتت نائب الرئيس السابق. عرفت أنها ستكون مثيرة للجدل في أوساط الكثيرين من الناخبين فكان الاستدلال إلى الدعم من نيكسون مريحًا. وأصبحت بلوى النقيب سميث، بعد ذلك بسنوات، مرتبطة بمساعيّ لفتح أبواب التجارة والدبلوماسية في بكين وإنهاء التجربة الأميركية الدموية في فيتنام. أقفَلَتْ السياسة الأميركية باب الصين على مصراعيه في السنوات الأولى ولم يكن في وسعي القيام بالكثير للفوز بإطلاق سميث. ونقلت الأسوشيتدبرس ندائي إلى الرئيس جونسون للسعي إلى إطلاق سميث في المفاوضات الدائرة لإعادة ٤٨ صياد سمك صينيًا تحتجزهم السلطات الأميركية. وتجاهلت الصين الالتماس. فتوجّهتُ بنداء إلى الحكومة الصينية عبر رسالة مكتوبة بالبولندية سُلّمت إلى السفارة البولندية وهي البعثة الدبلوماسية التي تتولى العلاقات غير الرسمية بين الولايات المتحدة والصين. وسلّمتُ نداء مماثلًا، وأنا في أحد الشتاءات في باريس لاجتماعات برلمانية، إلى مسؤول في السفارة الصينية المحلّية.

كان سميث بيدقًا في لعبة شطرنج دولية عملاقة. فالصين والولايات المتحدة في حال عداء. وقد تغذّى الطرفان بالخرافات والتصورات الخاطئة النابعة من سنوات طويلة من عزلتهما أحدهما عن الآخر أدت إلى خوف كل منهما من

نيات الآخر العدوانية. ولم تتوافر لسميث حظوظ كبيرة برؤية منزله في مقاطعة غرين في إيلينويز من جديد ما لم تتوصل الولايات المتحدة إلى اختراق سلمي ودبلوماسي مع الصين. ويتطلب إحداث التغيير تثقيفًا عامًا وتغييرًا رئيسًا في الموقف من المسؤولين المنتخبين في العاصمتين كلتيهما. والأمر على هذا الحد من البساطة وعلى هذا الحد من التعقيد.

توافرت لي الفرصة، كرد فوري على بياني المعلن عن الصين، أن أتحدث إلى جمعية «ريبون»، وهي اتحاد للجمهوريين التقدميين في جامعة هارفرد. اقترحتُ في ملاحظاتي التي أدليت بها للجمعية في السابع من أيار/مايو ١٩٦٧ إقامة علاقات دبلوماسية طبيعية مع الجمهورية الشعبية الصينية. وأفادت «هارفرد كريمزون» في اليوم التالي أنني أول جمهوري في الكونغرس يوصي بهذه الخطوة في العلن. وحشتُ في بياني على تبادل البعثات الدبلوماسية والثقافية والصحافية والتجارية، غير أنني حذّرت من أن «الأمتين العظيمتين في الغرب والشرق تأخذان مسارًا تصادميًا». واقترحتُ بدء العلاقات التجارية ببيع الغذاء، ودعمت هذه التوصية بموجز من الحجج التي ضمّنتها في بياني في الكونغريشونال ريكورد. كان لي هوبنر مضيفي في زيارتي، وهو رئيس جمعية «ريبون» وأصبح لاحقًا كاتب الخطابات الرئيس للرئيس نيكسون وبعد ذلك ناشر الأنترناشونال هيرالد تريبيون في باريس، وقد قدّمني إلى الجمعية. وحصلنا، أنا وجونز، في اليوم التالي على ضيافة نادرة إلى الفطور مع البروفسور جون ك. فيربنك، المتخصص البارز في شؤون الصين في هارفرد، وزوجته في منزلهما.

نقلت وكالات الانباء جوهر خطابي، وناقشتهُ البالتيمور صن، ولدهشتي، في شكل مؤات في افتتاحيتها الرئيسة بعد ذلك بأيام قليلة. ونقلتْ من ملاحظاتي في هارفرد ان: «سياستنا الراهنة أصبحة عمياء وغير واقعية، وهي في الواقع أشبه بسياسة النعامة». وفي اليوم نفسه أعطت «ستايت جورنال - ريجيستر»، أكبر صحيفة يومية في محافظتي، لافتتاحيتها العنوان التالي: «فندلي على خطأ».

أثار بياني عداءً مكشوفًا من أعضاء جمعية جون بيرتش. وعندما تحدّثتُ

بعد ذلك ببضعة أسابيع في اجتماع في الهواء الطلق في كوينسي في إيلينويز، حضر أعضاء في الجمعية الاجتماع ورفعوا إشارات معادية عند أطراف الحشد بما في ذلك: «التجارة مع الصين خيانة» و«يجب إعدام الخونة».

وهذه ليست مواجهتي الأولى مع أعضاء الجمعية الذين يبدون متفرّقين على نسق واحد في أنحاء دائرتي الانتخابية المترامية الأطراف. كان معظمهم أقل عدائية في إعلاناتهم من حاملي الملصقات في كوينسي، غير أنهم ثابتون في أهدافهم الأساسية - معارضة الأمم المتحدة، وضريبة الدخل الفديرالية، وبنك الاحتياطي الفديرالي. وكثيرًا ما حملت لوحاتهم الإعلانية هذه الرسالة: «أخرجوا الأمم المتحدة من الولايات المتحدة، والولايات المتحدة من الأمم المتحدة». أجريت نقاشات ظرفية مع أفراد من الأعضاء ووجدتهم مذهبيين وعنيدين في وجهات نظرهم ولكن لا يكنّون عداءً شخصيًا. وكان أعضاء كثر من الكونغرس يجهرون بانتمائهم إلى جمعية جون بيرتش، وجميعهم ملتزمون التزامًا شديدًا قضيتهم لكنهم أصحاب سلوك ودّي. واستمعت في مناسبات عدة إلى أحدهم، وهو النائب الجمهوري عن أنديانا دون بروس، يكرر موافقته على شعار «من الأفضل للمرء أن يموت على أن يصبح أحمر». غير أن قلة من أعضاء الجمعية، وبخاصة كثيرًا منهم في كوينسي، كانوا معادين شخصيًا ومهددين من خلال سيماءاتهم ولغة أجسادهم. وشعرت من خلال رؤيتي أعينهم الباردة والمتوهجة أنهم يريدون لي أن اختفي، سوى أنني لم أتلق في ذلك الوقت أي إساءات مادية أو تهديدات.

لفت خطابي في هارفرد وافتتاحيتي في البالتيمور صن انتباه المسؤولين الصينيين. وأصبحتُ، نتيجة ذلك، على معرفة بموظفي السفارة الصينية.

بعيد زيارة الرئيس نيكسون الرائدة في **١٩٧٣** لبكين، أُطلق النقيب سميث من السجن وسُمح له بالسير عبر الحدود إلى هونغ كونغ وقد تحرر أخيرًا من ستة أعوام من الاحتجاز. ووصل إلى الديار، بعد خضوعه للفحص الطبي وللتحقيق العسكري، وحظي بترحيب كبير على مستوى السكان في رودهاوس في إيلينويز. انضممت إلى حفل الاستقبال. وكتب سميث في رسالة بعث بها

إليّ بعد ذلك بسنوات أن زيارة نيكسون للصين لم تفض إلى إطلاقه الفوري لكنها «أدخلت تحسينات جذرية» على ظروف سجنه. «تحسنت نوعية الطعام، وتوقفت المضايقة، وأصبحت المعاملة، في شكل عام، أكثر إنسانية. أما التغييرات الأكثر أهمية التي ساعدتني فهي الخطوات التي اتخذت لتحسين العلاقات الأميركية - الصينية. وكانت مبادرتك في هذا المجال في محلها تمامًا وأسهمت في تمهيد الطريق أمام تغييرات جذرية. . . وسرّع ذلك من استعادتي حريتي وفتح الباب إلى الصين». وقال إنه فقد حرّيته وهو في السجن لكن ليس «فخره في كونه أميركيًا». وأضاف «اكتسبت قوة لم أعرف أبداً أنني أمتلكها».

تلقّيت، في حزيران/يونيو ١٩٧٥، اتصالًا هاتفيًا من السيناتور تشارلز بيرسي، وهو صديق مقرّب قرأ بياني عن العلاقات مع الصين وتجربتي مع سميث، يدعوني فيه ولوسيل إلى الانضمام إلى رحلة من أسبوعين إلى الصين يرعاها مجلس الشيوخ وتبدأ بعد شهرين. وستضم الجولة السيناتورات أدلاي ستيفنسون الثالث وجاكوب جافيتس وكليبورن بل، إلى جانب عضوي مجلس النواب مارغرت هكلر وبول «بيت» ماكلوسكي. ودعي الأزواج ووافق جميعهم. وستكون هذه ثاني بعثة من الكونغرس الأميركي منذ فتحت الصين أبوابها أمام المسؤولين الأميركيين.

خلق بروتوكول مجلس الشيوخ مشكلة للمضيفين. فسيناتور أيلينويز بيرسي حاول، على الرغم كونه في القلة، أكثر من الآخرين ترتيب رحلة إلى الصين. وبعد النقاش، اختير بيرسي رئيسًا وسيناتور نيويورك جاكوب جافيتس، وهو أيضًا جمهوري، رئيسًا مشاركًا. وكان بيرسي، قبل ذلك بسنوات، فتى الصناعة الأميركية المعجزة وقد ترأس «بل أند هويل» وهو في عمر الثلاثين. وكان جافيتس يومذاك، من وجهة نظري، أكثر عضو هجومي في مجلس الشيوخ. وكان السيناتوران الديمقراطيان الآخران في البعثة هما: كليربورن بل من رود أيلاند، وهو ارستقراطي سهل المعشر، وأدلاي ستيفنسون الثالث الأمين السابق للخزينة، والمحامي القادر ويحمل الاسم نفسه الذي حمله اثنان من الاسلاف البارزين على مستوى الوطن.

رافق بيرسي في الجولة زوجته، لورين، وابنه، مارك؛ وجافتيس زوجته، ماريون؛ وستيفنسون زوجته، نانسي؛ وبل زوجته، نويلا؛ ومكالوسكي ابنه، بول جونيور؛ وهكلر زوجها، جون؛ وأنا زوجتي، لوسيل. شكّلنا مجموعة متجانسة. وقد عرفنا، في خلال الأسبوعين اللذين أمضيناهما معًا، بعضنا عن البعض وتعلّمنا بعضنا من بعض.

حصلت زيارتنا في الأيام الأخيرة على الثورة الثقافية التي اختبرت فيها البلاد بأسرها تغييرات جذرية وقصيرة المدى. وكان أحد اهدافها خلق تماثل عام في المعاشات وتوفير خبرة في المهمات الوضيعة بغض النظر عن الحياة المهنية التي يُوظَّف فيها المرء. كانت آثار الثورة لا تزال واضحة في خلال زيارتنا. وإبان جولتنا في أحد المستشفيات العامة في بكين، أجاب جراح اشتهر عالميًا بإعادة تركيب الأعضاء المقطوعة عن أسئلتنا صراحة. قال إن معاشه يبلغ نحو مئة دولار في الشهر، وأنه يستخدم الدراجة الهوائية للتنقل إلى عمله ومنه. ووفر هذه المعلومات من دون أي أثر لشكوى. ووجدنا معاشات أساتذة الجامعة مماثلة لمعاش الجراح باستثناء بروفسور متقدم في السن قال إن استثناءِ في السياسة العامة سمح له بالابقاء على المعاش الذي كان يتقاضاه قبل الثورة وهو نحو ٧٠٠ دولار في الشهر.

علمت، بعد ذلك بسنوات، أن هان كزو، وكان يومذاك ذا مركز مرموق في جهاز البروتوكول وأصبح لاحقًا سفيرًا لدى الولايات المتحدة، أُنزلت مرتبته إلى عامل صيانة وتنظيفات. أما السكرتيرة الثالثة في السفارة الصينية في واشنطن في خلال سنواتي هناك، السيدة وانغ، كما أسمّيها دائمًا، فأوقفت عن مهماتها كموظفة كبرى في البروتوكول وأعطيت الأمر بزراعة الرز في مزرعة جماعية. وفعل الاثنان ما أمرا به من دون شكوى، وما إن انتهت الثورة حتى عادا إلى وظيفتيهما الرئيستين السابقتين في وزارة الخارجية.

سافر السيد تو، الموظف الشاب في البروتوكول، مع مجموعتنا ورحّب بكل مناسبة متاحة للاستشهاد بأقوال الزعيم ماو. وبدا أنه قادر على الاستشهاد بقول يتناسب مع كل تغيير في المحادثة. وكانت مقتطفات من حكمة الزعيم نُقشت

على لافتات حمرٍ منشورة في مختلف المناطق التي زرناها. وهي منشورة أيضًا في الكتاب الأحمر الذي وزعه السيد تو على مجموعتنا. ولم يسعنا تصديق واحدٍ من هذه الإعلانات. وعندما سألنا عن سياسة الحكومة حيال المواطنين المثليي الجنس قال السيد تو ان لا وجود لأمثالهم في الصين.

وكان أكثر مواعيدنا التي لا تُنسى مع دنغ شياوبينغ، نائب رئيس الوزراءِ والذي يُعد صاحب السلطة المقبل في عملية الإنتقال الإقتصادية الصينية السلمية من الإجراءات الراديكالية للثورة الثقافية إلى نظام السوق التنافسي. وهو كان، في زمن جولتنا، رئيس الحكومة بالوكالة لأن كلا من الزعيم ماو ونائب الزعيم شو إنلاي كان مريضًا. ووفر الموعد الظرف لتبادل صريح في وجهات النظر مع الرجل الذي سيقود الصين في مدة قريبة. كان دنغ صريحا من دون تجمّل وصلبًا وقاسيًا. وكانت الصين في تلك الحقبة مُستبعدة من العضوية الدائمة في مجلس الأمن الدولي حيث كانت تايوان هي التي تحتل مقعد «الصين». وأدى ذلك إلى تصريحات قوية تدعم موقف بكين أدلى بها السيناتور ستيفنسون وكان والده سفيرًا للولايات المتحدة في الأمم المتحدة في خلال إدارة جون ف. كنيدي. وعلى رغم أن أعضاء البعثة لم يبحثوا في المسألة إلا إنني أعتقد أن جميعهم يدعمون نقل «مقعد الصين» إلى نظام بكين.

ردّ دنغ، عندما سلمته كتابًا عن الاحصاءات الزراعية زودتني إياه وزارة الزراعة الأميركية، منتقدًا الحكومة الأميركية بقساوة على قرارها بيع الحبوب للاتحاد السوفياتي الذي كان يُعدّ أكثر جيران الصين عداوة. ورددتُ بأن الولايات المتحدة ستبيع الصين، في سرور، أي كمية ترغب فيها من الحبوب. وعندما زار دنغ الكونغرس في ١٩٧٩، أعطيته كتابًا يمثل حياة أبراهام لينكولن بالصور، ولم يشتكِ هذه المرة، وابتسم ووقّع، بناء على طلبي، عدد التايم الحالي الذي تحتل صورتُه غلافه.

وتضمن البرنامج في الصين مدنًا لم يسبق أن زارها أناس من الغرب منذ أكثر من عشرين سنة. كان الناس، عند نقاط التوقف هذه، يصطفون صامتين على طول الشوارع، أحيانًا بثلاثة صفوف أو أربعة، فيما قافلتنا تمر. وكان

يعتريهم الفضول في شأننا بمقدار ما يعترينا الفضول في شأنهم. ووجدت لوسيل نفسها، في خلال زيارة لأحد المتاجر، محاطة كلّيا بسيدات صينيات فضوليات تحسسن شعرها وملابسها ولما فتحت حقيبة يدها أنعمن النظر في محتوياتها. ولما زارت أحد المحالّ لتشتري الشامبو وأدوات الشعر تبعت المتفرجات المسحورات كل خطوة من خطواتها عن كثب. وحوّلها شعرها الأحمر أمرًا لافتًا. وتمثل أحد التحديات في التخلص من الجوارب التالفة. فقد حاولتْ ربطها ورميها في سلة المهملات لتجدها في اليوم التالي وقد غسلت وكويت في شكل جيّد.

انتبه مرافقونا إلى صحتنا. وعندما تسلقتُ صعودًا أحد ممرات جدار الصين العظيم، انتظرتْ لوسيل في الأسفل. وأعربتْ مرافقتها عن قلق شديد عندما اكتشفت بثرة صغيرة على ساق لوسيل اليسرى. وأفادت ماريون جافيتس عن نتائج طيبة عندما عالج أحد الأطباء ركبتها المؤلمة بالوخز بالأبر. وكانت لوسيل، بصفة كونها الممرضة المسجلة الوحيدة في المجموعة، تلبي سرّا نداءات لإعطاء التحاميل أو النصائح الصحية.

وحللنا في ليلة ضيوفًا في مسرح كبير لمشاهدة برنامج منوع من الغناء والرقص. وزرنا في يوم آخر مزرعة جماعية يوفّر فيها «الأطباء الحفاة» الخدمات الطبية الأساسية للعاملين في حقول الرز وغيرها من الحقول. وتضمن برنامجنا زيارة معامل ومدارس وجامعات. وشاهدنا جلسة استماع رسمية لزوجين يطلبان الطلاق. اشتكت الزوجة من تعرضها للضرب على يد زوجها. وبعد الشهادة، حثت هيئة المحلفين، في احترام، الزوجين على العودة إلى بيتهما ومحاولة إحلال الهدوء المنزلي.

تبادل أعضاء مجموعتنا الأدوار في رفع الأنخاب عندما حضر مضيفونا عشاءنا. واستشهدتُ، عندما جاء دوري، بطرفة كلامية سمعتها من فم والد ستيفنسون، السفير أدلاي ستيفنسون الثاني: «تتألف الحكمة من تسعة أجزاء من الصمت وجزء واحد من الإيجاز». ضحك الأميركيون، لكن الصينيين احتفظوا

بالصمت. فقد تخلى مترجمنا، لسبب من الأسباب، عن محاولة ترجمة الاقتباس إلى اللغة الصينية.

تأثّرنا بجمال الشعب الصيني وكياسته، وكذلك بنظافة الصين مدينة وريفًا على السواء. وكانت الأشجار جميلة في شكل لافت وقد زُرعت كلها بترتيب دقيق. وتصطف الأشجار، أحيانًا في صفوف عدة، على الطرق الرئيسة وشوارع المدن وحتى الزواريب. وقيل لنا إن الزعيم ماو أمر شخصيًا بزرع الأشجار. وشكّل ذلك مشروعًا ناجحًا نتج عنه هواء أكثر نقاوة واعتدال كبير في درجات الحرارة القصوى في بكين.

كنت، وقت مغادرتنا بالقطار إلى هونغ كونغ، اكتسبت احترامًا جديدًا للصين وآمالًا كبرى بعلاقة واسعة وودية مع الولايات المتحدة وبخاصة في التجارة. وعلى الرغم أن جولتنا اكتشفت أن الصناعة والزراعة والنقل متأخرة عن الولايات المتحدة، أحسست بوجود حماسة للتقدم على كل الجبهات. فقد خرج الشعب الصيني من سنوات سفك الدماء الثورية الرهيبة رشيقًا، جذّابًا، متفائلًا وتقدّميًا. ولاحظنا، مع اقترابنا من الحدود، تباينًا حادًا في اللحظة التي دخل فيها القطار هونغ كونغ. فقد تركنا وراءنا ريفًا صينيًا نظيفًا لا غبار عليه لنجد هونغ كونغ في فوضى متروكة ملأى بالنفايات وغيرها من الحطام. وفيها لافتات تحذّر من النشالين وأخرى تمنع البصق.

تلقينا أنا ولوسيل، بوصولنا إلى هونغ كونغ، دعوة غير متوقعة للانضمام إلى مجموعة أخرى من الكونغرس في طريقها إلى كوريا الجنوبية واليابان مع محطة أخيرة في «الصين الأخرى»، تايوان. وبغض النظر عن خدمتي المحدودة في اليابان مع قوات الاحتلال العسكرية، لم تكن لأي منا خبرة في أي من البلدان الثلاثة وقبلنا الدعوة. أدى وصولنا إلى اكتظاظ الطائرة، غير أننا عرفنا شخصيات حكومية محلية وتحدّيات وإنجازات. وذهلت للثقة والتوقعات والتقدم الذي وجدناه عند كل منعطف.

بعد ذلك بثلاث سنوات، وبطلب من حاكم إيلينويز جايمس «بيغ جيم»

تومسون، ترأست بعثة تجارية زراعية من إيلينويز إلى الصين. وكان الهدف إجراء نقاش نيات طيبة يؤمل أن تؤدي إلى فتح أسواق الصين أمام منتوجات إيلينويز الزراعية. لم تكن رحلة ممولة من الكونغرس. وقامت كل منظمة خاصة بتمويل نفقات ممثليها. وضمت المجموعة هارولد ستيل رئيس مكتب الزراعة في إيلينويز الذي تحمّل مشقّة كونه نسيبا لي؛ وليام ألن من كبار موظفي مكتب الزراعة؛ هارولد دود رئيس اتحاد المزارعين في إيلينويز؛ فيليب برادشو رئيس منتجي الخنزير في أيلينويز؛ الدكتور أوفيل بنتلي عميد معهد الزراعة في إيلينوز؛ جون بلوك مدير الزراعة في إيلينويز؛ هانز بتشيرر رئيس مصنع الآليات الزراعية جون دير؛ زميلي نائب إيلينوز إدوارد ماديغان الذي أصبح لاحقًا وزيرًا للزراعة؛ أوريون ساموليسون من تلفزيون صوت الزراعة «دبليو جي أن» في شيكاغو؛ ابننا تلميذ المعهد كريغ؛ وروبرت ويشر رئيس فريقي في واشنطن.

وضمت بعثتنا أيضًا خنزيرًا من تربية يوركشاير، أُطلق عليه اسم «بيغ جيم» تيمّنا بالحاكم تومسون. وهو هدية مكتب الزراعة إلى حكومة الصين. اجتاز «بيغ جيم» الرحلة الجوية بصحة جيدة واستمتع بالأبوة الناجحة لمدة أكثر من سنة في الصين. أصبح الخنزير الأكثر شهرة في الصين، إلا أن العدوى الطفيلية تسببت بموته الباكر على رغم ما وصفته اليونايتد برس إنترناشونال (يو.بي.آي.) بـ«الإجراءات البطولية» لإبقائه حيًّا. ولما نقلتُ خبر موت «بيغ جيم» إلى ستيل، أجاب: «أتعني أن الحاكم تومسون مات؟» فطمأنته إلى أن «بيغ جيم» الآخر هو الذي ذهب إلى جنة الخنازير. ودفعني موته إلى اقتراح تبادل للعلماء المتخصصين في الخنازير بين الصين وجامعة إيلينويز. وافق هي كانغ على الاقتراح. ونقلت «يو. بي.آي.» عني قولي: «إن التبادل يشكل نوعًا من النصب التذكاري لبيغ جيم».

حضّر المكتب الزراعي للرحلة زادًا من الملفات الصغيرة يضم صورة ونبذة مختصرة عن حياة كل عضو من أعضاء البعثة. ويظهر أيضًا خارطة للصين ورد فيها خطأ أن تايوان دولة منفصلة. وأعلن مضيفونا في حزم عدم إمكان استخدام الملف لأن الخطأ جسيم. وتضافر أفراد البعثة في تلك الليلة في

تحوير نسخ الملفات في عملية قطع وإلصاق أظهرت، في شكل مرض، أن تايوان جزء من الصين. وما عليكم إلا أن تتخيلوا مشهد كبار قادة الزراعة في إيلينويز يستخدمون المقصات والمواد اللاصقة مثل أطفال الحضانة.

زرنا بلدات يتم العمل فيها في شكل كثيف، ومصانع بدائية لإنتاج الغذاء وتجهيزه، ومصنعًا للجعة، ومناطق عدة حضرية عُزلت أجيالًا عن التأثيرات الغربية. وأقمنا علاقة صداقة دائمة مع هي كونغ نائب وزير الزراعة الصيني الذي التقانا مرات عدة في خلال الجولة.

دخل ستيل إحدى المرات متجرًا للبيع بالمفرق يكاد يكون خاليًا من الزبائن وتوجه وحده إلى الطبقة العليا حيث أخذ يتفحص المنحوتات الخشب. وأدرك فجأة ان الغرفة اكتظت بالفضوليين الصينيين. ووصلتُ في ذلك الوقت تقريبًا وشققت طريقي إلى جانبه. استدرت نحو الحشد وصفقت بيدي معتقدًا إمكان قبول ذلك على أنه ترحيب ودّي. وبدلًا من ذلك فتح الصينيون في صمت وسرعة ممرًا واسعًا لخروجنا. وامتد الطريق المفتوح عبر الصينيين الذين ملأوا الأدراج وتجمهروا في الخارج. وأصبتُ بالكثير من الارتباك وانضممت إلى السيناتور ستيل في التوجه نزولًا على الأدراج. ووصف في وقت لاحق تصفيقي على أنه شبيه بشق البحر الأحمر كما ورد في التوراة.

استضافت بعثتنا في إحدى الأمسيات المسؤولين الصينيين إلى «عشاء زراعي إيلنيوزي نموذجي». جلب وليام ألن كل المكوّنات وطبخ وجبة مؤلفة من لحم الخنزير والبطاطا الحلوة واللوبياء الخضراء. وانضم ضيوفنا إلينا في استخدام الشوك والسكاكين بدلًا من العيدان. وكانت الحلوى كناية عن فطيرة تفاح ساخنة غطيت كل واحدة منها بشرائح الجبنة. كان العشاء ناجحًا إلا في ما تعلّق بشرائح الجبنة. فقد أزال كل من الضيوف الصينيين الجبن قبل تناول الفطيرة. لم يعرف أي واحد من مجموعتنا أن الجبن، مثل منتوجات كثيرة أخرى، ليس مقبولًا كمادة غذائية.

وعلى رغم أن بعثتنا لم تعد معها بطلبات محددة من القمح والذرة أو

حبوب الصويا، سمعنا إشارات قوية إلى أن ذلك سيحصل قريبًا. وأعلنت حكومة الصين في نيسان/أبريل ١٩٧٨ شراء ٦٢٠ ألف طن متري من القمح وثلاثة ملايين و٥٥٥ ألف طن متري من الذرة و٨٥٤ ألفًا و٢١٥ طنًا متريًا من حبوب الصويا، وهي أول مشتريات لها أبدًا من هذه السلع الأميركية[١]، وحصلت في السنوات التالي مشتريات على مستوى مشابه. فالدبلوماسية أشبه بالعناية بحديقة منها بتشييد بناء. وربما أننا اعتنينا بالحديقة الصينية في شكل مرض.

وجدت، بعودتنا إلى الديار، أن الجو ودّي تجاه الصين. وافق هان كزو، وكان يومذاك نائب رئيس البعثة الدبلوماسية الصينية في واشنطن، على التحدث في حفل التخرّج في معهد إيلينويز في جاكسونفيل. التقيته وأفراد بعثته الصغيرة في مطار سبرينغفيلد وقدت بهم إلى حرم المعهد في سيارتي التي تحمل إشارة واضحة على أنها «مكتب الكونغرس الجوّال». ولم استطع تمالك نفسي عن الضحك لدى توقفنا عند إحدى محطات الوقود في جاكسونفيل. نزل الدبلوماسي هان من السيارة وصافح جميع من في الجوار حاثًا كل واحد منهم على التصويت لإعادة انتخابي واصفًا إياي بـ«رجل الكونغرس العظيم». ولأدّى ذلك إلى إصابة الزعيم ماو بصعقة. ولما أعيد انتخابي بعد ذلك بستة أشهر بعثت إلى هان كزو بشهادة تقدير على إسهامه في حملتي. وأبلغتني زوجته، السيدة جي، في وقت لاحق أن الشهادة، وقد وضعت في إطار جميل، تزين أحد جدران منزلهما في بكين.

قدم هان في المعهد رسالة صداقة حازت تصفيقًا قويًا. ورفض القبول بشهادة الدكتوراه الفخرية التي تُعطى للمتحدث في التخرج مستشهدًا بواقع أن العلاقات الدبلوماسية الكاملة لا تزال أمرًا من المستقبل. ومضينا في اليوم التالي إلى اجتماع في نادي الروتاري في وسط المدينة. قدّمتُ نسخة مختصرة من عرض شرائح الصور المرتكز على زيارة بعثة الكونغرس لبكين. وقدّم هان

(١) Illinois Farm Bureau library 2-16-09.

كزو الملاحظات الختامية. وحملت النيويورك تايمز في عدد ٢٤ أيار/مايو تقريرًا من نصف صفحة عن زيارته لمعهد إيلينويز ونادي الروتاري في سبرينغفيلد وضريح لينكولن. وأظهرت إحدى الصور هان وهو يمد يده لحك أنف تمثال الرأس البرونزي للينكولن عند مدخل الضريح.

وقبل ان يغادر هان كزو وزوجته واشنطن إلى وظيفة جديدة في بكين، ترأسنا أنا وستيفنسون معًا غداء أقيم على شرفه في مبنى الكابيتول. اختصرنا لائحة المدعوّين وملأنا البرنامج بالتسلية. رحّب بالضيوف ملصق أشبه بالكاريكاتور موضوع على المنبر. وحمل رسمين لفيل وحمار، رمز المودة التي يحملها الحزبان على نطاق كبير لهان وزوجته. وكُتب على أعلاه: «ملصق جداري تكريمًا لهان كزو»، وهو من عمل المحامي هايد موراي أحد موظفي اللجنة الزراعية في مجلس النواب ومن هواة رسم الكاريكاتور.

ارتدينا، أنا ولوسيل، سترتَيْ ماو. وقام السيناتور إد ماسكي، الذي أصبح لاحقًا وزيرًا للخارجية ومرشحًا إلى الرئاسة، بتنويم الكركند تنويمًا مغناطيسيًا، وهي الرياضة المفضلة لشبان ماين. وتولى مايك أوكنسبرغ، المتخصص في شؤون الصين في مجلس الأمن القومي، وكان ضمن فريق التشجيع في جامعة ميتشيغان أيام الدراسة، قيادة المجموعة في تحية هان من خلال الصياح بكل حرف من أحرف اسمه الكامل. وقام ستيفنسون، وقد جلبت زوجته الكركند الذي نوّمه ماسكي، بتلاوة شعر غير مُقفّى انتهى بـ «لا تستخدموا الفأس لإزالة الذبابة عن رأس صديقكم». وغنّى النائب بو ميتشل، زعيم الجمهوريين في المجلس والمتخرج بشهادة في الموسيقى في المعهد، شعرًا مُبتكرًا على أنغام «سيدتي الجميلة» (My Fair Lady). وتضمن الكلمات التالية: «نعرف أنك ستغادر إلى الصين قريبا، لكن، وقبل أن تقفل الباب، خذ هذه النصيحة يا سيدي. أبق عذبًا ولطيفًا، يا سيدي، ولا تقارب عصابة الأربعة». والأربعة هم المجموعة السياسية التي شرعت في فقدان سمعتها في الصين.

أما ستيفنسون، الديمقراطي الذي ما انفك يطلق الإشارات إلى انه قد يكون مرشحًا إلى الرئاسة على لائحة حزب ثالث، فقال: «انتم جميعكم هنا تحت

ادعاءات كاذبة. وهدفي هو أن أعلن اختياري رفيقي في الترشح». وعند هذا أومأ برأسه في اتجاهي، فهرعت إلى جانبه، ورفعت ذراعه بيدي للتصفيق. وأفادت «ألتون تليغراف»: «كانت تلك لائحة الحزب الثالث التابعة لستيفنسون وقد وازنها جمهوري من مقاطعة بايك ترتدي ثيابًا خلّدها الزعيم الراحل للحزب الشيوعي الصيني»[(١)].

ولما زرت خليفة هان في السفارة الصينية، السفير شاي زمين، قال في ضحكة مكتومة ردّا على ذلك: «لا يمكنني تنويم الكركند، ولا استطيع الرقص، ولا أملك أي حس بالفكاهة، فما الذي أفعله هنا؟» وحدث ذلك كله على سبيل المزاح طبعًا، وكانت بادرة ستيفنسون أقرب ما توصّلتُ إليه لأحصل على تسميتي لمنصب نائب الرئيس. وأنتهى تقرير اليو.بي.آي. بهذه الكلمات: «جعل البرنامج معظم الحضور يذهبون في غيبوبة أشبه بغيبوبة الكركند. وإذا أمكن [العلاقات الأميركية الصينية] الصمود أمام هذا النوع من التسلية فستتمكن من النجاة من أي شيء»[(٢)].

لم تظهر أي إشارات تهديد لما قدّمتُ، بعد ذلك بأشهر، السفير شاي إلى حضور كبير في كوينسي. بل على العكس من ذلك فقد حصد شاي، الذي تحدث على غرار هان كزو سابقًا في معهد إيلينويز، تصفيقًا حارًا قبل الإدلاء بملاحظاته وبعدها، وهي إشارة مُرحّب بها إلى استراحة الناخبين للتجارة الأميركية - الصينية. وكوينسي، على غرار جاكسونفيل، محورية في أرض زراعية واسعة تُنتج محاصيل كبرى من القمح والذرة وحبوب الصويا، وهي سلع تحتاج الصين إلى كميات هائلة منها. وبعد أيام قليلة على يوم الانتخاب في ١٩٨٢، توقف السفير شاي زمين عند مكتبي ليعرب عن أسفه لخسارتي. ولاحظ، مبتسمًا، أن «لديكم أنتم الأميركيين طريقة غريبة في اختيار الزعماء».

سُجلت في ١٩٨٥ لحظة تدعو إلى القلق عندما سافر فرد أوزبورن، المربّي

(١) States News Service 2-10-79

(٢) 9UPI 2-9-79.

المتقاعد والصديق القديم من جاكسونفيل، إلى الصين مع ١٧ سائحًا آخر. واكتشف أن اسمي غير معروف على نطاق واسع لدى طبقة الموظفين الرسميين في البلاد على الرغم جهودي الطويلة في الشدّ لفتح باب الصين. حمل نسخة من كتابي «انهم يجرأون على الكلام» ليقرأها في خلال السفرة الطويلة وكان ممسكًا بها في يده وهو يقترب من مكان إجراءات الدخول عند الهبوط في بكين. انتظر الآخرون في قلق في حين أخذ المسؤول يقلّب صفحات الكتاب سائلًا: «هل هذا الكتاب مناهض للشيوعية؟» أكد أوزبورن للمسؤول أن لا علاقة للكتاب بالشيوعية وانه يتعلّق وحسب باللوبي الإسرائيلي في أميركا. وتعلّق السؤال التالي بي وباللوبي وبماذا تنوي المجموعة فعله في الصين. وتنفس أوزبورن ورفاقه الصعداء بعد عشرين دقيقة من ذلك عندما سُمح لهم بالدخول.

عاد هان كزو في ١٩٨٦ إلى واشنطن سفيرًا للصين في الولايات المتحدة. كانت العلاقات الدبلوماسية أصبحت كاملة، فزار من جديد معهد إيلينويز لقبول الدكتوراه الفخرية التي رفض تسلمها قبل ذلك بثماني سنوات. ورافقته زوجته والسكرتيرة الثالثة في السفارة الآنسة وانغ. حافظنا، على مر السنين، على علاقة صداقة وطيدة معهم. وكشفت زوجة هان في إحدى الأمسيات أن زوجها يصر على غسل ثيابه الداخلية وجواربه حتى بعدما وصل إلى رتبة سفير. وقالت إن معاشه لم يتجاوز قط المئتي دولار في الشهر. وأبلغني هان أنه في سعيه إلى الحفاظ على صحته الجيدة وهو في مركزه في واشنطن يقوم بحركات السواعد طوال الدقائق الثلاثين التي تستغرقها نشرة الأخبار التلفزيونية المسائية.

وبعدما قضت إصابته بمرض السرطان على حياته في ١٩٩٤، شرعت مجموعة من الصحافيين والزملاء السابقين في مشروع من ثلاث سنوات أنتج سيرة حياة رائعة للدبلوماسي. وقد تأثّرتُ لاكتشافي نص التنويه المنشور الذي كتبته عنه، وقد أعيدت طباعته على غلاف الكتاب. وحصلنا بفضل زوجته على الطبعتين الصينية والإنكليزية للكتاب وهما تذكاران لصداقة رائعة.

شددت على باب الصين، ليس بفضل فهم خاص للدبلوماسية أو للصين

نفسها، بل من خلال الممارسة المتواصلة لموقف سماه هان كزو الصداقة. وجدت الشعب الصيني جذّابًا، موهوبًا، ودودًا، ومعزولًا. رحبوا بي وبادلتهم بالمثل. وأصبحوا مذذاك واحدة من أكثر أمم الأرض قوةً وانتاجًا.

يوجد دومًا احتمال بالعداء - وحتى بالنزاع المسلح - بين القوى الكبرى. وعلى الولايات المتحدة أن تبقي قنوات الاتصال مع الصين مفتوحة على مصراعيها وصريحة دومًا. فكما وجدنا تمامًا في تعاطينا مع بريطانيا العظمى وفرنسا وألمانيا الوسائل لكي نخلف وراءنا أوقات العداء، علينا أن نسعى بلا كلال إلى الأمر نفسه في مساعينا مع الجمهورية الشعبية الصينية. فهي خرجت سريعًا من تقشّفِ الاقتصاد الشيوعي وجموده لتصبح عملاقًا اقتصاديًا في سوق التنافس العالمي. وهي حققت، في خلال هذا التحول، خطوات متقدمة في الانتقال السياسي والثقافي بالحد الأدنى من سفك الدم والاضطراب. وتدل كل الإشارات، في السنوات التي أمامنا، إلى أن على الولايات المتحدة أن تعامل الصين بصفة كونها شريكًا ودّيًا لا تهديدًا.



الفصل السابع عشر: محاربة الآفات

بات خطر جديد يهدّد الجنس البشري منذ ١٩٤٥ وهو الرؤوس النووية. فقد انضمت إلى المجاعة والطغيان والحرب بصفة كونها أعظم آفات الانسان. ووجدت نفسي أحاول، من تلة الكابتول، كبح هذه الآفات الأربع كلها. وها إن كل واحدة منها تشكّل، بعد ذلك بستين سنة، تهديدًا أكبر من ذي قبل.

يلوح اليوم في أفق المستقبل القريب نقص هائل في الغذاء في العالم. وهو سيشكل، بحلوله، أرضًا خصبة للصراعات الأهلية. وقد ألقيت في خلال سنواتي الأولى في تلة الكابيتول نظرة سريعة على مثل هذا المخاض المستقبلي عندما خفضت حمولات سفن من الحبوب التي وهبتها الولايات المتحدة إلى الهند من ظروف المجاعة الحادة فيها. ويصيب سوء التغذية اليوم ١٧ في المئة من سكان العالم يعيش جميعهم تقريبًا في البلدان الأكثر فقرًا.

اتُخذت في ١٩٦٦ الخطوات الأولى التي أدت إلى قانون مكافحة المجاعة، وهو واحد من أكثر مشاريع القوانين التي طرحتُها حاجة والحاحًا ووعدًا. ولما سُنّت أخيرًا في ١٩٧٥ على أنها الفصل الثاني عشر في قانون المساعدة الخارجية، سمحتْ باتفاقات على المدى الطويل تأذن للجامعات الأميركية التي مُنحت أراضِيَ عامة بمساعدة البلدان التي تتهددها المجاعة. وقد نظرتْ في برنامج لتوفير التعليم الأساسي للمزارعين الصغار شبيه ببرنامج التعليم المتفرع من منح الأراضي والذي أفاد عملية انتاج الغذاء في الولايات المتحدة على مدى أكثر من قرن.

شهد القانون مرحلة تكوينه عندما أرسل إلي الدكتور هادلي ريد، وهو عضو رفيع المستوى في معهد الزراعة في جامعة إيلينويز، لوحات مسودة كتابه «شركاء

مع الهند» Partners With India. وهو يراجع نجاح جامعة إيلينويز وخمس جامعات أخرى مُنحت أراضي عامة في مساعدة الهند في إقامة مؤسسات تعليم تركّز على الغذاء والحاجات الزراعية. وقد ساعدتْ في وضع حد لآفة المجاعة التي أصابت الهند في سنوات ١٩٦٠.

كانت لي معرفة مباشرة بالتعليم المرتكز على منح الأراضي العامة. فقد تعاملت في شكل مباشر، طوال ١٣ عامًا من عملي كناشر لصحيفة ريفية، مع المزارعين في شكل يومي وغالبًا مع اختصاصيي معهد الزراعة في جامعة إيلينويز الذين قدّموا خدمات تعليمية للمزارعين في المقاطعة التي كنا نقيم فيها. وسمح لي هذا بأن أستوعب سريعًا الرسالة الواردة في لوحات ريد الطباعية. فلتعليم المزارعين البالغين المستمر دور رئيس في تحويل المجتمع الزراعي الأميركي الكبير مجتمعًا صناعيًا. وسمح ذلك بارتفاع سريع في مستوى المعيشة في مختلف أنحاء أمتنا. وسمح للمزارعين الأفراد بزيادة الإنتاج الغذائي للفرد، وهي عملية حررت أعدادًا متزايدة من سكان المزارع وسمحت لهم باستخدام علمهم في ممارسة أعمال غير زراعية في المدن.

واقتنعت، بعد قراءة نص كتاب ريد، بأنَّ في الإمكان تكييف التعليم الأساس المستمر لإعطاء نتائج جيدة في بلدان أخرى، ولتحسين الانتاج الغذائي وزيادة المدخول ونوعية حياة المزارعين وسكان المدن على السواء. وتوقّعت أن يتمكن من منع المجاعة على مستوى العالم في غضون ٢٥ سنة. وسيختفي الشبح الماثل بالنقص في الغذاء. واستندتُ في هذه الإفتراضات المتفائلة إلى التاريخ المميز والفريد للزيادات في إنتاج الغذاء في الولايات المتحدة.

بدأت عملي على التشريع بعدما أصبحت عضوًا في لجنة الشؤون الخارجية في ١٩٦٧. وبعد ذلك بسنتين، تماسكت أفكاري بما يكفي لاجتذاب دعم دان باركر، صاحب قلم باركر الشهير ومدير وكالة التنمية الدولية في عهد الرئيس نيكسون. ووافق الدكتور هارولد غيثر، وهو اقتصادي زراعي في جامعة إيلينويز مشهور على مستوى البلاد، على تولي مهمة قصيرة المدى - من الأول من حزيران/يونيو إلى ١٥ آب/أغسطس ١٩٧٥- في فريقي الخاص في الكونغرس.

وقد عمل حصرًا على تشريع مكافحة المجاعة الذي وُضِعَتْ له عشرون مسودة قبل أن يُقدم في وقت متقدم من الصيف إلى مجلس النواب بعدما شارك أكثر من مئة عضو من الحزبين في رعايته.

اقترحتُ إنشاء مجلس للتنمية الغذائية والزراعية الدولية [BIFAD] على أن يُعيِّن الرئيس أعضاءه السبعة. وسيساعد المجلس مسؤولي وكالة التنمية الدولية في استخدام الخبرة الزراعية الأميركية في شكل فاعل. ووافق مجلس النواب على مشروع قانوني من دون تعديل. وضمن السيناتور هيوبرت هـ. همفري، الذي تمثّل أفضل تمثيل بعضو فريقه الدكتور ديك ماكول، موافقة الكونغرس على مشروع قانون المجلس، وأيضًا من دون تعديل. وقد وقّعه الرئيس نيكسون ليصبح قانونًا في أيلول/ سبتمبر ١٩٧٥.

رعى العمل على المشروع صداقة لي مع رجلين، هما همفري وجريس عويس المولود في الأردن، وهو متخصص محترف في وكالة التنمية الدولية. وترأستُ، بعد سنتين على تحوّل مشروع القانون قانونًا، ندوة عن مكافحة المجاعة في قاعة محاضرات مجلس الشيوخ حضرها سفراء أكثر من سبعين بلدًا. وسحب همفري نفسه من سرير المرض للتحدث في التجمع. بدا ضعيفًا عندما بدأ، لكنه تحدّث بعد دقائق قليلة بولعه المُقنِع المعهود. واستَذْكَرَ، في ملاحظاته، خلافاتنا المتكررة على التشريعات المحلية المتعلقة بالمزارع، وبخاصة الإجراءات التي تسمح للحكومة بالدفع مباشرة للمزارعين. وتضمن ذلك كلمات مؤثرة: «أيها الجندي الشجاع، أيها العفريت العجوز. أعتقد أحيانًا أن أفضل اصدقائي هم الذين خضت في مواجهتهم المعارك السياسية». وكان بين المتحدثين الآخرين نائب الرئيس والتر مونديل والرئيس السابق جيرالد فورد. وبعد أسابيع على ذلك، مُنح همفري، وهو يقارب الموت، امتيازًا لا سابقة له بإلقاء خطاب وداعي في خلال اجتماع مشترك لمجلسي النواب والشيوخ.

استلمتُ بعد ذلك بأيام قليلة رسالة موجزة كتبها همفري بخط يده وفيها: «حافظ على نزاهة الجامعات». وفهمت مقصده. أراد، وهو الرجل العظيم الذي

ليس لديه أي شكل من أشكال البخل، أن أجعل الجامعات التي مُنحت أراضي عامة تبقي تركيزها على الهدف المركزي لقانون مكافحة المجاعة. وعرفت، لما توفى بعد ذلك بأيام قليلة، أن الوفرة الغذائية فقدت مدافعًا قويًّا عنها.

ترك فشلي في الوصول إلى ولايتي الثانية عشرة في الكونغرس، في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨٢، برنامج مكافحة المجاعة من دون مدافع متحمس وذي خبرة سواء في مجلس النواب أو في مجلس الشيوخ. وحاولت بعد مغادرتي الكونغرس أن أتابع الالتماس الذي طلبه همفري وهو على فراش الموت وأنا أواصل مهماتي كعضو في مجلس التنمية الغذائية والزراعية الدولية من ١٩٨٣ إلى ١٩٩٤، وقد عينني فيه ريغان وأعاد تعييني الرئيس جورج هـ. و. بوش. حاولت إقناع المجلس بالتركيز على برامج توافر المهارات الأساس للمزارعين الصغار، وهو السبيل الذي قصدناه أنا وهمفري. ولم تثمر جهودي نجاحًا يُذكر.

وكان عويس هو الرجل الآخر الذي أدخلته مكافحة المجاعة إلى حياتي. اتفقنا في الرأي على ما يجب القيام به لجعل التشريع فاعلًا. ومنذ إنشاء مجلس التنمية الغذائية والزراعية الدولية وفي خلال سنوات عضويتي الإحدى عشرة في مجلسه، تشاورنا معًا كلما برزت أمامنا تحديات البرنامج.

وعشت اختبارات، في خلال سفري في ١٩٨٦ مع أعضاء آخرين في مجلس التنمية الغذائية والزراعية الدولية في مهمة في الإكوادور والبيرو، عمّقت التزامي الأهداف الأساس التي وضعتها في تشريعي المتعلّق بمكافحة المجاعة. وبعد توجّهي إلى حضور من المزارعين في الإكوادور، حدثني أحد الباعة الموجودين فاستذكر انه وهب البذور والمخصّبات لأحد المزارعين وأنه ساعده، في خلال سنة الموسم، في استخدام الهدية كما يجب. وكانت النتيجة محصولًا لا مثيل له. ولما عاد وتحقق بعد سنوات عدة، وجد أن المزارع رجع إلى الإجراءات غير المنتجة التي تعلّمها من والده. وفي ذلك دليل إلى ان المزارعين، على غرار الناس الآخرين، يحتاجون إلى متابعة مستدامة لكسر

العادات السيئة. فالكثيرون من المزراعين في البلاد التي تعاني نقصًا في الغذاء لا يزالون أميين غير قادرين على قراءة التوجيهات على كيس العلف.

تدبّر الثلاثي العسكري الحاكم في الإكوادور أن نشاهد فيلمًا يصوّر «تقدّم» البلاد في مجال الزراعة. وأظهر آلات عملاقة للزرع والحصاد أثناء العمل في حقل كبير مع غياب شبه تام لأي مزارع. فقد تجاوزت هذه الآلات المزارعين الصغار الأميين، وهو ما لا يكاد يشكل خطوة تقدمية للإكوادور على جبهة الزراعة. والتقيت في ليما، البيرو، واحدًا من أعظم المواطنين الأميركيين اللاتينيين، هيرناندو ديسوتو، المدافع عن حقوق الإنسان الذي نجح في تحسين وضع المزارعين الصغار. أقنع الحكومة بتطبيق إصلاحات الأراضي مما سمح لهؤلاء المزارعين، وهم في معظمهم من الهنود الاصليين، في أن يصبحوا للمرة الأولى ملاَّكين. وقد صفّق للهدف التعليمي للتشريع الأميركي المتعلق بمكافحة المجاعة.

تحدّثتُ في موضوع مكافحة المجاعة في خلال زيارات لإيطاليا والشرق الأوسط، إضافة إلى جامعات أميركية عدة. وجاءني في ١٩٩٥ تنويه من الاتحاد الوطني للجامعات الرسمية والمعاهد التي مُنحت أراضي عامة. وورد فيه «أن جهود [فندلي] على مر السنوات الخمس عشرة الماضية من أجل مكافحة المجاعة في كل أنحاء العالم تستحق أعلى درجات الثناء».

ركز مجلس التنمية الغذائية والزراعية الدولية، منذ نشأته، معظم وقته ومصادره على مشاريع الأبحاث المخبرية التعاونية التي كانت مفيدة لكنها لا تساعد في تعليم المزارعين الأميين. ولا يزال برنامج مكافحة المجاعة، حتى كتابتي هذه الكلمات، موجودًا في القانون العام. ويوقد هذا أملي في ان الإدارات المتعاقبة ستعيد الحياة إلى البرنامج بنشاط متجدد. فلا يكفي توفير المساعدة الإنسانية الغذائية في زمن المجاعة، ولا تطوير مخصّبات وبذور جديدة. فإذا لم يحصل المزارعون الصغار على التعليم الأساس فستستولي الآلات الكبيرة على الأرض. بصفة كونهم فقراء وأميين ويائسين فسيهاجرون إلى المدن ويصبحون فرائس سهلة للجريمة والاضطرابات المدنية. وإذا توافر لهم

التعليم الأساس وهم لا يزالون في الزراعة فستصبح هذه المهارات مفيدة لهم بغض النظر عما سيفعلونه في المستقبل.

ومع ازدياد انتاج الفرد الزارعي سينتقل بعض أعضاء العائلات الزراعية في شكل محتوم إلى المدن حيث ستُمكّنهم المهارات التي حصلوا عليها من التعليم الأساس في تقديم خدمات تحسّن من مستوى الحياة في البلاد. ولا يمكن هذا أن يتحدث بين ليلة وضحاها. فهو يتطلب برنامج توعية متخصصًا يجب تعزيزه في شكل دائم.

وتوجد اليوم حاجة أكثر إلحاحًا إلى البرنامج عما كانت عليه عندما وُضع في قانون، في وقت يتم توقّع عجز في الغذاء العالمي في المستقبل القريب. وقد أفادت منظمة الغذاء والزراعة التابعة للأمم المتحدة، في ٢٠٠٩، أن عدد الذين يعانون الجوع في العالم يفوق المليار، إذ إن عدد الجائعين يزداد بأسرع من النمو السكاني، «مما يشكل تركيبة مدمّرة لأكثر الناس ضعفًا في العالم». وقدّرت أن أزمة الغذاء «تصيب واحدًا من كل ستة أشخاص في العالم، حيث يعيش جميع من يعانون سوء التغذية تقريبًا في البلدان النامية». وحذّرت جوزيت شيران، من برنامج الغذاء العالمي وهو منظمة أخرى تابعة للأمم المتحدة، من «أن ثمة رقمًا قياسيًّا من مليار شخص اليوم - معظمهم من النساء والأطفال - يذهبون إلى النَّوم وهم جائعون... وأمام الناس، الذين لا يتوافر لهم الغذاء، ثلاثة خيارات فقط: إما أن يشاغبوا، وإما أن يهاجروا، وإما أن يموتوا»[١].

وتشكّل الأسلحة النووية، على غرار شبح المجاعة، آفة أخرى تتزايد ولا تتراجع. فوحدها كانت الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى وكندا، عند نهاية الحرب العالمية الثانية، أعضاء في نادي الأسلحة النووية. وها إن فرنسا وإسرائيل وروسيا والهند وباكستان والصين حازت العضوية. واستمعتُ، عندما كنت عضوًا في لجنة العلاقات الخارجية في مجلس النواب، إلى أحد الخبراء يشهد أن ٤٠ دولة أخرى تمتلك المواد والتكنولوجيا التي تسمح لها بأن تنتج

(١) ملاحظات أدليت بها في مؤتمر لوكسمبورغ في ١٢-١٠-٠٩.

في مدة زمنية قصيرة - بضعة أشهر وحسب - رؤوسًا حربية نووية إذا ما قررت الإنضمام إلى النادي. ووضعتُ مسودة خطة للتخلص الآمن من النفايات السامة الناتجة عن إنتاج الطاقة النووية، لكنها لم تحظ بأي دراسة تشريعية.

إنضممت في آذار/مارس ١٩٧٨ إلى كليمنت زابلوسكي، رئيس لجة الشؤون الخارجية، في رعاية تعديل، هو بمثابة «تحذير ملائم»، على التشريع الخاص بسياسة التصدير. وقد سعى إلى ضمان إشعار من ٩٠ يومًا قبل أن يمكن استخدام المواد المصدّرة لتجميع الرؤوس النووية. وقد أُسقط من مشروع القانون، غير أنه أصبح الرائد في نص قانون عدم انتشار الأسلحة النووية الذي تم تبنيه في وقت لاحق من تلك السنة[١].

أدلى أيزنهاور، في خلال زيارة خاصة قمت بها قبل ذلك بسنوات لمكتبه في غيتيسبورغ، بملاحظة مثيرة للدهشة. قال إن الطريقة الفضلى «لضمان السلام الدائم في أوروبا» قد تكون في إعطاء كل رئيس حكومة رأسًا نوويًا أو اثنين. كان ذلك تعليقًا خاصًا غير مخصص للنشر. وقد أعلن ذلك بعد بضع سنوات فقط على حيازة الولايات المتحدة ميزتها المريبة في كونها الدولة الأولى، والوحيدة حتى الآن، التي تقوم بتفجير نووي في أعمال حرب. وعند ذاك الوقت كان الاتحاد السوفياتي حاز أسلحة نووية بعد حليفي الحرب بريطانيا العظمى وكندا.

فكّرتُ في تعليق آيك فيما بعض زعماء العالم، وبينهم الرئيس باراك أوباما، يتفاعلون بقلق شديد مع إمكان حصول إيران على اسلحتها النووية الخاصة. وفي مواجهة مخزون الأسلحة النووية الذي لإسرائيل المجاورة، قد يستنتج بعض الدول العربية، إضافة إلى إيران، ومهما كان ذلك الاستنتاج غير حكيم، بأن كلًا منها يحتاج إلى رادع نووي لنزعة إسرائيل إلى العدوان المسلّح. وقد تصل دول أخرى، أصابها القلق من عدم الأمان، إلى النتيجة نفسها. وقد يصبح العالم سريعًا مزدانا بالرؤوس الحربية النووية. وعلى رغم أن

---

(١) بريد إلكتروني من فيكتور جيلينسكي العضو المخضرم في لجنة التنظيم النووي ٤٥ : ١١ ق.ظ.

ذلك يشكل الكابوس النهائي للجنس البشري، قد يحصل إذا فشل العالم في إقامة مؤسسة دولية على درجة كافية من القوة لتطبيق قانون منع امتلاك الرؤوس الحربية النووية. فبقاء الأقوى هو شريعة الغاب.

على رغم الكلام الأميركي الذي لا يتبعه فعل في شأن عدم انتشار الأسلحة النووية، أعطت حكومتنا المثال الخاطئ مرات عدة في السنوات الأخيرة. فقد استأنفت تعزيز أسلحتها النووية وتركت البرنامج المشترك مع روسيا في شأن الخفض الرئيس المتبادل للرؤوس الحربية النووية يُحتضر. ولم يشتك أوباما قط، على غرار من سبقوه منذ كنيدي، في شأن الرؤوس الحربية النووية الإسرائيلية أو اعترف يوماً بوجودها. وترفض إسرائيل فتح منشآتها النووية أمام التفتيش الدولي.

ومنذ اللحظة التي شهدتُ فيها بنفسي الوقع المريع للقنبلة الذرية الصغيرة نسبيًا على نغازاكي في اليابان في ١٩٤٥، عاهدت نفسي على القيام بما أمكنني للقضاء على آفة الأسلحة النووية وعلى الحرب نفسها. فما وُجِدَتْ هذه الأسلحة في أي مكان، ستبقى البشرية تحت تهديد إمكانية أن يتم تفجير واحد أو أكثر من هذه الرؤوس النووية مما يؤدي إلى نتائج مهولة، سواء قام بذلك ديكتاتور استبدادي أو نتج عن مجرد حادث. على الهدف الأميركي أن يكون القضاء على كل الأسلحة النووية على مستوى العالم. فالرؤوس الحربية النووية في أي مكان تشكل خطرًا على الناس في كل مكان.

القسم الخامس: الكلفة العالية للانحياز الديني

الفصل الثامن عشر: أدغال الشرق الأوسط

زرت الشرق الأوسط للمرة الأولى أوائل أيار/مايو ١٩٧٤ وأنا في منتصف حياتي في الكونغرس. واستمعت هناك إلى شكاوى مباشرة من رئيسي سورية وجمهورية اليمن الشعبية الديمقراطية في شأن السياسة الأميركية المنحازة ضد العرب. وقد فتح ذلك عيني للمرة الأولى على سوء المعاملة التي يلقاها الفلسطينيون من إسرائيل في حقوقهم الإنسانية وفي حقهم في الملكية، وتواطؤ الولايات المتحدة، حليفة إسرائيل الوحيدة الكبرى، في هذه الانتهاكات.

كان هدف رحلتي الوحيد وضع حدٍّ لانتهاك حقوق الانسان الذي أنزلته حكومة عربية بواحد من أبناء دائرتي الانتخابية. وقمت، في إجراء يائس يتعلّق بمصير شاب لم يسبق لي أن التقيته، برحلة وحدي إلى عدن، عاصمة اليمن الجنوبي، لانقاذه من السجن. وهو استاذ من قرية صغيرة في مقاطعتي في إيلينويز[١]. شكلت عملية الانقاذ الجهد الأكبر الذي بذلته في الخدمات الانتخابية وهو الأكثر إثارة بين الكثير من سفراتي إلى الخارج التي سأقوم بها في خلال سنواتي في الكونغرس. حصلت على إطلاقه. وسرعان ما عقدت اجتماعًا خاصًا مع الرئيس جيمي كارتر في البيت الأبيض حثثته في خلاله على الشروع في خطوات لتطبيع العلاقات الدبلوماسية مع اليمن الجنوبي. وردّ كارتر بالإيجاب قائلًا: «سأهتم بالمسألة». وبعد ذلك بأشهر عدة توقفت بعثة أميركية للاجتماع مع علي في صنعاء، عاصمة اليمن الشمالي، على أن تكمل طريقها في اليوم التالي إلى عدن. وألغيت المهمة بعدما أدى تمرّد دموي قامت به فئة

(١) They Dare to Speak Out, pp 1-12.

ماركسية راديكالية إلى اطاحة الحكومة وإلى إعدام علي ووزير الخارجية [محمد صالح] مطيع.

وُجد بين الحضور، لدى تحدثي في تموز/يوليو ١٩٩٤ أمام مؤتمر الأمم المتحدة في جنيف، الدكتور أحمد شجاع رئيس قسم الفنون في جامعة صنعاء في اليمن. وكان اليمنان، الشمالي والجنوبي، توحدا في ذلك الوقت. ودعاني شجاع، بعد ملاحظاتي، إلى إلقاء محاضرة في صنعاء. فوافقت، وتحدثت في نيسان/أبريل التالي إلى تجمع في العاصمة اليمنية. حاولت أن أشرح السبب الذي يحدو في الواقع بالولايات المتحدة، القوة العظمى، إلى ان تموّل سوء معاملة إسرائيل للعرب. وتساءلت لاحقًا عن عدد الحضور الذين صدّقوا أن في إمكان متعصبين لإسرائيل الدولة الصغيرة ذات الستة ملايين مواطن، التلاعب بقوة عظمى. شكّل ذلك غرابة، وكذلك كانت سياسات الولايات المتحدة الشرق الأوسطية التي عرضتها وانتقدتها. وبعث إلي شجاع في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٧ بكلمة تفيد أن جامعة صنعاء أقرت منحي شهادة الدكتوراه الفخرية، ووصل في الشهر التالي أربعة من آل فندلي - أنا ولوسيل وولدانا كريغ وديان - إلى صنعاء لاستلام الشهادة، وهي أول تكريم من نوعه لأجنبي. وبعد ليلة أمضيناها في فندق ملكة سبأ الموقّر، واكبَنا شجاع إلى مبنى قاعة الاحتفالات حيث رفع زملاؤه لافتات الترحيب على أقمشة كبيرة من الكتان. وحضر مسؤولون حكوميون ومن الجامعة إضافة إلى سفراء أجانب. وارتدى الضيوف الخاصون، بمن فيه آل فندلي، جلابيب الجامعة الأكاديمية الخضر المميزة. ويزين جلبابي الآن باب مكتبي. وتحدّثت بعد المراسم إلى الطلاب في قاعة المحاضرات المجاورة. وتفحّصَتِ الطالبات، وسط الكثير من الضحك، تسريحة شعر ديان وحذاءها وجواهرها، وقدمن إليها خاتمًا تذكارًا للمناسبة.

ونُقلنا بالسيارة إلى تعز وعدن لمزيد من المحاضرات. أخّر الفيضان على الطريق العام وصولنا إلى تعز ساعة، غير أننا وجدنا لدى وصولنا قاعة المحاضرات وهي لا تزال تعج بالطلاب. وفي عدن قال لي مواطن محلّي أنه لا يزال يتذكّر زيارتي الأولى لليمن الجنوبي.

ولطالما تساءلت، في السنوات التي تلت، هل قرار علي إطلاق إد فرانكلين في ١٩٧٤ شكل عاملًا في حصول التمرد الدموي بعد ذلك بأربع سنوات. وتلقيت الجواب من أحد الرجال، في ٢٠٠٦، في خلال حفل استقبال أقامه القادة المسلمون في الشارقة، وهي جزء من الإمارات العربية المتحدة. جاءني ضيف عرّف عن نفسه بأنه المسؤول الذي حضّر الأوراق الرسمية لإطلاق فرانكلين من السجن في ١٩٧٤. وبعد تقديم نفسه، قال بشعور عميق: «لماذا جئتَ إلى عدن؟ كنتَ تعرف أن زيارتك ستولّد مشكلة للرئيس علي. كان رجلًا صالحًا، وزيارتك أدت إلى مقتله». صدمني الاتهام، وأجبت: «لم يراودني، في ذلك الوقت، مثل هذا الفكر ولم تتوافر لي مثل هذه الإشارات. بل إن هدفي قضى بتحرير أحد ناخبي من السجن ظلمًا». بدا على الرجل الاضطراب، وغادر الاستقبال. ولا تزال كلماته تزعجني.

وفي عودة إلى تلة الكابيتول، دفعني قلقي في شأن سياسة الشرق الأوسط إلى إثارة الأسئلة عن تواطؤ حكومتنا مع إسرائيل في الإساءة إلى الفلسطينيين. كان انطباعي الشخصي عن العرب إيجابيًا ولا يزال كذلك. واقتنعت بأن للفلسطينيين شكاوى مشروعة ضد حكومتنا، غير أن هذه الشكاوى لم تلقَ تفهمًا أميركيًا رسميًا، والأقل منه أنها لم تلق إنصافًا.

على أمة عظيمة مثل الولايات المتحدة أن تقيم، في عملية حفظ لمصالحها الذاتية، اتصالًا مباشرًا وتحافظ عليه مع كل الدول والكيانات السياسية الرئيسة مثل منظمة التحرير الفلسطينية. لم أستوعب في ذلك الوقت ضخامة النفوذ الإسرائيلي في السياسة الأميركية العامة، بيد أنني شرعت أسعى من أجل وضع شروط المنطق السليم على المساعدة المستقبلية لإسرائيل. وشكلت تلك معركة صعبة من دون انتصارات.

حافظ المسؤولون الإسرائيليون، سنين، على سياسة عدم التحدث مع كيانات معادية لأهدافهم. ودعيت مثل هذه المجموعات، من قبل الفلسطينيين، إرهابية لأنها عارضت، وأحيانًا في عنف، السيطرة الإسرائيلية غير المشروعة على أرض ادعى العرب وأسلافهم أنها لهم منذ ألفي عام. ونتيجة الضغط الذي

مارسته إسرائيل ومؤيدوها الأميركيون، تبنّت الولايات المتحدة سياسة عدم التحدث نفسها الأمر الذي يعني رفض الاتصال بزعماء في منظمة التحرير أمثال ياسر عرفات. ولم يكن لهذا الرفض من معنى.

شاركت في إحدى أمسيات ١٩٨١ في نقاش على التلفزيون الوطني في هيلسايد، ميتشيغان، عن النزاع الإسرائيلي - العربي. استضافنا الصحافي وليام باكلي وكان القس جيسي جاكسون شريكه الرئيس في السجال. وركّزتُ، لما جاء دوري، على مسألة عدم التحدّث: «إذا كانت إسرائيل جادة في شأن التفاوض على السلام، عليها أن تتعاطى مع الزعامة الفلسطينية مباشرة. فما من أحد ينتظر في الاجنحة ليأخذ مكان عرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية التابعة له». لم أُمنح الوقت للتوسّع وتوجهت عائدًا إلى واشنطن وأنا أشعر أنني فشلت في توضيح حجتي. وفي اليوم التالي قال لي نائب أيوا، سميث، في مجلس النواب أنه شاهد المناظرة على التلفزيون وهنأني: «كانت وجهة نظرك متينة. فإسرائيل، برفضها التحدث مع عرفات، زعيم الفلسطينيين بلا منازع، تظهر أنها لا تريد حقًّا التفاوض على تسوية سلمية». فاجأني تعليق سميث وسرّني كونه يأتي من ديمقراطي لم يسبق لي أن تناقشت معه.

بدأت معرفتي بعرفات أوائل ١٩٧٨ واستمرت حتى ٢٠٠٦. ودفعت بي إلى ما سيصبح مشروعًا صعبًا ومثيرًا جدًّا للجدل: إنشاء دفق للمعلومات بينه وبين الحكومة الأميركية يعود بالفائدة على الطرفين. لم أكن عميلًا لعرفات بأي معنى من المعاني، غير أنني قمت مرتين، خلال أزمة الرهائن في إيران، وبطلب خاص من وزارة الخارجية، بنقل رسائل رسمية دعت عرفات إلى إلغاء خطط لمنظمة التحرير للقيام بمواجهة تصويتية على مسائل عالقة أمام مجلس الأمن الدولي. ولم أتبادل، خلال تلك المحادثات الهاتفية، سوى كلمات قليلة مع عرفات مباشرة. إذ كان ينقل معظم كلامنا محمود اللبدي، مساعد عرفات الخاص الذي يتقن الإنكليزية. وتعاون عرفات كلّيًا مع كل طلب نقلته، وهي مساعدة لم تعترف بها الحكومة الأميركية قط. وقُتل اللبدي بعد ذلك بأشهر في انفجار سيارة ملغومة في لبنان.

انضممت في آذار/مارس ١٩٧٨ إلى زميلي الجمهوري تشارلز دبليو والن، من أوهايو، في تحدّ معلن لشرعية استخدام إسرائيل تجهيزات عسكرية هي هبة من الولايات المتحدة. وأعلنا، في رسالة إلى وزير الخارجية سايروس فانس، أن إسرائيل انتهكت في غزوها الأخير للبنان شروط قانون التحكم في صادرات الأسلحة الذي يحظر استخدام الأسلحة الأميركية بما هو أبعد من الدفاع المشروع عن النفس. وردّ فانس خطيًّا بعد ذلك بشهر بأن إسرائيل «قد تكون انتهكت القانون الأميركي». ولم يتوسع في الشرح ولم أذهب في المسألة إلى ما هو أبعد. غير أن سفير الرئيس كارتر في إسرائيل أعلم رئيس الوزراء الإسرائيلي مناحم بيغن سرًّا إذا لم تتوقف الهجمات على لبنان، أن المساعدة الأميركية لإسرائيل ستتضرر. وحمل بيغن الهاتف على الفور وأمر بوقف العمليات العسكرية في لبنان. وربما رسالتنا هي التي دفعت كارتر إلى توجيه الإنذار السري ولكن الناجح إلى تل أبيب.

عقد اجتماعي الأول مع عرفات في كانون الثاني/يناير ١٩٧٨ وأنا في جولة لبعثة من الكونغرس على الشرق الأوسط. وانضم عضوان آخران من المجموعة إلينا أنا ولوسيل من أجل المقابلة بعدما قطعتُ لهما وعدًا بعدم الإشارة أبدا إلى مشاركتهما. وقد واكب سياراتنا، من مقره وإليه، جنود مدججون بالسلاح. استقبلنا عرفات، وهو مكشوف الرأس، على رأس الدرج الخارجي الذي يؤدي إلى جناحه الواقع في الطبقة الثانية. وبعد نقاش مفعم بالحيوية استغرق أكثر من ساعتين، دعانا عرفات إلى عشاء متأخر علَّم في خلاله لوسيل الطريقة الصحيحة لطي لقمة الخبز، وعرض لها كيف يرتب كوفيته التقليدية بحيث تشبه خريطة فلسطين ما قبل ١٩٤٨.

بعد ذلك بعشرة أشهر، وفي خلال زيارة أخرى لوفد من الكونغرس لإسبانيا، تلقيت خبرًا يفيد أن عرفات يريد المزيد من النقاش فصعدت في رحلة جوية تجارية إلى دمشق. وسمح لي الزعيم الفلسطيني، في خلال أمسية طويلة معه، بأن أنقل إلى البيت الأبيض الشروط التي ستعيش بموجبها فلسطين الجديدة في سلام مع إسرائيل. وكتبتُ كلمات عرفات وهو يمليها عليّ، ثم

أعدت قراءتها في بطء مرات عدة لأتأكد من أنها تنقل في شكل دقيق موقفه السياسي. وفي ما يلي جوهر تعهده: إذا وافقت الدولة اليهودية على فلسطين مستقلة في الضفة الغربية وقطاع غزة مع ممر يربط بينهما، يتعهد عرفات، بصفة كونه رئيسًا لمنظمة التحرير الفلسطينية، أن فلسطين الجديدة ستعيش في سلام وتقيم علاقات الأمر الواقع الاقتصادية مع إسرائيل. ووعد، علاوة على ذلك، بأن تتخلى منظمة التحرير الفلسطينية عن أي جهود لتوسيع أراضي فلسطين الجديدة بالوسائل العنفية.

كان هذا الاعلان تاريخيا بالنسبة إليّ. وقد شكل تقدمًا رئيسًا من المواقف المعلنة التي اتخذتها منظمة التحرير الفلسطينية في مناسبات سابقة. وخلق لدي انطباعًا جيدًا بأنه يشكّل قاعدة متينة لمفاوضات طيبة النيات. وهي، في حال موافقة إسرائيل، ستؤدي إلى سلام من دون مزيد من العنف. واعتقدتُ أن أي مراقب موضوعي سينظر إليه على أنه خطوة كبيرة في الاتجاه الصحيح.

وبعودتي إلى واشنطن أفدت عن شروط عرفات للسلام في خلال موعد في البيت الأبيض مع زبيغنيو بريجنسكي، مستشار كارتر للأمن القومي. استمع بريجنسكي بتهذيب إلى تقريري لكنه لم يعط أي إشارة إلى أنه يعدّ تعهّد عرفات تطوّرا ذا مغزى. وأثارت مبادرتي، على ما توقّعته، انتقادًا حادًّا من عدد من زملائي في الكونغرس ومن الناخبين اليهود في سبرينغفيلد، إيلينويز. ولم تنتزع أي ردّ من أي أحد في البيت الأبيض.

رفض المسؤولون الإسرائيليون تعهّد عرفات ووصفوه بأنه عديم القيمة. ولما التقيت زعيم حزب العمل شمعون بيريز بعد ذلك بأيام قليلة في إحدى مناسبات البيت الأبيض، كان أعلن، في مقابلة مع برنامج «واجه الصحافة» على شاشة الأن.بي.سي.، أن عرفات جادل في تفاصيل التعهّد كما نقلتُها. وقد شاهدت في انتباه تلك المقابلة التلفزيونية، وعرفت أن بيريز يكذب. وبعد ذلك بأيام نشرت النيويورك تايمز برقية لها من باريس تؤكد دقة تقريري. ونقلت عن ابراهيم الصوص، ممثل منظمة التحرير في فرنسا، قوله: «ستوقف منظمة التحرير الفلسطينية، في حال إنشاء دولة فلسطينية، الهجمات على دولة إسرائيل

وتعترف بها كأمر واقع». ووصف الصوص الاعلان بأنه «تنازل رئيس» يقدمه الزعيم الفلسطيني[1]. وفي ما عدا التقرير الموجز في التايمز، لم تعر وسائل الاعلام الرئيسة الوضع أي انتباه.

كانت كذبة بيريز هي الأولى بين سلسلة أحداث أقنعتني بأن النية الطيبة في شأن حقوق الفلسطينيين الإنسانية لم توجد قط لدى المسؤولين الإسرائيليين في أي وقت من أوقات تاريخ الدولة اليهودية الذي يبلغ نصف قرن. لم يريدوا محادثات النيات الطيبة. بل أرادوا، بدلًا من ذلك، للنقاشات أن تستمر إلى ما لا نهاية مما يتيح لهم الوقت لتوسيع المستوطنات اليهودية داخل فلسطين المحتلة. فقد استعمل المسؤولون الإسرائيليون، دومًا، هذا التوسع بمثابة أداة مشؤومة لاجتياح فلسطين نهائيًا بالمستوطنات وبالتالي إزالتها. وتظهر سلسلة من الخرائط نشرت في ٢٠٠٩ أن الاستيلاء الإسرائيلي شبه التام على فلسطين قد تحقق بالفعل من خلال احتلال هائل للأرض في انتهاك للقانون الدولي وللمبادئ التي نص عليها ميثاق الأمم المتحدة وتعهدت إسرائيل التزامها.

وجدتُ عرفات صريحًا وراغبًا في أن ينقل كلامه. وبدت لحيته الرثّة أبدًا تخالف أسلوبه اللطيف المهذّب. بدا أشبه بالزعيم المحاصَر الذي نادرًا ما يتوافر له الوقت للحلاقة. وهو مقاتل فدائي وسيؤدي هذا الدور. فابتسامته العريضة والجاهزة وضحكته جذّابتان. وعلى رغم صغر يديه فإن مصافحته دافئة ومتينة. يتحادث بالانكليزية، لكنه يلجأ من وقت إلى آخر إلى أحد مساعديه طلبًا للكلمة المناسبة. وهو مستمع جيّد. وعندما تعطلت مسجلتي في الرحلة الثانية أعطاني بديلًا من عنده. وهو يمتلك حسًّا جيدًا بالفكاهة. ولم يقاطع أي مرّة مداخلاتي المتكررة، وينظر مباشرة في عيني ونحن نتحدث. وإذا صح أنه فاسد في إدارة شؤون منظمة التحرير، كما يتهمه منتقدوه تكرارًا، فإن ذلك غير ظاهر في أسلوب حياته أو لباسه المتقشف. وأعتقد أنه ارتدى، في خلال كل اجتماعاتي معه على امتداد ٢٣ سنة، السترة شبه البالية نفسها والسروال.

---

(١) NYT December 20, 1978.

وتُمضي زوجته وابنته الصغيرة معظم وقتيهما في باريس لدواعي أمنهما الشخصي.

وفّرت لي أقدميتي في لجنة الشؤون الخارجية المقعد الجمهوري الأول في اللجنة الفرعية التي تتعاطى بشؤون الشرق الاوسط. وأدى هذا الموقع إلى دعوات إلى حضور اجتماعات صغيرة عن السياسة العامة، أحيانًا في البيت الأبيض مع كارتر. التقيت مرات عدة على حدة رئيس مصر أنور السادات وخليفته حسني مبارك، وأقمت علاقة ودّية مع الملك الأردني حسين في خلال اجتماعات في تلة الكابيتول وفي عمّان، الأردن.

كنت آتي من وقت إلى آخر مع غيري من الزملاء إلى البيت الأبيض، إبان إدارتي الرئيسين ليندون ب. جونسون وجيمي كارتر، لإجراء مناقشات تتعلق بالسياسة الخارجية. وكانت أسئلتي إلى الرئيسين وكبار مستشاريهما تحذّر في شكل شبه دائم من الكلفة على مصلحتنا الوطنية التي يفرضها انحياز حكومتنا إلى إسرائيل في سياسة الشرق الاوسط. ولم تكن أجوبتهم لا صريحة ولا موضوعية.

وفي أحد الأيام في واشنطن قال لي السادات في حديث خاص أن مصر ستتخلى «في سرور» عن المنحة الأميركية السنوية لبلاده بقيمة نحو ملياري دولار إذا وضعت الحكومة الأميركية «شروطًا جدية» على هباتها لإسرائيل. وكان بيغن، وعلى عكس السادات والملك حسين وحسني مبارك اللطفاء والمؤدبين، أعطاني انطباعًا بأنه خدّاع متغطرس وماهر. وقد توجّهتُ إليه شخصيًا في أحد النقاشات غير الرسمية في لجنة الشؤون الخارجية. أشرتُ إلى أن إسرائيل أعادت سيناء إلى مصر، وسألته ما هي التنازلات الإضافية في الأرض التي سيقبل بها رئيس الوزراء من أجل إحلال سلام دائم مع الفلسطينيين. وردّ بيغن صائحا بالتصريح التالي: «لن نتخلى أبدًا، أبدًا عن أي شبر من يهودا والسامرة [الضفة الغربية المحتلة كما ورد اسمها في التوراة]». وهذا دليل إلى أن بيغن يخلو من الإرادة الطيبة حيال الفلسطينيين الذين تسيطر عليهم حكومته.

أعتقد كارتر، عند ختام مفاوضات كامب ديفيد التي أنتجت اتفاقيات سلام مصرية مع إسرائيل، أن الاتفاقات تحتوي تعهّدًا قويًا من بيغن بـ«الحكم الذاتي» للفلسطينيين، وهو وضع عدَّه كارتر خطوة رئيسة في اتجاه الدولة. وثبت أنه وعد أجوف. فقد عرقلت الحكومة الإسرائيلية عقب ذلك كل الخطوات في اتجاه الحكم الذاتي أو الدولة.

تميّزت علاقتي بمبعوث كارتر الخاص إلى الشرق الأوسط، روبرت شتراوس، بالود وكانت، لمدة وثيقة. وهو رجل ساحر يمتلك شخصية فائقة النشاط، وأبلغني أنه يعارض بقوة السياسة الأميركية القاضية بعدم التحدث مع الفلسطينيين. وقال: إذا وافق كارتر فسيعمد فورًا إلى فتح نقاشات علنية مباشرة مع عرفات. وأضاف: «أعرف أنني كنت سأذلل، في المحادثات المباشرة، معظم الصعوبات التي نواجهها مع منظمة التحرير الفلسطينية». وأعرب شتراوس عن الأمل في أن أكون جسرًا مفيدًا في الاتصالات غير الرسمية بينه وبين عرفات.

وبين التذكارات التي حصلت عليها من عرفات تمثال من خشب الصندل لامرأة فلسطينية تحمل جرّة. وقد وقع زعيم منظمة التحرير على قاعدة التمثال وطلب مني تسليمه لشتراوس. وعندما اتصلت لترتيب عملية التسليم، بعث إليّ شتراوس بكلمة يقول فيها أنه بمقدار ما يتمنى ان يمتلك سلطة إجراء محادثات مباشرة مع عرفات، وبمقدار ما سيحب هذا التذكار، يشعر أنه لا يستطيع القبول به بسبب سياسة كارتر القاضية بعدم التحدّث. ولا يزال التمثال في مكتبي.

صادفتُ في أحد الأيام دليلًا قويًا إلى نفوذ اللوبي. كانت لجنة العلاقات الخارجية تنظر في تشريع لمساعدة كبرى لإسرائيل، وكالعادة لم يعط التشريع الرئيس فسحة في إدارتها. وقد تم التعهد في قوة أن تكون المساعدة لإسرائيل وحدها. وطرحتُ، أنا الجمهوري، تعديلًا يسمح للرئيس الديمقراطي كارتر بتوزيع بعض من الأموال على دول أخرى في الشرق الأوسط إذا سوّغت الظروف ذلك في السنة الغامضة التي تلوح أمامنا. وأمر رئيس اللجنة كليمنت زابلوسكي بالتصويت برفع الأيدي على اقتراحي. وكنت الوحيد الذي صوّت

موافقًا. وصوّت الآخرون جميعهم بالرفض. ورأيت في التصويت تفويضًا لحسن رفاه إسرائيل بدلًا من حسن رفاه أميركا.

أصبحت نشاطاتي الشرق الأوسطية مسألة مركزية في حملتي التالية لإعادة انتخابي. وفي تموز/يوليو ١٩٨٠، وفيما نفرغ أنا ولوسيل حقائبنا في فندق ديترويت المخصص لمندوبي ديترويت في المؤتمر الوطني الجمهوري لتسمية المرشح إلى الرئاسة، سمعتُ هتافات قوية من بهو الفندق تحتنا: «بول، بول يجب أن يرحل لأنه يدعم منظمة التحرير الفلسطينية». فمع انتهاء الانتخابات الأولية، تدبّر نائب ولاية إيلينويز الديمقراطي ديفيد روبنسون الذي اختاره الديمقراطيون منافسًا لي في انتخابات تشرين الثاني/نوفمبر، أن يقوم طلاب من المعهد بتسويق قضيته حتى في المؤتمر الجمهوري. بدأوا نشاطاتهم بتظاهرة داخل بهو الفندق وبعض الاتصالات الهاتفية المُضايقة إلى غرفتنا. ولم نعرف، أنا ولوسيل، في ذلك الوقت بتظاهرتين أخريين معاديتين لفندلي نظمتا خارج الفندق في وقت سابق من النهار نفسه. وأفادت صحيفة «جورنال كوريير» في جاكسونفيل ان «نحو دزينة من النساء اليهوديات رابطن عند مدخل الفندق نحو ساعتين في زمنين مختلفين للاحتجاج على موقف فندلي المؤيد لمنظمة التحرير الفلسطينية. وقالت المرابطات للمندوبين وهم يدخلون الفندق أو يغادرونه: سنعمل على هزيمة صديق منظمة التحرير الفلسطينية هذا. وعرّفن عن أنفسهن أعضاء في المنظمة الصهيونية في الولايات المتحدة»[١].

بعد مؤتمرات تسمية الرئيس، وصل نجم المستقبل في السياسة الديمقراطية رام إمانويل الذي أصبح لاحقًا رئيس موظفي الرئيس باراك أوباما إلى سبرينغفيلد لمساعدة منافسي الديمقراطي. وقد تكون هذه المساعي هي الحملة السياسية الوحيدة له التي ساند فيها خاسرًا. وعمل إيمانويل لاحقًا في البيت الأبيض مستشارًا للرئيس كلينتون ونُسب إليه تنظيم مصافحة ١٩٩٣ العلنية بين رئيس وزراء إسرائيل وعرفات. وشكّل ذلك تحوّلًا من صيف ١٩٨٠ عندما

(١) Jacksonville IL Journal-Courier 7-17-80.

انضم إيمانويل إلى حملة سياسية حاولت تحويلي شيطانًا بسبب ارتباطي بعرفات.

نُشرت إعلانات لجمع التبرعات لحساب روبنسون في الصحف اليهودية الكبرى على مستوى البلاد. وقد وصفتني بأنني «معادٍ نشط للسامية وواحد من ألد الأعداء الذين واجههم اليهود وإسرائيل في تاريخ الكونغرس الأميركي». وعكس هذا الاتهام المتهوّر التحديد الإسرائيلي الجديد الذي يندّد بأي انتقاد للدولة اليهودية بصفة كونه تعبيرًا عن اللاسامية. وأعطت الإعلانات نتائج جيدة لحساب روبنسون المصرفي. وأظهرت التقارير الرسمية أنه حصل على تبرعات من كل ولاية من ولايات الاتحاد. وقد يكون الإعلان أحد العوامل في قرار صاحب البرامج الترفيهية بوب هوب والرئيس السابق فورد الانسحاب من التزامهما التحدث تأييدًا لي في مناسبات الحملة الانتخابية. وأشار كلاهما، في شرح قراره، إلى السمعة السيئة التي ألحقتها بي اجتماعاتي مع عرفات. وحصل انسحاب هوب بعد بيع كل التذاكر للإفطار الذي كان من المقرر أن يتحدث فيه. عرضتُ إعادة ثمن التذاكر، ولكن لم يطلب أحد ذلك. وحل زميلي الجمهوري، غي فاندر جاغت من ميتشيغان، محل هوب في مهلة زمنية قصيرة. وقد أثار إعجاب الحشود، وهو الخطيب المفوّه، بذاكرته الخطابية المذهلة. وانسحب فورد من المشاركة في حملة لجمع التبرعات في ألتون.

واجهتُ حملة عدائية يموّلها مؤيدو إسرائيل، فحاولتُ تحويل هذا الواقع لمصلحتي. وقام منظمو حملتي، كبرهان على تمويل روبنسون من أناس يقيمون خارج دائرتي الانتخابية، بطبع خمسة آلاف نسخة طبق الأصل عن وثيقة روبنسون الرسمية التي تعطي تفاصيل عما تلقّته حملته بما في ذلك اسم المتبرع وعنوانه والمبلغ الذي أسهم به، وتوزيع تلك النسخ ولم يكن سوى قلة من المتبرعين يقيمون في داخل الدائرة الانتخابية التي أمثلها. وحظيت الوثيقة بنسبة واسعة من القراء.

واكبتُ في خلال الصيف جاري اليهودي في بيستفيلد، بول ويل، إلى الاحتفال في البيت الأبيض حيث شاهدنا حفل توقيع المعاهدة التاريخية بين مصر وإسرائيل. فقد قضى أهل ويل في أحد معسكرات الاعتقال النازية في

الحرب العالمية الثانية، وواجه ويل نفسه احتمال الموت وهو في عمر السادسة عشرة عندما كان مسجونًا في معسكر داشاو الشهير. ومن حسن حظه أن انسباء له في شيكاغو وبيتسفيل اشتروا حريته قبل ستة أشهر من شن هتلر حربه الخاطفة على أوروبا. وأقام في منزلنا، وقام لدى وصوله بتوزيع غرسات عدة وقرون الخبز المصنوعة في المنزل لحساب صديقتنا في كارلينفيل، لينا فيلبس. ورحّب ويل، في خلال كل سنواته في جاكسونفيل، بالمناسبات المتوافرة للتحدث في المدارس وفي المجموعات المدنية عن تجاربه في داشاو. والتقى ويل، بعد احتفال البيت الأبيض، رئيس الوزراء الإسرائيلي مناحم بيغن إضافة إلى الرئيس والسيدة كارتر. ووصف ويل ذلك النهار بأنه «لا يُصدّق»[(١)].

طبّق الرئيس كارتر في حزم سياسة منع مسؤولي الإدارة الأميركية من إجراء محادثات مباشرة مع الزعماء الفلسطينيين. فقد طرد السفير في الأمم المتحدة أندرو يونغ في آب/أغسطس ١٩٧٩ لأنه أجرى حديثًا مقتضبًا مع سفير منظمة التحرير زهدي الطرزي، وهو فلسطيني أعرفه حق المعرفة. وكان الطرزي في ذلك الوقت الممثل الدائم لمنظمة التحرير الفلسطينية في الأمم المتحدة، وحصلت محادثته الوجيزة غير الرسمية مع يونغ عندما شاءت المصادفة أن يصعدا معًا في رحلة قصيرة في أحد مصاعد مدينة نيويورك. وبعد يوم على الواقعة دعاني وزير الخارجية سايروس فانس إلى مكتبه الخاص في مبنى وزارة الخارجية لأطلعه على آخر تفاصيل مناقشاتي مع الفلسطينيين. وأشار فانس في خلال محادثتنا إلى انتهاك يونغ قاعدة عدم التحدث. وقلت له إن الواقعة تبدو لي تافهة ولا تتعلق بأمور رسمية ويجب التغاضي عنها. وقال فانس، «لا، إنها مهمة. وعلى أندي الرحيل». ولم يتوسّع، غير أنني عرفت أن الأهمية التي أشار إليها تنبع من التعهّد السخيف الذي قطعه كارتر لحكومة إسرائيل. وكسر كلينتون أخيرًا، في أيلول/سبتمبر ١٩٩٣، قاعدة عدم التحدّث باستضافة اجتماع ضم عرفات ورئيس الوزراء الإسرائيلي اسحق رابين في الحديقة الجنوبية للبيت الأبيض لتوقيع ما أنبأ بأنه اتفاق سلام.

(١) State Journal Register, 2-26-79

وبعد التوقيع والمصافحة الشهيرة، استُقبل عرفات داخل البيت الأبيض استقبالًا رسميًّا، وهي التجربة الأولى من نوعها لزعيم منظمة التحرير الفلسطينية. وبعد ذلك بساعات دعا عرفات أشخاصًا كثرًا، بمن فيهم أنا والسفير السابق في الأمم المتحدة يونغ، إلى جناحه في الفندق. ودار نقاش مرح ومتفائل. وأكد عرفات ليونغ، وهو يبتسم، وكان الأخير أصبح مواطنًا عاديًا، أن نقاشه هذه المرة مع زعيم منظمة التحرير لن يشكل تهديدًا لوظيفته.

التقيتُ عرفات خمس مرات أخرى بعد مغادرتي الكونغرس. التقيته في المرتين الأوليين في بغداد في التي كانت فيها حكومة الولايات المتحدة تساند الديكتاتور العراقي صدام حسين في حربه مع إيران. والتقينا في المرتين في المسكن الذي اعطته الحكومة العراقية لمنظمة التحرير الفلسطينية.

وعقد اجتماع آخر مع عرفات في العام ٢٠٠٠ في أحد فنادق مدينة نيويورك. وبعد برنامج العشاء الذي أقيم احتفالًا بالذكرى الخمسين لإنشاء الأمم المتحدة، جاء عرفات إلى الطاولة البعيدة التي أُجلست إليها. عانقني، ثم أخذني بيدي وواكبني إلى جناحه في الفندق لمناقشة احتمالات السلام والخطط الموضوعة للاحتفال في بيت لحم بالذكرى الألفين لميلاد المسيح.

وعقد اجتماعنا الأخير في أريحا، في فلسطين، في صيف ٢٠٠٣ عندما رافقنا أنا ولوسيل مجموعة متعددة الجنسية من القادة الشبان في جولة على الأراضي المحتلة. وكانت اريحا محطتنا الأخيرة. وسبق لمجموعتنا ان شاركت في مؤتمر رعته الأمم المتحدة في عمّان. وردّ عرفات على الأسئلة وهو جالس في قاعة الاجتماعات في مقره المتواضع. ولاحظتُ، وأنا أجلس بقربه، ان ساقيه وشفتيه ترتجف في استمرار. وأعطى لوسيل، عند انتهاء البرنامج، علبة مغطاة بعرق اللؤلؤ، ثم سار مسرعًا إلى غرفة مجاورة. وعلى عكس الاجتماعات السابقة لم يَدُرْ نقاش منفرد. لقد كان رجلًا تعبًا ومريضًا.

وفي واحد من النقاشات الدورية العامة مع مواطني دائرتي الانتخابية،

سألني أحد الناخبين عن استعدادي للارتباط بعرفات الذي هو، بتعبيره، «شخص يُعدُّ على نطاق واسع أسوأ من جنكيزخان. وبدت المجموعة راضية لمّا شرحت أنني سعيت وحسب إلى أن أكون جسرًا للتواصل، محاولًا مساعدة عرفات على كسب تفهّم أكبر في الولايات المتحدة وحكومتها، على أمل أن احسّن من الفهم الأميركي للفلسطينيين أيضًا.

وجدتُ، على مر السنين، أن إجراء نقاش حضاري في شأن عرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية يكاد يستحيل في أي مكان في أميركا. وأنا حتى اليوم، بعد ٢٦ عاما على رحيلي من الكونغرس، أجد أن النظرة العامة إلى عرفات بصفة كونه إرهابيًا لا تزال قوية كما في السابق. ومنذ مدة وجيزة انقبض تقني طبي كما لو أن الألم يعتصره عندما سحبت لوسيل من محفظتها صورة تظهرنا نتناول العشاء مع رئيس منظمة التحرير الفلسطينية. وقبل وقت وجيز على وفاة عرفات، وعندما تحدّثت إحدى المعلّقات في السي.أن.أن. عن صحته المتدهورة، أضافت أن عرفات استمر في رعاية الإرهاب وهو يرفض مبادرات السلام الإسرائيلية. ولم تشر إلى شروط عرفات السخية للسلام.

يجب على المؤرخين أن يعطوا عرفات علامات مرتفعة بصفة كونه مدافعًا عن حقوق الإنسان. ما من شك في أنه ارتكب أخطاء، لكنه ثابر بقصد منفرد، في مواجهة الاحتمالات القوية المعاكسة، في سعيه من أجل حقوق الفلسطينيين في المواطنية الكاملة. واختلفت تكتيكات عرفات، بطرق جوهرية، عن تكتيكات موهاندس غاندي ونيلسون مانديلا ومارتن لوثر كينغ. فقد بشّر الثلاثة، على الرغم المعارضة الدموية والقاتلة أحيانًا، ومارسوا مقاومة غير عنفية في مسارهم الثابت إلى نجاحهم التاريخي. وعرفات لم يفعل. وربما اعتقد بعدم قدرته على ذلك نظرا إلى الظروف المحلية. اعتبر عرفات نفسه، منذ بداية منظمة التحرير الفلسطينية وحتى مماته، القائد الأعلى لقوات الحركة المسلحة غير المنظمة والسيئة التسليح والتنظيم والمبعثرة، حتى في خلال منفاه الطويل من الأراضي الفلسطينية. وسألته مرة، في خلال اجتماع في بغداد، هل هو قادر على

الاتصال في شكل منتظم مع انتفاضة المقاومة الجارية في الأراضي المحتلة. وكان جوابه: «أنا في القيادة المباشرة يومًا بيوم وساعة بساعة».

هل كان عرفات إرهابيًا؟ إذا كان كذلك، فإن سكان المستعمرات الذين تمردوا على الملك جورج الثالث في ١٧٧٦ قد يستحقون أن يصنّفوا هم أيضًا إرهابيين. هل كان قائدًا عظيمًا؟ الجواب نعم بحسب أي معيار معقول. وهو أيضًا ناجٍ مميز. وقد استذكَرَ، وهو يخبرني في أحد الأيام عن نجاته من حادث طائرة في شمال افريقيا، أن مساعديه الموجودين على الطائرة المتأرجحة لفّوه، قبل السقوط، بكل بطانية ووسادة أمكنهم العثور عليها. ولما اصطدمت الطائرة بالأرض انشطر هيكلها نصفين. وخرج عرفات منها من دون أي إصابة خطيرة. لقد امتلك، وهو المعرّض للاغتيال على يد القتلة المحتملين، الحيوات التسع الأسطورية قبل أن يسقط فريسة لما عدَّه معاونوه عملية تسميم مقصودة.

تأثرتُ جدًا عندما عرض التلفزيون في إحدى الأمسيات صورًا للرئيس كارتر وهو يضع إكليلًا من الزهر على ضريح عرفات في رام الله في فلسطين المحتلة. ولم يعدّ عرفات قط العنف الذي كثيرًا ما سمح به إرهابًا، بل ممارسة للحق المشروع في الكفاح المسلح لاستعادة السيطرة على ديار الأجداد من القوة المحتلة.

هل يتم تذكّر عرفات في استحسان؟ بالتأكيد من معظم الفلسطينيين، على رغم أن البعض يتهمونه بالفساد وعدم الكفاية. ولم يبرز أحد بصفة كونه صوتهم الجديد، بلا منازع، في مواجهة الطغيان، وهو الدور الذي ملأه عرفات حتى وفاته في ٢٠٠٤.



الفصل التاسع عشر: باب جديد يفتح على مصراعيه

كانت سنواتي الأخيرة في تلة الكابيتول صاخبة شأنها شأن السنوات الأخرى. فزت في آذار/مارس ١٩٨٠ بإعادة ترشحي بهامش ضيّق وبإعادة انتخابي في تشرين الثاني/نوفمبر بغالبية كبيرة مفاجئة نظرًا إلى الجدل الواسع والعميق الذي أحاط باسمي. وما إن انخرطت في مساعي إعادة انتخابي في ١٩٨٢ حتى لاحت في الأفق غيوم تُنذر بالسوء قبل وقت طويل على عملية الاقتراع.

نشرت لجنة الشؤون العامة الأميركية الإسرائيلية [الأيباك] في ١٩٨٠ كلامًا أنني باجتماعي مع عرفات تشاركت مع «الإرهابيين» وهددت في شكل خطير مصالح الولايات المتحدة بحثّي على تعليق المساعدة الأميركية لإسرائيل. وقدّمت الإيباك إسرائيل على أنها الديمقراطية الوحيدة في الشرق الاوسط وحليف أميركا الوحيد المؤتمن والفاعل في المنطقة. وكان صوتي، في المعمعة الحزبية، يكاد يكون الصوت الوحيد في التشديد على أن الولايات المتحدة تضرّ بمصالحها الحيوية الخاصة من خلال تزويد إسرائيل مساعدة هائلة وغير مشروطة.

ولاقى تحدّي رئيس بلدية كوينسي في إيلينويز، ديفيد نويسن، لإعادة ترشحي دعمًا من مجموعات اللوبي الوطنية، وليس الإيباك فحسب، بعدما احتللتُ طويلًا قائمة «أعدائهم». اجتذب نويسن الأصوليين المسيحيين لأنه معارض قوي للإجهاض ومؤيد لإسرائيل. عارضتْ المنظمات المناهضة للاجهاض ترشحي حتى بعد الانتخابات الأولية التي برز فيها النائب ديفيد روبنسون، خصمي الديمقراطي، على أنه أكثر تأييدًا للاجهاض منّي. وقبل ذلك

بسنتين عُلّقت لافتات على أوتاد في قاعة المحكمة الفديرالية في سبرينغفيلد حيث كنت أعقد «اجتماعًا للمدينة». واتهمتني إحدى اللافتات بقتل الاطفال[1]، وتواصلت الاحتجاجات بعد ذلك بيومين في ألتون حيث قوطعت مرات عدة في منتصف كلامي. وأنا لم أؤيّد الاجهاض أبدًا، غير أنني كنت مقتنعًا بوجود معضلات مُلوّعة يقتضي السماح فيها بهذا الإجراء. ولهذا السبب عارضتُ عمليات الحظر الشامل التي يفرضها القانون أو التعديل الدستوري فجلبت على نفسي معارضة المجموعات القوية التمويل والتي تسمي نفسها مؤيدة للحياة.

شكل الإجهاض وعرفات الموضعين الأكثر شعبية للمجوعات التي تعارض إعادة انتخابي. وترأس القسيس جيري فالويل، وهو مبشّر يتمتع بالشعبية، منظمة «الغالبية الأخلاقية» (Moral Majority) تُصنّف أعضاء الكونغرس استنادًا إلى تحديد فالويل للاخلاق. جرّدني سجلي التصويتي من حق الوجود في لائحته. فاسمي، على غرار اسم زميلي الجمهوري جون بوكانان، من الآباما، وهو قس معمداني محترم، ورد على لائحة فالويل للقلة غير الأخلاقية. ودفعت مطالبتي في ١٩٧٩ بإجراء تحقيق في شأن العمليات والإسراف في الإنفاق برئيس شركة «كوتون إنك.» ج. ديوك ووترز إلى حث زارعي القطن على الإسهام في حملة نويسن الأولية. وقد استمع مسؤول في وزارة الزراعة الأميركية إلى شريط يتضمن الخطاب الذي ألقاه ووترز في تجمّع للمزارعين وخلص إلى أن هذا النداء للإسهام المالي في حملة نويسن قد يشكّل انتهاكًا للتشريع الذي أنشئت بموجبه «كوتون إنك.». وأدى ذلك إلى تحقيق في شأن المنظمة أجراه المفتش العام للوزارة. وأفادت وكالة أنباء السلع (Commodity News Service) أن التحقيق سيحدد هل ووترز مرتبط «بحملة تبرعات واسعة يقوم بها زارعو القطن في كاليفورنيا لمصلحة نويسن»[2]. وما أن جاء يوم الانتخاب حتى أسقط التحقيق. وكانت خدمة البريد سلمتني، في وقت سابق من تلك السنة، قميصًا من القطن غير مرغوب فيها من «كوتون إنك». أشادت بها لوسيل

(١) State Journal-register 7-12-78.

(٢) CNS 6-4-80.

على أنها «رائعة». فأرجعتُها بالبريد لأنني لم أرغب في أن أكون مُلزمًا أي شكل من الأشكال حيال المنظمة. وقد صرتُ هدفًا للأهواء الشرسة التي تُنتجها الخلافات السياسية في بعض الأحيان. وتلقّيت وأنا في تلة الكابيتول تهديدات كتابية عدة صريحة بالموت.

عندما زرت جاكسونفيل في أيار/مايو ١٩٨١ لحضور احتفال تقيمه البلدة على شرفي، تضمّنت رسالة غير موقّعة مصدرها كوينسي تهديدًا لحياتي. ودفع ذلك بشرطة جاكسونفيل إلى الإصرار على أن أرتدي سترة واقية من الرصاص في خلال المناسبة. وتضمنت الرسالة العبارات التالية: «كنت في إحدى الحانات وسمعت بعض الرجال يضعون الخطط. كانوا من المجرمين، وهذا مؤكد، ولم يكونوا سكارى لكنهم شربوا ما يكفي ليتخلوا عن حذرهم... سيعمد هؤلاء الرجال في وقت ما في المستقبل إلى إطلاق النار عليك... ولا تمكن كتابة ما خططوه لعائلتك». ارتديتُ السترة في خلال الاحتفال، ومرّت المناسبة من دون أي مشكلة.

أراد الرئيس المصري أنور السادات مساعدتي في حملتي فسجّل بيانًا يمدح فيه عملي في الكونغرس. وتلقيّت في وقت متقدم من حملتي رسالة من عرفات كتب فيها: «يحاول خصمك ديفيد نويسن تشويه سمعتك بسبب علاقاتك معنا. لكن الله سيكون معك دومًا لأنك متكرّس لقضية العدالة...» تلقيت الرسالتين بتقدير، لكنني لم إشر إليهما في العلن.

لم يعجب دعمي السابق للمرشحَيْن الجمهوريين إلى الرئاسة جورج هـ. و. بوش وكان يومذاك خصم ريغان الرئيس على التسمية، ومن بعده أندرسون زميلي من إيلينويز، المؤيدين الأشداء لحاكم كاليفورنيا. ولما ترك أندرسون الحزب الجمهوري وأصبح مرشحًا مستقلًا سحبتُ تأييدي لترشحه لكن أخبار سحبي التأييد لم تلقَ الكثير من الانتباه. ولما فُرز التصويت الأولي أعيدت تسميتي بنسبة غير مريحة بلغت ٥٥ في المئة. وشكّل واقع أن نويسن غير المعروف جدًّا حصل في ثلاثة أشهر فقط من حملته على ٤٥ في المئة من الأصوات في كل من الدائرة الانتخابية ومنطقة جاكسونفيل إشارة قوية إلى

المشكلات المقبلة. فقد حصل على آدامز، مقاطعته الأم، وكاد يتفوّق عليّ في سانغامون، المقاطعة الأكبر في الدائرة ومركز عاصمة الولاية، حيث قررت الزعامة الجمهورية الامتناع عن دعمها المعتاد. وبحسب «سانت لويس غلوب - ديمقراط» «صوّت المحافظون لنويسن ليبعثوا برسالة إلى فندلي بأنه أخذ يصبح ليبراليًا أكثر من اللازم».

شكلت تلك إشارة لا سابقة لها إلى الانشقاق ويمكن ردّها إلى عدة مسائل أبعد من معاطاتي مع عرفات. ففي وقت سابق من حياتي المهنية وافق الكونغرس على سلسلة من الاقتراحات لاعطاء سلطة لا سابقة لها للحكومة الفدرالية - وهو حقل كان متروكا في السابق للولايات. عارضتُ معظم هذه القرارات الريادية. لكن ما إن أصبحت السلطة الفدرالية الجديدة المقترحة قانونًا للبلاد حتى استخدمتُ صوتي، كلما أمكن، لاصلاح مداها ومحتواها. واعتقدَ بعض المحافظين أنني كان عليّ إبقاء معارضتي لكل من هذه الإجراءات على رغم واقع أن قطار التشريع قد غادر المحطة فعلًا.

لم تكن كل الدعاية سلبية. فقد دفع قبح شهرتي بمراسل الأسوشيتد برس في واشنطن، مايك روبنسن، إلى التشديد على تواضع منزلنا البعيد عن الديار في ضاحية واشنطن. ونتج عن ذلك تقرير نُشر على نطاق واسع[1] وصَفَ في شكل دقيق أسلوب حياتنا المتواضع:

«يعيش [فندلي] في ضاحية فولز تشيرتش، فرجينيا، في بيت من طبقة واحدة من الأجر مع ظلّة من الألومينيوم فوق الباب وأزهار البيتونيا في قدور من الفخار على الشرفة وحشيش السرطان في الحديقة. ويقود فندلي سيارة بويك طراز ١٩٦٨».

إنتخبتني أكاديمية لينكولن في إيلينويز، وهي مجموعة لها مكانتها ويرأسها حاكم إيلينويز تومسون، لتكريمي بجائزة لينكولن. وجاءت الجائزة عقب تشريعي

(١) Associated Press 9-2-78.

منزل لينكولن ليصبح جزءًا تابعًا لجهاز المتنزهات الوطنية[١]. وقبل ذلك بأشهر منحتني جمهورية ألمانيا الاتحادية أعلى جائزة مدنية وهي وسام الاستحقاق برتبة كوماندور، تقديرًا لجهودي في تمتين دور ألمانيا في المجموعة الأطلسية التابعة لمنظمة النيتو. وأدخل هذان التكريمان، اللذان يأتيان في وسط معمعة الحملة الانتخابية، الرضى إلى النفس.

ظهر اسمي مرتين في انتخابات ١٩٨٠ التمهيدية. ففيما تمت تسميتي مرشحًا جمهوريًا عن الدائرة العشرين للكونغرس، انتُخبت أيضًا مندوبًا إلى المؤتمر الوطني الجمهوري في ديترويت لتسمية المرشح إلى الرئاسة. وأعلنتُ، بعد فرز أصوات الانتخابات التمهيدية، أنني سأدعم ريغان في مؤتمر التسمية. وقد سانده المصوتون في شكل كاسح في يوم الانتخابات التمهيدية إضافة إلى أنه كان خياري الشخصي. فقد اقتنعت بأنه سيهزم في تشرين الثاني/نوفمبر في سهولة الديمقراطي جيمي كارتر.

دعم الدكتور إدوارد راغسديل من ألتون، وهو الزعيم الجمهوري لمقاطعة ماديسون وأحد متزعمي النشاطات المناهضة للإجهاض، نويسن على المكشوف في الانتخابات التمهيدية. وأبلغ الـ «غلوبال ديمقراط» أن إذا ثبت وجود «تحايل» في دعمي ترشيح رونالد ريغان فستتأكد قواته من تمكن نويسن من هزيمتي في الإنتخابات التمهيدية بعد سنتين من ذلك. ويوم إعادة تسميتي، فاز ابننا، كريغ، في سهولة في التسمية الجمهورية له نائبًا عن الولاية في دائرة انتخابية مجاورة.

اتصل بي نويسن مهنّئًا، بعد فوزي الصعب، وعرض مساعدتي على الفوز في الانتخابات العامة في تشرين الثاني/نوفمبر. وأبلغ المراسلين الصحافيين أنه يؤيدني «مئة في المئة»[٢]. وأبلغني بعد ذلك بسنوات، وهو يضحك، أن والدته استاءت عندما عرفت بقراره مواجهتي في الانتخابات التمهيدية. وأواخر أيلول/

---

(١) Herald-Whig, Quincy, IL, 5-4-80.

(٢) Herald-Whig, Quincy, Illinois 3-19-80.

سبتمر، تصدّينا أنا والمرشح الديمقراطي ديفيد روبنسون أحدنا للآخر في مناظرة - هي الوحيدة في الحملة - أمام حشد له شأنه في كنيسة حرم معهد إيلينويز في جاكسونفيل. عند هذا الحد كان وضع روبنسون بصفة كونه معارضًا للخدمة العسكرية لأسباب اخلاقية قد برز، وحرب فيتنام لا تزال حية في الذاكرة العامة. وكان عليه، ليتأهل أن يصبح معارضًا للحرب لأسباب تتعلق بالضمير، أن يعلن معارضته للخدمة العسكرية في أي حرب، وليس في فيتنام فحسب. وسبق أن حصل روبنسون على الإذن بممارسة "خدمة عامة بديلة" في إيلينوز عوضًا عن استجابته التجنيد العسكري في مهمات غير قتالية.

وتذكّرت، وأنا أفكّر مليّا في ما أقوله في المناظرة، أن المعارضين للحرب لأسباب تتعلق بالضمير ليسوا جميعهم سواء. وتذكّرت جاري مايك بيشوف، وهو معارض لأسباب تتعلق بالضمير خدم في فيتنام عنصرًا طبّيًا غير مسلّح. وكثيرًا ما عمل تحت النيران المعادية في حقول الرز، وربما خاطر بحياته أكثر مما يخاطر الجنود المسلحون. وقلت، وأنا أتشارك المنصة مع روبنسون، «أعرف أناسا رائعين من المسالمين، وأدافع عن حق المواطنين الأساس في أن يكونوا من معارضي الحرب لأسباب تتعلق بالضمير. غير أنني أسأل السيد روبنسون واسألكم جميعكم هنا الليلة أن تفكّروا في ما أمكن أن يحدث في الحرب العالمية الثانية لو أن جميع الأميركيين من المعارضين للحرب لأسباب تتعلق بالضمير. هل كان سيمكن لانكلترا النجاة وحدها بعدما سقطت فرنسا وهولندا في قبضة قوات هتلر؟ ألم يكن هتلر ليذبح جميع اليهود في أوروبا، وليس فقط جزءًا منهم إلى جانب الكثيرين من الأبرياء الآخرين لو أن الولايات المتحدة عجزت عن حشد جيشها؟ تذكّروا أننا لا نعرف نوع الأزمات التي قد تنشأ في المستقبل. فكيف تريدون ان تتمثلوا في الكونغرس في المسائل المتعلقة بالحرب؟» لم يجب روبنسن. ولم أعاود إثارة الموضوع.

أخذ العمل على جمع التمويل للحملة - وهي مهمة لم استمتع بها أبدًا - والسعي إلى جمع الأصوات ليوم الانتخاب، الكثير من وقتي. وأصبح كريغ، في انتخابات تشرين الثاني/نوفمبر العامة في ١٩٨٠، عضوًا في الجمعية العامة

في إيلينويز بهامش مريح. وتغلّبتُ على روبنسن بنسبة ثلاثة في المئة من أصوات المقترعين وهو هامشي الأدنى منذ سنين. شكّل الأمر نذيرًا بالمشاكل المقبلة وسببًا وجيهًا دفع بالديمقراطيين إلى السعي إلى منافس أقل إثارة للجدل لمواجهتي في ١٩٨٢. وها أنا استعد لمنافسة أشد قساوة في الانتخابات المقبلة بعدما وسمني اللوبي الإسرائيلي الأميركي بأنني «عدوّه العام الأول».

صباح أحد أيام أواخر ١٩٨١ زودّني مساعدي بوب ويشر، وأنا أدخل قاعة الاستقبال في مكتبي في الكونغرس، أخبارًا مقلقة. فإعادة رسم حدود الدوائر الانتخابية، الذي تأجل طويلًا، تمت في غير مصلحتي. وكان تعليقي، عند انتهائه من اطلاعي على التفاصيل، هو: «هذا يعني مشكلة». انسحبت إلى مكتبي الخاص وأقفلت الباب. وتساءلت للحظة عابرة هل حان الوقت لوضع حد لحياتي المهنية في الكونغرس. فلو انني سعيت إلى إعادة انتخابي فسيعني ذلك معركة قاسية على المستوى الحزبي والالتزام الثقيل الذي لا بد منه لجمع المال من أجل الحملة. وفي شكل شبه فوري زال «نوع التفكير الشاحب» كما قد يصفه شكسبير. عرفت أنني سأترشح. فإذا انسحبت فستتبجّح الإيباك بالنصر. وسأكون من الانهزاميين وهي تجربة جديدة لي. وسأخيّب مؤيديّ الأوفياء، والكثيرون منهم من غير الناخبين. وإذا تطلب الأمر ذلك فأفضّل أن أسقط محترقا يوم الانتخاب على أن أسلك طريق الانسحاب السهل.

دخل عليّ ويشر بعد ذلك بدقائق قليلة، وقال وهو ينظر إليّ نظرة القلق: «سيد فندلي»، على ما يخاطبني دومًا، «فريقك قلق حقًا. عليك أن تتوجه إليه بكلام منشّط». دعوتهم إلى مكتبي وأكدت لهم أنني سأترشح حتمًا لإعادة انتخابي وسأشن حملة قوية من أجل الفوز.

وفي استمرار لاتجاه بدأ العمل به منذ عقود عدة، وجد إحصاء ١٩٨٠ ان سكان إيلينويز متخلفون عن النمو الوطني. وهذا يعني ان إيلينويز ستخسر مقعدًا إضافيًا في مجلس النواب الأميركي. وبموجب القانون الفدرالي، واجهت السلطة التشريعية في الولاية، وابننا كريغ عضو فيها، مهمة إعادة وضع حدود

الدائرة الانتخابية. وبعد الكثير من الجدال رفعت السلطة التشريعية جلساتها من دون التوصل إلى قرار تاركة الخيار النهائي لهيئة من ثلاثة قضاة فدراليين. واختارت الهيئة، بين ثلاث خرائط تُركت عالقة لدى رفع اجتماعات السلطة التشريعية، تلك الأقل مؤاتاة لي، إذ أُخذت مني المقاطعات ذات الغالبية الجمهورية. وتضمّنت الخسارة مقاطعتَي مورغان وسكوت الجمهوريتين بكاملهما ونصف مقاطعة سانغامون ذات الميل الجمهوري. وشكّلت مورغان الخسارة الأكبر، فهي مسقط رأسي، وحصلتُ فيها دومًا على تصويت قوي من الحزبين في كل الانتخابات العامة. وتضمّنت حدود الدائرة الجديدة نصف مقاطعة ماكون الديمقراطية وكل مقاطعتي ماولتري وشيلبي وهما تتمتّعان بغالبية ديمقراطية مسيحية.

وأسوأ من ذلك هو أن إعادة الترسيم حدثت زمن الركود الاقتصادي الذي يصب في العادة في غير مصلحة حزب من يسيطر على البيت الأبيض وفي هذه الحال الجمهوري رونالد ريغان. وقد تعرضت الصناعات الثقيلة في مقاطعتي سانغامون وماكون لضربة كبيرة. وتضرر مصنعا فيات - أليس وكاتربيلر بالحظر التجاري الأميركي على الاتحاد السوفياتي وبالتراجع العام في الطلبيات. وأخذت البطالة تزداد في معظم البلدات وأسعار السلع الزراعية تتراجع. والجانب المشرق الوحيد كان غياب المنافسة في انتخابات **١٩٨٢** التمهيدية.

سمّى الديمقراطيون ريتشارد دوربين، الخبير في سياسات إيلينويز، منافسًا لي. وهو صاحب نشاط طويل الأمد في السياسة وصديق مقرّب من النائب بول سايمون الديمقراطي الذي يُثنى عليه على نطاق واسع، وعن حق، بصفة كونه «السيد النظيف». وكاد دوربين قبل ذلك بسنوات قليلة يهزم سيناتور الولاية الجمهوري الذي يتمتع بالشعبية، جون دافيدسون، وخسر بهامش ضئيل في سعيه إلى نيابة الحاكم قبل أن يتم اختياره لمنافستي. ودعمت اللجنة الجمهورية الوطنية، التي يتحكّم بها ريغان طبعًا، ترشحي. وكان فريق حملة ريغان الانتخابي عاملني قبل ذلك بسنتين كالمنبوذ، واتخذ إجراءات قصوى لإبعادي عن مجال الكاميرا في كل من ظهورَي ريغان في دائرتي الإنتخابية. إلا أن

ريغان بعث هذه المرة برسالة يصف حياتي المهنية بـ«المميزة» وذاكراً «قيادتي المهمة» للأمة[١].

اجتذب سباقنا وسائل الإعلام الرئيسة. وأعلنت الأسوشيتدبرس في تقرير إخباري وطني عن تبرعات لجنة العمل السياسي [باك] لحملة دوربين أن مجموع هذه التبرعات، حتى نهاية آب/أغسطس **١٩٨٢**، بلغ ارتفاعًا تاريخيًا وصل إلى **١١٢** ألف دولار. وقال أحد قادة «باك» في شكل قاطع بعدما طلب من الأسوشيتدبرس عدم ذكر اسمه: «أنا أكره بول فندلي». ولاحظ المراسل ميلًا إلى إخفاء الرعاية بين الكثير من لجان العمل السياسي التي أنشئت فقط للعمل على تقديم مصالح الدولة اليهودية: «لا تشير ألقاب معظم لجان العمل السياسي المؤيدة لإسرائيل إلى هذه الدولة بالاسم أو إلى أي شيء يتعلق بها». واستشهد المراسل بردي على المنتقدين الذين سخروا مني بصفة كوني معارضًا لوجود إسرائيل: «يقول فندلي إنه يحبّذ ضمانًا أميركيًا لحدود إسرائيل ويصرّ على ان برنامجه سيأتي بالسلام إلى الشرق الأوسط»[٢].

حصل كلانا على التأييد من «القوة الضاربة» في حزبينا. فقد تجاهل نائب الرئيس الجمهوري جورج هـ. و. بوش وزوجته باربرا احتجاجات المؤيدين لإسرائيل في تكساس وحضرا إفطارًا ناجحًا لجمع التبرعات لمصلحتي في سبرينغفيلد. ووقفت السيدة بوش إلى جانبي في صف الاستقبال وهمست بأنها ونائب الرئيس سعيدان لانضمامي إلى حلقة «المصافحة والابتسام». وظهر نائب الرئيس السابق والتر مونديل والسيناتوران جون غلين وتد كنيدي، وجميعهم ديمقراطيون، دعمًا لدوربين. وقد حافظتُ، عبر السنين، على علاقات ودية مع كنيدي وتركتُ له ملاحظة ترحيبية في فندق «هوليداي إن إيست» في سبرينغفيلد حيث نزلنا معًا. وردّ، قبل أن يغادر، بملاحظة ودية مكتوبة بخط اليد.

ووفّر مراسل الأسوشيتد برس مايك روبنسن، الذي يكتب من واشنطن،

(١) رسالة مؤرخة في ٥ أيار/مايو ١٩٨١.

(٢) AP 4-10-82 News-Democrat, Belleville.

التقويم التالي: «لم تتلطخ سمعة [فندلي] النزيهة بعد ٢٠ سنة في مجلس النواب»، مضيفًا ان سباقي مع دوربين «يتحوّل واحدًا من السباقات الأكثر حماوة في البلاد»[١]. وأفادت الشيكاغو تريبيون بأن «السباق يشكّل واحدًا من أربعة سباقات يستهدفها ديمقراطيو البلاد وقد تنتقل المقاعد فيها من الجمهوريين إلى الديمقراطيين»[٢].

يمتلئ دفتر القصاصات الذي جمعه فريقي بقصاصات عن مختلف نشاطاتي في ١٩٨٢ وتعليقاتي المتعلقة بكل من السياسة الزراعية والسياسة الخارجية. وقد أُلحق كل تعليق تقريبًا منسوبًا إليّ بعنوان معارض من منافسي. وبحلول يوم الانتخاب كان كل من المنتصر والمهزوم أنفق نحو ٦٠٠ ألف دولار، مسجلّين مرة أخرى أعلى رقم قياسي حتى ذلك الوقت في حملات إيلينويز الانتخابية لمقعد الكونغرس. ولم يضرب خصمي بقوة إلا في وقت متقدم من الحملة. لاحظ رجل الأعمال ابن جاكسونفيل بيل كارل، الصديق والرئيس الدائم للجنة تأييد فندلي في الوصول إلى الكونغرس، العاصفة المحيطة باسمي فرفع من معنوياتي عندما قال لي: «يمكنني أن أتذكّر عندما لم تكن شيئًا سوى بطل».

وبعدما أُنجز فرز الاصوات غير الرسمي في الصباح الباكر بعد إقفال صناديق الاقتراع، أظهر المجموع أنني خسرت بفارق ١٤٠٧ أصوات - أقل من واحد في المئة من نحو ٢٠٠ ألف مقترع. وكنت ميتًا من التعب فتوجّهت، لما أدركت أنني خسرت، إلى السرير مباشرة. ولو توافر لي بعضٌ قليلٌ من الطاقة لتوجهت إلى مقر حملتي في سبرينغفيلد لتوجيه الشكر إلى المؤيدين الذين كانوا لا يزالون مجتمعين هناك، وللاتصال هاتفيًّا لتهنئة عضو الكونغرس المنتخب. ولكنت أثرت ضحك جميع المعنيين، وأنا بينهم، بتكرار كلمات النائب الأميركي عن أريزونا، موريس أودال، عندما أبلغ وسائل الاعلام أنه ينسحب من سباق تسمية الحزب الديمقراطي مرشحه إلى الرئاسة في ١٩٧٦:

(١) AP dateline Washington 8-30-82.

(٢) Chicago Tribune 9-5-82.

«قال الشعب كلمته، هؤلاء اللقطاء الأغبياء». وفي صباح اليوم التالي الباكر توقفنا، أنا وابنتي ديان، عند مقر دوربين ودسست ملاحظة تهنئة مكتوبة بخط اليد من تحت الباب الموصد.

بعد ذلك بيومين، كان زميلي السابق غراهام بورسل، الديمقراطي من تكساس، ينتظر مع فريقي في تلة الكابيتول في المطار الوطني [أصبح لاحقًا مطار ريغان الوطني] عندما وصلنا، أنا ولوسيل. أصبحت أنا وبورسل صديقين جيّدين في خلال أيامنا معا في لجنة مجلس النواب الزراعية. وأثار الابتسامات عندما عرّف عن نفسه بأنه عيّن نفسه متعهّد دفن أعضاء الكونغرس الذين فشلوا في إعادة انتخابهم.

شكّلت خسارتي معلمًا في التاريخ الإقليمي للحزبين. فقد سجّل فوز دوربين المرة الأولى منذ أربعين عامًا التي يحتل فيها ديمقراطي مقعد الدائرة الانتخابية العشرين في أيلينويز. فقد أصبح المقعد جمهوريًّا في ١٩٤٢ عندما هزم سيد سيمسون، وهو تاجر سيارات في كارولتن إيلينويز، مسعى النائب الديمقراطي جايمس م. بارنز، ابن جاكسونفيل، لإعادة انتخابه. وفاز بارنز بالمقعد الذي شغر بوفاة رئيس مجلس النواب الديمقراطي هنري ت. رايني، وهو أيضًا من كارولتن، والنائب لنحو ثلاثين سنة.

على رغم استيائي من نفسي لخسارة الانتخابات لولايتي الثانية عشرة، فُتح أمامي باب جديد وفّر لي فرصًا ما كنت لأحصل عليها قط لو بقيت في الكونغرس. فبعودتي إلى تلة الكابتيول لحضور جلسة تشريعية تلي يوم الانتخاب، ناداني أحد الخدم للرد على اتصال هاتفي في قاعة استراحة الجمهوريين. وكان ينتظر على الخط ناشط قديم عرفته وأُعجبت به في خلال سنواتي في تلة الكابيتول. حثّني على وضع كتاب عن اللوبي الإسرائيلي، واقترح له عنوان «من يجرؤ على الكلام»، وأوصى بأن ألتقي البروفسور في جامعة جورجتاون هشام شرابي الذي طالما أعجبت به متحدثًا طليعيًّا باسم حقوق العرب الأميركيين الإنسانية. وتلقيت، بعيد لقائي شرابي، منحة من

مؤسسة أبحاث الشرق الأوسط ساعدت في توفير تكاليف البحث ووضع مخطوطة الكتاب.

وعلمت، بعد ذلك بأيام قليلة، أن حسابي المصرفي الخاص تلقّى دفعة إضافية مُرحّبًا بها. فقد وصلت فورة من التبرعات، معظمها بألف دولار للتبرع الواحد، إلى صندوق بريد حملتي الانتخابية، لكنها وصلت، ويا للأسف، متأخرة جدًّا لتفيدني في استراتيجيتي الانتخابية. بلغ مجموعها أكثر من ثلاثين ألف دولار، وهي كلها من أناس من تكساس وميسيسيبي يعملون، على ما افترضت، في شركة بناء تقوم بأعمال في الشرق الأوسط. ولم يرد أحد على عرضي بإعادة الشيكات، فأودعتها حسابَ خدمةٍ عامة يحمل اسمي، أخذت أسحب منه من وقت إلى آخر لتغطية نفقات الكتاب.

وكان في وسع الجمهور العام الوصول في سهولة إلى معلومات عن حسابي الجديد. وهذا يعني أنه يمكن ان يبلغ مسامع نحو ألفين من لجان العمل السياسي. وسمح القانون، في ذلك الوقت، بنقل الأموال إلى حسابات مماثلة وكانت مثل هذه التحويلات تحصل في شكل متكرر. وتجدر الإشارة إلى أنني لم أتلق طلبًا من أي من هذه اللجان لتحويل الأموال. وأفترضُ أن أيًّا منها لم يرد أن يُعرف عنه استفادته من عضو سابق في الكونغرس اشتهر عنه أنه من منتقدي إسرائيل.

انشغلت في أحد صباحات صيف ١٩٨٣ في العمل على كتابي في مكتب صغير استأجرته في وسط واشنطن عندما تلقيت اتصالًا هاتفيًا من هارولد ساوندرز الدبلوماسي السابق في وزارة الخارجية. وكان ساوندرز، في المرحلة التي كنت أُعدَّ فيها أفضل صديق لعرفات في الكونغرس، يكلفني من وقت إلى آخر - في شكل سري جدًّا - مهمات مثيرة للمشاكل مع زعيم منظمة التحرير الفلسطينية. وفي هذه المرة كان ساوندرز، وقد تقاعد، يعمل في أحد مكاتب «أميركان إنتربرايز إنستيتيوت» الموجودة على مقربة من مكتبي في وسط واشنطن حيث كان يضع مسودات دراسة عن شؤون الشرق الأوسط. وهو كان، في الأشهر القليلة الماضية، المصدر الأساس للمعلومات الداخلية التي من شأنها

أن تجعل من كتابي الذي أعمل عليه واحدًا من أكثر الكتب مبيعا. ووافق، على غرار دزينات من المصادر الأخرى، على أن أجري معه مقابلة بشرط ألا أذكر أنه مصدر بعض المعطيات المحددة.

عرف ساوندرز في شأن خيبتي الكبرى لفشلي وأنا في الكونغرس في تصحيح الانحياز المكلف للسياسة الأميركية في الشرق الأوسط إلى إسرائيل. وتوقّع مني الاستمرار في حملتي كمواطن عادي. وهو في العادة من النوع العملي، لكنه بدأ هذه المرة محادثتنا بتعليق عاطفي خارج عن المألوف: «يمكنني النظر من النافذة قبالة مكتبي وأرى المبنى الصغير في جادة نيويورك حيث أعلم أنك تعمل وحيدًا في المهمة الشاقة لوضع كتاب عن اللوبي الإسرائيلي».

وهي بالفعل مهمة شاقة. وقد تطلب انجازها سنة **١٩٨٣** كلها إضافة إلى سبعة أشهر من **١٩٨٤**، في سلسلة متواصلة من الأسابيع تضمنت كل منها ستة أيام من العمل. لكنني لم أعمل فيها وحيدًا كما قد يعتقد ساوندرز، لأن كلًا من الأشخاص المئة الذين اتصلت بهم طلبا للمعلومات تعاونوا في شكل كلّي وشكروا لي المضي في المشروع. ويحب معظم الناس رؤية اسمائهم في أي كتاب، إلا أن نحو نصف مصادري أصروا على البقاء مجهولين. بل ان التلميذين المتخرجين الممتازين اللذين عاوناني ذلك الصيف أصرّا على ألا أكشف عن هويتيهما. وقد ارتقى أحدهما من ثم عاليًا سلّم العمل الدبلوماسي. تفهمت قلقهم، إذ سبق لي أن اختبرت قدرة الغيارى الموالين لإسرائيل على العمل العدائي ضد منتقدي الدولة اليهودية.

وراودني في الواقع بعض القلق على سلامتي الخاصة إضافة إلى سلامة مواد بحثي. وستنفجر قنبلة في وقت قريب، كما لو أنها تعطي صدقية لقلقي، وتقتل ألكس عوده وهو يدخل مكتب لوس انجلس التابع للجنة الأميركية العربية المناهضة للتمييز. ووقع الانفجار بعد يوم واحد على تعبير عوده علنًا عن تعاطفه مع بلوى الفلسطينيين. ولم يحصل أي عمل عنف له علاقة بمشروع كتابي، لكن الأمن بقي مصدرًا للقلق. وقررت، عندما سُرقت محفظة من مكتبي

في وضح النهار، أن احتفظ بنسخ من مخطوطتي في عليّة منزلنا في فولز تشيرتش في فرجينيا.

أجريتُ مقابلاتي كلها تقريبًا بالهاتف. وحدث استثناء صيف **١٩٨٣** عندما زوّدني آي. ف. «إزّي» ستون، المؤلف اليهودي والمعلق الشهير، مراجعة أخّاذة للقاءاته الصحافية عبر السنين مع غلاة المؤيدين لإسرائيل. عرضتُ أن التقيه في منزله لاجراء المقابلة، لكنه أصرّ على أن يجعل من مكتبي - على بعد **٢٠** مجمعًا سكنيًّا - وجهة مسيرته الصباحية. وبوصوله تحدّث في شكل مؤات عن عدد من مشاريعي التشريعية لكنه أعرب عن القلق من ان كتابًا عن اللوبي الإسرائيلي من وضع عضو سابق في الكونغرس قد يثير المعاداة للسامية. وحثّني بدلًا من ذلك على أضع ترجمة لحياتي واقترح ان أسميها «دَوْليٌّ منْ حزام الذرة». وأكّدت له أنني سأكتب وحسب عما قام به اللوبي بالفعل ولا أستخدم الصفات والنعوت إلا في شكل متفرّق. وارتشف ستون، الرجل النحيل الذي يضع نظارتين سميكتين ويعتمد الشغف في كلامه، الشاي من كوب كرتوني ونحن نتحدث.

وقد علق في ذهني أحد تعليقاته عن الحياة اليهودية في أميركا: «لم يتمتع اليهود قط بحياة بمثل هذه الجودة». وبعد ذلك ببضعة أشهر ألقى ستون سلسلة محاضرات حضرها حشد على الواقف في قاعة جامعة جورجتاون. وكان موضوعه: موت سقراط. وقد فارق الحياة بعد ذلك بأشهر قليلة.

قضى عملي الأخير في **١٩٨٤** بحذف أكثر من مئة صفحة مطبوعة من مسودتي. ولما انتهيت من ذلك بعثت بنسخة إلى مراسل الشؤون الخارجية دونالد نف الذي عمل طويلًا مراسلًا لمجلة التايم في الشرق الأوسط وألف ثلاثة كتب عن حروب إسرائيل مع العرب. وحرر نف، في رحلة جوية طويلة إلى بيروت، مسودتي بكاملها. وبعثت بنسخة أخرى إلى توماس داين، مدير لجنة الشؤون العامة الأميركية الإسرائيلية، طالبًا منه إبلاغي أي أخطاء يجدها في نصّي. لم يُجب، لكنه ساعدني كثيرًا عن غير قصد بجعله أعضاء في فريقه

ينقبون عن العيوب في النص. ومن حسن حظي أنني حصلت على نسخة من نقدهم المفصل في الوقت المناسب لأبقي المسودة خالية من الأخطاء.

وشرعت في غضون ذلك في إرسال الخطوط العريضة لكتابي وبعض النماذج عن بعض فصوله إلى الناشرين المحتملين. رفض أكثر من عشرين دار رئيسة للنشر ما أحلته عليها. وشرحت ثلاثة منها صراحة أن نصّي مثير جدًّا للجدل إلى حد أن نشره قد يتسبب بخلاف مكلف في داخل فريق عملها وفي أوساط زبائنها التقليديين.

وفي مقابلة خاصة، تحدث أحد الناشرين، وهو ابن مهاجرين عرب، في شغف كبير عن أهمية كتابي. وسقط إلى حد ما على ركبتيه وأخذ يضرب السجادة بقبضتيه وهو يقول «يجب نشره بطريقة من الطرق، لكنني ببساطة لا استطيع أن أتحمل أن أكون من يقوم ذلك». وربما الندم هو الذي تسبب في جزء منه في إثارة شغفه. خطط لسيرة حياة في نشر الكتب فبدّل اسمه العربي إلى آخر أنغلوساكسوني في خطوة قال إنها تساعد في الأعمال. وتنبّأ الوكيل الأديب النيويوركي المخضرم ألكسندر وايلي بدقة أن ما من ناشر رئيس سيتولّى كتابي، وكتب: «إنه واقع الأمور المحزن».

ووصلت إلي الأخبار الطيبة صباح أحد الأيام. عرض لورنس هيل، مالك مؤسسة صغيرة في وستبورت في كونيتيكت اسمها «لورنس هيل أند كومباني»، أن ينشر كتابي. وسألته بعدما قبلت عرضه عن سبب «سيره حيث خاف الآخرون المسير». فقال إنه وزوجته اليهودية من منتقدي الصهيونية واستنتجا أن كتابي يشكّل «مسألة مهمة في إطار حرية التعبير عن الرأي». وأثار دهشتي أن كتابي «من يجرؤ على الكلام: الشعب والمؤسسات يواجهون اللوبي الإسرائيلي» They Dare to Speak Out: People and Institutions Confront Israel's Lobby، حظي بمراجعة بارزة في الواشنطن بوست وكريستيان ساينس مونيتور و٤٨ صحيفة أخرى. وبين تعليقات الصحف وصفته المونيتور بأنه «من الطراز الأول»، والواشنطن بوست بأنه «صريح وصحيح»، والجيروزالم بوست بأنه «مؤثّر في

شكل لا يُنكر»، والبوسطن غلوب بأنه «منصف بالتأكيد»، وليبريري جورنال بـ«المسؤول»، وديترويت فري برس بأنه «رصين».

ما أن بدأ لورنس هيل في تسويقه، حتى تعاقدتْ اللجنة الأميركية - العربية المناهضة للتمييز، التي يرأسها السيناتور السابق جيمس أبو رزق ويديرها عمر قادر، مع مؤسسة «بيغي راوب للنشر» في مدينة نيويورك لتنظيم جولة دعائية لي على مستوى البلاد بدأتْ في نيسان/أبريل ١٩٨٥ واستمرت أكثر من سنة. أسهم أعضاء اللجنة المناهضة للتمييز وغيرهم من الأشخاص في رفع المبيعات باتصالهم بمكتبات بيع الكتب في البلاد للسؤال عن موعد توافر نسخ من كتبي. وسُجلت مبيعات أخرى عندما قامت منظمات عربية وأفراد، بعضهم في الداخل وبعضهم في الخارج، بشراء كميات لتوزيعها مجانًا على صانعي الرأي العام في أميركا والمكتبات العامة. وسُرّ زميلي السابق بول «بيت» ماكلوسكي وزوجته هيلين بكتابي إلى حد أنهما أودعا نسخا منه في عدد من مكتبات كاليفورنيا على ان يستردا ثمنها لاحقًا.

وعمل تحسين خيّاط، مالك دار النشر الرئيسة في بيروت، على نشر «من يجرؤ على الكلام» بالعربية وتوزيعه وتدبّر نشر النص كاملًا على حلقات في خمس صحف عربية يومية رئيسة في الشرق الاوسط. وعلمت أن ولي العهد السعودي فهد، والذي أصبح ملكًا في وقت لاحق، كان يتطلع في شوق إلى نشر كل حلقة من حلقات الكتاب في إحدى صحف الرياض. وأبلغني الرئيس حسني مبارك، وهو يبتسم، أنه قرأ «من يجرؤ على الكلام» من أوله إلى آخره في ليلة طويلة واحدة. وبعد ذلك بسنوات أبلغني الملك الأردني عبدالله الثاني أن والده الملك حسين استدعاه في أحد الأيام من دراسته في إحدى الجامعات الأميركية وسلمه نسخة من كتابي وأوصاه بأن يقرأه في انتباه.

وتدبّر خياط ترجمة كتابين آخرين من وضعي هما «الخداع» الذي نشر في ١٩٩٣ و«لا سكوت بعد اليوم» الذي سُوِّق في ٢٠٠١، ونشرهما في الصحف على حلقات. وكانت شقيقته بشرى، التي تملك مكتبة لبيع الكتب في دبي، رفيقة مساعدة لآل فندلي في خلال زيارات عدة لهم لدولة الإمارات العربية

المتحدة. ونُشر «من يجرؤ على الكلام» في طبعات بالألمانية والأندونيسية ولغة الأردو والفارسية والماليزية. ورعى سعيد بوت، المسؤول الحكومي الباكستاني المتقاعد الذي قرأ الطبعة الإنكليزية لـ «من يجرؤ على الكلام»، من جيبه الخاص كلفة الترجمة والنشر ألفي نسخة بلغة الأردو، ثم ألفَ نسخة من كل من كتابي الأخيرين بلغة الأردو أيضًا. ولم يتبق في ٢٠٠٨ سوى نسخ قليلة لم تبع. وأفادني بوت أن ٢٥ ألف نسخة من الطبعة الانكليزية لـ «من يجرؤ على الكلام» - وصفها بأنها «مقرصنة» - طُبعت في نيودلهي في الهند. وأعقبها، بحسب ما كتب لي، طبعة ثانية من «أكثر من بضعة آلاف». ورفعت الطبعات الأجنبية والطبعات الإضافية من النسخة الانكليزية الأصلية مجموع مبيعات الكتاب إلى أكثر من ٣٢٥ ألفًا، وهو مجموع استثنائي لكتاب غير خيالي. وقد احتل على مدى سبعة أسابيع قائمة الكتب الأكثر مبيعًا في الواشنطن بوست وكان أنجح منشورات لورنس هيل.

كانت النقطة الأبرز في جولتي الدعائية ظهوري في برنامج «توداي شو» على الأن.بي.سي.. وسألتُ المضيف، بارينت غامبل، قبل بدء البرنامج هل في وسعي أن أشير خلال المقابلة إلى رقم خط هاتفي مجاني يمكن الاتصال به لشراء كتابي. أجاب مبتسمًا: «لا يمكنني أن أوقفك». وعلى هذا الأساس أشرت إلى الرقم. وبيعت آلاف عدة من نسخ الكتاب في الأيام التي تلت. وفي مقابلات عدة، بما في ذلك ظهوري على برنامج «توداي شو»، طلب النشطاء المؤيدون لإسرائيل، في نجاح، أن يتقاسم ناقد مؤيد لإسرائيل الوقت المخصص لكتابي.

وتضمن الجدول برنامج «مورنينغ» على سي.بي.أس.، و«واجه الصحافة» على أن.بي.سي.؛ وبرنامج تشارلي روز «ليت نايت»، و«بوك تي.في.»، ومقابلات كولواي وكلها على بي.بي.أس.؛ وسي-سبان؛ و«تيك تو» و«كروسفاير» على السي.أن.أن.؛ ومايك والاس وبيل مويرز على راديو سي.بي.أس.، وبرامج على الراديو استضافها مايكل جاكسون، باري فرابر، لاري كينغ، ويونايتد برس إنترناشونال، وكريستيان ساينس مونيتور.

وتضمنت مواعيد أحاديث ما بعد الكونغرس عن الشرق الأوسط مؤتمرات للأمم المتحدة في جنيف وماليزيا ومدينة نيويورك؛ وقراءات لأبحاث استراتيجية في بغداد واليمن والإمارات العربية المتحدة والقاهرة والرياض ولندن وواشنطن وشيكاغو؛ ومحاضرات في ثلاثة مؤتمرات عالمية للقادة الشبان رعتها الأمم المتحدة في كل من عمّان واسطنبول. وتحدّثت في أكثر من معهد وجامعة في الولايات المتحدة والخارج.

وتحدّثت، إلى ذلك، إلى عدد من الحضور جمعتهم اللجنة الأميركية العربية المناهضة للتمييز والاتحاد الوطني للعرب الأميركيين والمؤسسة العربية الأميركية. وكانت كل مناسبة من هذه المناسبات فريدة من نوعها من حيث الإعداد والشخصيات. وعلّقت اللافتات على أوتاد في محطات عدة. وفي خلال طرح الأسئلة في إحدى الجامعات وصفني أحد الطلاب بأنني «هتلر الجديد» بعدما أثاره انتقادي سلوك إسرائيل. وفيما أنا في الديار في منتصف برنامج محاضراتي سألني أحد المتصلين عن وجهات نظري حيال السياسة الشرق الأوسطية. وقال، لما توقفتُ بعض الوقت وأنا أجيب، «هذا يكفي، كل ما أردت سماعه هو كيف يكون صوت كرة من الهراء الدبق».

كانت اختباراتي، في معظمها، ممتعة وبعضها منتج. وبدأتْ في زيارتنا الأولى لدبي، في الإمارات، في ١٩٨٦ صداقة دائمة مع وصفي وليندا عطايا اللذين استقبلانا إلى العشاء في منزلهما. وقد أقيم في خيمة في حديقتهما الكبيرة. وكانت شجرة عملاقة وحيدة يعلوها بيت صغير للعب أولادهما الصغار وتشتعل بأنوار متعددة الألوان هي المنظر الأساس الجذاب. وتعرّفت في خلال العشاء إلى رجلي أعمال أصبحا صديقين عزيزين وهما خلف الحبتور وعيسى القرق. وأدى كلاهما بالفعل دورًا بارزًا في نمو دبي المدهش في مجالي الأعمال والثقافة. وعلى رغم أن القرق ليس من السلالة الملكية، سرعان ما سيصبح العميد الطويل الأمد للدبلوماسيين العرب في لندن بصفة كونه سفير دولة الإمارات العربية المتحدة. وكان الحبتور يعمل بالفعل على سلسلة من الفنادق الفخمة وغيرها من الشركات وأسّس مدارس عدة وأحداثًا رياضية دولية كبرى.

ووهب، من بين استثماراته في الدراسات العليا، معهد إيلينويز مركزًا للقيادة ستكون أوراقي وتذكاراتي بين تلك المودعة في شكل دائم فيه.

في غضون أسابيع على نشر «من يجرؤ على الكلام» تكومّت الرسائل على مكتبي - أكثر من ١،٢٠٠ تمثل كل ولاية من الولايات. وبدا ان كل واحدة منها كتبها شخصيًا قراء أقلقهم ما كشف عنه كتابي. وسألوا عما يمكنهم فعله للمساعدة في إزالة الانحياز المكلف إلى إسرائيل في سياسة أميركا الشرق الأوسطية. وكان بعضها التماسات طويلة فيها حسرة، وبعضها الآخر موجزًا لكنه يتضمن طلبًا صادقًا للتوجيه. وتضمنت الرسائل بضعة أسماء بدا أنها عربية، غير أن كل الرسائل الأخرى جاءت من أناس توحي أسماؤهم أن لا علاقة لهم بالشرق الأوسط. ودفعني هذا الواقع إلى التأمّل في ما يمكنني فعله غير وضع الكتب وإلقاء المحاضرات، وما الذي يمكنني أن أوصي به لأولئك الذين يطلبون النصح.

في ذلك الوقت كانت المنظمات الأكبر والأكثر نشاطًا التي تتعامل مع مسائل الشرق الأوسط صُمّمت في الأساس لخدمة العرب أو المسلمين الأميركيين. وكنت أعلم أن الكثيرين من منتقدي السياسة الأميركية في الشرق الأوسط هم من المسيحيين غير العرب، مثلي أنا، وعدد من اليهود، ومن الذين يرون أن من الملح جدًّا تصحيح السياسة الأميركية في تلك المنطقة. وخطر لي أن مثل هؤلاء الناس سيرحبون بالعضوية في منظمة لا تركّز على شؤون اثنية أو دينية. استشرت اصدقاء من ذوي الباع الطويل في مسائل سياسة الشرق الاوسط وبخاصة السفير أندرو كيلغور، والمسؤول المتقاعد من الجهاز الخارجي ريتشارد كورتيس، والباحث جون ديوك أنتوني، والمؤلفة غريس هالسل، والزميل السابق بول «بيت» ماكولسكي، وقررت الشروع في مجموعة مدافعة مركزها واشنطن العاصمة تلتزم العدالة في الشرق الاوسط والسياسات غير المتحيزة في تلك المنطقة، وتُسمّى «مجلس المصلحة الوطنية».

أطلق المجلس في ١٩٨٧ ورحّب بالدعم من أي مواطن أميركي يساند هذه الأهداف بغض النظر عن الانتماءات السلالية أو الدينية. وتلقينا النصح

والمساعدة، في الأشهر الأولى على وجود مجلس المصلحة الوطنية، من كيلغور وكورتيس، وهما كبيرا المسؤولين في «أميريكان إديوكاشيونال تراست» التي تنشر مجلة «واشنطن ريبورت أون ميدل إيست أفيرز» الرائعة. ويقع مجلس المصلحة الوطنية ومؤسسة مجلس المصلحة الوطنية التابعة له تحت القيادة الجديرة للمسؤول السابق في الجهاز الخارجي يوجين بيرد، والسفير المتقاعد روبرت كيلي، والسيناتور السابق جيمس أبو رزق. وتولت الصحافية المخضرمة هيلينا كوبان من الكريستيان ساينس مونيتور المرموقة إدارة كل من مجلس المصلحة الوطنية ومؤسسة مجلس المصلحة الوطنية في كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٩. ويساند المجموعتان أكثر من سبعة آلاف مواطن أميركي.

وبوفاة لورنس هيل في ١٩٨٨، اشترت «إندبندنت بابليشرز غروب/ شيكاغو ريفيو برس» اسم لورنس هيل في مفاوضات مع شريكة هيل الناشرة شيرلي كلويز التي أصبحت ناشرة لشعار هيل ونشرت كتابي «الخداع» الذي لا يزال، وبعد ٢٤ سنة على طبعته الأولى في ١٩٩٣، يحظى بمبيعات نشطة.

وافقتُ في آذار/ مارس ١٩٩٠، في خلال زيارة للسعودية مع ابننا كريغ، على اقتراح من الشيخ أحمد صلاح جمجوم، المدير العام لصحيفة المدينة اليومية في جدة. فقد طلب مني أن أكتب زاوية اسبوعية تُنشر في صحيفته الصادرة باللغة العربية إضافة إلى صحيفة أخرى تصدر في الرياض باللغة الانكليزية وهي «ذي سعودي غازيت». وكتبت، على امتداد تسع سنوات، أكثر من اربعمئة مقالة حمل كل منها ترويسة «الجهر بالكلام». وحاولت من خلالها إيصال فهم للعملية السياسية الأميركية وتأثير اللوبي الإسرائيلي في صنع السياسة الأميركية في الشرق الاوسط.

قررت في صيف ١٩٩٢، وأنا مستمر في كتابة زاويتي الأسبوعية، ان تتمة إضافية لـ «من يجرؤ على الكلام» قد تجمع المزيد من الدعم لقضية مهمة. وكتبتُ في ذلك الصيف «الخداع»، وهو كتاب مرجع يفصل بين الواقع والخيال. ويعرض كلًا من الأمثلة الأولية عن الأساطير التي يروجها اللوبي الإسرائيلي على أنها حقيقة ويدحض كلًا منها من خلال استشهادات مباشرة من

مسؤولين إسرائيليين أو يهود أميركيين بارزين. وتلقيت، في وضعي النص، مساعدة كبرى من دونالد نف، المؤرخ الصحافي الذي حرّر مسودة «من يجرؤ على الكلام». كان لا بد من تصنيف نف الشامل لمعطيات الشرق الأوسط لدحض كل جزء من هذه الأسطورة. وتمتلك «واشنطن ريبورت أون ميدل إيست أفيرز» الآن حقوق النشر لـ «الخداع». وتوقفتُ في آذار/مارس ١٩٩٩ عن كتابة مقالاتي الأسبوعية لأركز انتباهي كاملًا على إنجاز كتاب عن المسلمين الأميركيين.

قبل وقت قليل على وفاتها، قالت لي المؤلفة غريس هالسل، الصوت القوي المطالب بالعدالة في الشرق الاوسط، «علينا التضافر معًا، لأننا قليل عديدنا. فلا يزال عدد من هم على استعداد لانتقاد إسرائيل جهارة قليلًا. وعلى الذين يجهرون بالكلام أن يستعدوا لتلقي المعاملة الخشنة».

التحذيرُ من التأثير المضر للوبي الإسرائيلي في المجتمع الأميركي الذي اطلقته في «من يجرؤ على الكلام» الذي نُشر للمرة الأولى في ١٩٨٥، اكتسب صدقية متزايدة بعد ذلك باثنين وعشرين عامًا مع نشر كتاب «اللوبي الإسرائيلي والسياسة الخارجية الأميركية» الذي احتل قائمة الأكثر مبيعًا وتشارك في تأليفه عالما السياسة البارزان الدكتور جون مرشماير من جامعة شيكاغو والدكتور ستيفن والت من جامعة هارفرد. وقد تُرجم وتمت مراجعته على نطاق واسع. وعندما اتصلت هاتفيا بمرشماير لتهنئة الشخصين الجريئين، قال إنهما يواجهان انتقادات مشابهة لتلك التي اختبرتُها. ولمّح إلى تقاعدي غير الاختياري من الكونغرس وإلى ضمان عمله الذي توفّره سياسة التوظيف في الجامعة، وقال «أقله لم أفقد وظيفتي». واعترف والت، في ملاحظات أدلى بها في تجمّع في واشنطن العاصمة في تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٨، بعملي الرائد عندما قال «وصل بول إلى هناك قبلنا». وقال إنني أستحق «إقرارًا ضخمًا بالفضل» على هذا «التحليل الأكثر شمولية» الذي يظهر أن بعض تكتيكات اللوبي «ليست مفيدة للولايات المتحدة». وعلى رغم أن بعض النقّاد استقبلوا كتاب مرشماير ووالت في برودة وأحيانًا في فظاظة، فإن الكتاب وما تلاه من مقالات وظهور إعلامي

للكاتبين يشكلان قفزة عملاقة في اتجاه النقاش الحضاري في شأن اللوبي الإسرائيلي والذي يحتاج إليه المجتمع الأميركي في شكل كبير.

فجيمي كارتر، الذي له سجل مؤيّد لإسرائيل لا يفوقه فيه أحد، أصبح بعد مغادرته البيت الأبيض من المدافعين الذي لا يتعبون ولا يخافون عن حقوق الانسان للفلسطينيين. فهو مصدر ثابت للإلهام ويدافع في شجاعة عن دولة فلسطينية مستقلة فعلا في الضفة الغربية وغزة وعن الشروع في محادثات مباشرة ومفيدة مع أكبر مناوئين محليين لأعمال الطغيان الإسرائيلية، وهما حماس وحزب الله. وقد جافاه حزبه السياسي بسبب هذا.

دخل الرئيس باراك أوباما، بعد سنوات طويلة من الإهمال ممن سبقوه في الرئاسة، أدغال الشرق الأوسط بطلب وقف بناء المستوطنات اليهودية في داخل فلسطين التي تحتلها إسرائيل وبإعلان دعمه دولة فلسطينية مستقلة. وتحدّى رئيس وزراء إسرائيل بنيامين نتنياهو طلب أوباما وأصدر أمرًا سريعًا بتوسيع المستوطنات.

ولما واجه أوباما صعوبات في موافقة الكونغرس على الإصلاحات المتعلقة بالعناية الصحية أسقط طلبه تجميد الاستيطان. وربّما استنتج أنه سيخسر المعركة الشديدة في شأن العناية الصحية إذا واصل في الوقت نفسه المواجهة مع إسرائيل. وقد واجه، في منتصف الصراع عن العناية الصحية، دليلًا متجددًا إلى خنوع الكونغرس أمام اللوبي الإسرائيلي. فالقرار الذي وضعت الإيباك، اللوبي الإسرائيلي الأساس، مسودته وتندد فيه بتقرير القاضي الجنوب الأفريقي المحترم ريتشارد غولدستين للأمم المتحدة عن جرائم الحرب في غزة والذي لاقى استحسانًا على نطاق واسع، تمت الموافقة عليه بمعارضة ٣٣ صوتًا في مجلس النواب المؤلف من ٤٣٥ عضوًا، ومرّ في مجلس الشيوخ من دون أي اعتراض. فقد قفز جميع أعضاء الكونغرس تقريبًا بطاعة عبر الدولاب الذي يحمله اللوبي الإسرائيلي. أما هل يصدر أوباما إنذارًا إلى إسرائيل ويقف وراءه بحزم فمسألة فيها نظر.

الفصل العشرون: لفلفة مصيرية

علقت أميركا، منذ سنوات كثيرة، في فخ التحيّز الديني الكريه مع ظهور إسرائيل إلى الوجود. وقد زُرعت بذوره في ١٩٤٨ عندما رفض الرئيس ترومان طلبًا صريحًا من وزير الخارجية جورج سي. مارشال، وأعطى المباركة الأميركية للحظة التي أعلن فيها المتمرّدون اليهود دولة إسرائيل على أرض استولوا عليها بقوة السلاح من الفلسطينيين.

وطلعت البذور ونمت في شكل خانق بعد ذلك بـ١٩ سنة في خلال حرب الأيام الستة التي هزمت فيها القوات العسكرية الإسرائيلية الجيوش العربية واستولت على ما تبقى من فلسطين. وأصدر الرئيس جونسون، عندما فاجأه الغدر الإسرائيلي، أوامر مصيرية شوّهت إرثه ووضعت الولايات المتحدة على طريق من الانحياز الديني ذات نهاية مريرة. وقد اتُخذت القرارات في سرعة في الثامن من حزيران/يونيو ١٩٦٧، وهو يوم كالح واجه فيه الرئيس تحديات واسعة بما فيها تدهور وضع الحرب في فيتنام والاحتجاج المتزايدة سريعًا على الحرب في أميركا.

أخذت حصيلة القتلى الأميركيين في فيتنام ترتفع في اطراد، ورأى معظم الأميركيين في النزاع وحلة ميؤوسًا منها. وعلى الجبهة الداخلية، أخذ جونسون يحاول في شكل محموم منع الزعماء اليهود من الانضمام إلى المعارضة المناهضة للحرب. وسبق له، بصفة كونه داعمًا طويل العهد لإسرائيل، أن زود الدولة اليهودية مساعدة عسكرية سرّية في استيلائها على الأرض العربية.

تجاهلتْ أوامر جونسون السرّية في ذلك اليوم مقتل بحارة أميركيين وسوّغت الإساءة والخداع. ومن شأن قراء القصص الخيالية الجاحظي العيون أن يعدوا

تصرّفه ضربًا من ضروب الخيال في العالم الواقعي، مع أنه لا يزال مخفيًا في شكل كبير في تغطية أمر بها جونسون وحافظ عليها في حزم من خلفوه. وعلى رغم كوني عضوًا في لجنة الشؤون الخارجية في مجلس النواب، لم أعرف بأحداث ذلك اليوم العظيمة الشأن إلا بعد ذلك بأثنتي عشرة سنة عندما قرأت كتاب «الهجوم على ليبرتي» الذي وضعه الرائد البحري الأميركي جايمس م. إنّس جونيور. وهو رواية تصويرية من شهود عيان عن محاولة إسرائيل المقصودة تدمير سفينة جمع المعلومات الإستخبارية الأميركية وطاقمها كاملًا شرق البحر الأبيض المتوسط - وهو عمل إجرامي لا يكاد يُصدّق ضد المحسن الرئيس الوحيد على إسرائيل في العالم. ويوفّر الدليل في كتاب إنّس، والذي تضخم كثيرًا بالوقائع التي تكشّفت في السنوات التي تلت، برهانًا كاسحًا على ذنب إسرائيل.

ومن المهم الكشف المفصل غن هذا الفصل المريع من فصول التاريخ. فقد أدت قرارات جونسون السرّية في ذلك اليوم دورًا رئيسًا في جعل الولايات المتحدة خاضعة كلّيا لإسرائيل الدولة الدينية المذنبة بالفعل بانتهاكات فاحشة ومستمرة للقانون الدولي. ولا تزال الوقائع مجهولة في معظمها حتى اليوم. وأدى الخضوع بأمتنا إلى ٩/١١ وإلى حربين مكلفتين لا تزالان تستنزفان مصادر أميركا البشرية والمادية والمالية والاخلاقية.

وقع الهجوم على سفينة البحرية الأميركية ليبرتي، وهي خفيفة التسليح، في المياه الدولية في شرق البحر المتوسط. وكانت هوية السفينة واضحة جدًا للعيان، وقد رفرف علمها الأميركي في النسيم الخفيف في خلال ساعات النهار المشرق لدى طلعات الاستطلاع الإسرائيلية الجوية وما تلاها من هجوم من الجو والبحر. بدأ الهجوم أول بعد الظهر واستمر أكثر من ساعة. وعندما مزّقت الطائرات الإسرائيلية المغيرة العلم الأميركي المرفوع على ليبرتي رُفع واحد آخر أكبر حجمًا مكانه. ورشّت الطائرات من علو مخفوض سطح السفينة بنيران الصواريخ والنابالم وعطّلت كل الهوائيات وثقبت بدن السفينة بأكثر من ٨٠٠ ثقب، ثم اطلقت النار على مراكب النجاة المطاط التي أُنزلت إلى البحر عندما

بدا أن السفينة هالكة ومزقتها. وفجّر زورق طوربيد إسرائيلي أطلق النار من مجال قريب فجوة بعرض ٣٩ قدمًا على ارتفاع بضعة انشات فوق خط الماء(١).

ومن باب المعجزة، وتمامًا قبل أن تتوقف أجهزة السفينة الكهربائية عن العمل، زحف التقني تيري هالبارديير عبر سطح السفينة المكشوف تحت نيران القصف القاتلة ومدّ سلكًا من الهوائي المتضرر إلى كابينة البث. وسمح ذلك بإرسال نداء وحيد للمساعدة. وأنقذت شجاعة هالبارديير، الذي أصيب بشظية خلال زحفه، ليبرتي وطاقمها من التدمير التام. فقد كان من شأن إصابة السفينة بطوربيد واحد آخر إرسالها ومَن عليها إلى أعماق البحر.

أُصدرت أوامر أميركية حاسمة ردًّا على نداء الاستغاثة، وتم الشروع فيها في تعاقب سريع. وسُمع النداء في حاملة الطائرات ساراتوغا التي تقوم بالدورية على مقربة من كريت، فأمر قبطانها، جو توللي، بإرسال الطائرات المقاتلة لانقاذ ليبرتي وأفاد بذلك قائد مجموعة الحاملة الأميرال لورنس غيس على متن سفينة القيادة «أميركا». وأوصل غيس الخبر إلى واشنطن(٢).

ردّ الرئيس جونسون، من غرفة الأوضاع في البيت الابيض، بإصدار أمر مذهل. فأعطى أوامره إلى غيس بإلغاء مهمة الإنقاذ على رغم معرفته بأن ليبرتي لا تزال عرضة للهجوم. فأمر الجنرال برجوع طائرات الإنقاذ بعدما لم تؤت احتجاجاته ثمارها.

ومن جسر ساراتوغا شاهد البحارة بذهول الطائرات وهي تعود. وأمكنهم أن يسمعوا، عبر جاهز اللاسلكي، آخر مناشدات طلب المساعدة من السفينة ليبرتي. وأمكن في خلفية الاستغاثة سماع أصوات القنابل وهي تنفجر(٣). بعد ذلك بدقائق عرفت السلطات الإسرائيلية بنداء طلب المساعدة من ليبرتي فأوقفت

---

(١) WRMEA 9-10-09 p25.

(٢) المصدر السابق ص. ٢٦.

(٣) المصدر السابق ص. ٢٦.

الهجوم. وقُتل ٣٤ بحارًا أميركيًا على متن ليبرتي وأصيب ١٧١ بجروح خطيرة. وأخبرني اثنان من قدامى الخدمة في البحرية بتفاصيل ما تم تبادله من كلام عندما أمر جونسون الطائرات بالعودة. فقد استمع عامل اللاسلكي توني هارت، وهو عمل على مدى ١٩ عامًا في محطة للربط اللاسلكي في الغرب، في اهتمام إلى المحادثة التي دارت بين جونسون وماكنمارا في واشنطن والأميرال غيس في البحر، كاملة.

وهاكم ما سمعه هارت: ماكنمارا إلى غيس: «أعد تلك الطائرات إلى سطح السفينة». غيس: «لكن ليبرتي لا تزال تتعرض للهجوم وتحتاج إلى المساعدة». ماكنمارا: «أعد تلك الطائرات اللعينة إلى سطح السفينة». غيس: «حضرة الوزير، أرغب في استئناف هذا الأمر لدى سلطة أعلى». ماكنمارا: «لدي بالفعل سلطة من الرئيس بإعادة هذه الطائرات. وهو هنا إلى جانبي». جونسون لغيس: «لا أحفل إذا غرقت السفينة، فأنا لن أخوض حربًا مع حليف من أجل زوجين من البحارة». وقال الأميرال: «نعم، نعم، يا سيدي».

ولما نُقل الناجون الجرحى من ليبرتي إلى متن السفينة «أميركا»، أعرب غيس عن أسفه لتلقيه طلبًا بوقف عملية الإنقاذ. وبقي، حتى مماته، يفكر بماذا أمكنه أن يفعل، على رغم الأمر الرئاسي، لمساعدة طاقم ليبرتي.

شاركتُ، على مرّ السنين، في اجتماعات الناجين من ليبرتي وأجريت مقابلات مع عدد منهم. وفي اجتماع أخير، وفّر القائد ديفيد لويس، ضابط الاستخبارات الرئيس في ليبرتي الذي أصيب بجروح خطيرة في الهجوم وحصل على تقرير سرّي ومفصّل عن الحديث المتبادل في شأن استدعاء الطائرات للعودة، تفاصيل عن الأمر. فبعد يومين على تنفيذ الأمر الرئاسي، وبينما كان لويس يتعافى في مستشفى حاملة الطائرات، استدعاه الأميرال غيس إلى مقر قيادته. وقال الأميرال، المضطرب جدًا، للويس أنه يخشى أنه سيتلقى أمرًا بالتزام الصمت في شأن ما تبادله من كلام مع جونسون وماكنمارا، وانه يريد للويس، وهو الضابط الكبير على متن ليبرتي، بأن يعرف بالضبط ما تم تبادله من كلام. والفارق الوحيد في ما يتذكّره كل من لويس وهارت يتعلّق بكلمات

جونسون. يقول لويس إن غيس كرر كلام الرئيس كما يلي: «لا أبالي إذا غرقت السفينة. فأنا لن أُحرج حليفًا من أجل زوجين من البحارة». غير أن الروايتين، كلتيهما، مروعتان. وهما أيضًا منوّرتان لأنهما توفّران الدليل إلى أن الرئيس عرف أن الطائرات المغيرة إسرائيلية، وهو واقع لم يعرفه طاقم ليبرتي في البداية. وشرح الرائد البحري إنّس، الضابط المسؤول عن سطح السفينة يوم الهجوم، أن جميع الأفراد كانوا مشغولين جدًّا في تفادي الرصاص والشظايا والنابالم ويقومون بأعمال النجاة فلم يتفصحوا عن كثب العلامات، إذا كان ثمة من علامات، على الطائرات الإسرائيلية وهي تئز من فوقهم. وقال إنه لا هو، ولا أيٌّ من رفاقه في السفينة ممن سألهم، يمكنهم ان يتذكروا علامات واضحة[1].

وقال لويس: «إن الأمر الذي أصدره جونسون هو ربما الأول في التاريخ الذي لا يعطي القوات المسلحة الأميركية الاذن بالمساعدة في الدفاع عن سفينة تابعة للبحرية الأميركية تتعرض للهجوم»[2]. وعرف جونسون أيضًا أن الهجوم لا يزال مستمرًا. ولكن لم يتضح كيف تأمنت له تلك المعرفة.

اعترف المسؤولون الإسرائيليون، الذين أُمسك بهم في جريمة متعمّدة ضد سفينة تابعة للبحرية الأميركية، بأن المهاجيمن كانوا من الإسرائيليين، وكذبوا زاعمين أن الهجوم شكل حالاً من الخطأ في التعرف إلى هوية السفينة واعتذروا. وقبِل جونسون بالكذبة الإسرائيلية بصفة كونها تفسيرًا كافيًا على رغم أن الدليل القاطع إلى أن الهجوم كان متعمّدا بات متوافرًا بالفعل في أعلى مراتب الإدارة[3].

أمر الرئيس على الفور بلفلفة تامة للأمر وأوفد الأميرال إيزاك كيد وفريقه

(١) مقابلة عبر الهاتف مع إنّس في ٣١ آب/أغسطس ٢٠٠٩.

(٢) محادثات مع لويس وهارت في ٢٣ آب/أغسطس ٢٠٠٥.

(٣) جيمس إنّس، مقابلة في ١٩٩١ مع السفير دوايت بورتر، نص رسالة من إنّس بالبريد الإلكتروني في ١٢-١٣-٠٩ ٤:٣٢ ب.ظ.، وبيان من ج. ر. غوتشر في ٥-١٧-٠٤، ونص رسالة من إنّس بالبريد الإلكتروني في ١٢-١٣-٠٩ ٤:٢٨ ب.ظ..

إلى شرق المتوسط للتنفيذ وإجراء تحقيق قضائي حدد جونسون نتائجه مسبقًا. امتثل كيد وأعضاء فريقه وسافروا إلى المتوسط حيث هدد كيد شخصيًّا البحارة الناجين بالسجن، وبعضهم لا يزال على سرير المستشفى، إذا أخبروا أيًّا كان بما حدث بالفعل. وبعد جولة استمرت أسبوعًا وتضمنت مقابلات محدودة وسطحية فحسب، أصدرت مجموعة كيد حكمها الذي يعفي إسرائيل من أي ذنب.

وبعد ذلك بأربعين عامًا رُفعت التغطية بعض الشيء، ونال هالبارديير ميدالية النجمة الفضية وتنويها بشجاعته هو الثاني عشر الذي يُعطى لأحد الناجين من ليبرتي لكنه الأول الذي يحدد إسرائيل الدولة المهاجمة. ولم تشر التنويهات الأخرى إلا إلى قوى جوية وبحرية «أجنبية»[١].

وفي ٢٠٠٧، اعترف النقيب البحري المتقاعد وارد بوسطن، كبير الضباط القانونيين الذين سافروا مع الأميرال إلى المتوسط، بأن كلًا منه وكيد اعتقد في صفة شخصية أن التحقيق في الهجوم كان مدروسًا. وأعلن بوسطن في بيان عام مشفوع بالقسم ان الرئيس جونسون، وقبل البدء بالتحقيق، أمر كيد بإصدار نتائج تبرّئ إسرائيل من الملامة[٢]. وشكّل تقرير التحقيق الذي أجراه كيد تزويراع ومع ذلك لا يزال الوسط الرسمي في الولايات المتحدة يتمسك حتى اليوم برواية الخطأ في تحديد الهوية ويتصرّف كما لو أن اعتراف بوسطن لم يحصل قط. ولا تحتوي السجلات الرسمية أي إشارة إلى إرسال طائرات الإنقاذ أو إعادتها.

وفوّت كيد، وهو كان بالفعل أميرالًا مميزًا من أربعة نجوم، على نفسه فرصة القيام بخدمة عامة عظيمة. وتوجّب عليه أن يستقيل من بعثته احتجاجًا بدلًا من المشاركة في الخداع الذي طلبه جونسون. وألقيتُ أواخر ١٩٨٣ نظرة خاطفة على شخصية كيد. وأجريت معه مقابلة وأنا أحضّر لكتابي عن اللوبي

(١) المصدر السابق ص. ٢٦.

(٢) The San Diego Union Tribune, June 6, 2007.

الإسرائيلي، وقد صدمني موقفه المنشرح الصدر حيال الهجوم على ليبرتي وإشاراته المُحِطّة إلى الناجين بصفة كونهم «أولادًا».

وتترك الوقائع المعروفة عن ليبرتي أسئلة حيوية من دون جواب. لماذا تخاطر إسرائيل بالكشف العام المرتفع المخاطر عن محاولتها تدمير ليبرتي وطاقمها؟ وهناك نظرية تقول إن إسرائيل خططت للشروع في غزوها سورية في اليوم التالي ولم تشأ أن تخاطر في حصول فريق الاستخبارات في ليبرتي على فكرة مسبقة عن خططها وإيصال تلك المعلومات إلى البيت الأبيض الذي كان في ذلك الوقت يحاول التوصل إلى وقف لإطلاق النار. غير أن هذه النظرية تبدو غير قابلة للتصديق لأن الكشف المبكر عن الخطط لم يكن ليمنع إسرائيل المنتصرة بالفعل من السيطرة على مرتفعات الجولان السورية، ثم أن كسب هذه البقعة من الأرض لا يستحق المخاطرة الكبرى بالكشف العلني عن قرار إسرائيل إغراق ليبرتي.

يعتقد القائد لويس أن إسرائيل أرادت إغراق السفينة من دون ناجين ومن ثم إلقاء اللوم بالجريمة على مصر. وقال إن من شأن هذا إثارة غضب عنيف في الولايات المتحدة يكون على درجة بالغة من الحدة بحيث يدفع بالكونغرس إلى إعلان الحرب على مصر وحليفاتها العربيات. ويلاحظ لويس أن الإسرائيليين كانوا قضوا على الآلات الحربية العربية حين هاجموا ليبرتي. وأضاف «أرادوا إقحامنا في الحرب لا لشيء إلا لتعزيز مكاسبهم. فقد خشوا أن الرأي العام العالمي كان، من دون الدعم [الأميركي لإسرائيل]، سيجبرهم على الانسحاب من الأراضي المحتلة». ويعتقد لويس أن لو نجح المخطط الإسرائيلي لاحتجز أميركا في شكل قوي ودائم مع إسرائيل ضد العرب[١].

ومن سخرية الأمور القصوى أن محاولة إسرائيل تدمير السفينة وطاقمها لم تضر بالعلاقات الأميركية - الإسرائيلية. فقد كانت اللفلفة ناجحة إلى حد أن التبعيّة الأميركية للروزنامة الإسرائيلية ظهرت وقد تضخّمت إلى حد كبير. فقد

---

(١) رسالة بريد الكتروني من لويس إلى المؤلف في ٩-١٧-٢٠٠٥ تم تأكيدها هاتفيًا في اليوم نفسه.

كانت المساعدة الأميركية لإسرائيل، قبل الهجوم، ضئيلة بالمعايير الراهنة وتبلغ أقل من ٨٠ مليون دولار في السنة. وارتفعت المساعدة لإسرائيل، بعد الهجوم على ليبرتي، من مجرى هزيل إلى فيضان متزايد - دعم مالي وعسكري ودبلوماسي غير مشروط بمليارات الدولارات. ولم يتضح بعد سبب إعطاء الرئيس جونسون الأمر بعودة طائرات الإنقاذ، غير أن هناك وقائع كثيرة لا يرقى إليها الشك:

* ارتكاب القوات الإسرائيلية عملية قتل متعمّدة.

* لم تشكك أي إدارة لاحقة في زعم إسرائيل الكاذب أنها أخطأت في تحديد هوية السفينة.

* لم يشرع أي مسؤول فدرالي في القيام بجلسات استماع على رغم المناشدات المتكررة من أفراد الطاقم الناجين ومن غيرهم.

وطالبتُ زعماء أساسيين في الكونغرس على مر السنين، وقد أصبحت على معرفة بناجين من ليبرتي، أن يشرعوا في جلسات استماع علنية محاججًا بأنه أقل ما يمكن الكونغرس فعله لأفراد الطاقم الناجين الذين أبقت شجاعتهم السفينة عائمة. واكتفى أعضاء الكونغرس الذين قاربتهم بالاستماع من دون القيام بأي شيء.

كان نائب فلوريدا تشارلز بينيت، وهو رئيس ذو شأن يحظى بالاحترام للجنة الفرعية للقوة البحرية وقد عرفتُه وأعجبت به لسنوات، صريحًا. فعندما زرت مكتبه وحثثته على جدولة جلسات استماع، شاهدت الجانب الغاضب لهذا النائب الذي هو في العادة لطيف وودي. نهض عن كرسي مكتبه، وضرب الأرض بعصاه، وهدر: «لن تؤدي جلسات الاستماع إلا إلى إحراج بعض ناخبيّ». ولمّا عرفت لاحقًا بالكلام الذي نسبه غيس إلى الرئيس جونسون: «لن أحرج حليفًا من أجل زوجين من البحارة»، بدا كأنه ترداد كالح للكلام الذي تفوّه به بينيت.

تكاد الجريمة التي ارتكبتها إسرائيل في حق ليبرتي وطاقمها تعصى على

الفهم، تمامًا كما يعصى على الفهم الإخلال الكبير في الأمانة للوظيفة الذي ارتكبه القائد الأعلى. فقد وضع الرئيس، بعباراته نفسها، قيمة أعلى لدرء إسرائيل عن الملامة التي تستحقها على جريمة حرب من قيمة حماية حياة أفراد البحرية الذين تحت إمرته. وتسببت لفلفته القضية بإعطاء ضباط عسكريين كبار وغيرهم من المسؤولين الحكوميين القدرة على إضفاء صدقية رسمية، سنة بعد سنة، على أكاذيب عرفوا أنها مضرة بمصلحة الولايات المتحدة القومية.

وكان هدف جونسون المعلن حماية الدولة اليهودية من الإحراج في حال عُرفت الوقائع، ولكن قد يوجد حافز آخر للفلفة. فنجاحها يحميه من خطر التعرّض الكبير للإدانة بل وحتى الاتهام بالإخلال بالوظيفة. ولو أن جريمته خضعت لمحاكمة مجلس الشيوخ على الجرائم الكبرى لتبيّن بالتأكيد أنها أسوأ من الارتكابات التي أوصلت إلى اتهام كلينتون بالإخلال بالوظيفة ومحاكمته، أو من تلك التي دفعت بالرئيس ريتشارد نيكسون إلى الاستقالة من الرئاسة.

وقد يكون النفوذ الصهيوني أدى دوراً. إذ حافظ جونسون، وهو من المؤيدين المتحمسين منذ زمن طويل لإسرائيل، على صداقة حميمة مع النيويوركي أرثور كريم، وهو رجل أعمال ثري وزعيم صهيوني وطني، ومع زوجته ماتيلدا. ولكلاهما علاقات وثيقة مع مسؤولين إسرائيليين. وحلاً في شكل متكرر ضيفين يمضيان الليل في البيت الأبيض، بل أنهما أقاما أيضًا مسكنا لهما على مقربة من مزرعة جونسون في تكساس. وقد تواصلا مع جونسون في خلال الأيام التي أوصلت إلى حرب الأيام الستة. وحلت ماتيلدا ضيفة أمضت الليل في البيت الأبيض عندما حصل الهجوم على سفينة البحرية.

ومن الواضح ان جونسون استنتج، وهو يتخذ القرارات في خلال أحداث ٨ حزيران/يونيو ١٩٧٦ التي أخذت تتحرّك في سرعة، أن القبول بكذبة إسرائيل عن الخطأ في تحديد هوية السفينة هو الطريقة الفضلى للخروج من وضع معقّد ويتهدده شخصيًا.

ومن المفيد التكهّن بماذا أمكن أن يحدث لو أن جونسون لم يأمر طائرات

الإنقاذ بالعودة. وكان من شأن الزمن الذي ستستغرقه لبلوغ ليبرتي أن يعطي الوقت الكافي للطائرات وزوارق الطوربيد الإسرائيلية للهرب. وكان طيارو «ساراتوغا» سيتصلون لاسلكيا طالبين المساعدة الفورية لناجي لبيرتي وجروح الكثيرين منهم خطيرة. وسيكون على إسرائيل، وقد انفضح غدرها، ان تُسقط زعمها الكاذب بالخطأ في تحديد الهوية. وكانت ستقدم اعتذارًا مُطنبًا وتعويضًا كبيرًا، ومن المرجح من ثم ان تُطلق كذبة جديدة مدعية، ربما، أن ضباطًا «مارقين» قاموا بالهجوم من دون إذن. بل ربما أعلنوا أن العناصر المذنبين قد أصبحوا في السجن ويخضعون للفحص النفسي. غير أن الشعب الأميركي، وعلى رغم أي اعتذار أو كذبة جديدة، سيشعر بالغضب الشديد من الحكومة الإسرائيلية لسماحها بهجوم «مارق» طويل وسيصرّ بالتأكيد على أن يضع الكونغرس حدودًا وشروطًا على أي تعامل مستقبلي مع إسرائيل.

غير أن أحداث ذلك اليوم سجلت، بدلًا من ذلك، تحولًا حاسمًا ومصيريًّا وجوهريًّا خاطئا في سياسة الولايات المتحدة الخارجية. وحققت حكومة إسرائيل سلطة جديدة مدهشة. فقد قُتل بحارة أميركيون بدم بارد وكوفئ المجرمون بمستوى جديد وأرقى من الاعتبار الأميركي. وأصبحت لدى المسؤولين الإسرائيليين أسباب وجيهة تدفعهم إلى الاعتقاد ان في وسعهم التخلص في المستقبل من أي ذنب - حتى قتل مواطنين أميركيين- من دون أي جزاء أميركي أو حتى توبيخ.

وأدت تلك اللفلفة سريعًا إلى خضوع أميركي مكلف لإسرائيل - انحياز ديني في السياسة الخارجية متركّز في شكل صارخ على إسرائيل ومجحف في حق العرب والمسلمين بحيث أنه يستمر في تغذية العداوات للأميركيين على مستوى العالم.

وحصلت أولى زلاّت القدم في العلاقة الأميركية الغريبة مع إسرائيل عندما أصبحت الحكومة الأميركية شريكة في الجريمة، بغضّها الطرف عندما سمح رئيس الوزراء الإسرائيلي في هدوء بالاستيطان اليهودي غير المشروع في الأرض العربية التي تم الاستيلاء عليها في حرب ١٩٦٧. وأصبح الانحياز الأميركي

الشامل إلى إسرائيل هو القاعدة التي لا تكسر في واشنطن. ووفّرت المساعدة الأميركية الضخمة وغير المشروطة لإسرائيل القدرة السياسية والعسكرية على تدمير المجتمع الفلسطيني وإذلاله، وهي انتهاكات للقانون الدولي ما أمكن ارتكابها لولا المساعدة الأميركية المُطلقة. وقد ازدرى العالم الإسلامي على نطاق واسع الانحياز الأميركي. ويُعتقد ان راديكاليين حانقين هم الذين نظموا هجوم ٩/١١ على أميركا الذي أدى بدوره إلى اجتياحي أفغانستان والعراق.

وتوسّعت الهوة بين الولايات المتحدة والعالم الإسلامي عندما قصفت إسرائيل، بدعم مكشوف من الحكومة الأميركية، نحو نصف لبنان في ٢٠٠٦ وكل غزة في ٢٠٠٨-٢٠٠٩.

ولم تتخذ الحكومة الأميركية حتى اليوم خطوات لتبرئة نفسها من التواطؤ مع جرائم إسرائيل. فكل مستوطنة إسرائيلية تشكل انتهاكًا للقانون الدولي، وكذلك حواجز التفتيش والجدران والسياجات والطرق المخصصة لليهود فحسب والتي تقسم فلسطين بالفعل مناطق معزولة. وهذه الإجراءات غير قانونية وغير أخلاقية وخاطئة. ولكن ما من حكومة أميركية أعربت، في خلال أربعين عامًا، عن احتجاج جدّي أو هددت بتعليق المساعدة لإسرائيل.

وأعلن الرئيس أوباما في ٢٠٠٩، في تحوّل ينذر بالشر عن تعهداته الانتخابية، التزامه النصر في أفغانستان، وكذلك في مواجهة القاعدة وهي كناية عن منظمة متفلّتة لمتمردين دوليين يُفترض أنهم من المسلمين وقوتهم في أفغانستان متواضعة وفي حال تراجع.

بلغ نفوذ الدولة اليهودية في أنحاء المجتمع الأميركية جميعًا حجمًا عميقًا يهدد سوء مسلكه بإشعال حرب مقدسة، وهو نزاع يستند إلى قاعدة دينية لا يمكن توقع عواقبه. وإذا بدا لكم هذا التصريح مبالغًا فيه فما عليكم إلا التفكير بمصير ليبرتي.

والغريب المفسد في الأمر أن زمرة صغيرة من منتهكي القانون في القدس وتل أبيب تلاعبوا بأميركا، المجتمع المتقدم ذي الثلاثمئة مليون نسمة، بدرجة

كبرى من الدقة والإحكام بحيث أن معظم مواطنيها غافلون عن خضوعهم. وتكاد حرية الكلام تصبح مفقودة في قاعات الكونغرس والأكاديميا وفي المنابر ومن دفّة أصغر مقهى في أصغر قرية، كل مرة تعلّق الأمر بإسرائيل. وبالكاد يُسمع صوت في أي مكان في الولايات المتحدة يعبّر عن القلق. وقد تم التغرير بملايين المسيحيين بوهم أن الله أعطى يهود إسرائيل الحق في فلسطين. ويخشى الملايين الآخرون الجهر بآرائهم، إذ يخافون من أن يؤدي أدنى توبيخ لإسرائيل إلى تلطيخ سمعتهم بتهمة اللاسامية. ومن النادر بالفعل وجود مواطن أميركي على استعداد لتسمية إسرائيل بما هي عليه، أي دولة مجرمة. إنه لواقع محزن.

وكتب ستيفن م. والت، الأستاذ في هارفرد الذي شارك في وضع كتاب ينظر في تأثير اللوبي الإسرائيلي في السياسة الخارجية الأميركية، أن على مقدمي طلبات الحصول على مراكز في إدارة أوباما أن يخضعوا لاختبار يثبت ولاءهم لإسرائيل: «على كل من يتم تعيينه. . . أن يخضع لتدقيق دقيق من المجتمع اليهودي الأميركي في خلفيته». ويضيف «أن مجموعات في اللوبي تستهدف الموظفين الحكوميين من أمثال [السفير كالرز] فريمان، و[السيناتور السابق تشاك] هاغل لأنهم يريدون التأكد من عدم تعيين من يمتلك منهم وجهات نظر مستقلة ولو بعض الشيء في ما يتعلق بشؤون الشرق الأوسط»[1].

فمتى تسلك حكومتنا الطريق الأخلاقية العامة في سياسة الشرق الأوسط؟ وتُحرَم الساحة الوطنية، في جزء من ذلك بسبب اختبار الولاء، أناسًا قادرين ومستعدين لتولي المسؤولية. فكيف يمكن أميركا أن تتحرّر من إسرائيل إذا استمرت هذه الرقابة التي تشمئزّ منها النفس؟

وأنا لا أمسك أنفاسي، غير أن الأمل المباشر الأفضل قد يقع في يقظة كبرى ثابتة العزم في صفوف الوطنيين الإسرائيليين، من أمثال الناشط الإسرائيلي أوري أفنيري، ممن يرون في وضوح النهاية المحتومة لإسرائيل كدولة يهودية

(١) ForeignPolicy.com, Ha'aretz 12-4-09.

عندما يرفع المدّ الديمغرافي العرب ليصبحوا الغالبية في الأراضي التي تسيطر عليها إسرائيل. ولا بد من وجود الكثيرين من الإسرائيليين المتماثلي الرأي الذين يزعجهم ما تقوم به حكومتهم من تدمير وإذلال في حق مجتمع عربي بكامله والضرر الذي ألحقته هذه العملية بسمعة اليهودية نفسها. على المتنورين الإسرائيليين أن يتشاركوا في قضية واحدة مع المتنورين الفلسطينيين. ويمكن الإسرائيليين الساميين والفلسطينيين الساميين، الاستيحاء من التحول الكبير الذي حدث في جنوب أفريقيا في السنوات الأخيرة والذي جمع بين الأفارقة البيض والزولو السود في وضعية سياسية متساوية، أن يتوصلوا بالتأكيد إلى اتفاق مشابه سلمي ودائم.

ويجب، للقيام بهذا، أن يتولى مواطنون حكماء وشجعان زمام أمور السياسة العامة في الأراضي المقدسة وينظموا برنامجًا متبادلًا من الاعتراف والمسامحة والمصالحة. فهل هذا مستحيل؟ إذا أمكن جنوب أفريقيا التخلص من الاستعمار البشع، يمكن ذلك أيضًا الإسرائيليين العاملين يدًا بيد مع الفلسطينيين.



الفصل الحادي والعشرون: بذور الحرب المقدّسة

كشف استطلاع لم يحظ بالكثير من الانتباه أجرته جامعة كورنيل في ٢٠٠٥ عن مستوى مروّع من الانحياز ضد المسلمين في المجتمع الأميركي. ودفع الخوف من المفاهيم الخاطئة للإسلام بأربعة وأربعين في المئة ممن تم استطلاعهم إلى تأييد التضييقات الحكومية على الحريات المدنية لجميع المسلمين الأميركيين، وهم جماعة دينية تتألف من أكثر من ستة ملايين شخص[١].

واسترعى الاستطلاع انتباهي في خلال زيارة قمت بها في ٢٠٠٦ للإمارات العربية المتحدة بعد خمس سنوات على نشر كتابي «لا سكوت بعد اليوم». أصابتني النتيجة كالمطرقة، وهي أكثر ما تم الكشف عنه إثارة للقلق منذ سنين. ويعني هذا أن نحو نصف المواطنين تقريبًا يعتقدون ان جميع المسلمين على درجة كبيرة من الخطورة فلا تُعطى لهم الحقوق المُعلنة في إعلان الاستقلال والتي يضمنها الدستور الأميركي.

وبدا، بعد ذلك بخمس سنوات، أن التفريج عن القلق العام لم يتم. فقد كشف استطلاع أجري في كانون الثاني/يناير ٢٠١٠ في ألف وستة منازل ان نحو النصف ٤٣ في المئة - اعترفوا بالتحيز ضد المسلمين وبالقلق من الإسلام. وقال ٥٣ في المئة من المجيبين إن نظرتهم إلى الإسلام «غير مؤاتية جدًا أو غير مؤاتية على الإطلاق». وأجرت الدراسة مجموعة غالوب ولاحظت أن «٤٣ في المئة تشكّل ربّما تقديرًا بخسًا».[٢] ويعطي الاستطلاع المسلمين

(١) Associated Press, Ithaca, NY; Saturday, Dec. 18, 2004, Belleville News-Democrat p 7A.

(٢) Gallup Group Survey, The Religion News Service January 25, 2010.

سببًا إضافيًا للقلق والخوف، وعلى جميع المواطنين القبول بالنتائج على أنها نداء للاستيقاظ. فالتعصب الديني ينمو في سرعة كالسرطان القاتل ويمكنه أن يسمم السياسة العامة، ويمكنه أيضًا أن يسمم السلوك الفردي. وأصبحت العلة قاتلة، في شكل حرفي، في ١٩٦٧ عندما حققت إسرائيل، عقب الهجوم على السفينة الأميركية ليبرتي، تفوقًا بلا منازع في السياسة الأميركية في الشرق الأوسط. ويرى العالم، باستثناء أسرائيل والولايات المتحدة، أن سياستنا المتحيزة لإسرائيل معادية للعرب وللمسلمين وهي مُستنكرة عمومًا. وهذا لا يُلاحظ كثيرًا في الولايات المتحدة حيث تتوحد وسائل الإعلام الكبرى في تجاهل الأخبار التي تلقي ضوءًا سيئًا على إسرائيل، لكنها تعنون في شكل روتيني على التقارير التي تربط كلمتي إسلام ومسلم، ولو خطأ، بالفوضى. والتأثير الصافي لذلك هو أن المسلمين الأميركيين يخافون على سلامتهم، وتتراجع مكانة الولايات المتحدة الأخلاقية في العالم.

ويشكل النزاع على الأرض الفلسطينية جذور معظم الاضطرابات الراهنة في العالم. فقد احتفظت إسرائيل، في خلال العقود الأربعة التي أعقبت حرب الأيام الستة، بقبضة حديد على فلسطين كاملة وبخاصة الأراضي التي يُطلق عليها اسم إسرائيل الكبرى والتي لم يسيطر عليها اليهود سوى مدة وجيزة منذ ألفي سنة مضت. ويزعم المستوطنون اليهود في فلسطين اليوم ان هذه العقارات ملك لهم مستندين في ذلك إلى تفسيرات مُتنازع عليها على نطاق واسع للمقاطع التوراتية. والمستوطنون قلة ولا يمثلون غالبية وجهات النظر في إسرائيل، لكنهم أقوياء سياسيًا. وهم يتألفون في غالبيتهم من اليهود المبالغين في المحافظة ممن يدعون أن الأرض الفلسطينية هي عطية الله الدائمة لليهود. ويؤمنون بأن مسيحهم لن يأتي إلا بعد إقامة إسرائيل الكبرى. وهم، استنادًا إلى ذلك، يقاومون في شراسة إقامة أي دولة مستقلة أخرى في أي جزء من فلسطين.

إنحاز الرئيس ريغان إلى المستوطنين. وفي أحد أيام ١٩٨١، وبعدما ترأس ريغان نقاشًا في غرفة الحكومة في البيت الابيض على مسائل زراعية مع النواب الذين يمثلون الولايات الزراعية - وأنا بينهم - حصلتُ على لمحة سريعة مفيدة

ومقلقة عن وجهة نظر ريغان غير التقليدية والتي لا يتم الكشف عنها على نطاق واسع عن حقوق اليهود في الأرض. وقد توجه الجميع، بعد انتهاء النقاش، إلى باب الخروج. ووجدت نفسي فجأة عالقًا في شكل موقت مع ريغان عند الباب. نظرت إليه مباشرة وقلت: «سيدي الرئيس، أعتقد أن الفلسطينيين يستحقون موطنًا لهم». توقف لحظة، ثم سأل: «ولكن إلى أين سيذهبون؟» وكان جادًا. وصُعقت. وعند هذا الحد أسرع به أحد مساعديه إلى مكتبه الخاص.

فهل اعتقد الرئيس أن ليس للفلسطينيين الحق في البقاء حيث هم، في المنطقة التي صنّفتها الخرائط على مدى قرون طويلة على أنها فلسطين، الأرض التي عدَّها أجدادهم أرضهم على مدى ألفي سنة؟ كانت تلك رسالته الجليّة. وأدركت، وأنا أتمعّن في كلامه، أنه اقتنع بالزعم الصهيوني أن الأرض التي احتلها الفلسطينيون حقبة طويلة هي الملكية التي وهبها الله لليهود وحدهم. وكان ريغان مشيخيًّا مثلي، وهي طائفة ترفض في شكل شبه اجماعي الزعم الصهيوني. وربما هو يتمسك في قرارة نفسه بمعتقدات أصولية على رغم انتمائه الكنسي. وجعلني تعليقه أدرك هول المهمة التي تواجه من يعملون لليوم الذي يمكن الفلسطينيين أن يعودوا أحرارًا لا يزعجهم أحد في موطنهم التاريخي.

وليس اليهود وحدهم من ينتظرون عودة المسيح. فالملايين من الأصوليين المسيحيين في الولايات المتحدة يؤمنون بأن مسيحهم، يسوع، يريدهم أن يدعموا إسرائيل إلى حين عودته إلى الأرض. ويعتقدون أن يسوع، بعودته، سيهزم قوى الشر في سهل أرمجدون، وعند ذاك سيتحوّل جميع اليهود إلى المسيحية أو يهلكوا. وتُقدّر أعداد المسيحيين الذين يؤمنون بوجهات النظر المتطرفة هذه بما بين ٢٠ و٦٠ مليونًا. ووجدتهم، في خلال خدمتي في الكونغرس، كثيرين وأقوياء في التزامهم ونشطين سياسيًا. وعلى رغم أن الحكومة الأميركية تندّد من وقت إلى آخر بهذه المستوطنات الإسرائيلية في فلسطين وقد دانتها على مدى سنوات بصفة كونها غير شرعية، فإن جهاز الضرائب يتيح أمرًا غير معقول إذ يسمح باقتطاع التبرعات لتوسيع المستوطنات من جدول الضريبة على الدخل.

ويكشف استطلاع جامعة كورنيل العائق الضخم الذي يعترض إلغاء الانحياز الأميركي لإسرائيل من سياسات الولايات المتحدة الشرق الأوسطية. وبما أن نصف عدد مواطنينا يخافون من الإسلام، فإن أي إدارة مصممة على اعتماد سياسات متوازنة في الشرق الاوسط ستواجه عائقًا شاقًا في التغلّب على الصور النمطية المتجذّرة التي تنظر إلى المسلمين في شكل شامل على أنهم خطرون.

بعد ذلك الاستطلاع، وجّه الرئيس باراك أوباما، وهو مسيحي كانت عائلة والده مسلمة، كلام المصالحة إلى العالم الإسلامي، لكن هذا الكلام والتعابير المشابهة من مصادر قليلة أخرى أُغرقت في السيل المستمر من المشاهد التلفزيونية وعناوين الصحف والتصريحات في الحوارات الإذاعية التي تربط عن خطأ الإسلام بالتفجيرات الإنتحارية وبقتل الأبرياء. وكتب رئيس هيئة الأركان الأميركية المشتركة الأميرال مايك موللن أن المجتمع الإسلامي «كناية عن عالم غامض لا نفهمه - ولا نحاول دائمًا أن نفهمه - كلّيًا»[١].

وينبع الشعور المعادي للأميركيين في العالم الإسلامي أساسًا من ثلاثة عوامل مترابطة: الأول، هو وجود الجنود الأميركيين في بلدان يسودها المسلمون؛ والثاني هو الغضب الذي ينتشر عندما تقتل العمليات القتالية الأميركية مسلمين، مدنيين وعسكريين؛ والثالث هو التواطؤ الأميركي مع الأذى الذي تلحقه إسرائيل بالمسلمين في فلسطين وغيرها.

وتُوجّه عملياتنا العسكرية القتالية في العراق وافغانستان وباكستان في كلّيتها ضد مسلمين، مع وجود استثناءات قليلة. وتصيب أعمال الحرب هذه بآفتها آلافًا عدة من العائلات وتولّد الاحتجاج المناهض للأميركيين على مستوى العالم، وبخاصة في البلدان الإسلامية. وهذا الواقع الذي لا نزاع فيه يغذي التحامل والحقد في الداخل والخارج معًا. ويبدو المواطنون في أميركا مُكيفين لجعل كل من يُعدُّ رسميًا عدوًا لنا، شيطانًا. وأعداؤنا اليوم جميعهم تقريبًا من المسلمين.

(١) Joint Force Quarterly, U.S. Department of Defense; August 28, 2009.

إن قتل الأميركيين للمسلمين في السنوات الأخيرة لمروّع. فقد قُتل أكثر من مئة ألف مدني عراقي منذ اجتياح القوات الأميركية للعراق في ٢٠٠٣. أضف إلى ذلك أن عدد القتلى من الأطفال كان مرتفعًا جدًا بسبب النقص في الإمدادات الطبية الحيوية وفي الطواقم الطبية وفي الغذاء الناتج عن الحصار الجوي الأميركي على العراق في العقد الذي سبق الاجتياح. ويُقدّر عدد الوفيات في صفوف الاطفال في ذلك العقد بآلاف كثيرة.

من بدء الهجوم الأميركي على أفغانستان في ٢٠٠١ إلى تاريخ وضع هذا الكتاب، قتلت قاذفاتنا ومدفعيتنا وطائراتنا التي تطير من دون طيّار أكثر من ٧،٥٠٠ مدني في أفغانستان. وفي باكستان، قتلت هجمات الطائرات الأميركية التي تطير من دون طيّار والقاذفات ما لا يقل عن ٤٥٠ مدنيًا في النصف الأول من ٢٠٠٩. وعلى الحكومة الأميركية، علاوة على ذلك، أن تتحمل المسؤولية عن مقتل ألف مدني في خلال الاعتداء الإسرائيلي على لبنان في ٢٠٠٦ وعن مقتل ١٣٠٠ مدني تسبب به هجوم الدولة اليهودية على الفلسطينيين في غزّة في شتاء ٢٠٠٨-٢٠٠٩. فقد ساندت واشنطن الاعتداءين على المكشوف. وتتحمل الولايات المتحدة، إضافة إلى ذلك، المسؤولية عن مقتل فلسطينيين ولبنانيين مسلمين تسببت به سلسلة من العدوانات الإسرائيلية المُمولة من الولايات المتحدة في ١٩٨٢ وما بعدها[١].

ويقدّر العالم السياسي المرموق ستيفن والت من جامعة هارفرد، والذي شارك في تأليف كتاب اللوبي الإسرائيلي والسياسة الخارجية الأميركية، ان عشرة آلاف و٣٢٥ أميركيًا - معظمهم من ضحايا ٩/١١ والعمليات القتالية التي شرعت فيها الولايات المتحدة في العراق وأفغانستان - قتلوا في السنوات الثلاثين الماضية على يد مسلمين، فيما قتل الأميركيون ما لا يقل عن ٢٨٨

(١) لا يضم هذا الملخص عن الإصابات القاتلة القتلى العسكريين من أي طرف من طرفي القتال. فعلى سبيل المثال بلغ عدد الجنود الأميركيين القتلى في العراق، حتى وضع هذا الكتاب، ٤٢٩٥. وبلغ عدد القتلى من الجنود البريطانيين وغيرهم من قوى الائتلاف ٣١٨.

ألف مسلم. وهذه نسبة تبلغ ٣٠ مسلما يُقتل في مقابل كل أميركي. ويتضمن المجموع القتلى العسكريين والمدنيين على السواء. وقد اختار والت التخمينات الأدنى لعدد المسلمين القتلى[١].

وليس القتلى مجرّد إحصاءات وحسب. فالصراخ المعذّب للأم المسلمة الثكلى أو الزوجة هو على القدر نفسه من النفاذ ومن تلويع النفس الذي لأم أو لزوجة مسيحية أو يهودية ثكلى. فموت كل مسلم، على غرار أي وفاة في زمن الحرب، يصيب، بما هو أبعد من أعضاء العائلة المباشرين، حياة الأصدقاء المقربين. وهذا يعني أن ملايين عدة من العائلات الإسلامية المفجوعة تضمر استياءً دائمًا وغضبًا على الولايات المتحدة. ووصف أسامة بن لادن، القائد الشهير للقاعدة، ٩/١١ بأنه تسديد حساب لتواطؤ الولايات المتحدة مع الاساءة الإسرائيلية الطويلة الأمد في حق الفلسطينيين وقتلها نحو ١٨ ألف مدنيٍّ في عدوانها في ١٩٨٢ على بيروت في لبنان. وقال إن فكرة تدمير مبنى التجارة العالمية في مانهاتن راودته وهو يشاهد أبنية بيروت الشاهقة تهوي تحت القصف الإسرائيلي. وشهد النائب بول «بيت» ماكلوسكي الدليل إلى التواطؤ الأميركي عندما زار بيروت بعد وقت قليل على العدوان. فقد استوقفه لبنانيون مُحاصرون غاضبون وأروه شظايا ذخيرة استُخدمت في القصف الإسرائيلي كُتب عليها «صنعت في الولايات المتحدة».

وقال بن لادن في بيان أذيع عبر الراديو في ايلول/سبتمبر ٢٠٠٩: «كما سبق وأن كرّرت في مرات لا تحصى على مدى العقدين الماضيين فإن السبب في الخلاف معكم [الولايات المتحدة] هو دعمكم لحلفائكم الإسرائيليين الذين احتلوا أرضنا، فلسطين ... وهو ما دفعنا إلى تنفيذ هجمات ١١ أيلول/سبتمبر»[٢].

تحقّق الانتقام المختمِر بعد ذلك بعقدين عندما تسببت مجموعة من

(١) Stephen Walt, "Why do they hate us?" The New Foreign Policy.com 11-30-09.

(٢) كما أورد في ١٤ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٩ البروفسور خوان كول على صفحته Informed Comment blog

المسلمين المزعومين بمذبحة ٩/١١ المروعة، وهو رعب دفع بحكومتنا إلى الشروع في حربين ضخمتين في بلدين مسلمين هما أفغانستان والعراق. وأثار تركيز قتال الجيش الأميركي على المسلمين المخاوف في العالم الإسلامي من أن الولايات المتحدة، وهي مسيحية إلى حد كبير، تشن حربًا صليبية جديدة على الإسلام. ويعرف المسلمون تمام المعرفة سفك الدم الذي أنزله المسيحيون الصليبيون بالمسلمين منذ قرون مضت. واليوم، فإن الدعم الأميركي المطلق للإساءات الإسرائيلية المستمرة للفلسطينيين يشكل الحافز الرئيس للعداء لأميركا على مستوى العالم.

المفاهيم قوية في كل مكان. ويُنظر إلى القوات الأجنبية على أنها برهان على أن المسؤولين المحليين هم دمى في أيدي القوى الخارجية. ويُعد الجنرالات في كل من العراق وأفغانستان الحكومة الحقيقية. ويُنظر، في فلسطين، إلى المحتلين الإسرائيليين المدعومين من الولايات المتحدة بصفة كونهم الحكومة الحقيقية. ولن يصدّق المواطنون أن حكومتهم متحَررة من أي سيطرة خارجية إلا عندما ترحل القوات الأجنبية.

تتسبب القوات الأجنبية بانفعالات تراوح بين القلق والاستفظاع. وأنتجت دراسة راهنة عن كل التفجيرات الانتحارية في العالم منذ ١٩٧٥ نتيجتين مهمتين: الأولى هي أن كل التفجيرات تقريبًا وقعت في مناطق تحتلها قوات أجنبية، والثانية هي أن التفجيرات الانتحارية تتوقف مع رحيل هذه القوات[١].

لا تزال القصة الكاملة عن أصول ٩/١١ غير مكتملة، لكن الاستنتاجات الموقتة توفّر دراسة حال مفيدة عن كيف يمكن الإنحياز الديني الأميركي أن يؤدي إلى سفك مريع للدماء. وقد اتُهمت مجموعة صغيرة من المسلمين المزعومين في عملية القضاء الرهيبة على نحو ثلاثة آلاف شخص في ٩/١١. وقال زعيمها، خالد الشيخ محمد، لمعتقليه الأميركيين إن دافعه الأساسي كان

(١) Pape Richard, University of Chicago, Dying to Win: The Strategic Logic of Suicide Bombings.

«الحقد على موقف أميركا المنحاز منذ وقت طويل إلى إسرائيل» في سياساتها الشرق الأوسطية[١].

أحدثت ٩/١١ حنقًا فوريًا شديدًا ودائمًا معاديًا للإسلام في كل أنحاء الولايات المتحدة لا تزال أصداؤه تتردد بعد ذلك بتسع سنوات. ومما لا شكّ فيه أن عددًا كبيرًا من الأقارب المُستفظعين والأصدقاء يتفجعون على كل وفاة أميركية، وهو غضب يزيد من حدّة الصور النمطية المعادية للإسلام التي ظهرت في استطلاع جامعة كورنيل.

أبلغ الصحافي الباكستاني أنصار عباسي مسؤولًا كبيرًا في وزارة الخارجية، في هدوء ولكن في صراحة لا تجمّل فيها: «يجب أن تعرفوا أننا نكره جميع الأميركيين». وأضاف «قُتل الآلاف من الأناس الأبرياء لأن الولايات المتحدة تحاول العثور على بن لادن»[٢].

ومنذ أحداث ٩/١١ الرهيبة تعرّض مسلمون أبرياء لانتهاكات لا مبرّر لها لحرياتهم المدنية، وللافتراض أنهم مجرمون بسبب انتمائهم العرقي، ولاحتجازهم أوقاتاً طويلة من دون إخضاعهم للإجراءات القانونية المناسبة. وفي ٢٠٠٩، أفاد مجلس العلاقات الأميركية - الإسلامية، وهو أكبر مجموعة دعم، عن «مستوى آخذ في الارتفاع من التحامل على المسلمين وإعطائهم صورة نمطية»[٣].

وتواجه القوات العسكرية الأميركية في أفغانستان صعوبة في حشد الدعم المحلي للإجراءات الحربية ضد الطالبان وبن لادن. وبدلًا من النظر إلى بن لادن بوصفه عدوًا، يتذكّره الكثيرون من الأفغان كوطني ساعد - بدعم من الولايات المتحدة - في إجبار القوات السوفياتية على الانسحاب من أفغانستان قبل سنوات قليلة مضت. وبرغم أن بعض الأفغانيين يكرهون معاملة الطالبان

(١) 8 9/11 official report, page 147.

(٢) William Pfaff syndicated article from Paris 8-23-2009.

(٣) CAIR DC bulletin, 4-8-09.

القاسية وغير الإسلامية للنساء، فانهم يحتفظون بذكريات إيجابية عن نجاح المنظمة في اقتلاع أسياد الحرب ووضع حد للجريمة عندما سيطرت على ٨٠ في المئة من أفغانستان قبل وقت قليل على الاجتياح الأميركي في ٢٠٠٢.

استطلعت شبكة الجزيرة التلفزيونية أخيرًا الباكستانيين عما يعدونه التهديد الأكبر لبلادهم. وسمّى ٥٩ في المئة منهم الولايات المتحدة. ولم يختر إلا ١١ في المئة مناضلي الطالبان[١]. والدكتور ولف فوهريغ استاذ متقاعد في بلدتي ويزور منذ زمن طويل البلدان العربية سنويًا، وقد وجد في زياراته الأخيرة ازديادًا حادًا في الغضب من أميركا. ففي السنوات السابقة أعرب المواطنون المحليون عن الحقد على سياسة الحكومة الأميركية وليس على الشعب الأميركي. وها إن الغضب الشديد تحوّل الآن ضد جميع الأميركيين. ووجد اثنان من طلاب التبادل في معهد إيلينويز يعيش أهاليهما في فلسطين التبدّل نفسه في المشاعر في زيارة لهما للديار[٢]. وفي دلالة إلى الانفعالات المعادية للمسلمين في أوروبا أظهر استفتاء سويسري في ٢٠٠٩ أن ٥٧ في المئة يؤيدون قانونًا يحظر منارات الجوامع وهي الرمز الهندسي لأمكنة عبادة المسلمين. وقد يكون أن صراع الحضارات الذي توقّعه البروفسور في هارفرد صامويل هانتينغتون يدور الآن.

لم أعِ، إلا بعد مرور عقد على مغادرتي الكونغرس، أن «الرهاب من الإسلام» سبب للجدل في الولايات المتحدة. واسترعى التحدي الذي تشكله الصور الخاطئة عن الإسلام انتباهي في ١٩٨٩ عندما حاضرت في كيب تاون في جنوب أفريقيا. تشاركت المنصة في الميدان العملاق مع مضيفي الشيخ أحمد ديدات المشهور عالميًا بصفة كونه المتحدث الكاريزماتي باسم الإسلام. وحضر أكثر من ١٣ ألف شخص. واستعرضتْ محاضرته، على غرار محاضرتي، الإساءة الإسرائيلية إلى الفلسطينيين الذين هم في معظمهم من

(١) William Pfaff syndicated column, Paris, 8-9-2009.

(٢) مقابلات شخصية مع ولف فوهريغ وسامر والنبطاوي وجعفر قطب.

المسلمين. وشكّلت الأمسية مناسبة رئيسية لبيع الكتب. وقد بيعت نحو ألفي نسخة من القرآن و٩٠٠ نسخة من كتابي «من يجرؤ على الكلام».

شكّلت الأيام الثلاثة التي أمضيتها في جنوب أفريقيا تثقيفي الجدّي الأول في الإيمان الإسلامي. أدركت في محادثاتي مع ديدات وفريقه الرابط الوثيق لمبادئ الإسلام مع المسيحية واليهودية إضافة إلى إعلان الاستقلال والدستور الأميركي.

كان ديدات، الذي عاش أجداده في الهند، طويل القامة مهيب الشخصية. وهو ذو لحية مسدولة بيضاء، ويرتدي قميصًا أبيض ذا ياقة مفتوحة وسترة داكنة وقبعة ملونة تشتهر في أوساط الرجال المسلمين. وبعد البرنامج استقبلنا أحد رجال الأعمال المسلمين في منزله حيث تُليت صلوات المساء وقدّم العشاء منتصف الليل. ونظّم فريق ديدات جولة موجّهة على المدينة والريف المحيط بها ما أعطانا لمحة سريعة عن التركيبة الطبقية البشعة التي لا تزال تحكم جنوب أفريقيا. وعاشت عائلة ديدات، بسبب جذورها الهندية في المستوى الثاني من أربع طبقات تخضع للفصل العنصري. ويحتل البيض القمة، فيما يحتل السود الاثنتين السفليين. ووجدنا على أحد جوانب الطريق العام سودًا يكافحون من أجل البقاء في أكواخ موقتة من دون إمدادات صحّية. واحتلت الجانب الآخر منازل فخمة أنيقة وحديثة للبيض.

شكل أسبوع حضرت فيه حلقة دراسية في ماليزيا تجربة غيّرت حياتي. كنت في ١٩٩٥ واحدًا من ٤٢ شخصًا، أربعة منهم من الولايات المتحدة، شاركنا في حلقة في بينانغ، ماليزيا، عن «صورة الإسلام في الغرب». وكنت شرعت في كتابة مقالات عن تجربتي مع ديدات اعترفت فيها بأهمية التفاهم بين الأديان. وجدنا أنا ولوسيل، بعد وصولنا إلى بينانغ من رحلة متعبة حول نصف العالم، ترحيبًا حارًّا ومريحًا في منزل جون محي الدين محامي الحقوق المدنية وزوجته مسلمة. خلعنا لدى وصولنا إلى منزلهما أحذيتنا عند الباب وتعرفنا إلى أصدقاء جدد واستطيبنا الموز المقلي. وعقد الحلقة الدراسية الدكتور شاندرا مظفّر، وهو هندوسي تحول في شبابه في الهند إلى الإسلام. وهو الآن مواطن

ماليزي ويترأس مؤسسة «العالم العادل» ويتحدّث بقوة من كرسيه ذي العجلات، ويكتب بالقوة نفسها في منشورة المؤسسة. وطلب في نهاية الأسبوع من المبعوثين أن يعلنوا ما سيفعلونه في الديار للمساعدة في تصحيح الصورة الخاطئة عن الإسلام. ولما جاء دوري وعَدْتُ بوضع بيان مختصر يفيد المسلمين الأميركيين في تعاطيهم مع الصور الخاطئة.

علمت ونحن نغادر ماليزيا أنني عَلِقْتُ وقد اقتنعتُ بأن الصور الخاطئة عن الإسلام تشكل حاجزًا رئيسًا أمام تصحيح سياسات الشرق الأوسط الأميركية. حملتُ تحديًّا عميقًا جديدًا وشعرت أنني مجبر على إعطائه انتباهي الكامل. وأعطانا آل محي الدين مونة من الموز المقلي قبل أن نصعد إلى الطائرة التي ستقلنا عائدين إلى الديار.

قضى مشروعي الأول في المنزل بوضع مسودة «ملاحظة ودية من جارك المسلم». وعدّدت لغته المقتضبة المعتقدات المهمة والمبادئ التي تربط ما بين المسيحية واليهودية والإسلام، وصححت بكلمات غير عدائية أكثر الصور النمطية الشائعة عن الإسلام.

أدركت، وأنا أضع مسودة الملاحظة، أن المسلمين، على غرار المسيحيين واليهود، متكرسون لله وللسلام مع العدل وللتعاون وللإحسان وللمسؤولية العائلية وللتسامح حيال الشعوب الذين من أديان أخرى. وتأنف التعاليم الإسلامية من الإرهاب والقهر[١]. وعلى مر السنوات الأخيرة، وقد أصبحتُ على معرفة شخصية أكبر بأعداد من المسلمين، وجدت التزامًا واسعًا لهذه القواعد لكنني لم أجد الكثير من المعرفة بهذه الالتزام في خارج المجتمع الإسلامي.

أخذتُ، وأنا أتوجه بالكلام إلى الحاضرين المسلمين، أوزّع نسخًا من «الملاحظة الودية» وأحثّ كل من حصل على واحدة منها على أن يصنع منها نسخًا ويوزعها كلّما سنحت له الفرصة اليومية بذلك. وأعلنتُ أيضًا طرقًا أخرى

(١) Text in Appendix A, silent No More.

يمكنها أن تساعد في القضاء على العدائية حيال الإسلام، من خلال مشاركة المسلمين في القداديس المسيحية ليعرضوا من ثم الاجتماع مع مجموعات مسيحية للرد على الأسئلة عن الإسلام؛ ومن خلال طلب التصحيح كلما أوصلت وسائل الاعلام صورا خاطئة عن الإسلام؛ ومن خلال وضع دبابيس زينة أو خواتم تظهر انتماءهم الإسلامي وبالتالي ربط مسلك الانسان الصالح في وضوح مع الإسلام.

في ذلك الوقت كانت المنظمتان الإسلاميتان الرئيستان في أميركا - الجمعية الإسلامية في أميركا الشمالية والمجمع الإسلامي في أميركا الشمالية - تركّزان في شكل رئيس على توفير خدمات شخصية للأعضاء. ولم تبدأ الجهود الجدية في توسيع المدى إلا في ٢٠٠٦. وأنجزت الجمعية الإسلامية في أميركا الشمالية في ٢٠٠٩ واحدة من الخطوات الرائدة في توسيع المدى عندما تحدّث القسيس ريك وارن، أحد رعاة الابرشيات المسيحية الكبيرة الطلائعيين، في مؤتمرها السنوي.

تكرّستُ منذ مطلع ١٩٩٨ وعلى مدى معظم ثلاث سنين لوضع كتاب «لا سكوت بعد اليوم» عن مسلمي أميركا. وتعاملت فيه مع الصور النمطية وشرحت بلوى المسلمين الأميركيين وقدّمت تفاصيل عن التزامهم الديني وعدّدت مساهماتهم للمجتمع الأميركي والأعباء التي يحملونها. وعملتُ عن كثب، في إعدادي النص، مع زعماء المنظمات الإسلامية الأساسية ومع أحمد عثمان الأميركي المولود في السودان والمدير التحريري لدى ناشر الكتب «منشورات أمانة» في بلتسفيل في ماريلاند. وتلقيت اقتراحات مفيدة من عيسى القرق الدبلوماسي الرئيس ورجل الأعمال الإماراتي، ومن زينب البري من ناشفيل وهي من مواليد مصر وتحظى بالاحترام الشديد بصفة كونها سفيرة غير رسمية للإسلام، ومن زوجها نور ناصري المولود في المغرب. وأرسل إلي القرق في أحد الأيام، وقد أصبح سفيرًا للإمارات في بريطانيا العظمى، نسخة من القرآن تضمنت علامات إلى ٢٧ مكانًا يحتفي فيه النص بيسوع، في تشديد على الترابط الودي بين الإسلام والمسيحية. وساعدني في بحثي كل من نهاد عوض المدير

الوطني لمجلس العلاقات الاميركية - الإسلامية، والبروفسور آغا سعيد مؤسس التحالف الأميركي - الإسلامي، وسيّد سيّد من الجمعية الإسلامية في أميركا الشمالية. وقد نشرت أمانة «لا سكوت بعد اليوم» في آب/اغسطس ٢٠٠١، وفاقت مبيعاته حتى اليوم ستين ألف نسخة.

وقد قُرئ كتابي بنهم في أحد المنازل. فبعد تحدّثي في ٢٠٠٤ أمام تجمّع في وستمينستر في لندن، أبلغني رجل أنه يمضي أمسياته في دوربن في جنوب أفريقيا وهو يقرأ بصوت مرتفع «لا سكوت بعد اليوم» لأحمد ديدات الذي كان أصبح عندذاك مشلولا كلّيًا وطريح الفراش. وقال إن الزعيم الإسلامي فقد منذ سنوات القدرة على النطق أو على تحريك أطرافه، لكنه عمل على طريقة شاقة في التواصل من خلال الطرف بعينيه. وفي ٢٠٠٧، كتب يوسف، ابن ديدات، أن والده استخدم طريقته في الطرف بالعينين قبل وقت قليل على وفاته ليبعث إلي بهذه الرسالة: «أخي العزيز فندلي: قد لا أراك أبدًا من جديد. كنت أشعر كأنني تركت العالم الخارجي ورائي، لكن كتابك أعاد هذا العالم إلى غرفتي. شكرًا لك، يا أخي». وكتب يوسف ان «المغزى الشديد» لرسالة والده قد أثّر في نفسه تأثيرًا قويًا.

بعد شهر على الظهور الأول لكتاب «لا سكوت بعد اليوم»، أطبق رعب ٩/١١ على المجتمع الأميركي. تم تحديد المرتكبين على أنهم من المسملين وهو ما دفع فورًا - ولكن عن خطأ- بالكثيرين من الأميركيين إلى ربط الإسلام بهذه المذبحة المريعة والتي لا معنى لها. وسارع زعماء المنظمات الإسلامية الأميركية الكبرى فورًا إلى عقد مؤتمر صحافي في مبنى الصحافة الوطنية في واشنطن ندّدوا فيه بالهجوم بصفة كونه انتهاكًا فاضحًا لمبادئ الإسلام ودانوا المسؤولين عنه. ولم يحظ إعلانهم بالتغطية في وسائل الإعلام الكبرى. وعمّم الهجوم الصور الخاطئة عن الإسلام وقوّاها. وأدى إلى ممارسات فظة ناتجة عن الانحياز الرسمي ضد المسلمين الملتزمين القانون.

أثرتُ الانفعالات في بلدتي، في الاعقاب الفورية للهجوم، بإعلاني في مقالة رأي في «جاكسونفيل جورنال كوريير» أن «هذا الهجوم الجبان على أميركا

والذي ليس له ما يبرره هو جزاء للسياسة الأميركية السيئة، وبالتحديد لانحيازنا إلى إسرائيل وتواطؤنا مع الإساءة الإسرائيلية القاتلة إلى العرب». وقلت إنه يشكل تحذيرًا رهيبًا بأن على حكومتنا تصحيح سياساتها في الشرق الاوسط. وأدليت ذاك الأحد بالرسالة نفسها في عظة في الكنيسة المجلسية المحلية.

وفاجأني أن تصريحاتي أثارت غضبًا لا سابق له في أوساط البعض من جيراني. وقد بلغ حدًّا من الشراسة دفعت برجل دين التقيته مرة واحدة في السابق إلى ان يعرض علي وعلى لوسيل استخدام منزله الريفي ملجأ موقتًا. ورفضنا العرض لأن الشرطة تبرّعت بمراقبة خاصة لمنزلنا. وقال لي الصديق المتقاعد ورجل الأعمال راي ديني: «نحتاج إلى الوقت للتفجع على أولئك الذين قُتلوا قبل أن تحاول تثقيفنا بسبب حصول ذلك». وهو ربما كان على حق، غير أنني أشعر أن الأميركيين لا يزالون، حتى اليوم، يستصعبون التصديق أن حكومتنا كانت على هذه الدرجة من الخطأ الأخلاقي لتساعد إسرائيل في ارتكاب الجرائم المريعة ضد جيرانها العرب.

وها أنا أعيد في ما يلي نشر بياني، بعدما راجعته بعض الشيء. وأعرضه هنا لأنه يستخلص تحويشتي لذلك الأمر الذي يُسمى الحقيقة. وهاكم ما أعتقده:

«ما كانت ٩/١١ لتحصل لو أن الحكومة الأميركية رفضت أن تتواطأ مع إذلال إسرائيل للمجتمع الفلسطيني وتدميره. ولأمكن تفادي الكارثة لو أن أي رئيس أميركي في السنوات الأربع والعشرين الماضية علّق المساعدة الأميركية لإسرائيل إلى أن تنسحب من الأراضي التي تحتلها في شكل غير مشروع منذ حرب الأيام الستة في ١٩٦٧. فاللوبي الإسرائيلي في الولايات المتحدة قوي ومثير للخوف، ولكن كان يمكن أي رئيس مصمم أن يسودَ ويكسب دعمًا شعبيًا ساحقًا على تعليق المساعدة من خلال إخبار الشعب الأميركي بالحقيقة. ويصمم الصهاينة أصحاب النفوذ في إسرائيل والولايات المتحدة، في جزء من ذلك بسبب تفسير راديكالي خاطئ للنص التوراتي، على منع الفلسطينيين من الحصول على دولة في أي جزء من فلسطين. وها إن الحكومة الأميركية ملعونة في الكثير

من البلدان لأنها تقدم إلى إسرائيل دعمًا غير مشروط على رغم انتهاكاتها ميثاق الأمم المتحدة والقانون الدولي وتعاليم كل الأديان الكبرى بما فيها اليهودية.

«تعود جذور هجمات ۱۱/۹ إلى سنوات كثيرة مضت عندما بدأ اللوبي الإسرائيلي بتحقيق نجاح متواصل في خنق النقاش حيال الدور الأميركي في الصراع العربي الإسرائيلي. ويكاد النقاش المفتوح على النزاع العربي الإسرائيلي يكون غائبًا. فأعضاء الكونغرس يتصرفون مثل كلاب الصالونات المُدرّبة، يقفزون عبر الحلقات التي يرفعها اللوبي الإسرائيلي. والنتيجة هي أن كل التشريعات المتعلقة بالشرق الأوسط تصبح منحازة بقوة إلى إسرائيل ضد الكيانات العربية/ المسلمة. بل أن التخويف الذي يعتمده اللوبي يُسكت معظم اليهود الأميركيين الذي يعترضون على تكتيكات اللوبي وعلى الوحشية الإسرائيلية.

«يكاد الإرهاب ينطلق دومًا من الشعور القوي بالظلامة التي إذا أمكن اجتثاثها، تؤدي بالتأكيد إلى إخماد الانفعالات الإرهابية. واليوم، وبعد ثماني سنوات على ۱۱/۹، لم تقم الحكومة الأميركية بأي محاولة جدية لمعالجة المظالم العربية/المسلمة أو حتى تحديدها. فإسرائيل ترأسها حكومة خارجة على القانون ويجب أن تُعامل على هذا الأساس».

وبلغ اللوبي الإسرائيلي في ۲۰۰۳ حدًا كبيرًا من السيطرة بحيث أنه أركع لجنة ۱۱/۹ الرسمية التي عينها الرئيس في خلال مداولاتها. وأفادني زميلي السابق لي هـ. هاميلتون، وكان يومذاك مديرًا لمؤسسة وودرو ويلسون، في أسف في خلال مكالمة هاتفية أنه والحاكم السابق توماس س. كين، وقد تشاركا في رئاسة اللجنة، اقترحا في خلال يومين مختلفين جدولة جلسات استماع يمكن فيها الاستماع إلى شهادات عن الدوافع التي أدت إلى هجمات ۱۱/۹ وتفحّصها. وتخلّيا في المرتين عن الاقتراح عندما سجل أعضاء اللجنة الآخرون اعتراضات قوية.

وكان على المتشاركين في الرئاسة جدولة جلسات الاستماع على رغم

الاعتراضات. فقد كان من شأن السجل المطبوع للنقاشات الصريحة أن يساعد الشعب الأميركي على تفهم المظالم التي دفعت إلى ١١/ ٩. وأدخل عضو شجاع في الفريق، مجهول الهوية، بيانًا مهمًا جدًّا في تقريره عن الدافع الذي أعرب عنه خالد الشيخ محمد الذي عرّفت عنه اللجنة أنه المنظّم الأساسي لـ٩/١١: «انطلاقًا من رواية خالد الشيخ محمد نفسه، فإن ضغينة حيال الولايات المتحدة لا تنبع من تجاربه [في الولايات المتحدة] بل من خلافه العنيف مع السياسة الخارجية الأميركية التي تحابي إسرائيل»[١].

وكان من شأن هذه النتيجة وحدها أن تبرر جلسات استماع في شأن الدافع. وبدلًا من ذلك بقيت الواقعة البارزة غامضة ولم تتم الإفادة عنها. وظهرت في وسط مقطع طويل مكرّس لبنود أخرى. ويفترض بي أن أستنتج أن أعضاء اللجنة الذين عارضوا جلسات الاستماع لم يريدوا الكشف علنًا عن سبب حصول الهجمات، وأن عضوًا في اللجنة دسّ هذا التصريح المهم في مكان لا يُرجّح أن ينتبه إليه أعضاء اللجنة. وقد خشي المندوبون، على غرار معظم المجتمع الأميركي، إثارة حنق اللوبي الإسرائيلي.

أصبحت هيلين توماس، في خلال مؤتمر صحافي في البيت الأبيض في كانون الثاني/يناير ٢٠١٠، واحدة من قلة من الصحافيين البارزين على المستوى الوطني في تركيز الانتباه على الدافع الإرهابي. وأصرّت تكرارًا، في مؤتمر صحافي دعا إليه الرئيس أوباما، على جون برينان، مستشار أوباما لمكافحة الإرهاب، ليشرح السبب الذي دعا الشخص الذي أخفى القنبلة ما بين رجليه إلى أن يحاول قتل نفسه وكل من على الطائرة على مقربة من ديترويت يوم عيد الميلاد. فوجئ برينان، وردّ كل مرّة أثارت توماس السؤال عن «السبب» بتمتمة تعليقات لا علاقة لها بالسؤال. وبدا، على غرار أعضاء لجنة ٩/١١، خائفًا من الإشارة إلى الانحياز إلى إسرائيل على أنه الدافع وراء الهجمات على الولايات المتحدة.

---

(١) تقرير لجنة ٩/١١ صفحة ١٤٧.

لا يوجد ما يبرّر هجمات ٩/١١. فهي عمل إجرامي شنيع يتطلب ملاحقة قضائية حثيثة ومعاقبة المجرمين. وهي لا تبيح القصف العنيف لأفغانستان المعزولة والفقيرة والتي تغلب عليها الأمية. فالبلاد تفتقر إلى الموارد لملء أي دور ذي شأن في النشاط الخارجي والأقل منه المهارات التقنية العالية التي أنتجت جريمة ٩/١١. ولكن، وإذ تم التعريف عن الأشخاص المتهمين بـ٩/١١ بأنهم من المسملين، أدى الهجوم إلى زيادة حدة الصور النمطية المناهضة للإسلام في أنحاء الولايات المتحدة كافة.

وقد رفعت أيضًا من عملية النشر الشاملة للمعلومات الدقيقة عن الإسلام إلى أعلى مرتبة من مراتب المصلحة الوطنية الحيوية. وتستحق المهمة أن يعطيها قادة أمتنا الأولوية القصوى.

وسيكون من المناسب وفي حينه أن يحتفل الكونغرس، على سبيل المثال، بواقع حديث وتاريخي وهو وجود كيث إليسون من مينيسوتا وأندري كارسون من إنديانًا بأنهما أول عضوين مسلمين منتخبين في الكونغرس. وتوجد سابقة كبرى للاحتفال. ففي خلال تجربتي في تلة الكابيتول، خصص مجلس النواب وقتًا لتقدير أولئك الذين شكّلت حياتهم المهنية شهادة على التنوع الديني لهذه الأمة.

وعلى المسيحيين واليهود وحتى الملحدين في الكونغرس أن ينضموا إلى هذين المسلمين في تحية ملائمة ومسكونية للتنوّع وللحماية التي لا تقدّر بثمن للحرية الدينية التي يكفلها دستور الولايات المتحدة. وستوحي المبادرة بتعليقات بناءة على مستوى مسؤولي الدولة والمسؤولين المحليين وكتاب الافتتاحيات ورجال الدين. ومن سوء الحظ أن مجلس النواب الأميركي سلك منعطفًا خاطئًا حادًا بموافقته في ٣ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٩ على القرار ٨٦٧ - الذي وضعت مسودته الأيباك، وهي اللوبي الإسرائيلي الرئيس - الذي انتقد في قسوة تقريرًا للأمم المتحدة، حاز إشادة عالمية، عن هجوم إسرائيل على غزة في ٢٠٠٨-٢٠٠٩. والتقرير المتوازن، والذي حاز على إشادة واسعة، هو من وضع القاضي ريتشارد غولدستاين رجل القانون المتميز من جنوب افريقيا. وانتصر التصويت المؤيد لانتقاد التقرير بـ٣٤٤ صوتًا في مقابل ٣٦ صوتًا.

يجب الشروع في تحدٍّ تربوي يؤدي فيه المسلمون دورًا طليعيًا. فهم لا يزالون غرباء في وسطنا، يُساء فهمهم. ولم يلتق معظم الأميركيين، على معرفة منهم، أي مسلم أو يزوروا جامعًا أو يسمعوا آية من القرآن أو يقرأوها. وهم غير مدركين الإسهامات البناءة التي قام بها المسلمون في مجتمعنا. وعلى زعمائنا غير المسلمين، المنتخبون منهم وغير المنتخبين، أن ينبهوا الشعب بلغة واضحة إلى التهديد اليومي الذي تفرضه الصور النمطية المناهضة للإسلام، وأن يشددوا على روابط الإسلام الواسعة مع الديانتين الموحدتين الأخريين وهما المسيحية واليهودية.

ومن حسن الحظ ان أصواتًا أميركية قوية تطالب بالعدالة وبحماية التنوع الديني تُسمع في القطاع الخاص، وبينهم قادة في «مجلس المصلحة الوطنية» إضافة إلى هؤلاء الأبطال الآخرين التالية أسماؤهم:

- هيلين توماس ابنة التاسعة والثمانين وعميدة مراسلي البيت الأبيض؛
- رالف نادر، الناشط في الدفاع عن حقوق المستهلك والذي ترشح كثيرًا إلى الرئاسة؛
- أليسون وير، المحققة الصحافية ومؤسسة «لو أن أميركا تعرف»؛
- نهاد عوض، المدير الوطني لمجلس العلاقات الأميركية - الإسلامية؛
- سلام المراياتي مدير المجلس الإسلامي للشؤون العامة؛
- سيّد سيّد، مدير المركز الإسلامي لأميركا الشمالية في واشنطن؛
- الحاخام مايكل ليرنر، ناشر «تيكون»؛
- جون ويتباك، المحامي الأميركي المتمركز في باريس؛
- البروفيسور آغا سعيد، مؤسس التحالف الأميركي المسلم؛
- جايمس زغبي، رئيس المؤسسة العربية الأميركية؛
- محررو الـ «واشنطن ريبورت أون ميدل إيست أفيرز»؛

- جيري بيرد، مدير «شركاء من أجل السلام»؛
- روجر كوهين، كاتب المقال في النيويورك تايمز؛
- فرنسيس بويل، أستاذ الحقوق في جامعة إيلينويز؛
- هنري سيغمان، باحث رئيس في مجلس العلاقات الخارجية ومدير المؤتمر الأميركي اليهودي؛
- جف غايتس، مؤلف «الدولة المجرمة»؛
- جون ساتر، رئيس الفيديراليين الدوليين، سان فرانسيسكو؛
- النواب الأميركيون دينيس كوشينيتش من أوهايو، رون بول من تكساس، كيث إيليسون، وعضوا الكونغرس السابقان بول «بيت» ماكلوسكي من كاليفورنيا، ماري روز عوكر من أوهايو وهي رئيسة اللجنة الأميركية العربية المناهضة للتمييز؛
- جايمس أبو رزق، السيناتور السابق ومؤسس اللجنة الأميركية - العربية المناهضة للتمييز؛
- سينتيا ماكيني من جورجيا، زعيمة في الحزب الأخضر؛
- الرائد البحري جايمس م. إنّس، والناجون الآخرون من ليبرتي؛
- البروفسور دون فاغنر من إيفنستون، زعيم الانجيليين من أجل فهم الشرق الأوسط.

ويشكّل هؤلاء الناس كورسًا قويًّا من الاحترام المتبادل بين الأديان ومن النيات الحسنة. وقد يزيد هذا الكورس مع الوقت عددًا وحجمًا فيتردد صوته في كل أروقة السلطة. وشكّل عملي معهم تجربة تعليمية لا تُقدّر بثمن. لقد ساعدتني المجهودات مع أناس من أعراق وأديان مختلفة في أن أُسقط كلّيًا، على ما آمل، عبء ادعاء الصلاح. فأنا أتمتع بنعمة كبرى في حصولي على أصدقاء من ديانات مختلفة. وقد عرّفني الطبيب ميزين كوازاكي، طبيب النساء

والمؤلف من لوس أنجلس، عبر الإنترنت إلى البوذية، الديانة التي تشدد على اللطافة أيًا تكن الاستفزازات التي تجلبها علينا الحياة. وتلقيتُ مراجع عن الهندوسية من خلال فيتال أياغاري، العالم ورفيقي في لعب كرة المضرب.

تشكك الاتجاهات الديمغرافية الراهنة في أمكان أن تبقى إسرائيل لسنوات أطول دولة يهودية. وقد يؤدي توسيع المستوطنات اليهودية في الأراضي التي تسيطر عليها إسرائيل في وقت قريب إلى استبعاد أي إمكان لدولة فلسطينية قابلة للحياة، لكن اتجاهات معدلات الولادة تتوقع في خلال عشرين سنة غالبية فلسطينية في داخل الأراضي التي يسميها الصهاينة إسرائيل الكبرى. وستقع الدولة اليهودية عندذاك تحت ضغط دولي قوي لانهاء وضع الفلسطينيين كمواطنين من الدرجة الثانية. وإذا رفض مسؤولوها ذلك فستنحدر إسرائيل أكثر إلى العرقية الاستعمارية، وهو مشهد سيرفض الشعب الأميركي في النهاية مساندته.

ونظرًا إلى هذا الاحتمال، فإن هدف الدولتين - إسرائيل وفلسطين الجديدة تعيشان في أمان الواحدة إلى جانب الأخرى - يرتدي جاذبية جديدة ويصبح أكثر إلحاحًا. وقد عرض رسميًا للمرة الأولى في خطة وضعها وأعلنها في ٢٠٠٢ ولي العهد السعودي الأمير عبدالله. وتعرض الدول العربية بموجب هذه الخطة الاعتراف الكامل بإسرائيل وإقامة العلاقات الدبلوماسية معها في مقابل انسحاب إسرائيل من الأراضي التي احتلتها في حرب الأيام الستة في ١٩٦٧. وستقيم فلسطين الجديدة عاصمتها في القدس الشرقية. وقد أيدت الخطة ٢٢ دولة يسيطر عليها المسلمون إضافة إلى السلطة الفلسطينية وحماس المنظمة التي انتُخبت لحكم غزة. وجدد عبدالله خطته في ٢٠٠٧ بعدما أصبح ملكًا. وأصر، عن حكمة، على أن يتفق الأطراف على الهدف العام قبل التفاوض في التفاصيل. ويشكل اقتراحه تعبيرًا ملحًّا عن المنطق السليم.

إن الترياق الأكثر فاعلية للحنق المعادي للأميركيين على مستوى العالم هو في تصحيح السياسات الخارجية الأميركية وبخاصة إنهاء أعمال الحرب ضد المسلمين، وأخيرًا التوقف الواضح عن التواطؤ مع إسرائيل في جرائمها. إلا أن

ما ينتصب كالمارد ضد نجاح دولة فلسطينية قابلة حقًّا للحياة هو الجدار العملاق من الصور الخاطئة الذي يفصل بين الشعب الأميركي والحقيقة ويدفعه إلى عداء محزن للإسلام دين معظم الفلسطينيين. ومن غير المرجح أن تقوم إسرائيل، في غياب ضغط أميركي قوي، بإخلاء المستوطنات التي تعيد تقسيم ما تبقى من فلسطين وتعزل مجموعات السكان العرب الواحدة عن الأخرى.

ويجب، لتتمكن حكومتنا من ممارسة التأثير اللازم في إسرائيل، التخفيف من التحامل على المسلمين الذين يتمسك الآن بقوة بكل أنحاء أميركا. وتشكل الصور الخاطئة عن الإسلام والتأثير المؤذي للحكومة الإسرائيلية في مجتمعنا تركيبة على درجة كبيرة من الاتساع والعمق والقوة بحيث انها قد تشعل صراعًا مقدّسًا بضخامة لا يمكن توقعها. ولا تزال موجات الانفعال المذهلة المعادية للمسلمين على ارتفاع في الولايات المتحدة، وبخاصة في داخل الجماعة التي كثيرًا ما تُسمى اليمين المسيحي.

ويفيد مراسل الشؤون الخارجية السابق في نيويورك تايمز، كريس هدجز، أن أصواتًا حادة تحذّر في شكل غير عقلاني من الإرهاب الإسلامي. ويستشهد بالرسائل الانفعالية التي يُصدرها «من يصفون أنفسهم بأنهم ارهابيون مسلمون سابقون تحوّلوا إلى مسيحيين مولودين من جديد»، وهم وليد شوبات، كمال سليم، وزكريا أناني الذين يحركون عواطف الحضور الأصوليين. ويحذّر هدجز: «هؤلاء الرجال دجالون، لكن المسألة لا تكمن هنا. إنهم جزء من حرب مظلمة ومخيفة يشنها اليمين المسيحي على التسامح ستجعل من المقبول به، في اللحظة التي يحصل فيها هجوم إرهابي كارثي آخر على الأرض الأميركية، استهداف جميع المسلمين واضطهادهم بمن فيهم الستة ملايين الذين يعيشون في الولايات المتحدة. هؤلاء الرجال يغذّون تلك المخاوف اللاعقلانية».

تحاجج المؤلفة ديانا وست خطأ بأن «[نُظم الإيمان] بين الإسلام والغرب على طرفي نقيض إلى حد أن من غير الممكن لمصالحنا أن تلتقي [مع مصالح الإسلام]». وتدعو إلى «حملة متعددة المستويات لعكس الهدف النهائي

للجهاد»، الذي تُعلن خطأ انه يهدف إلى «بسط الشريعة الإسلامية بكل الوسائل العنفية وغيرها». وتستشهد باستطلاع للرأي أجرته «بيو» يظهر ان ٨٧ في المئة من الباكستانيين، الذين هم في معظمهم من المسلمين، «يؤيدون الحكم بالموت على من يرتدون عن الإسلام»(١).

والاستنتاج المُضلَّل في شأن معاقبة المرتدين ينبع من الأوهام القبلية وليس من الإسلام. ويعلن سلام المراياتي، مدير مجلس الشؤون العامة الإسلامي: «لا يرد في القرآن ما يدعو إلى الموت بسبب الارتداد. وهذا أمر تتجنبه الأديان كلها إذا إن الدينونة هي لله لا للناس»(٢).

ويشكّل التغلّب على مثل هذه التحذيرات ذات الوجهة الخاطئة مهمة جسيمة. وإذا استمر الوضع السياسي والعسكري قائمًا من دون أن يردعه رادع فسيصبح العالم عرضة لحرب تنشأ عن التجاوزات التي يرتكبها الراديكاليون في الجانبين. والحقيقة المحزنة هي في أن حكومتنا لم تقم منذ ٩/١١ بما من شأنه الاعتراف بالمظالم الإسلامية المشروعة، وبخاصة الانحياز في السياسة الأميركية في الشرق الأوسط المؤيدة في شكل صارخ لإسرائيل والمناهضة للإسلام. ويستشهد الطبيب محمد بشار دوست، المهاجر من أفغانستان والذي زودني الأبحاث لكتابي «لا سكوت بعد اليوم»، بـ«الحرب المقدسة» على أنها «المهمة الأكثر تحدّيًا في زماننا». وأعلن أن «ليس امام الرئيس أوباما من خيار. عليه أن يعالج كما يجب وفي شكل صحيح وفي شجاعة بذور الحرب المقدسة وجذورها وأسبابها. وقد حاز بشار دوست إجازته في الطب من الجامعة الأميركية في بيروت حيث شهد «الجيد والسيئ والشرير»، وفي إحدى المناسبات «حمام دم ارتكبه الإسرائيليون في حق النساء والأطفال والعجزة الفلسطينيين العزّل». ويعتقد أن الجنود الأميركيين في أفغانستان لا يفقهون جيّدًا الثقافة المحلية والتقاليد وبخاصة المعارضة المتجذرة للقوات الأجنبية على الأرض

(١) Syndicated column, Jacksonville [IL] Journal-Courier, 9-21-09

(٢) حوار هاتفي وبريد إلكتروني ٩-٢٢-٠٩.

المسلمين العراقيين والأفغان؟ هل تستمر طائراتنا التي تحلّق من دون طيّار في قتل مسلمين باكستانيين أبرياء؟ هل تواصل حكومتنا دعمها المطلق اعتداء إسرائيل على المسملين في فلسطين ولبنان وسورية؟ هل تعطي حكومتنا الضوء الاخضر لإسرائيل لقصف المنشآت النووية في إيران المسلمة؟

إذا حصل ذلك فستكون النتيجة مزيجًا خطرًا وسامًا سيستمر في التصاعد ويحمل في طياته انفجارًا محتملًا. وسيحاول الراديكاليون من جانبي الانقسام الديني في السيطرة على الخطاب والعمل. ويمكن العنف المناهض للإسلام أن ينفجر سريعًا في الولايات المتحدة وإسرائيل، ويقابله في أنحاء العالم الإسلامي عنف بالغ ضد المحور الأميركي - الإسرائيلي الناشئ. وقد تحمل بذور الحرب المقدسة الثمرة المرّة لأكثر حماقة قاتلة يرتكبها الجنس البشري أبدًا.

وعلى الحكومة الأميركية، لتفادي هذه الكارثة، أن تبرهن في النهاية المنطق السليم بتحرير نفسها من الخضوع لزمرة صغيرة خارجة على القانون في إسرائيل تحتفظ بسيطرة لا سابقة لها على كل وجه تقريبًا من أوجه المجتمع الأميركي. وتتمثل الخطوة المنطقية الأولى باتخاذ الحكومة الأميركية قرارًا بوقف كل المعارك العسكرية وبتعليق كل المساعدات إلى أن تنصاع إسرائيل للقانون الدولي وتخلي الأراضي العربية التي احتلتها في حرب الأيام الستة.

الفصل الثاني والعشرون: التخلّص من قانون الغاب

ألهب كتاب كلارنس ك. ستريت «الاتحاد الآن» Union Now، الذي نُشر في ١٩٣٩، أبناء جيلي بعرضه خطة لمنع الحروب المستقبلية وحماية الحرية الفردية من خلال اتحاد دائم للديمقراطيات الرئيسة. استوحى من نجاح الاتحاد الفديرالي الأميركي واقترح مستوى جديدًا من الفديرالية ذات السلطة المحددة ولكن المحدودة. وقد اجتذب ذلك في صفة خاصة الشبان مثلي ممن توجهوا إلى الخدمة العسكرية في الحرب العالمية الثانية. واكتسب شعبية فورية ما دفع بستريت إلى التخلي عن حياته العملية الناجحة كمراسل للنيويورك تايمز وتكريس وقته الكامل للترويج «لاتحاد الأحرار».

توفّى في ٦ تموز/يوليو ١٩٨٦ عن تسعين عامًا. وقبل وفاته بساعات، أشار عرض كبير من الألعاب النارية إلى نهاية ثلاثة أيام من الاحتفالات التي أعيد فيها افتتاح تمثال الحرية في ميناء نيويورك بعد ترميمه. وشكلت المصادفة التحية المثالية لحياة ستريت. فرسول الحرية هذا لم يعش ليرى حلمه بالفديرالية وقد تحقق، لكننا أبقينا «مشعل الحرية»، كما كان يسميه غالبًا، مشتعلا في شكل مشرق.

شكل طموحي الراسخ بالعمل على تقدّم خطة ستريت العامل الأكثر أهمية الذي دفعني في الأساس إلى ترشيح نفسي إلى الكونغرس، وشكّل في خلال سنواتي السبع عشرة الأولى في تلة الكابيتول نقطة التركيز الرئيسة لمساعيّ التشريعية. إلا أن انتباهي تحوّل، منذ ١٩٧٨، إلى الكلفة العالية لسياسة أميركا الخارجية المركّزة على إسرائيل، وبقيت مع ذلك رؤية ستريت حيّة في ذهني. فخطته كناية عن خارطة طريق ستؤدي في يوم من الأيام بالعالم إلى احتضان

حكم القانون والتخلي عن النزاع العسكري الذي يُعرف كما ينبغي له ذلك على أنه شريعة الغاب.

طُلب مني الكلام في خلال الحفل التذكاري الذي أقيم في تلة الكابيتول بعد أيام قليلة على وفاة ستريت. وبدأت بهذه الكلمات: «يمتلئ دفتر ذكرياتي برذاذ من الحبر الأخضر». وكان بين الحضور ارثور بورنز، الرئيس السابق لنظام الاحتياطي الفديرالي والمؤيد الطويل الأمد لاقتراح ستريت، الذي ضحك ضحكة مكتومة. وهو الذي عرف ما الذي عنيته. فدفتر ذكرياته، على غرار دفتري، تضمّن الكثير من ملاحظات ستريت المكتوبة دومًا بالحبر الاخضر وهو السمة المميزة للرسول. ولم ينحرف ستريت قط، في سعيه الوحيد في الغالب إلى الفديرالية، عن لون الحبر أو عن العناصر الأساس للفديرالية التي يصفها في كتابه. فهو أدرك المحدوديات المتأصلة في السيادة الوطنية واقترح حلاً منطقيا سليمًا. كان على ثقة بأن ما إن يتم الشروع في الفديرالية حتى تصبح في النهاية عالمية مع قبول الدول الأخرى الاصلاحات التي تجعلها مؤهلة للعضوية.

اقترح كتاب ستريت جهازًا تنفيذيًا من ثلاثة أشخاص، ومجلسي تشريع، ومنطقة واسعة للتجارة الحرة، وأجهزة خارجية ودفاعية ومالية وتجارية وبريدية موحدة. شكّل ذلك مخططًا عظيمًا لاتحاد سياسي بين مراكز قوى العالم العسكرية الكبرى يُختبر فيه حكم القانون. واعتقد رعاة الفكرة ان قوة الاتحاد، ما إن يتم انشاؤه، ستمنع الحروب الكبرى وتحمي الحريات الفردية ضمن حيّز يتّسع على الدوام. وقد أثار الكثير من الحماسة على مستوى العالم مما دفع بستريت إلى تشكيل منظمتين من المؤيدين وترؤسهما. وقد وقّعتُ على عضوية واحدة منهما - الاتحاد الفديرالي، إنك - ولا أزال في مجلس إدارة التنظيم الذي خلفها وهو «مجلس ستريت لاتحاد الديمقراطيات»، الذي لا يزال تحت القيادة الجيدة لدون دنيس الذي انضممت إليه في ١٩٤٦ في فريق مجلة ستريت. ويتمتع التنظيم الآخر الذي أنشأه ستريت، «الحركة الدولية للإتحاد الأطلسي»، بعضوية دولية واسعة. وضم مؤيدوه الأولون زعماء في مجالات

الاعمال والدبلوماسية والأكاديميا والسياسة من الولايات المتحدة وفرنسا وبريطانيا ودول الكومونولث البريطاني وهولندا والبلدان الاسكندينافية. وبينهم البريطاني أنتوني إيدن ووزير الخارجية الفرنسية موريس شومان وكان صوت فرنسا الحرة في الحرب العالمية الثانية. واستقال القاضي أوين ج. روبرتس من المحكمة العليا الأميركية في خلال الحرب العالمية الثانية ليكرّس وقته كله وطاقته للترويج للهدف الفديرالي. وقال المؤرخ البريطاني أرنولد توينبي مرّة لستريت: «لا مفر من الفديرالية التي تتصورها». واحتل ستريت غلاف مجلة التايم وانخرط في نقاشات إذاعية لاقتراحه في مختلف أنحاء البلاد. ودعا الرئيس فرانكلين د. روزفلت ستريت إلى البيت الأبيض للتحادث.

ودعمتُ، وأنا طالب في المعهد، اقتراحه في زاوية نشرت في صحيفة المعهد، ثم شاركت بالنص في مسابقة على مستوى المعاهد الوطنية ترعاها منظمة ستريت. وفزت بالجائزة الثانية وهي بطاقة سفر بالقطار إلى واشنطن مع وعد بتمضية يوم مع ستريت. ووصلت إلى واشنطن يوم عيد الميلاد في ١٩٤١. وحشرت نفسي في اليوم التالي، بعد غداء مع ستريت في نادي الصحافة الوطني، عبر أحد أبواب قاعة مجلس النواب لأستمع إلى خطاب رئيس الوزراء البريطاني وينستون تشرتشل المثير أمام اجتماع مشترك لمجلسي الكونغرس. شكّلت تلك واحدة من لحظات الافتتان الكبرى في حياتي، مضيفة مزيدًا من الوقود إلى اهتمامي المشتعل بالفعل بالسياسة. وأبلغني ستريت، في محادثة كئيبة، أنني أخذت مكان ابنه الذي قُتل قبل أيام قليلة في حادث سيارة. وشكّل ستريت، في السنوات الستّ والأربعين التي تلت، جزءًا مهمًّا ومُلهمًا من حياتي. ودفع تأييدي خطة ستريت بشقيقي العالِم وليام إلى دعمها. وبين الذكريات التي أحتفظ بها نسخة عن مقالة طويلة في «إيلينويز تكنوغراف»، وهي منشورة تصدر عن كلية الهندسة في جامعة إيلينويز، جاء فيها أن وليام، وكان يومذاك معلّما، دعا العلماء إلى المطالبة بإنهاء السيادة الوطنية لتتمكن الفديرالية الجديدة من الحصول على ما يكفي من السلطة للعمل بفاعلية.

وشرعت في ولايتي الثانية في الكونغرس في تحديد مؤيدي ستريت في تلة

الكابيتول. واكتشفت، ويا لدهشتي، دزينات عدة منهم. عرفنا ان الفديرالية ستثير الجدل، تمامًا كما فعل قرار تقدم به المرشح السابق إلى للرئاسة السيناتور إستس كيفَوْفر، من تينيسي، في كل من الكونغرسات السبعة الأخيرة. وهو يقترح «بعثة من حائزي الجوائز» الأميركيين يُسمح لها بالاجتماع مع مجموعات مماثلة من دول النيتو لدراسة الخطوات الآيلة إلى الفديرالية. وستخضع المقترحات التي تتم صياغتها في المؤتمر لموافقة الدول الأعضاء. وهي، على رغم كونها تمهيدية، أنعمت الذهن في خطوة عملاقة من خطوات أصول سياسة الدولة. ولم تُعقد أي جلسة استماع.

بدأ علمي النشط من أجل الفديرالية في ١٩٦٣ عندما سمح لي زملائي الجمهوريون بتشكيل لجنة من ١٢ عضوًا تتعلق بالنيتو والمجتمع الأطلسي. ووافقوا بعد ذلك بسنتين على ترؤسي رحلة يموّلها الجمهوريون إلى باريس لدراسة اختلال النظام في النيتو. وانضممت في السنة نفسها إلى مجموعة غير رسمية مؤلفة من الحزبين اسمها «أعضاء في الكونغرس من أجل السلام من خلال القانون». وكانت النائبة الديمقراطية باستي مينك، من هاواي، إحدى قادتها. كنا زميلين في لجنة الزراعة في المجلس حيث حازت التصفيق من الحزبين لتوزيعها من وقت إلى آخر نماذج من ثمر الأناناس على الأعضاء. وأدى ذلك إلى بدء معرفة قادتني سريعًا إلى مشروع مينك في عالم القانون. كانت المجموعة، وهي في معظمها من الديمقراطيين، تجتمع مرة في الشهر للنقاش. وكان الهدف الترويج لقانون عالمي قابل للتطبيق بصفة كونه الطريق المناسبة والأكيدة إلى السلام الدائم. ولم تضم المجموعة سوى ٢٠ عضوا عندما التحقت بها. وتوسّعت، عندما غادرت الكونغرس في ١٩٨٣، لتضم أكثر من ١٠٠. وتناسبت غايتها مع حملتي من أجل الوحدة الأطلسية ومع اعتراضي على استخدام أعمال الحرب لتقديم الأهداف السياسية الخارجية. وتنبهت للمرة الأولى، وأنا عضو، إلى تحيّز أميركا الطويل الأمد إلى إسرائيل. وحفّزت عضويتي اهتمامي بمحكمة العدل الدولية، وهي الفرع القضائي للأمم المتحدة.

عقدت لجنة الشؤون الخارجية في مجلس النواب في ١٩٦٦ جلسات

استماع لقراري الداعي إلى الفديرالية الأطلسية. وهو اختلف في شكل رئيس عن قرار كيفوفر بالتوصية بأن يتشارك في رئاسة الوفد الأميركي الرئيسان السابقان ترومان وايزنهاور. وقدّم أيزنهاور، في رسالة إليّ مؤرخة في ٦ نيسان/ أبريل ١٩٦٦، تأييده الصريح للمفهوم: «أؤيّد مسعاك في قوة، ما من شك في ذلك. وأنا، ثانيًا، أقدّر تقديرًا حارًا دعوتك لي إلى المشاركة في رئاسة البعثة مع الرئيس السابق ترومان وأود كثيرا أن أتمكن من القيام بذلك... [لكنني لا أستطيع] لأن أوضاعي الصحية قد فرضت عليّ أنظمة طبية واضحة جدًا لوقت طويل من الآن... أتمنى الخير لمسعاك وأتمنى لو يمكنني المساعدة شخصيًّا في دفعه إلى الأمام بحسب اقتراحك».

نظم ستريت، وقد أنعشه هذا التأييد، مؤتمر الوحدة الأطلسية في حزيران/ يونيو ١٩٦٦ في سبرينغفيلد، وكان المتحدث الرئيس فيه هو رئيس الوزراء الكندي لستر ب. بيرسون أحد الواضعين الكبار لمعاهدة حلف شمال الأطلسي. واختار ستريت عاصمة إيلينويز مقرًا للمؤتمر بسبب ولعه بإرث لينكولن ولأنها، على ما أسرّ لي، تشكل جزءًا جديدا من دائرتي الانتخابية.

وتوقع بيرسون في خطابه: «وفي المدى التاريخي الاطول، ستدرك أوروبا وأميركا الشمالية، كلتاهما، أن الشؤون الخاصة بكل منهما ستأتلف في شكل أفضل في اتحاد أوسع». وحاجج: «يمكننا البدء بالدول الأطلسية ذات التفكير المتماثل والتي امتلكت حسّ المجموعة وعادة التعاون، ولكن على الأمر أن يضم في النهاية كل الجنس البشري. والعالم أصغر من أقل من ذلك، ومع ذلك نستمر في التردّد حتى في أولى خطوتنا الحريصة. علينا أن نطوّر مؤسسات مشتركة موحدة تقدّم سياسات خارجية واقتصادية جماعية إضافة إلى دفاع مشترك حقيقي. وما من شيء أقل من هذا سيتناسب مع التحدي الذي تمثله اليوم الطائرات النفاثة والصواريخ والقنابل الهيدروجينية».

حظيت ملاحظاته بالتغطية في وسائل الاعلام المطبوعة الكبرى، لكنها لم تحظَ بالانتباه المفصّل الذي تستحقه. وبعد انتهاء بيرسون من كلمته قدم ستريت لوحتين إليه وإلى السيناتور الأميركي السابق فرانك كارلوسن، من كنساس،

ولوحة بعد الوفاة إلى السفير أدلاي ستيفنسون الثاني. واستلم أمين الخزانة أدلاي ستيفنسون الثالث، وقد أصبح لاحقا سيناتورا، اللوحة كذكرى لوالده.

ووفّر لي بيرسون، في محادثة خاصة، نظرة عميقة إلى السياسات الكندية التي تطابقت مع اختباراتي في إيلينويز. فهو ألقى مرة خطابًا في دائرته الانتخابية حيث عرض طويلًا دوره في إنشاء معاهدة حلف شمال الأطلسي. ولما انتهى جاءه مواطن محلي وقال له: «قد يكون هذا الكلام على النيتو حسنا وجيدًا، ولكن إذا لم تفعل شيئًا في شأن الخدمة البريدية في هذه الأنحاء فمن الأفضل لك أن تبحث عن وظيفة أخرى». وكان ديف غاروواي، مضيف برنامج «توداي شو» على أن.بي.سي. لسنوات كثيرة، بين المشاهير الذين شاركوا في البرنامج. وقال لمراسل محلّي: «قرأت [كتاب ستريت الأخير «حدود الحرية»] وصرت انسانًا جديدًا. ومذذاك لم يعد أي شيء يتمتع بهذه الدرجة من الإثارة».

وفي ١٩٦٧، طرحتُ أنا والنواب كُلِمْ زابلوسكي من ويسكنسون وموريس أودا من أريزونا ودون فرايزر وألبرت كوي من مينيسوتا، القرار المتعلق بالوحدة الأطلسية. عقدت لجنة الشؤون الخارجية جلسات استماع لكنها لم تقم بأي عمل. وتقدم الدعم للقرار تدريجًا، بعد سنة على ذلك، ليصل إلى ١١٤. وتشارك في رعاية القرار ٤١ ديمقراطيًا والعدد نفسه من الجمهوريين، وتعهّد، إلى ذلك، عشرون ديمقراطيًا إضافيًا وعشرون جمهوريًا دعمه. وحصل في السنة نفسها على الدعم المُعلن من السيناتور باري غولدووتر، المرشح الجمهوري إلى الرئاسة في ١٩٦٤، ومن أربعة مرشحين جمهوريين محتملين إلى الرئاسة - الحكّام السابقون وليام سكرانتون من بنسلفانيا، نلسون روكفللر من نيويورك، ومارك هاتفيلد من أوريغون، إضافة إلى نائب الرئيس السابق رتشارد نيكسون. وجاء التأييد من الجانب الديمقراطي من ثلاثة مرشحين محتملين إلى الرئاسة وهم السيناتور روبرت ف. كنيدي والسيناتور يوجين ماكارثي ونائب الرئيس هيوبرت هـ. همفري. ولطالما كان نيكسون وروكفللر وماكارثي من مؤيدي ستريت. ولوحظ غياب أي رد من حاكم كاليفورنيا الجمهوري رونالد ريغان.

وتوقّع غولدووتر للمسعى، في دعمه، أن يكون طويلًا على رغم كونه «ضروريًا»: «اؤيّد بقوة فكرة الفديرالية، لكنني لست متفائلًا بإمكان تحقيقها في السنوات القليلة المقبلة». وأضاف بطريقته التي لا تُضاهى: «وعندما تحصل سيكون لون معظم شعبنا قد أصبح أسمر فاتحًا».

وتعرّضت الفديرالية لانتقاد حاد من بعض الأوساط. فقد رفضتها الشيكاغو تريبيون، في افتتاحية تحت عنوان «عناد الأوهام»، على أنها «أضغاث أحلام». وارتأت التريبيون أن «واضع القرار هو النائب بول فندلي وهو يتمتع في العادة بسلامة الرأي. وانضم إليه في الرعاية أربعة جمهوريين آخرين من إيلينويز: جون ب. أندرسون، إدوارد ج. دروينسكي، روبرت هـ. مايكل، ودونالد رامسفلد. ولكن رويدكم. فمن بين الرعاة الآخرين هناك باري غولدووتر ونائب الرئيس السابق ريتشارد نيكسون، والأقل إثارة للدهشة، الحاكم جورج روكني من ميتشيغان والحاكم وليام دبليو سكرانتون من بنسلفانيا...» وختم المحرر المرتبك والذي بدا على حافة السكتة الدماغية بعبارة «مجنون».

وفي ۱۹۷۲، طرحنا، أنا ودون فرايزر من مينيسوتا، قرارات مشابهة مستخدمين العبارات نفسها التي استخدمناها في نسخة ۱۹٦۷. وهذه المرة أوصت لجنة العلاقات الدولية في مجلس النواب بتمريرها، لكن لجنة الأحكام في المجلس رفضت، بخمسة أصوات في مقابل أربعة، تمريرها إلى المجلس بكامله لمناقشتها. وفي ۱۹۷۳، تلقى القرار مرة أخرى تقريرًا مؤاتيًا من لجنة العلاقات الدولية التي أعيد تعيين أعضائها. وقد حفّز من تفاؤلي التأييد المعلن للفديرالية من الرئيس الجالس، ريتشارد نيكسون. وأعلنت رسالته لي دعم مفهوم ستريت، لكنها رفضت مساندة أي قرار محدّد. وكانت تلك المرة الأولى يعلن رئيس جالس علنًا مساندته فديرالية تجاوز طور الأمة.

جاءت رسالة التأييد من نيكسون بعد موعدي معه في الثاني من آذار/مارس ۱۹۷۳ في المكتب البيضوي، وهو موعد تطلب الكثير من الضغط على أصابع

المساعدين الذين تنص وظيفتهم الأساس على منع التطفّل على وقت الرئيس. وعرفت التفاصيل بعدما توقّف البروفسور ستيفن ليهي، وهو باحث منخرط في وضع سيرة النائب الراحل كليمنت ج. زابلوسكي، في دارة مكتبي في جاكسونفيل في ١٩٨٧. وأريته الصورة المؤطّرة التي التقطت لدى لقائي مع نيكسون في المكتب البيضوي. وقلت لليهي أن تدبير الموعد لم يكن بالأمر السهل إذ يبدو أن كل رئيس محاط بمساعدين يأملون في أن مناوراتهم التسويفية ستجعل حتى أعضاء في الكونغرس يتخلّون عن المحاولة.

بعد ذلك ببضعة أسابيع تلقيت رزمة من الوثائق من ليهي مرفقة برسالة كتب فيها: «كنتَ محقًّا، فمن الصعب جدًّا على عضو في الكونغرس رؤية رئيس جالس». وضمن ليهي الرزمة نسخًا عن ٢٧ وثيقة نسخها من مكتبة نيكسون الرئاسية تتعلق كلها بطلبي الحصول على مقابلة الثاني من آذار/مارس. وقد تكون مراجعة العملية مثقفة، وبخاصة للباحثين في شؤون الرئاسة.

طلبت الموعد في البداية في رسالة إلى نيكسون مؤرخة في ٢٧ كانون الأول/ديسمبر ١٩٧٢. وبعثت في اليوم نفسه برسالة إخبارية إلى بيل تيمّونز، رئيس الارتباط الرئاسي بالكونغرس. وبعد ذلك بيومين وردت علي رسالتان من تيمّونز ومن مساعده ديك كوك تؤكدان استلام طلبي. وأُرسلت نسختين عنهما إلى مستشار الرئيس لشؤون الأمن القومي هنري كيسنجر. وفي الثالث من كانون الثاني/يناير ١٩٧٣، دخل المساعد الرئاسي ريموند برايس على خط المراسلة. فقد تلقى مذكّرة من ديفيد باركر، المسؤول عن المراسلات الرئاسية، تطلب منه التعامل معها كما يراه «مناسبا». وفي ١١ كانون الثاني/يناير، كتب ديفيد جيرغن، وهو الآن معلّق في السي.أن.أن. إلى تيمّونز يعرض تدبير موعد لي مع أحد موظفي البيت الأبيض. وفي اليوم نفسه كتب لي باركر رسالة، مع نسخ عنها إلى تيمّونز وكوك والمستشار هيلموت سوننفلت وبرايس، أعلن فيها: «لا يمكننا التشجيع على تدبير اللقاء الذي طلبته». وأضاف: «طلب الرئيس أن تجرى الترتيبات لتلتقي، إذا شئت، مع واحد من كبار مستشاريه لشؤون الأمن القومي». في المذكرة التالية، وهي «مراسلة للملف» من الجنرال برنت

سكوكروفت مساعد كيسنجر إلى باركر، طلب سكوكروفت أن تُرسل إلي مذكرة في تاريخ لا يتعدّى الثلاثين من كانون الثاني/يناير.

اتصلت في ١٦ كانون الثاني/يناير بتيمّونز لأخبره أن سوننفلت وعدني بألا «يُسقط» مجلس الأمن القومي طلبي. وبعد ذلك بيومين كتب تيمّونز إلى باركر أنني كنت من المؤيدين الجيدين في المسائل المتعلقة بالحرب وبالتشريع في شكل عام. وأضاف، «ان عجز صديق طيّب عن الحصول على مقابلة سيتضاعف مرات كثيرة مع انتشار الخبر». بعد ذلك بستة أيام أحال باركر السؤال على كيسنجر. وأوحت ملاحظة مؤرخة في اليوم التالي أن جواب كيسنجر كان سلبا. وأراد تيمّونز من شخص آخر غيره أن يبلغني الخبر السيئ، فكتب هذه الملاحظة إلى مكتب باركر: «نفهم ان طلب عضو الكونغرس فندلي قد رُفض مرة أخرى. إذا كان الأمر كذلك فإن السيد تيمّونز يرغب، رجاء، في أن يكتب السيّد باركر إلى عضو الكونغرس مباشرة». وبعد ذلك بيومين أُرسلت مذكّرة «الخدمة» التالية من سوننفلت إلى كيسنجر: «فندلي يضغط من جديد. لقد تغيّر موقف الحكومة [حيال قرار الوحدة الأطلسية] في السنة الماضية من المعارضة إلى اللا اعتراض اعترافًا بدعم فندلي القوي للإدارة في مسائل كثيرة بينها فيتنام». وأوصت المذكرة بأن يبعث سكوكروفت بمذكرة «عدم اعتراض» إلى باركر.

كتبتُ، وأنا غير عارف بهذه المفاوضات، نداءً جديدًا إلى تيمّونز. وبعد ذلك بأسبوع وصلت ملاحظة مبهمة من سكوكروفت إلى باركر: «ليس لدينا اعتراض على إعطاء الموعد لبول فندلي، ولكن ليس لدينا أيضًا سبب خاص لنوصي بموعد». بعد ذلك بأربعة أيام سأل تيمّونز باركر: «أين أصبحنا في الأمر الآن؟» وأوصى باركر، في ١٣ شباط/فبراير، بمقابلة مدتها عشر دقائق في ٢٦ شباط/فبراير. ولاحظت مذكّرته: «تظهر السجلات أن فندلي التقى الرئيس في ١٣ مناسبة كانت إحداها في ٩ أيلول/سبتمبر ١٩٧٠ في المكتب البيضوي في حضور سوننفلت؛ أما الأخرى فتمت في مناسبات توقيع، وفطورات كونغرسية أو استقبالات، وجلسات تصوير الخ». وحملت مذكرة

باركر على هامشها هذه الملاحظة المكتوبة بخط اليد: «عارض، إذًا يجب على الرئيس عدم تكريس هذا المقدار من الوقت لعضو واحد في الكونغرس». وأشار حرف «هـ» إلى ان كاتب الملاحظة هو رئيس الموظفين بوب هالديمان.

وعقدت المقابلة في النهاية في الثاني من آذار/مارس. وفي نقاش حيوي ومفيد، في رأيي، امتد إلى ما هو أكثر من الدقائق العشر، كرّر نيكسون مساندته الوحدة الأطلسية وتعهّد أن يبعث إليّ برسالة في هذا الشأن. وشرع، ونحن نتحدث، يكتب ملاحظات موسعة على دفتر ملاحظات أصفر اللون. وأشرتُ إلى وجهة النظر التي أعرب عنها أيزنهاور في شأن حجم القوات الأميركية في المانيا الغربية في أحد أحاديثنا في غيتيسبرغ. أبلغني الرئيس السابق أن من الممكن في أمان، خفض الفرق الأميركية الأربع المتمركزة في المانيا الغربية إلى فرقة واحدة. وعلمت لاحقًا ان ذهن نيكسون انشغل ذلك اليوم بأمور أخرى غير الوحدة الأطلسية. فهو اليوم الذي عرف فيه أوّلا في شأن اقتحام ووترغيت، تلك الجريمة التي ستؤدي إلى استقالته من الرئاسة.

كان سعيي إلى الموعد مرهقًا ولكن مثقّف. ومن المؤكد ان تحضير ٢٧ وثيقة ردّا على طلبي البسيط كلّف دافعي الضرائب مبلغًا مرقومًا. كانت العملية، قبل ذلك بسنوات، أكثر بساطة. فقد أخبرني النائب وليام سبرينغر، وهو جمهوري مخضرم من المحافظة المجاورة، عن تجربته في الحصول على موعد من البيت الأبيض في خلال ولايته الأولى في ١٩٥١. اتصل هاتفيا بالبيت الأبيض معربًا عن رغبته في التحدث شخصيًا مع الرئيس هاري س. ترومان عن التشريع المتعلق بقدامى الحرب. وتلقى، قبل انقضاء النهار، جوابا عبر الهاتف: «سيراك الرئيس غدًا في العاشرة صباحًا». قد يكون نظام نيكسون لتصفية المواعيد عزل رئيس السلطة التنفيذية في شكل محكم جدا عن التأثيرات الخارجية، بل حتى عن الواقع، وتركه فريسة سهلة لمفاهيم كونه فوق القانون والأعراف.

وافق مجلس الشيوخ على صيغة قرار الوحدة الأطلسية، من دون نقاش، في تصويت بنعم أو لا ، وشكل ذلك تقدّمًا غير صعب لأنه كان برعاية زعيم الغالبية

في مجلس الشيوخ مايك مانسفيلد من مونتانا وزعيم القلة الجمهورية هيوز سكوت من بنسلفانيا، وكلاهما من المؤيدين القدامى لستريت. ولكن يمكن حتى لتشريع تدعمه زعامة الحزبين أن يثير عاصفة في مجلس النواب.

قمنا أنا وفرايزر شخصيًا، بعد الحصول على موافقة اللجنة، بمناقشة القرار مع كل عضو من لجنة الأحكام قبل الجلسة العلنية المخصصة له. وربما عادت هذه المقابلات بالفائدة لأن اللجنة - وللمرة الأولى- وافقت على ان يناقش القرار في جلس عامة. بعثت بملاحظة شخصية ووجيزة إلى كل عضو في المجلس، مشيرًا إلى سنوات التزامي الطويلة هدف الفديرالية. ورّد الديمقراطي جاك بروكس، من فلوريدا، خطّيًا معلنًا أنه تأثر بمناشدتي الشخصية وأنه سيتعاون. وفعل صديق عزيز آخر، هو غراهام بورسيل من تكساس، الأمر نفسه. وأبلغني لاحقًا، وهو يبتسم، أنه شعر عند قيامه بذلك أنه ينضم إلى عبادة سرّية. قرر الرعاة الأساسيون مسبقًا تفادي النقاش التام لنص قرار الوحدة الأطلسية في خلال النقاش حول الأحكام، متوقعين ان تتم الموافقة عليه من دون جدال. فنادرًا ما تستجلب الإجراءات المتعلقة بالأحكام أكثر من حفنة من أعضاء الكونغرس إلى القاعة العامة. غير أن تلك المتعلقة بالوحدة الأطلسية أثبتت أنها الشواذ على القاعدة.

في ١٠ نيسان/أبريل ١٩٧٣، وبعد شهر على موعدي مع نيكسون، تمت الدعوة إلى النظر في الأحكام في قاعة الجلسة العامة. وكان كبير المنتقدين، في النقاش الكثير الخصام، الزميل الجمهوري بيتر فريلينغهويسن من نيوجرسي العضو في لجنة العلاقات الدولية والذي عارض القرار في كل مرحلة من مراحل تقدمه. واستشهد، لتصوير الامتداد الممكن الكبير لاقتراحنا، باعلان ستريت في دعمه صيغة سابقة من القرار: «أؤيّد بقوة تضمين مثل هذا الاتحاد سلطات ليس في مجال الدفاع المشترك وحسب، بل أيضًا في مجال السياسة الخارجية المشتركة والعملة الموحّدة والسوق المشتركة. . . .» ثم قال فريلينغهويسن، على نحو دقيق، إن القرار ينظر في «تغيير العلاقات الراهنة إلى وحدة وإلى نقل بعض مظاهر السيادة الوطنية إلى هذا الكيان الجديد الذي

يتجاوز طور الأمة». ووصفه من ثم بأنه «هدف غير حكيم وغير واقعي». وطرح جمهوري آخر، هو كريغ هوسمر من كاليفورنيا، ولوهلتي، درة السخرية التالية: «هذا القرار كناية عن مفارقة تاريخية متهوّرة ويجب دفنها بتصويت سلبي لترقد في سلام».

وقدمت أنا وكل من الديمقراطي المخضرم كولد بيبر من فلوريدا والجمهوري توم ريلسباك ملاحظات داعمة. وقال بيبر: «يشكل هذا القرار خطوة في اتجاه الهدف الذي طالما تحرّكتْ صوبه منذ زمن طويل وطويل جدًّا أمم العالم المحبة للحرية والمحبة للسلام، مهما حصل ذلك التحرّك في بطء». وحذّر من «وجود أولئك الذي يرغبون في عودتنا إلى أيام عزلتنا». وقال ريلسباك: «تجب إقامة نوع من أنواع المؤسسة الدولية للتعاطي مع المشاكل التي يتجاوز مجالها طور الأمة». وأوجزتُ الدعم المميز والذي لا سابق له بين مرشّحي الحزبين إلى الرئاسة واستشهدت بمواقف الرئيس نيكسون والرئيس السابق أيزنهاور.

وفشل الحكم في فتح الطريق أمام النقاش الكامل في مجلس النواب بفارق ١٣ صوتًا. وصوّت في المجموع ١٩٧ بالإيجاب و٢١٠ بالرفض. وسُررت، على الرغم خيبة أملي، بالمجموع القوي الموافق. وبين المصوتين على هذه الخطوة في اتجاه هذا النقل المحتمل للسلطة الوطنية زعيم الجمهوريين جيرالد فورد والمسؤول الجمهوري عن الانضباط لس أرندز وثلاثة رؤساء مستقبليين لمجلس النواب وهم توماس «تيب» أونيل وجايمس رايت وتوماس فولي، وجميعهم من الديمقراطيين، ومرشح جمهوري مستقبلي إلى الرئاسة من مندوبي مجلس النواب من إيلينويز الجمهوري جون ب. أندرسون.

لاحظت، بتفحّصي الدقيق للتصويت المسجّل، أسماء أعضاء كثر ممن هم، على غرار بروكز، في صف المؤيدين للحكم بالموافقة لكنهم على الأرجح لم يقتنعوا بجدوى القرار. وامتنع ٢٦ عضوًا عن التصويت. ولو ان جميع الأعضاء صوتوا لازداد هامش الهزيمة بدزينة من الأصوات على الأقل. فقد أعلن

الديمقراطي هنري رويس من ويسكنسون انه سيصوّت للحكم ولكن يرجح أن يصوت ضد التشريع نفسه إذا بلغ مرحلة النقاش.

وعقب احتجاج حاد يتعلّق بمسألة السيادة الوطنية الشديدة الحساسية قام به أوائل ١٩٧٦ قدامى الحروب الخارجية، ردّت لجنة العلاقات الدولية بهامش ضيّق من الأصوات اقتراحي طرح القرار مرّة أخرى. وأبلغني أعضاء كثر صوتوا في السابق على القرار انهم تلقوا اعتراضات مقلقة من الناخبين وكذلك من المكتب الوطني لقدامى الحروب الخارجية. وشكّل تصويت اللجنة إشارة واضحة إلى وجود حاجة إلى دعم أوسع بكثير من أجل عودة القرار إلى قاعة المناقشات العامة في مجلس النواب.

نظّم ستريت في حزيران/يونيو ١٩٧٦ فطورًا في مبنى الكابيتول الأميركي برئاسة نائب الرئيس نلسون روكفللر، قدّم إلي في خلاله جائزة «اتحاد الأحرار» المالية وهي بقيمة ٧،٥٠٠ دولار، لعملي على تقدّم فكرة الفديرالية. وكان روكفللر وستريت المتحدثين الرئيسين. وحضر بين الضيوف دبلوماسيون ومسؤولون عسكريون وأعضاء في الكونغرس إضافة إلى إليزابيث تايلور المؤيدة الجديدة للوحدة الأطلسية. وقرر ستريت، في سعيه إلى تغطية إعلامية جديدة، تقديم إشعار حصري بالإفطار إلى شبكة إي.بي.سي.. إلا أن إدارة إي.بي.سي. قررت في اللحظة الأخيرة عدم إرسال أي فريق. وشكّل الإفطار، على الرغم خيبة الأمل الإعلامية، واحدة من أكثر اللحظات سعادة في حياة ستريت الحافلة بالأحداث.

وضعتُ قرار الوحدة الأطلسية في شكل موقت على الرف بموافقة تامة من المشاركين في الرعاية، أملًا مني في أن أكسب مع الوقت دعم قدامى الحروب الخارجية وغيرهم من المجموعات المخالفة.

إجتذبتني قضية مهمة أخرى هي الدعم الأميركي المضلّل للتوسع الإسرائيلي المسلح في الأراضي العربية. وأعرب ستريت في أحد الأيام عن قلقه لتركيزي على النزاع في الشرق الأوسط. توقّع، عن حق، وهو يدرك نفوذ اللوبي

الإسرائيلي القوي في الولايات المتحدة، أن «في إمكان هذه المجموعة الصغيرة من الناس أن تتسبب لك بالكثير من الضرر».

بعد وفاة ستريت، دعتني أرملته، جين، إلى اختيار أي كتاب من مكتبته تذكارًا. واخترت كتاب جون فيسك «المرحلة الحرجة في التاريخ الأميركي» الذي طُبع وتم الاحتفاظ بحقوق طبعه في ١٨٩٨، وهو يحمل كتابة بخط يد ستريت - باللون الأخضر طبعًا: «ك. ستريت، نيويورك ١٩٣٤». والنسخة كاملة لكنها مفكّكة وتحمل صفحاتها علامات قوية ولا يربط التجليد الذي تم تصليحه مرارًا سوى الفصلين الأخيرين من الكتاب. ومن الواضح أنه كان مصدر المعلومات الأهم لستريت عن مرحلة ١٧٨٣-١٧٨٩ التي اتخذ فيها الاتحاد الفديرالي شكله، ويُحتمل أن يكون مصدر إلهامه الأهم لـ «الاتحاد الآن». وكان ستريت، على غرار الكِتاب، أصبح في أيامه الأخيرة مُرهقًا جدًّا ورثًّا بعض الشيء، غير ان ذهنه بقي شأنه دوما حادا. وأورد في «الاتحاد الآن» معايير ومبادئ لفديرالية أحلامه، وقد استقى معظمها من الاتحاد الأميركي الناجح للولايات التي شكلت في ما سبق دولًا مستقلة. وبرزت عبر السنين تنظيمات أخرى تدعم الفديرالية لكنها تقترح تغييرات في التفاصيل. واقترح البعض اتحادًا فوريًا لكل الدول الرئيسة في العالم بغض النظر عن خبرتها في الحكم الذاتي. واقترح البعض الآخر تحويل تحالفات مثل النيتو، تدريجًا، حكومة فديرالية. وقدّم ستريت حججًا ضد كل واحدة من الاختلافات.

وحافظ على تفاؤله في خلال مراحل حياته كلها. وكان كل تطوّر يطرحه كل يوم يصبح في ذهنه محكًّا جديدًا للعمل. وفي حال ثبطت عزيمته فإن ذلك ما كان ليظهر عليه قط. وكان دائم الحضور عند بابي حاملًا اقتراحات جديدة للعمل. وقد واجه بالتأكيد خيبات الأمل، إذ رُشّح تكرارًا إلى جائزة نوبل وميدالية الحرية الرئاسية؛ ولم يحصل على أي منهما على رغم أنه يستحق كليهما استحقاقًا كبيرًا.

اتبع التقليد المجيد لأنبياء العهد القديم حاملًا بفخر مشعله عاليًا. وسمعتُ ستريت يطرح، في أحد الأيام، ملاحظة عميقة: عندما أنشئ الاتحاد الفديرالي

في ١٧٨٩، كانت السفينة الشراعية السريعة تعيش أيام عزّها. واليوم، وبعد قرنين، بلغ تقدّم العلوم الفيزيائية الصواريخ والتلفزيون والطاقة الذرية، لكن العلوم السياسية لا تزال في عصر السفن الشراعية السريعة». ولاحظ أن الكثير من المشاكل المعاصرة هي في شكل واضح أبعد من متناول الحكومات الوطنية ذات السيادة التي تعمل فرديًّا أو من خلال اتحادات ضعيفة مثل الأمم المتحدة أو النيتو.

وفي ما يلي قائمة مختصرة مُحدَثة:

- يستمر عدد الدول التي تمتلك السلاح النووي أو تسعى إليه في الارتفاع. وبعض الرؤوس النووية يبلغ من الصغر ما يكفي لنقله في حقيبة صغيرة لكنه يمتلك ما يكفي من القوة لتدمير مدينة عملاقة. وسيبقى شبح قيام مجموعة مارقة أو فرد مختل أو حادث بتفجير واحدة من هذه القنابل يسكن الجنس البشري إلى أن يتم تعطيل كل الرؤوس النووية. والأمل الأفضل في تخليص العالم من الرؤوس النووية هو في قيام مستوى من الحكم على ما يكفي من القوة العالمية لتطبيق حكم القانون. وقد ألمح وينستون تشرتشل في خطابه «الستار الحديد» في ١٩٤٦ إلى التحدّي النووي. وأعرب عن أمله في أن تحرز الأمم المتحدة ما يكفي من القوة لفرض حكم القانون وتصبح المستودع الوحيد للرؤوس النووية.
- تغيب الإدارة الآمنة للوقود النووي المحروق وغيره من مشتقات الطاقة النووية عن أي مكان في العالم. ويجب وضع قوانين دولية وتطبيقها.
- يتطلب عالمنا المستمر في الانكماش سلطة قادرة على ضبط الخطوط البحرية وفرض القانون الدولي في حال قيام طاغية جديد بتهديد جيرانه. ولا ينبغي لأي دولة، ولا حتى لأي قوة عظمى، محاولة الاضطلاع بهذه المسؤولية وحدها.

يجب حظر الطائرات القاذفة من دون طيار، فهي أداة جديدة مريعة من أدوات الدمار الشامل. وتستخدمها الولايات المتحدة الآن لاطلاق صواريخ في داخل أفغانستان وباكستان واليمن، وقد استخدمتها في سنوات سابقة في اليمن والبوسنة. وتمتلك بريطانيا وأسرائيل أيضًا طائرات من دون طيار، وسرعان ما ستتبعهما دول أخرى. وهذا النوع من الطائرات أقل كلفة من تلك التي تطير بطيّار، لكن الاحتمال أكبر في أن تقتل أبرياء. وسيبقى التسلح العالمي يشكل تهديدًا إلى أن تتمكن سلطة دولية من فرض قوانين متعقّلة على مستوى العالم.

والأمم المتحدة ليست بالجواب. فهي ليست حكومة ويبدو من المقدّر لها أن تبقى منظمة دول ذات سيادة. إنها مركز للنقاش يمكنه من وقت إلى آخر أن يعبّر عن قرارات متعددة الجنسية وهذا مهم. وتسمح شرعتها بإنشاء سريع لمؤسسة جديدة ذات قدرة على فرض القانون.

وليست الفديرالية الدولية بفكرة جديدة. فقد حاضر الرئيس يوليسيس غرانت، بعد سنواته الرئاسية، لمصلحة فديرالية الدول الناطقة بالانكليزية. وفي السنوات الأخيرة أصبح والتر كرونكايت، المعلّق الأميركي المحترم على الأخبار، صوتًا قويًا يحث على فديرالية الأمم. وقال كرونكايت، قبل وفاته بمدة وجيزة، وهو يتحدث في منظمة «فديراليي العالم الديمقراطي» في سان فرانسيسكو: «يعني مفهوم السيادة الوطنية غير المحدودة اليوم الفوضى العالمية. وعلينا أن نُحل محل قانون القوة الفوضوي، قوة القانون الحضاري»[1].

أسفي الوحيد، وأنا أعمل الفكر في حياتي المهنية، هو فشلي في المحافظة على القيادة في تقديم الفديرالية في سنواتي الخمس الأخيرة في تلة الكابيتول في الوقت الذي آمل في أنني ركّزت اهتمامي على المهمة الشاقة القاضية بتصحيح سياسة الولايات المتحدة في الشرق الأوسط. وأجد من المفجع جدًا أن مجمعتنا الكبير من السياسيين والباحثين والمنظمات ومراكز الابحاث يكاد يخلو من أناس يدعون إلى قوة القانون الحضارية التي انتصر لها كرونكايت وستريت.

(١) Democratic World Federalists bulletin summer 2009, vol. 8, no 3.

ويحتل ستريت، بين معارفي الكثيرين المميزين، مركزًا مرموقًا بين أولئك الذين سيتذكّرهم المؤرخون المستقبليون كلّيًا وفي استحسان. والفديرالية حتمية. وهي عندما ستحصل ستضم أكثر مما فكّرت فيه دول النيتو في قرار الاتحاد الأطلسي الذي طُرح في الكونغرس منذ أربعين عامًا. وسيعبر حيّزه العالم وليس الأطلسي وحسب. وسيُعاد إحياء كتب ستريت وغيره من الكتابات. وقد يتم تذكّر المساعي التشريعية التي اضطُلع بها منذ نصف قرن لتقديم الاتحاد الأطلسي على انها ليست فشلا، بل خطوة بنّاءة إلى الأمام.

وفيما يتأمل زعماء العالم في ما يجب فعله حيال التحديات التي تتخطى مقدرة الدول الفردية أو التحالفات الهشّة، سيجدون في إرث ستريت إلهامًا خصيبًا. وسيصبح رئيسًا حكيمًا وشجاعًا للولايات المتحدة في يوم من الأيام واحدا من واضعي أطر مؤسسة سياسية دولية جديدة قادرة على فرض حكم القانون. والسؤال الوحيد هو معرفة هل هذا العمل الحكيم المتمثل في القدرة السياسية على إدارة شؤون الدولة سيحدث قبل أن يختبر الجنس البشري المزيد من الانتفاضات العسكرية أو الاقتصادية.



الخاتمة: أمّة في خطر

حققت أميركا، منذ صباي، خطوات واسعة ضخمة في العلوم الفيزيائية ومستوى المعيشة والتقدّم الاجتماعي وفي التخلص من آثار عبودية الإنسان. وبين كل التصويتات التي أدليت بها تشكّل تلك المتعلقة بمشاريع قوانين الحقوق المدنية مفخرتي الأكبر.

ومع ذلك، انتابتني مشاعر متضاربة وأنا أغادر تلة الكابيتول. فعلى رغم سروري بما حققته من تقدم، شعرت الأسى في شأن الأمور التي بقيت معلّقة. والأهم بينها تحديات السياسة الخارجية مثل الحرب الوقائية والانحياز الرسمي المرتكز على الدين وانتشار الأسلحة النووية والمجاعة التي تلوح في الأفق.

وها هي اليوم، بعد ربع قرن، باقية لم تُمس، بل أن بعضها مُعلّق بخطورة أكثر من ذي قبل. ولا يمكن إيجاد برامج جدّية على الروزنامة الوطنية لتفادي المجاعة في أي مكان على رغم حقيقة النقص الوشيك في الغذاء العالمي. وها أن انحيازنا الكارثي في سياسة الشرق الاوسط يصبح أكثر استحكامًا. ولا تزال القوة العسكرية، وليس قوة الأخلاق والحق الشرعي، مستمرة في الفصل في التحديات الكبرى في شؤون العالم.

وفي واشنطن، يتجاهل مجلسا الكونغرس المسؤوليات الدستورية. وبدلًا من أخذ زمام المبادرة في بت الأمور العالقة، يميل الأعضاء في الغالب إلى الاتجاه المعاكس فيغذّون الإنفعالات المعادية لأميركا بدلًا من تداركها. وعلى الكونغرس أن يحرّر نفسه من سوء التصرّف والإهمال فيضطلع بأدوار إيجابية وبناءة في كل من السياسة الداخلية والخارجية التي تصورها واضعو الدستور.

وتتضمن الأمور العالقة في السياسة العامة اثنين أهملتُهما وأنا في منصبي. الأول هو النمو المنذر بالسوء للمجمّع العسكري - الصناعي الأميركي. والآخر هو التهديد المتنامي للحكومة التمثيلية الذي تطرحه اللوبيات المتمركزة في واشنطن والتي تسيطر على تمويل حملات الانتخاب إلى الكونغرس.

وحذّر الرئيس أيزنهاور في خطابه الوداعي إلى الأمة في كانون الثاني/ يناير ١٩٦١ من أن «. . . علينا الحذر من حصول المجمع العسكري - الصناعي على النفوذ غير المسوّغ، سواء تم السعي إليه أم لا». وهذه ليست بملاحظة من سطر هامشي واحد. وأضاف «أن إمكان التصاعد الكارثي في السلطة موجود وسيستمر. وعلينا ألا نسمح لثقل هذه التركيبة بتشكيل تهديد على حرياتنا أو على عملياتنا الديمقراطية. يجب علينا ألّا نأخذ أي شيء على أنه من الأمور المسلم بها»[١].

وتجدر الملاحظة إلى أنه أجرى في الدقيقة الأخيرة تعديلًا على النص. فقد حذّرت مسودة سابقة من «المجمع العسكري - الصناعي - في الكونغرس». وشطب منه قبل إلقائه عبارة «في الكونغرس»[٢]. وأيًا يكن سبب هذا الشطب، فإن سلوك الكونغرس هو العنصر الأشد قوة في التهديد المستمر على حرياتنا؛ فالكونغرس يأذن بصرف موازنة وزارة الدفاع وكل عناصر المجمّع الأخرى.

ويحصل المجمّع على كل ما يريده من تلة الكابيتول ولا يكاد يُواجه بتمتمة احتجاج أو دليل إلى إغفال خطير. ولا يقوم أي عضو في أي من المجلسين بمحاولات جدّية ومثابرة لكبح حجم وزارة الدفاع أو نفوذها. ولا يمارس لا الكونغرس ولا الرئيس اليقظة التي أوصى بها أيزنهاور حيال المجمّع.

واختبرت في أول حياتي المهنية لمسة وزارة الدفاع الخفية في العلاقات العامة. فقد زارني ممثل للوزارة في مكتبي في تلة الكابيتول وعرض علي مأمورية فورية كرائد في احتياط البحرية. وكل ما علي فعله هو توقيع مدة خدمة وجيزة من سنة واحدة. وبصفة كوني شخصًا ترك البحرية في ١٩٤٦ برتبة ملازم

(١) Public Papers of the Presidents, Dwight D. Eisenhower,6 pages 1035-1040.

(٢) Source Watch 7-9-09, http://www.imdb.com/titlett0436971/

صغير - ولكن فخور-، فإن منحي شريطتين ونصف الشريطة مذهبة على كمّ بزّتي الرسمية كان مغريًا. غير أنني رفضت سريعًا لخوفي من أن يؤدي قبولي إلى تغشية حكمي على الأمور عند النظر في موازنات وزارة الدفاع.

كانت موازنة وزارة الدفاع زمن أيزنهاور أقل بقليل من ٤١ مليار دولار[١]. وكان التهديد السوفياتي حقيقيًا، إذ إن معظم صواريخه العابرة للقارات كانت موجهة إلى الولايات المتحدة وقد حذّر بعض السياسيين من أن أقمار سبوتنيك السوفياتية ستتفوق سريعًا على الصواريخ الأميركية. وكانت دول حلف وارسو في أوروبا الشرقية واقعة كلّيًا تحت السيطرة السوفياتية.

واليوم لم يعد الاتحاد السوفياتي موجودًا، وروسيا، آخر ما تبقى من مكوناته، تتخبط في أزماتها الاقتصادية. ولم يعد حلف وارسو موجودًا هو الآخر، وما من عضو من أعضائه السابقين معادٍ للولايات المتحدة. ولا يوجد تهديد للأراضي الأميركية. ولا يمكن تسمية أي بلد - أو النظر إليه - على أنه عدوٌ يشكل تهديدًا على المدى الأكثر بعدًا.

ومع ذلك، فإن مصاريف وزارة الدفاع ترتفع كل سنة أكثر فأكثر. فموازنتها لسنة ٢٠١٠ هي أقل بقليل من ٨٠٠ مليار دولار - أي أكثر من ملياري دولار في اليوم - وهي أكبر من موازنات كل قوى العالم العسكرية الأخرى مجتمعة. وهي أكبر بكثير جدًا من زمن رئاسة أيزنهاور في الحرب الباردة، حتى بعد إعادة تعديل قيمة الدولار المتدنية. وعندما تجمع الموازنات التي لها علاقة بالدفاع في الوزارات والوكالات الأخرى، فإن المصروف السنوي الأميركي للمجمع العسكري - الصناعي يقارب التريليون دولار. وتمتلك صناعتنا الحربية، إلى تزويد وزارة الدفاع بحاجاتها، الفخر المريب بصفة كونها التاجر العالمي الرئيس لأدوات صنع الحرب[٢].

---

(١) DOD National Defense Budget Estimated {Green Book} Military comptroller 2040 Budget, pp 92 and 104.

(٢) UPI, Washington, 8-6-09, Arnaud de Borchgrave, editor at large.

تشكل وزارة الدفاع حكومة عملاقة في قلب حكومة عملاقة لكن الكونغرس ومعظم المواطنين يعاملونها على أنها قدس الأقداس. فهي تتحكم بقوات مسلحة هائلة وبمخزونات كبرى من الأسلحة النووية، إضافة إلى تنوع من وكالات الاستخبارات التي لبعضها عملياتها الخارجية السرية الخاصة بها. وهي تشغّل ٣٨٠٠ منشأة في الولايات المتحدة، بما في ذلك مؤسسات عدة للتعليم العالي مثل معهد الحرب، وهي تنسخ في بعض الأحيان نشاطات أجزاء أخرى من الحكومة الفديرالية. وتغري عقودها السخية مئات المعاهد والجامعات ومؤسسات الأبحاث ومعامل التصنيع إلى أن تصبح من مشجعات توسّع وزارة الدفاع. ولأذرعها الاقتصادية نفوذ سياسي قوي في كل ولاية من ولايات الاتحاد[١].

وكما في عزّ أيام الامبراطورية البريطانية فإن الشمس لا تغيب أبدًا عن وزارة الدفاع. فهي شرطي الأمر الواقع للعالم، تطبق مبدأ افتتحه من دون حكمة الرئيس جورج و. بوش في ٢٠٠٢. وتحتفظ وزارة الدفاع، عملًا بهذا المبدأ، بـ٧٣٧ قاعدة عسكرية منتشرة في العالم[٢]. وتخاطر كل قاعدة أجنبية بمشاكل شبيهة بمشاكل الأمبراطورية لمجرد وجودها هناك. ويحتفظ الرئيس في متناول يده دومًا بوسائل ارتكاب أفعال حرب فورية من أي قاعدة عسكرية تقريبًا، سواء في الخارج أو في الداخل.

ويجب حتى على القوة العظمى ألا تحاول أداء دور الشرطي العالمي. وهناك حاجة إلى الشرطي، لكن أداء دور الشرطة العالمية يجب ان تتولاه مؤسسة دولية قوية فحسب. والمحزن أن ما من رئيس غير أيزنهاور طالب بإنشائها. ثم إن ما من أحد بارز على الساحة الوطنية يردد صدى تحذير ايزنهاور من خطر المجمع العسكري - الصناعي.

يبقى أن الأسوأ وجود إشارات مقلقة إلى أن الرئيس أوباما المحاط

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

بالجنرالات قد ضُلل، منذ توليه السلطة، للقبول بوهم إمكان هزيمة الإرهابيين بقنابل القوات الأجنبية وصواريخها. وامتشق أوباما، بدلًا من وقف العمليات القتالية، سيوفًا جديدة - فوسّع القوات المقاتلة في أفغانستان ومدّ الإجراءات الحربية إلى داخل باكستان. ويعي الكثيرون من الناس، لا المسلمون وحسب، خطر تصادم الأديان. وكثيرًا ما يحذّر الخبراء والسياسيون، خطأ، من تهديد «إسلامي» لأميركا.

وسينخفض عنف التمرّد سريعًا لو ان زعماءنا يوقفون العمليات القتالية الأميركية في العراق وافغانستان وباكستان، ويضعون حدًا لتواطؤنا مع الإساءة الإسرائيلية إلى العرب. ويبدو أن زعماءنا يتغاضون عن تأثير المفخرة الوطنية. ويبرهن التاريخ أن التفجير الانتحاري يحدث في شكل شبه كامل في بلدان مثل العراق وافغانستان حيث للقوات الأجنبية اليد الطولى. وعلينا ان نقصر قواعدنا الخارجية على تلك التي تعمل في تعاون حقيقي مع الدولة المضيفة ولا نشرع أبدًا في أعمال حرب إلا للوفاء بمعاهدة محدّدة أو لحماية الأرض والمواطنين الأميركيين من هجوم وشيك. وسيشكّل خفض موازنة وزارة الدفاع إلى النصف عملًا بنّاء والخطوة الأولى نحو تطويع المجمّع العسكري - الصناعي. وستبقى موازنة وزارة الدفاع، حتى لو تم الخفض، هي الأكبر في العالم وبفارق كبير.

ويوجد تحد آخر أهملتُه وأنا في الكونغرس وهو التهديد الذي تشكّله على الحكومة التمثيلية الهدايا الكبرى التي يقدّمها القائمون باللوبي في واشنطن للحملات الانتخابية الكونغرسية. ونادرون هم أعضاء الكونغرس الذين يمولون حملاتهم الانتخابية كلّيًا من ناخبيهم. ويحصل معظم المرشحين اليوم على الكثير من دعمهم، إذا لم يكن التمويل الطاغي، من شبكات كبرى من لوبيات المصالح الخاصة التي تقع مراكزها بعيدًا جدًّا من دوائرهم الانتخابية. ويتوقّع المانحون أن تعطي هذه الاستثمارات إيرادها لدى التصويت في تلة الكابيتول. وبوصولي إلى قاعة المجلس في أحد الأيام سألت النائب نتيسون غاير، الصديق الظريف من أوهايو، كيف صوّت على أحد التعديلات المعلّقة. فردّ بابتسامة، «لم أتلق بعد مشورتي المالية». وكان يمزح وأبلغني سريعًا كيف صوت. سوى

أن الكثير من التصويتات في الكونغرس تتلقى «المشورة المالية»، وهو واقع يدفع إلى السؤال المقلق التالي: أي مصالح يخدم النواب حقًّا؟

صوّتت، أوائل حياتي المهنية، على تشريع يهدف إلى الحد من الإنفاق على الحملات الإنتخابية للكونغرس إلى نحو أربعين ألف دولار في كل دورة انتخابية. وأصبح قانونًا، لكن المحكمة العليا قضت بعدم دستوريته بحجة أن الحق في دعم السياسيين ماليًا هو بمثابة تعبير عن حرية إبداء الرأي التي يكفلها الدستور. ونتيجة لذلك أصبحت كل المحاولات التشريعية للحد من الانفاق على الحملات الإنتخابية، بما في ذلك قانون ماكين - فاينغولد الأخير، غير فاعلة. وحده التعديل الدستوري، وهو خطوة أؤيدها في شدة، سيسمح للكونغرس بوضع حدود فاعلة.

تواجه أميركا خطرًا عظيمًا. وقد بدأ الخطر الراهن في الثامن من حزيران/ يونيو ١٩٧٦ في الهجوم الإسرائيلي المتعمّد على سفينة الاستخبارات ليبرتي ذات التسليح الخفيف قبالة شاطئ مصر. وشكّلت لفلفة جريمة القتل والخداع والغدر في ذلك اليوم بداية الانصياع الأميركي القاتل لإسرائيل. وأدت إلى ٩/١١، وإلى حربين شرعت فيهما أميركا، وإلى تراجع حاد في زعامة أميركا على مستوى العالم، وإلى تريليونات الدولارات من الديون الفيدرالية الساحقة.

وأدت أيضًا إلى ضرب الحريات التي يكفلها الدستور الأميركي. وهاكم أمثلة عن ممارسة رئيسنا اليوم سلطاته بطريقة طالما نددنا بها عندما مارسها الديكتاتوريون: السجن غير القانوني؛ النقل السرّي الكريه لمدنيين مخطوفين إلى سجون بعيدة؛ تمديد مدد احتجاز المتهمين بالإرهاب من دون الإجراءات القانونية المناسبة والتي يتعرض فيها الضحايا في الغالب للمعاملة الوحشية التي سبق لنا الازدراء بها لأنها بربرية؛ أعمال حرب وقائية من دون الموافقة المناسبة من الكونغرس؛ وأسوأ من ذلك كله، استهداف أي شخص بالقتل - بمن في ذلك مواطنون أميركيون - ترى الإدارة وحدها أنه يشكل تهديدًا على أميركا.

فباسم الأمن يتخلّص رئيس سلطتنا التنفيذية من الحرية الفردية التي جعلت من أميركا في ما سبق منارة أمل للاشخاص المضطهدين في أي مكان. فهل أصبحنا مجرد شرير آخر في محيطنا العالمي؟

تنزلق أميركا في حفرة تختفي فيها الحريات المدنية. وقد تحتوي لائحة القتل الرسمية اليوم في معظمها مسلمين. أما غدًا، فمن يدري؟ ولا تذكر سلطاتنا الرسمية الأميركية في حربنا على الإرهاب - والأقل منه أنها لا تحاول أن تعالج - مظالم الشعوب التي نستهدفها بالفناء. ولا نبذل أي محاولة لاكتشاف سبب كره المنتقدين لنا.

ما الذي أوقعنا في هذه الورطة؟ لذلك عوامل عدة، لكن الأهم بينها هو خضوعنا المفاجئ لإسرائيل التوسعية الذي بدأ عندما اكتشفت الدولة اليهودية أن قبضتها على الحكومة الأميركية قوية كفاية لإنقاذها حتى من ذنب القتل الصريح. فقد مات ٣٤ بحارًا أميركيًا على متن ليبرتي، غير أن إسرائيل خرجت من الجريمة، التي تم التكتم عليها، بنفوذ متزايد في واشنطن وبسخاء هائل من الخزينة الأميركية في العقود التي أعقبت ذلك. ويمتلك لوبيها اليوم سلطة لا سابقة لها في التاريخ، وتعطي حكومتنا الموافقة الصامتة على الثمن المروع لهذا الخضوع.

قاد اللوبي بلادنا إلى تواطؤ مستمر مع أفعال إسرائيل غير المشروعة، ملحقًا السمعة السيئة بأميركا في العالم ومتسببًا بتضحية هائلة في الديار، ناهيكم بالمشاكل التي يتسبب بها للدولة الإسرائيلية نفسها ولليهودية. وهذه ليست أميركا التي أفتخر بأنني أسهمت في الدفاع عنها في الحرب العالمية الثانية.

أشعر، للمرة الأولى في حياتي، القلق العميق على مستقبل أمتنا. لم أشك قط، في صباي، في أن بلادي ستنجو من الركود الاقتصادي العظيم وتساعد من ثم في هزيمة النازي والامبريالية اليابانية. ويبدو أن مواطنينا يجهلون اليوم المثل العليا الواردة في إعلان الاستقلال، وهو الوثيقة التي تدعو إلى ما لا يقلّ عن توفير الحماية المتساوية تحت القانون لجميع البشر. ولا يمكن بلوغ هذا الهدف

بالكامل عندما يتملّك الخوف نحو نصف مواطنينا بحيث يدفعهم إلى المطالبة بتقليص الحريات المدنية لطائفة دينية تحترم القانون، وعندما تشرع بلادنا في حروب على بلدان لا تشكل أي خطر على أراضينا، وعندما تساعد واشنطن - في مثال متقن وهائل على الرياء - في القضاء على مجتمع كامل اسمه فلسطين.

حان وقت إجراء حديث صريح والقيام بعمل بذهن صاف. علينا تحرير أمتنا من السياسات الخارجية المنحازة التي تُنتج الحرب والخوف. وعلى حكومتنا الكف عن مساندة الاستعمار الإسرائيلي. فإضافة إلى أن تواطؤنا يتسبب بلعننا في العالم، يحط من قدر المبادئ المقدسة للمساواة في العدالة للجميع التي طالما سعت إليها حكومتنا وحازت إجلال مواطنينا.

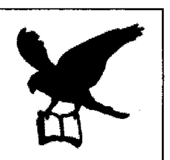
علينا إعادة رسم خطواتنا إلى المستوى الاخلاقي الرفيع الذي تنتمي إليه أميركا، والذي سيؤدي وصولنا إليه ليس إلى تحرير أنفسنا وحسب بل أيضًا إلى تحرير المواطنين الإسرائيليين من الأنظمة الخارجة على القانون التي غذتها مساعدتنا المطلقة على مدى نصف قرن. نحتاج إلى قادة ذوي شجاعة لا تخور ومواطنين يشاركون في حزم في نظامنا السياسي.

لا يمكنني، وأنا أراجع ستين عامًا أمضيتها في السياسة العامة، في منصب انتخابي أو غير انتخابي، أن أتخيل دعوة أسمى أو حياة أكثر إرضاء من السعي إلى العدالة. يجب حظر التعصّب والعرقية. فالخلافات في الإيمان بين الأديان هي فوارق يجب فهمها إعلانها، لا تحريفها وإدانتها. وأنا مسيحي، لكنني لا أعتقد أن إيماني - أو إيمان أي شخص آخر- هو السبيل الوحيد للحصول على بركة الخالق. فاصطباغات البشرة المتنوعة تشكل جزءًا من الجمال الطبيعي، وليست ألوانًا تدل إلى التفوق أو الدونية. فالسهام والحجارة التي رُشقتُ بها ليست إلا توافه إذا ما قورنت بفرصة العمل من أجل قضايا قيمة في تلة الكابيتول ومن بعدها في العالم الأوسع. يشعر المرء الرضى عندما يتم تبني اقتراحه، لكن البهجة تأتي عندما يقف المرء عند المتاريس، وحده عمليًا، وهو

يسعى إلى هدف ذي حاجة ماسة إليه. وأنا لا أيأس قط. فإذا لم يتم بلوغ الهدف اليوم، فالغد لناظره قريب.

يجد الذين يدخلون عالم تحدي السياسات الحزبية بصفة كونهم مرشحين أو متطوعين أن التجربة لا تقدّر بثمن بغض النظر عمّن يفوز. فهم يكسبون صداقات وفهمًا للعالم السياسي ويسهمون في حسن حال هذه الأمة. وستحتاج أميركا، في كل أيام غدنا، إلى مرشحين إلى المناصب العامة وإلى مؤيدين يمتلكون الرؤية والشجاعة والرصافة. وهم لا يحتاجون إلا إلى شعار واحد للحملة. وهو موجود في النصوص المقدسة: «إسعوا إلى العدالة، وإلى العدالة وحدها».





صدر عن شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

سلسلة السياسة

مجموعات

مجموعة الصحفي روبرت فيسك

- الحرب الكبرى تحت ذريعة الحضارة - (في كتاب واحد)
- الحرب الكبرى تحت ذريعة الحضارة - الجزء الأول الحرب الخاطفة
- الحرب الكبرى تحت ذريعة الحضارة - الجزء الثاني الإبادة
- الحرب الكبرى تحت ذريعة الحضارة - الجزء الثالث إلى البرية
- ويلات وطن
- زمن المحارب

مجموعة د. عصام نعمان

- هل يتغيّر العرب؟
- العرب على مفترق
- أميركا والإسلام والسلاح النووي
- حقيقة العصر - عصام نعمان وغالب أبو مصلح
- على مفترق التحوّلات الكبرى... ما العمل؟

مؤلفات د. محمد حسنين هيكل

- الحل والحرب!
- آفاق الثمانينات
- قصة السويس
- عند مفترق الطرق
- لمصر لا لعبد الناصر
- زيارة جديدة للتاريخ
- حديث المبادرة
- خريف الغضب
- السلام المستحيل والديموقراطية الغائبة
- وقائع تحقيق سياسي أمام المدعي الاشتراكي
- بين الصحافة والسياسة

مجموعة د. سليم الحص

- صوت بلا صدى
- تعالوا إلى كلمة سواء
- سلاح الموقف
- في زمن الشدائد لبنانياً وعربياً
- للحقيقة والتاريخ
- نحن والطائفية
- عصارة العمر
- محطات وطنية وقومية
- ما قَلَّ ودَلّ
- ومضات في رحاب الأمة

مجموعة د. وليد رضوان

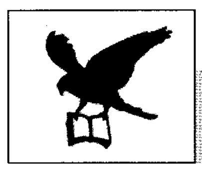
- مشكلة المياه بين سوريا وتركيا
- العلاقات العربية التركية
- تركيا بين العلمانية والإسلام

مجموعة جوزيف أبو خليل

- مبادئ المعارضة اللبنانية
- رؤية للمستقبل
- لبنان وسوريا مشقة الأخوة
- قصة الموارنة في الحرب
- لبنان... لماذا؟

مجموعة بول فندلي

- من يجرؤ على الكلام
- الخداع
- لا سكوت بعد اليوم
- أميركا في خطر



مجموعة كريم بقرادوني

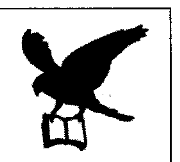
- لعنة وطن
- السلام المفقود
- صدمة وصمود

مجموعة شكري نصرالله

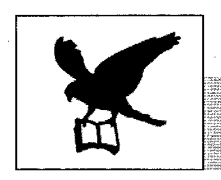
- **مذكرات قبل أوانها** - شكري نصرالله
- **السنوات الطيبة** - شكري نصرالله
- **ستّ الستّات** - علياء رياض الصلح - شكري نصرالله



- **تقي الدين الصلح سيرة حياة وكفاح** - (جزآن) - عمر زين
- **مبادئ المعارضة اللبنانية** - حسين الحسيني
- **رؤية للمستقبل** - الرئيس أمين الجميل
- **الضوء الأصفر** - عبدالله بو حبيب
- **الخلوي أشهر فضائح العصر** - ألين حلاق
- **أصوات قلبت العالم** - كيري كندي
- **الخيارات الصعبة** - د. إيلي سالم
- **أسرار مكشوفة** - اسرائيل شاحاك
- **الولايات المتحدة الصقور الكاسرة في وجه العدالة والديموقراطية** - تحرير برند هام
- **مزارع شبعا حقائق ووثائق** - منيف الخطيب
- **الأشياء بأسمائها** - العقيد عاكف حيدر
- **اللوبي** - إدوار تيفنن
- **أرض لا تهدأ** - د. معين حداد
- **الوجه الآخر لإسرائيل** - سوزان نايثن
- **مساومات مع الشيطان** - ستيفن غرين
- **بالسيف أميركا وإسرائيل في الشرق الأوسط** - ستيفن غرين
- **الأسد** - باتريك سيل
- **الفرص الضائعة** - أمين هويدي
- **طريق أوسلو** - محمود عباس
- **الأمة العربية إلى أين؟** - د. محمد فاضل الجمالي
- **النفط** - د. هاني حبيب
- **الصهيونية الشرق أوسطية** - إنعام رعد
- **حربا بريطانيا والعراق** - رغيد الصلح
- **نحو دولة حديثة بعيداً عن ٨ و١٤ آذار** - الشيخ محمد علي الحاج العاملي
- **الحصاد** - جون كوولي
- **عاصفة الصحراء** - اريك لوران
- **حرب تحرير الكويت** - د. حبيب الرحمن
- **حرب الخليج** - بيار سالينجر وإريك لوران
- **المفكرة المخفية لحرب الخليج** - بيار سالينجر وإريك لوران
- **الماسونية - دولة في الدولة** - هنري كوستون
- **النفط والحرب والمدينة** - د. فيصل حميد
- **رحلة العمر من بيت الشعر إلى سدّة الحكم** - د. عبد السلام المجالي
- **الدولة الديموقراطية** - د. منذر الشاوي
- **التحدي الإسلامي في الجزائر** - مايكل ويليس
- **السكرتير السابع والأخير** - ميشيل هيلير
- **التشكيلات الناصرية في لبنان** - شوكت اشتي
- **كوفي أنان رجل سلام في عالم من الحروب** - ستانلي ميسلر
- **عزيزي الرئيس بوش** - سيندي شيهان
- **الولايات غير المتحدة اللبنانية** - شادي خليل أبو عيسى
- **رؤساء الجمهورية اللبنانية** - شادي خليل أبو عيسى
- **أوزبكستان على عتبة القرن الواحد والعشرين** - إسلام كريموف



- **أوزبكستان على تعميق الإصلاحات الاقتصادية** - إسلام كريموف
- **العرب والإسلام في أوزبكستان** - بوريبوي أحمدوف وزاهدالله مندوروف
- **إسرائيل والصراع المستمر** - ربيع داغر
- **أبي لافرنتي بيريا** - سيرغو بيريا
- **الفهم الثوري للدين والماركسية** - زاهر الخطيب
- **الديبلوماسية على نهر الأردن** - د. منذر حدادين
- **المال إن حكم** - هنري إده
- **قراصنة أميركا الجنوبية - أبطال يتحدّون الهيمنة الأميركية** - طارق علي
- **اللوبي الإسرائيلي وسياسة أميركا الخارجية** - جون ج. ميرشايمر وستيفن م. والت
- **على خط النار** - مذكرات الرئيس الباكستاني بروزي مشرف
- **قرارات مصيرية: حياتي في دهاليز السياسة** - غيرهارد شرودر
- **امرأة في السلطة** - كارل برنستين
- **الطبقة الضاربة** - دايفد روثكوبف
- **ابنة القدر** - بنازير بوتو
- **إرث من الرماد** - تيم واينر
- **حكاية وطن** - ا.د. سري نسيبه
- **بلاكووتر - أخطر منظمة سرية في العالم** - جيريمي سكاهيل
- **حروب الأشباح** - ستيف كول
- **سنوات بلير** - ألستير كامبل وريتشارد سكوت
- **الأيادي السود** - نجاح واكيم
- **ستالين الشاب** - سيمون سيباغ مونتيفيوري
- **تعتيم** - بقلم آمي وديفيد جودمان
- **دارفور تاريخ حرب وإبادة** - جولي فلنت وألكس دي فال
- **بالعطاء لكلٍّ منّا أن يغيّر العالم** - بيل كلينتون
- **رئيس مجلس الوزراء في لبنان بعد الطائف ١٩٨٩ - ١٩٩٨** - محمود عثمان
- **تواطؤ ضد بابل** - جون كولي
- **العلاقات اللبنانية - السورية** - د. غسان عيسى
- **سوكلين وأخواتها** - غادة عيد
- **. . .؟! أساس الملك** - غادة عيد
- **الخلوي أكبر الصفقات** - غادة عيد
- **ما وراء البيت الأبيض** - جيمي كارتر
- **السلام ممكن في الأراضي المقدسة** - جيمي كارتر
- **المصالحة - الإسلام والديموقراطية والغرب** - بنازير بوتو
- **قضيّة سامة** - يوست ر. هيلترمان
- **لبنان بين ردَّة وريادة** - ألبير منصور
- **الأمن الوطني الداخلي لدولة الإمارات العربية المتحدة** - عائشة محمد المحياس
- **سجن غوانتانامو - شهادات حيّة بألسنة المعتقلين** - مايفيتش رخسانا خان
- **في قلب المملكة - حياتي في السعودية** - كارمن بن لادن
- **هكذا.. وقع التوطين**- ناديا شريم الحاج
- **إرث من الرماد - تاريخ «السي.آي.أيه.»** - تيم واينر
- **لبنان: أزمات الداخل وتدخّلات الخارج** - مركز عصام فارس للشؤون اللبنانية
- **أميركا من الداخل** - د. سمير التنير
- **سوريا ومفاوضات السلام في الشرق الأوسط** - جمال واكيم
- **إنّه بن لادن** - بقلم جين ساسون
- **ضريبة الدم** - ت. كريستيان ميلر
- **في سبيل أفريقيا** - دنيس ساسّو نِغْويسّو
- **عبد الحميد كرامي - رجل لقضية** - نصري الصايغ
- **ابنة القدر** - بنازير بوتو
- **الطبقة الخارقة** - دايڤيد ج. روثكوبف
- **بوّابة الحقيقة** - عبد السلام المجالي



- □ **الأُخطبوط الصهيوني والإدارة الأميركية** - علي وهب
- □ **الصراع على السلطة في لبنان جدل الخاص والعام** - زهوة مجذوب
- □ **أوباما.. والسّلام المستحيل** - سمير التنّير
- □ **التحية الأخيرة للرئيس بوش** - منتظر الزيدي